

في ضلال القرآن الأنعام

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
يَعْدِلُونَ (1)

مقدمة سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم

1 - طبيعة القرآن المكي وحله لمشكلات الإنسان

هذه السورة مكية . . من القرآن المكي . . القرآن الذي ظل ينزل على رسول الله [ص] ثلاثة عشر عاما كاملة , يحدثه فيها عن قضية واحدة . قضية واحدة

ولم يتجاوز القرآن المكي هذه القضية الأساسية إلى شيء مما يقوم عليها من التفرعات المتعلقة بنظام الحياة , إلا بعد أن علم الله أنها قد استوفت ما تستحقه من البيان , وأنها استقرت استقرارا مكيثا ثابتا في قلوب العصابة المختارة من بني الإنسان , التي قدر الله لها أن يقوم هذا الدين عليها ; وأن تتولى هي إنشاء النظام الواقعي الذي يتمثل فيه هذا الدين .

2 - حكمة البدء بالعقيدة وليس بالقومية أو الإجتماعية أو الأخلاقية

وأصحاب الدعوة إلى دين الله , وإقامة النظام الذي يتمثل فيه هذا الدين في واقع الحياة ; خليقون أن يقفوا طويلا أمام هذه الظاهرة الكبيرة . . ظاهرة تصدي القرآن المكي خلال ثلاثة عشر عاما . . لتقرير هذه العقيدة ; ثم وقوفه عندها لا يتجاوزها إلى شيء من تفصيلات النظام الذي يقوم عليها , والتشريحات التي تحكم المجتمع المسلم الذي يعتنقها . .

لقد شاءت حكمة الله أن تكون قضية العقيدة هي القضية التي تتصدى الدعوة لها منذ اليوم الأول للرسالة . وأن يبدأ رسول الله [ص] أولى خطواته في الدعوة , بدعوة الناس أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ; وأن يمضي في دعوته يعرف الناس بربهم الحق , ويعبدهم له دون سواه .

ولم تكن هذه - في ظاهر الأمر وفي نظرة العقل البشري المحجوب - هي أبسر السبل إلى قلوب العرب ! فلقد كانوا يعرفون من لغتهم معنى: "إله" ومعنى: "لا إله إلا الله" . . كانوا يعرفون أن الألوهية تعني الحاكمية العليا . . وكانوا يعرفون أن توحيد الألوهية وإفراد الله - سبحانه - بها , معناه نزع السلطان الذي يزاوله الكهان ومشيوخ القبائل والأمراء والحكام , وردة كله إلى الله . . السلطان على الضمائر , والسلطان على

الشعائر , والسلطان على واقعيات الحياة . . السلطان في المال , والسلطان في القضاء , والسلطان في الأرواح والأبدان . . كانوا يعلمون أن: "لا إله إلا الله" ثورة على السلطان الأرضي , الذي يغتصب أولى خصائص الألوهية , وثورة على الأوضاع التي تقوم على قاعدة من هذا الاغتصاب ; وخروج على السلطات التي تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله . . ولم يكن يغيب عن العرب - وهم يعرفون لغتهم جيدا , ويعرفون المدلول الحقيقي لدعوة: "لا إله إلا الله" - ماذا تعنيه هذه الدعوة بالنسبة لأوضاعهم ورياساتهم وسلطانهم . . ومن ثم استقبلوا هذه الدعوة - أو هذه الثورة - ذلك الاستقبال العنيف , وحاربوها تلك الحرب التي يعرفها الخاص والعام . .

فلم كانت هذه نقطة البدء في هذه الدعوة ? ولم اقتضت حكمة الله أن تبدأ بكل هذا العناء ?

لقد بعث رسول الله [ص] بهذا الدين , وأخصب بلاد العرب وأغناها ليست في أيدي العرب ; إنما هي في يد غيرهم من الأجناس !

بلاد الشام كلها في الشمال خاضعة للروم , يحكمها أمراء من العرب من قبل الرومان . وبلاد اليمن كلها في الجنوب خاضعة للفرس يحكمها أمراء من العرب من قبل الفرس . . وليس في أيدي العرب إلا الحجاز ونجد وما إليهما من الصحارى القاحلة , التي تتناثر فيها الواحات الخصبة هنا وهناك !

وكان في استطاعة محمد [ص] وهو الصادق الأمين ; الذي حكمه أشرف قريش قبل ذلك في وضع الحجر الأسود , وارتضوا حكمه , منذ خمسة عشر عاما ; والذي هو في الذؤابة من بني هاشم أعلى قريش نسبيا . . كان في استطاعته أن يثيرها قومية عربية تستهدف تجميع قبائل العرب , التي أكلتها الثارات , ومزقتها النزاعات , وتوجيهها وجهة قومية لاستخلاص أرضها المغتصبة من الإمبراطوريات المستعمرة ; الرومان في الشمال والفرس في الجنوب ; وإعلاء راية العربية والعروبة ; وإنشاء وحدة قوية في كل أرجاء الجزيرة . .

ولو دعا يومها رسول الله [ص] هذه الدعوة لاستجابت له العرب قاطبة - على الأرجح - بدلا من أن يعاني ثلاثة عشر عاما في اتجاه معارض لأهواء أصحاب السلطان في الجزيرة !

وربما قيل: إن محمدا [ص] كان خليقا بعد أن يستجيب له العرب هذه الاستجابة ; وبعد أن يولوه فيهم القيادة والسيادة ; وبعد استجماع السلطان في يديه والمجد فوق مفرقه . . أن يستخدم هذا كله في إقرار عقيدة التوحيد التي بعث بها ربه , وفي تعبيد الناس لسلطان ربه بعد أن عبدهم لسلطانه !

ولكن الله - سبحانه - وهو العليم الحكيم , لم يوجه رسوله [ص] هذا التوجيه ! إنما وجهه إلى أن يصدع بلا إله إلا الله: وأن يحتمل هو والقلة التي تستجيب له كل هذا العناء !

لماذا ? إن الله - سبحانه - لا يريد أن يعنت رسوله والمؤمنين معه . . إنما هو - سبحانه - يعلم أن ليس هذا هو الطريق . . ليس الطريق أن تخلص الأرض من يد طاغوت روماني أو طاغوت فارسي . . إلى يد طاغوت عربي . . فالطاغوت كله طاغوت ! . . إن الأرض لله , ويجب أن تخلص لله . ولا تخلص لله إلا أن ترتفع عليها راية: "لا إله إلا الله" . . وليس الطريق أن يتحرر الناس في هذه الأرض من طاغوت روماني أو طاغوت فارسي

. . إلى طاغوت عربي . . فالطاغوت كله طاغوت ! إن الناس عبيد لله وحده , ولا يكونون عبيدا لله وحده إلا أن ترتفع راية: "لا إله إلا الله" . . "لا اله الا الله" كما كان يدركها العربي العارف بمدلولات لغته: لا حاكمية إلا لله , ولا شريعة إلا من الله , ولا سلطان لأحد على أحد , لأن السلطان كله لله . . ولأن الجنسية التي يريدها الإسلام للناس هي جنسية العقيدة , التي يتساوي فيها العربي والروماني والفارسي وسائر الأجناس والألوان تحت راية الله .

وهذا هو الطريق . .

وبعث رسول الله [ص] بهذا الدين , والمجتمع العربي كأسوأ ما يكون المجتمع توزيعا للثروة والعدالة . . قلة قليلة تملك المال والتجارة ; وتتعامل بالربا فتضاعف تجارتها ومالها . وكثرة كثيرة لا تملك إلا الشظف والجوع . . والذين يملكون الثروة يملكون معها الشرف والمكانة ; وجماهير كثيفة ضائعة من المال والمجد جميعا !

وكان في استطاعة محمد [ص] أن يرفعها راية اجتماعية ; وأن يثيرها حربا على طبقة الأشراف ; وأن يطلقها دعوة تستهدف تعديل الأوضاع ورد أموال الأغنياء على الفقراء !

ولو دعا يومها رسول الله [ص] هذه الدعوة , لانقسم المجتمع العربي صفين: الكثرة الغالبة فيه مع الدعوة الجديدة , في وجه طغيان المال والشرف . بدلا من أن يقف المجتمع كله صفا في وجه: "لا إله إلا الله" التي لم يرتفع إلى أفقها في ذلك الحين إلا الأفاذ من الناس .

وربما قيل: إن محمدا [ص] كان خليقا بعد أن تستجيب له الكثرة ; وتوليه قيادها ; فيغلب بها القلة ويسلس له مقادها . . أن يستخدم مكانه يومئذ وسلطانه في إقرار عقيدة التوحيد التي بعثه بها ربه , وفي تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد أن عبدهم لسلطانه !

ولكن الله - سبحانه - وهو العليم الحكيم , لم يوجهه هذا التوجيه . .

لقد كان الله - سبحانه - يعلم أن هذا ليس هو الطريق . . كان يعلم أن العدالة الاجتماعية لا بد أن تنبثق في المجتمع من تصور اعتقادي شامل ; يرد الأمر كله لله ; ويقبل عن رضى وعن طواعية ما يقضى به الله من عدالة في التوزيع , ومن تكافل بين الجميع ; ويستقر معه في قلب الآخذ والمأخوذ منه أنه ينفذ نظاما يرضاه الله ; ويرجو على الطاعة فيه الخير والحسنى في الدنيا والآخرة سواء . فلا تمتلىء قلوب بالطمع , ولا تمتلىء قلوب بالحقد ; ولا تسير الأمور كلها بالسيف والعصا ; وبالتخويف والإرهاب ! ولا تفسد القلوب كلها وتختنق الأرواح ; كما يقع في الأوضاع التي نراها قد قامت على غير: "لا إله إلا الله" . .

وبعث رسول الله [ص] والمستوى الأخلاقي في الجزيرة العربية في الدرك الأسفل في جوانب منه شتى - إلى جانب ما كان في المجتمع من فضائل الخامة البدوية .

كان التظالم فاشيا في المجتمع , تعبر عنه حكمة الشاعر: زهير بن أبى سلمى:

(ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه % يهدم , ومن لا يظلم الناس يظلم)

ويعبر عنه القول المتعارف: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما" .

وكانت الخمر والميسر من تقاليد المجتمع الفاشية ومن مفاخرة كذلك ! يعبر عن هذه الخصلة الشعر الجاهلي بجملته . . كالذي يقوله طرفة بن العبد:

(فلولا ثلاث هن من زينة الفتى % وجدك لم أحفل متى قام عودي)

(فمنهن سبقي العاذلات بشربة % كميت متى ما تعل بالماء تزيد !)

. . . الخ

وكانت الدعارة - في صور شتى - من معالم هذا التجمع . . كالذي روته عائشة رضي الله عنها:

"إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته , فيصدقها ثم ينكحها . . والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته - إذا طهرت من طمثها - أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه . ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه . فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب . وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد ! فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع . . ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة , كلهم يصيها . فإذا حملت ووضعت , ومر عليها ليل , بعد أن تضع حملها , أرسلت إليهم , فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع , حتى يجتمعوا عندها , تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم , وقد ولدت , فهو ابنك يا فلان , تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها , ولا يستطيع أن يمتنع به الرجل . والنكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها - وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن الرايات تكون علما , فمن أرادهن دخل عليهن - فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها , جمعوا لها ودعوا القافة , ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطه , ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك" . . . [أخرجه البخاري في كتاب النكاح] .

وكان في استطاعة محمد [ص] أن يعلنها دعوة إصلاحية , تتناول تقويم الأخلاق , وتطهير المجتمع , وتركية النفوس , وتعديل القيم والموازين . .

وكان واحداً وقتها - كما يجد كل مصلح أخلاقي في أية بيئة - نفوساً طيبة , يؤذيها هذا الدنس ; وتأخذها الأريحية والنخوة لتلبية دعوة الإصلاح والتطهير . .

وربما قال قائل: إنه لو صنع رسول الله [ص] ذلك فاستجابت له - في أول الأمر - جمهرة صالحة ; تتطهر أخلاقها , وتزكو أرواحها , فتصبح أقرب إلى قبول العقيدة وحملها . . بدلا من أن تثير دعوة أن لا إله إلا الله المعارضة القوية منذ أول الطريق !

ولكن الله - سبحانه - وهو العليم الحكيم , لم يوجه رسوله [ص] إلى مثل هذا الطريق

..

لقد كان الله - سبحانه - يعلم أن ليس هذا هو الطريق ! كان يعلم أن الأخلاق لا تقوم إلا على أساس من عقيدة , تضع الموازين , وتقرر القيم وتقرر السلطة التي ترتكن إليها هذه الموازين والقيم ; كما تقرر الجزاء الذي تملكه هذه السلطة وتوقعه على الملتزمين والمخالفين . وأنه قبل تقرير تلك العقيدة تظل القيم كلها متأرجحة ; وتظل الأخلاق التي تقوم عليها متأرجحة كذلك ; بلا ضابط , وبلا سلطان , وبلا جزاء !

فلما تقررت العقيدة - بعد الجهد الشاق - وتقررت السلطة التي تتركز إليها هذه العقيدة . . لما عرف الناس ربهم وعبده وحده . . لما تحرر الناس من سلطان العبيد , ومن سلطان الشهوات سواء . . لما تقررت في القلوب: "لا إله إلا الله" . . صنع الله بها وبأهلها كل شيء مما يقترحه المقترحون . .

تطهرت الأرض من الرومان والفرس . . لا ليتقرر فيها سلطان العرب . . ولكن ليتقرر فيها سلطان الله . . لقد تطهرت من الطاغوت كله: رومانيا وفارسيا وعربيا على السواء .

وتطهر المجتمع من الظلم الاجتماعي بجملمته . وقام النظام الإسلامي يعدل بعدل الله , ويزن بميزان الله ويرفع راية العدالة الاجتماعية باسم الله وحده ; ويسمياها راية الإسلام , لا يقرن إليها اسما آخر ; ويكتب عليها: "لا إله إلا الله" !

وتطهرت النفوس والأخلاق , وزكت القلوب والأرواح ; دون أن يحتاج الأمر إلى الحدود والتعازير التي شرعها الله - إلا في الندرة النادرة - لأن الرقابة قامت هناك في الضمائر ; ولأن الطمع في رضى الله وثوابه , والحياء والخوف من غضبه وعقابه قد قامت كلها مقام الرقابة ومقام العقوبات . .

وارتفعت البشرية في نظامها , وفي أخلاقها , وفي حياتها كلها , إلى القمة السامقة التي لم ترتفع إليها من قبل قط ; والتي لم ترتفع إليها من بعد إلا في ظل الإسلام . .

ولقد تم هذا كله لأن الذين أقاموا هذا الدين في صورة دولة ونظام وشرائع وأحكام ; كانوا قد أقاموا هذا الدين من قبل في ضمائرهم وفي حياتهم , في صورة عقيدة وخلق وعبادة وسلوك . وكانوا قد وعدوا على إقامة هذا الدين وعدا واحدا , لا يدخل فيه الغلب والسلطان . . ولا حتى لهذا الدين على أيديهم . . وعدا واحدا لا يتعلق بشيء في هذه الدنيا . . وعدا واحدا هو الجنة . . هذا كل ما وعدوه على الجهاد المضني , والابتلاء الشاق , والمضي في الدعوة , ومواجهة الجاهلية بالأمر الذي يكرهه أصحاب السلطان , في كل زمان وفي كل مكان , وهو: "لا إله إلا الله" !

فلما أن ابتلاههم الله فصبروا ; ولما أن فرغت نفوسهم من حظ نفوسهم ; ولما أن علم الله منهم أنهم لا ينتظرون جزاء في هذه الأرض - كائنا ما كان هذا الجزاء ولو كان هو انتصار هذه الدعوة على أيديهم , وقيام هذا الدين في الأرض بجهدهم - ولما لم يعد في نفوسهم اعتزاز بجنس ولا قوم , ولا اعتزاز بوطن ولا أرض . ولا اعتزاز بعشيرة ولا بيت .

لما أن علم الله منهم ذلك كله , علم أنهم قد أصبحوا - إذن - أمناء على هذه الأمانة الكبرى . أمناء على العقيدة التي يتفرد فيها الله سبحانه بالحاكمة في القلوب والضمائر وفي السلوك والشعائر , وفي الأرواح والأموال , وفي الأوضاع والأحوال . . وأمناء على السلطان الذي يوضع في أيديهم ليقوموا به على شريعة الله ينفذونها , وعلى عدل الله يقيمونه , دون أن يكون لهم من ذلك السلطان شيء لأنفسهم ولا لعشيرتهم ولا لقومهم ولا لجنسهم ; إنما يكون السلطان الذي في أيديهم لله ولدينه وشريعته , لأنهم يعلمون أنه من الله , هو الذي أتاهم إياه .

ولم يكن شيء من هذا المنهج المبارك ليتحقق على هذا المستوى الرفيع , إلا أن تبدأ الدعوة ذلك البدء , وإلا أن ترفع الدعوة هذه الراية وحدها . . راية لا إله إلا الله . . ولا

ترفع معها سواها . . وإلا أن تسلك الدعوة هذا الطريق الوعر الشاق في ظاهره ;
المبارك الميسر في حقيقته .

وما كان هذا المنهج المبارك ليخلص لله , لو أن الدعوة بدأت خطواتها الأولى دعوة
قومية , أو دعوة اجتماعية , أو دعوة أخلاقية . . أو رفعت أي شعار إلى جانب شعارها
الواحد: "لا إله إلا الله" . .

3 - لماذا بدأ القرآن بالعقيدة ثم بالتشريعات ? وطريق الدعوة

ذلك شأن تصدي القرآن المكي كله لتقرير: "لا إله إلا الله" في القلوب والعقول , واختيار
هذا الطريق - على مشقته في الظاهر - وعدم اختيار السبل الجانبية الأخرى ; والإصرار
على هذا الطريق . .

فأما شأن هذا القرآن في تناول قضية الاعتقاد وحدها , دون التطرق إلى تفصيلات
النظام الذي يقوم عليها , والشرائع التي تنظم المعاملات فيها . . فذلك كذلك مما ينبغي
أن يقف أمامه أصحاب الدعوة لهذا الدين وقفة واعية . .

إن طبيعة هذا الدين هي التي قضت بهذا . . فهو دين يقوم كله على قاعدة الألوهية
الواحدة . . كل تنظيماته وكل تشريعاته تنبثق من هذا الأصل الكبير . . وكما أن الشجرة
الضخمة الباسقة الوارفة المديدة الظلال المتشابكة الأغصان , الضاربة في الهواء . . لا
بد لها أن تضرب جذورها في التربة على أعماق بعيدة , وفي مساحات واسعة ; تناسب
ضخامتها وامتدادها في الهواء . . فكذلك هذا الدين . . إن نظامه يتناول الحياة كلها ;
ويتولى شؤون البشرية كبيرها وصغيرها ; وينظم حياة الإنسان لا في هذه الحياة الدنيا
وحدها , ولكن كذلك في الدار الآخرة ; ولا في عالم الشهادة وحده ولكن كذلك في عالم
الغيب المكنون عنها ; ولا في المعاملات الظاهرة المادية , ولكن في أعماق الضمير
ودنيا السرائر والنوايا . . فهو مؤسسة ضخمة هائلة شاسعة مترامية . . ولا بد له إذن من
جذور وأعماق بهذه السعة والضخامة والعمق والانتشار أيضا . .

هذا جانب من سر هذا الدين وطبيعته ; يحدد منهجه في بناء نفسه وفي امتداده ; ويجعل
بناء العقيدة وتمكينها , وشمول هذه العقيدة واستغراقها لشعاب النفس كلها . . ضرورة
من ضرورات النشأة الصحيحة , وضمانا من ضمانات الاحتمال والتناسق بين الظاهر من
الشجرة في الهواء , والضارب من جذورها في الأعماق . .

ومتى استقرت عقيدة: "لا إله إلا الله" في أعماقها الغائرة البعيدة , استقر معها في
نفس الوقت النظام الذي تتمثل فيه: "لا إله إلا الله" ; وتعين أنه النظام الوحيد الذي
ترتضيه النفوس التي استقرت فيها العقيدة . . واستسلمت هذه النفوس ابتداء لهذا
النظام حتى قبل أن تعرض عليها تفصيلاته , وقبل أن تعرض عليها تشريعاته .
فالاستسلام ابتداء هو مقتضى الإيمان . . ويمثل هذا الاستسلام تلقت النفوس تنظيمات
الإسلام وتشريعاته بالرضى والقبول , لا تعترض على شيء منه فور صدوره إليها ولا
تتلكأ في تنفيذه بمجرد تلقيها له . وهكذا أبطلت الخمر , وأبطلت الربا , وأبطلت الميسر ,
وأبطلت العادات الجاهلية كلها , أبطلت آيات من القرآن , أو كلمات من رسول الله
[ص] بينما الحكومات الأرضية تجهد في شيء من هذا كله بقوانينها وتشريعاتها ونظمها
وأوضاعها , وجندها وسلطانها , ودعايتها وإعلامها . . فلا تبلغ إلا أن تضبط الظاهر من
المخالفات ; بينما المجتمع يعج بالمنهيات والمنكرات !

وجانب آخر من طبيعة هذا الدين يتجلى في هذا المنهج القويم . . إن هذا الدين منهج عملي حركي جاد . . جاء ليحكم الحياة في واقعها ; ويواجه هذا الواقع ليقتضي فيه بأمره . . يقره أو يعدله أو يغيره من أساسه . . ومن ثم فهو لا يشرع إلا لحالات واقعة فعلا , في مجتمع يعترف ابتداءً بحاكمية الله وحده .

إنه ليس نظرية تتعامل مع الفروض ! إنه منهج يتعامل مع الواقع ! فلا بد أولاً أن يقوم المجتمع المسلم الذي يقر عقيدة أن لا إله إلا الله , وأن الحاكمية ليست إلا لله ; ويرفض أن يقر بالحاكمية لأحد من دون الله ; ويرفض شرعية أي وضع لا يقوم على هذه القاعدة . .

وحين يقوم هذا المجتمع فعلا , تكون له حياة واقعية , تحتاج إلى تنظيم وإلى تشريع . . وعندئذ فقط يبدأ هذا الدين في تقرير النظم وفي سن الشرائع . . لقوم مستسلمين أصلاً للنظم والشرائع , رافضين ابتداءً لغيرها من النظم والشرائع . .

ولا بد أن يكون للمؤمنين بهذه العقيدة من السلطان على أنفسهم وعلى مجتمعهم ما يكفل تنفيذ النظام والشرائع في هذا المجتمع ; حتى تكون للنظام هيئته ويكون للشرعية جديتها . . فوق ما يكون لحياة هذا المجتمع من الواقعية ما يقتضي الأنظمة والشرائع من فورها .

والمسلمون في مكة لم يكن لهم سلطان على أنفسهم ولا على مجتمعهم . وما كانت لهم حياة واقعية مستقلة هم الذين ينظمونها بشريعة الله . . ومن ثم لم ينزل الله في هذه الفترة تنظيمات وشرائع ; وإنما نزل لهم عقيدة , وخلقاً منبثقا من العقيدة بعد استقرارها في الأعماق البعيدة . . فلما صارت لهم دولة في المدينة ذات سلطان تنزلت عليهم الشرائع ; وتقرر لهم النظام ; الذي يواجه حاجات المجتمع المسلم الواقعية ; والذي تكفل له الدولة بسلطانها الجدية والنفاذ . .

ولم يشأ الله أن ينزل عليهم النظام والشرائع في مكة , ليختزنوها جاهزة , حتى تطبق بمجرد قيام الدولة في المدينة ! إن هذه ليست طبيعة هذا الدين ! إنه أشد واقعية من هذا وأكثر جدية ! إنه لا يفترض المشكلات ليفترض لها حلولاً . . إنما هو يواجه الواقع بحجمه وشكله وملابساته لصوغه في قالبه الخاص , وفق حجمه وشكله وملابساته . .

والذين يريدون من الإسلام اليوم أن يصوغ قوالب نظام , وأن يصوغ تشريعات حياة . . بينما ليس على وجه الأرض مجتمع قد قرر فعلاً تحكيم شريعة الله وحدها , ورفض كل شريعة سواها , مع تملكه للسلطة التي تفرض هذا وتنفذه . . الذين يريدون من الإسلام ذلك لا يدركون طبيعة هذا الدين , ولا كيف يعمل في الحياة ; كما يريد له الله . .

إنهم يريدون منه أن يغير طبيعته ومنهجه وتاريخه ليشابه أنظمة بشرية , ومناهج بشرية . وبحاولون أن يستعجلوه عن طريقه وخطواته ليأتي رغبات وقتية في نفوسهم إنما تنشئها الهزيمة الداخلية في أرواحهم تجاه أنظمة بشرية صغيرة . . إنهم يريدون منه أن يصوغ نفسه في قالب فروض , تواجه مستقبلاً غير موجود . . والله يريد لهذا الدين أن يكون كما أراد . . عقيدة تملأ القلب , وتفرض سلطانها على الضمير . عقيدة مقتضاها ألا يخضع الناس إلا لله , ولا يتلقوا الشرائع إلا من الله . وبعد أن يوجد الناس الذين هذه عقيدتهم , ويصبح لهم السلطان في مجتمعهم , تبدأ التشريعات لمواجهة حاجاتهم الواقعية , وتنظيم حياتهم الواقعية كذلك .

كذلك يجب أن يكون مفهوما لأصحاب الدعوة الإسلامية , أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين , يجب أن يدعوهم أولا إلى اعتناق العقيدة - حتى ولو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين ! وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون - يجب أن يعلموهم أن الإسلام هو أولا إقرار عقيدة: لا إله إلا الله بمدلولها الحقيقي وهو رد الحاكمية لله في أمرهم كله , وطرد المعتدين على سلطان الله بادعاء هذا الحق لأنفسهم . . إقرارها في ضمائرهم وشعائرهم , وإقرارها في أوضاعهم وواقعهم . .

ولتكن هذه القضية هي أساس دعوة الناس إلى الإسلام كما كانت هي أساس دعوتهم إلى الإسلام أول مرة . . هذه الدعوة التي تكفل بها القرآن المكي طوال ثلاثة عشر عاما كاملة . .

فإذا دخل في هذا الدين - بمفهومه هذا الأصيل - عصبة من الناس , فهذه العصبة هي التي تصلح لمزاولة النظام الإسلام في حياتها الاجتماعية ; لأنها قررت بينها وبين نفسها أن تقوم حياتها على هذا الأساس ; وألا تحكم في حياتها كلها إلا الله .

وحيث يقوم هذا المجتمع بالفعل يبدأ عرض أسس النظام الإسلامي عليه ; كما يأخذ هذا المجتمع نفسه في سن التشريعات التي تقتضيها حياته الواقعية , في إطار الأسس العامة للنظام الإسلامي . . فهذا هو الترتيب الصحيح لخطوات المنهج الإسلامي الواقعي العملي الجاد . .

ولقد يخيل إلى بعض المخلصين المتعجلين , ممن لا يتدبرون طبيعة هذا الدين , وطبيعة منهجه الرباني القويم , المؤسس على حكمه العليم الحكيم , وعلمه بطبائع البشر وحاجات الحياة . . نقول لقد يخيل لبعض هؤلاء أن عرض أسس النظام الإسلامي - بل التشريعات الإسلامية كذلك - على الناس مما يبسر لهم طريق الدعوة , ويحبب الناس في هذا الدين !

وهذا وهم تنشئه العجلة ! وهم كالذي كان يقترحه المقترحون: أن تقوم دعوة رسول الله [ص] - في أولها تحت راية قومية , أو اجتماعية , أو أخلاقية , تيسيرا للطريق !

إن النفوس يجب أن تخلص أولا لله , وتعلن عبوديتها له , بقبول شرعه وحده ورفض كل شر غيره . . من ناحية المبدأ . . قبل أن تخاطب بأي تفصيل عن ذلك الشرع يرغبها فيه !

إن الرغبة يجب أن تنبثق من الرغبة في إخلاص العبودية لله , والتحرر من سلطان سواه . . لا من أن النظام المعروض عليها . . في ذاته . . خير مما لديها في كذا وكذا على وجه التفصيل .

إن نظام الله خير في ذاته , لأنه من شرع الله . ولن يكون شرع العبيد يوما كشرع الله . ولكن هذه ليست قاعدة الدعوة . . إن قاعدة الدعوة أن قبول شرع الله وحدة ورفض كل شر غيره هو ذاته الإسلام . وليس للإسلام مدلول سواه . فمن رغب في الإسلام فقد فصل في هذه القضية ولم يعد بحاجة إلى ترغيبه بجمال النظام وأفضليته . . فهذه إحدى بديهيات الإيمان !

وبعد فلا بد أن نقول كيف عالج القرآن المكي قضية العقيدة في خلال الثلاثة عشر عاما .
إنه لم يعرضها في صورة "نظرية" ! ولم يعرضها في صورة "لاهوت" ولم يعرضها في
صورة جدل كلامي كالذي زاوله فيما بعد ما سمي بـ "علم التوحيد" أو "علم الكلام" !

كلا . . لقد كان القرآن الكريم يخاطب فطرة "الإنسان" بما في وجوده هو وبما في
الوجود من حوله من دلائل وإيحاءات . . كان يستنقذ فطرته من الركام ; ويخلص أجهزة
الاستقبال الفطرية مما ران عليها وعطل وظائفها ; ويفتح منافذ الفطرة لتتلقى
الموحيات المؤثرة وتستجيب لها . . والسورة التي بين أيدينا نموذج كامل من هذا المنهج
المتفرد وستحدث عن خصائصها بعد قليل . .

هذا بصفة عامة . وبصفة خاصة كان القرآن يخوض بهذه العقيدة معركة حية واقعية . .
كان يخوض بها معركة مع الركام المعطل للفطرة . . في نفوس آدمية حاضرة واقعة . .
ومن ثم لم يكن شكل "النظرية" هو الشكل الذي يناسب هذا الواقع الحاضر . إنما كان
هو شكل المواجهة الحية للعقائد والسدود والحواجز والمعوقات النفسية والواقعية في
النفوس الحاضرة الحية . . ولم يكن الجدل الذهني الذي انتهجه - في العصور المتأخرة -
علم التوحيد , هو الشكل المناسب كذلك . . فلقد كان القرآن يواجه واقعا بشريا كاملا
بكل ملامساته الحية ; ويخاطب الكينونة البشرية بجمليتها في خصم هذا الواقع . . وكذلك
لم يكن "اللاهوت" هو الشكل المناسب . فإن العقيدة الإسلامية ولو أنها عقيدة , إلا أنها
عقيدة تمثل منهج حياة واقعية للتطبيق العملي ; ولا تقع في الزاوية الضيقة التي تقع
فيها الأبحاث اللاهوتية النظرية !

كان القرآن وهو يبني العقيدة في ضمائر الجماعة المسلمة يخوض بهذه الجماعة
المسلمة معركة ضخمة مع الجاهلية من حولها ; كما يخوض بها معركة ضخمة مع
رواسب الجاهلية في ضميرها وأخلاقها وواقعها . . ومن هذه الملامسات ظهر بناء
العقيدة , لا في صورة نظرية , ولا في صورة لاهوت ولا في صورة جدل كلامي . . ولكن
في صورة تكوين تنظيمي مباشر للحياة , ممثل في الجماعة المسلمة ذاتها . وكان نمو
الجماعة المسلمة في تصورها الاعتقادي , وفي سلوكها الواقعي وفق هذا التصور , وفي
دربتها على مواجهة الجاهلية كمنظمة محاربة لها . . كان هذا النمو ذاته ممثلا تماما لنمو
البناء العقيدي , وترجمة حية له . . وهذا هو منهج الإسلام الذي يمثل طبيعته كذلك . .

وإنه لمن الضروري لأصحاب الدعوة الإسلامية أن يدركوا طبيعة هذا الدين ومنهجه في
الحركة على هذا النحو الذي بيناه . . ذلك ليعلموا أن مرحلة بناء العقيدة التي طالت في
العهد المكي على هذا النحو , لم تكن منعزلة عن مرحلة التكوين العملي للحركة
الإسلامية , والبناء الواقعي للجماعة المسلمة . . لم تكن مرحلة تلقي "النظرية"
ودراستها ! ولكنها كانت مرحلة البناء القاعدي للعقيدة وللجماعة وللحركة وللوجود
الفعلي معا . . وهكذا ينبغي أن تكون كلما أريد إعادة هذا البناء مرة أخرى . .

هكذا ينبغي أن تطول مرحلة بناء العقيدة ; وأن تتم خطواتها على مهل وفي عمق وثبتت
. . وهكذا ينبغي ألا تكون مرحلة بناء العقيدة مرحلة دراسة نظرية للعقيدة ; ولكن
مرحلة ترجمة لهذه العقيدة في صورة حية , متمثلة في ضمائر متكيفة بهذه العقيدة ;
ومتتمثلة في بناء جماعي يعبر نموه عن نمو العقيدة ذاتها ; ومتمثلة في حركة واقعية
تواجه الجاهلية وتخوض معها المعركة في الضمير وفي الواقع كذلك ; لتمثل العقيدة
حية وتنمو نمو حيا في خصم المعركة .

وخطأ أي خطأ - بالقياس إلى الإسلام - أن تتبلور النظرية في صورة نظرية مجردة للدراسة النظرية . . . المعرفية الثقافية . . . بل خطر أي خطر كذلك . . .

إن القرآن لم يقض ثلاثة عشر عاما كاملة في بناء العقيدة بسبب أنه كان يتنزل للمرة الأولى . . . كلا! فلو أراد الله لأنزل هذا القرآن جملة واحدة ; ثم ترك أصحابه يدرسونه ثلاثة عشر عاما أو أكثر أو أقل , حتى يستوعبوا "النظرية الإسلامية" !

ولكن الله - سبحانه - كان يريد أمراً آخر . كان يريد منها معينا متفردا . كان يريد بناء الجماعة وبناء الحركة وبناء العقيدة في وقت واحد . كان يريد أن يبني الجماعة والحركة بالعقيدة , وأن يبني العقيدة بالجماعة والحركة ! كان يريد أن تكون العقيدة هي واقع الجماعة الفعلي , وأن يكون واقع الجماعة الحركي الفعلي هو صورة العقيدة . . . وكان الله - سبحانه - يعلم أن بناء النفوس والجماعات لا يتم بين يوم وليلة . . . فلم يكن بد أن يستغرق بناء العقيدة المدى الذي يستغرقه بناء النفوس والجماعة . . . حتى إذا نضج التكوين العقيدي كانت الجماعة هي المظهر الواقعي لهذا النضج . . .

هذه هي طبيعة هذا الدين - كما تستخلص من منهج القرآن المكي - ولا بد أن نعرف طبيعته هذه ; ولا نحاول أن نغيرها تلبية لرغبات معجلة مهزومة أمام أشكال النظريات البشرية ! فهو بهذه الطبيعة صنع الأمة المسلمة أول مرة , وبها يصنع الأمة المسلمة في كل مرة يراد أن يعاد إخراج الأمة المسلمة للوجود , كما أخرجها الله أول مرة . . .

يجب أن ندرك خطأ المحاولة , وخطرها معا , في تحويل العقيدة الإسلامية الحية التي يجب أن تتمثل في واقع تام حي متحرك , إلى "نظرية" للدراسة والمعرفة الثقافية لمجرد أننا نريد أن نواجه "النظريات" البشرية الهزيلة بنظرية إسلامية !

إن العقيدة الإسلامية يجب أن تتمثل في نفوس حية , وفي تنظيم واقعي , وفي حركة تتفاعل مع الجاهلية من حولها , كما تتفاعل مع الجاهلية الراسبة في نفوس أصحابها - بوصفهم كانوا من أهل الجاهلية قبل أن تدخل العقيدة إلى نفوسهم وتنتزعها من الوسط الجاهلي . وهي في صورتها هذه تشغل من القلوب والعقول ومن الحياة أيضا مساحة أضخم وأوسع وأعمق مما تشغله "النظرية" ; وتشمل - فيما تشمل - مساحة النظرية ومادتها . ولكنها لا تقتصر عليها .

إن التصور الإسلامي للألوهية وللوجود الكوني وللحياة وللإنسان , تصور شامل كامل . ولكنه كذلك تصور واقعي إيجابي . وهو يكره - بطبيعته - أن يتمثل في مجرد تصور ذهني معرفي . لأن هذا يخالف طبيعته وغايته . ويجب أن يتمثل في أناسي , وفي تنظيم حي , وفي حركة واقعية . . . وطريقته في التكون أن ينمو من خلال الأناسي والتنظيم الحي والحركة الواقعية ; حتى يكتمل نظريا في نفس الوقت الذي يكتمل فيه واقعا ; ولا ينفصل في صورة نظرية ; بل يظل ممثلا في الصورة الواقعية . . .

وكل نمو نظري يسبق النمو الحركي الواقعي , ولا يتمثل من خلاله , هو خطأ وخطر كذلك بالقياس إلى طبيعة هذا الدين , وغايته , وطريقة تركيبه الذاتي .

والله سبحانه يقول:

(وقرآنا فرقناه , لتقرأه على الناس على مكث , ونزلناه تنزيلاً) . . .

فالفرق مقصود . والمكث مقصود كذلك . . ل يتم البناء التكويني المؤلف من عقيدة في صورة "منظمة حية " لا في صورة "نظرية معرفية " !

يجب أن يعرف أصحاب هذا الدين جيدا , أنه كما أن هذا الدين دين رباني , فإن منهجه في العمل منهج رباني كذلك , متواف مع طبيعته . وأنه لا يمكن فصل حقيقة هذا الدين عن منهجه في العمل .

ويجب أن يعرفوا كذلك أن هذا الدين كما أنه جاء ليغير التصور الاعتقادي - ومن ثم يغير الواقع الحيوي - فكذلك هو قد جاء ليغير المنهج الفكري والحركي الذي يبني به التصور الاعتقادي ويغير به الواقع الحيوي . . جاء لبنني عقيدة وهو يبني أمة . . ثم لينشئ منهج تفكير خاصا به بنفس الدرجة التي ينشئ بها تصورا اعتقاديا وواقعا حيويا . ولا انفصال بين منهج تفكيره الخاص وتصوره الاعتقادي وبنائه الحيوي , فكلها حزمة واحدة .

فإذا عرفنا منهجه في العمل على النحو الذي بيناه , فلنعرف أن هذا المنهج أصيل ; وليس منهج مرحلة ولا بيئة ولا ظروف خاصة بنشأة الجماعة المسلمة الأولى . إنما هو المنهج الذي لا يقوم بناء هذا الدين إلا به .

إنه لم تكن وظيفة الإسلام أن يغير عقيدة الناس وواقعهم فحسب . ولكن كانت وظيفته أن يغير طريقة تفكيرهم , وتناولهم للتصور وللواقع . ذلك أنه منهج رباني مخالف في طبيعته كلها لمناهج البشر القاصرة الهزيلة .

ونحن لا نملك أن نصل إلى التصور الرباني والحياة الربانية إلا عن طريق منهج تفكير رباني كذلك . منهج أراد الله أن يقيم منهج الناس في التفكير على أساسه ليصح تصورهم وتكوينهم الحيوي .

ونحن حين نريد من الإسلام أن يجعل من نفسه نظرية للدراسة نخرج عن طبيعة المنهج الرباني للتكوين ; وعن طبيعة المنهج الرباني للتفكير . ونخضع الإسلام لطرائق التفكير البشرية ! كأنما المنهج الرباني أدنى من المناهج البشرية ! وكأنما نريد لترتقي بمنهج الله في التصور والحركة ليوازي مناهج العبيد !

والأمر من هذه الناحية يكون خطيرا . والهزيمة تكون قاتلة !

إن وظيفة المنهج الرباني أن يعطينا - نحن أصحاب الدعوة الإسلامية - منهجا خاصا للتفكير نبرأ به من رواسب مناهج التفكير الجاهلية السائدة في الأرض ; والتي تضغط على عقولنا وتترسب في ثقافتنا . . فإذا نحن أردنا أن نتناول هذا الدين بمنهج تفكير غريب عن طبيعته من مناهج التفكير الجاهلية الغالبة , كنا قد أبطلنا وظيفته التي جاء ليؤديها للبشرية ; وحرمنا أنفسنا فرصة الخلاص من ضغط المنهج الجاهلي السائد في عصرنا , وفرصة الخلاص من رواسبه في عقولنا وتكويننا .

والأمر من هذه الناحية كذلك يكون خطيرا , والخسارة تكون قاتلة . .

إن منهج التفكير والحركة في بناء الإسلام , لا يقل قيمة ولا ضرورة عن منهج التصور الاعتقادي والنظام الحيوي ; ولا ينفصل عنه كذلك . . ومهما يخطر لنا أن نقدم ذلك التصور وهذا النظام في صورة تعبيرية , فيجب ألا يغيب عن بالنا أن هذا لا ينشئ "الإسلام" في الأرض في صورة حركة واقعية , بل يجب ألا يغيب عن بالنا أنه لن يفيد من تقديمنا الإسلام في هذه الصورة إلا المشتغلون فعلا بحركة إسلامية واقعية . وأن

قصارى ما يفيد هؤلاء من تقديم الإسلام لهم في هذه الصورة هو أن يتفاعلوا معها
بالقدر الذي وصلوا إليه هم فعلا في أثناء الحركة !

ومرة أخرى أكرر أن التصور الاعتقادي يجب أن يتمثل من فوره في تجمع حركي ; وأن
يكون التجمع الحركي في الوقت ذاته تمثيلا صحيحا وترجمة حقيقية للتصور الاعتقادي .

ومرة أخرى أكرر كذلك أن هذا هو المنهج الطبيعي للإسلام الرباني , وأنه منهج أعلى
وأقوم وأشد فاعلية وأكثر انطباقا على الفطرة البشرية من منهج صياغة النظريات
كاملة مستقلة وتقديمها في الصورة الذهنية الباردة للناس , قبل أن يكون هؤلاء الناس
مشتغلين بالفعل بحركة واقعية ; وقبل أن يكونوا هم أنفسهم ترجمة تنمو خطوة خطوة
لتمثيل ذلك المفهوم النظري .

وإذا صح هذا في أصل النظرية فهو أصح - بطبيعة الحال - فيما يختص بتقديم أسس
النظام الذي يتمثل فيه التصور الإسلامي , أو تقديم التشريعات المفصلة لهذا النظام .

إن الجاهلية التي حولنا كما أنها تضغط على أعصاب بعض المخلصين من أصحاب الدعوة
الإسلامية فتجعلهم يستعجلون خطوات المنهج الإسلامي , كذلك هي تتعمد أحيانا أن
تخرجهم فتسألهم: أين تفصيلات نظامكم الذي تدعون إليه ? وماذا أعددتم لتنفيذه من
بحوث ومن تفصيلات ومن مشروعات ? وهي في هذا تتعمد أن تعجلهم عن منهجهم ,
وأن تجعلهم يتجاوزون مرحلة بناء العقيدة ; وأن يحولوا منهجهم الرباني عن طبيعته ,
التي تتبلور فيها النظرية من خلال الحركة , ويتحدد فيها النظام من خلال الممارسة ,
وتسن فيها التشريعات في ثنایا مواجهة الحياة الواقعية بمشكلاتها الحقيقية . .

ومن واجب أصحاب الدعوة الإسلامية ألا يستجيبوا للمناورة ! من واجبهم أن يرفضوا
إملاء منهج غريب على حركتهم وعلى دينهم ! من واجبهم ألا يستخفهم من لا يوقنون !

ومن واجبهم أن يكشفوا مناورة الإحراج وأن يستعلوا عليها ; وأن يتحركوا بدينهم وفق
منهج هذا الدين في الحركة . فهذا من أسرار قوته , وهذا هو مصدر قوتهم كذلك .

إن المنهج في الإسلام يساوي الحقيقة ; ولا انفصام بينهما . . وكل منهج غريب لا يمكن
أن يحقق الإسلام في النهاية . والمناهج الغربية الغربية يمكن أن تحقق أنظمتها البشرية
; ولكنها لا يمكن أن تحقق نظامنا الرباني . . فالالتزام بالمنهج ضروري كالتزام العقيدة
وكالتزام النظام في كل حركة إسلامية . لا في الحركة الإسلامية الأولى كما يظن بعض
الناس !

هذه هي كلمتي الأخيرة . . وإنني لأرجو أن أكون بهذا البيان لطبيعة القرآن المكي ,
ولطبيعة المنهج الرباني المتمثل فيه , قد بلغت ; وأن يعرف أصحاب الدعوة الإسلامية
طبيعة منهجهم , وثقوا به , ويطمئنوا إليه ; ويعلموا أن ما عندهم خير , وأنهم هم
الأعلون . . (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) . . صدق الله العظيم . .

ونمضي بعد ذلك لمواجهة السورة .

5 - موضوع سورة الأنعام وطريقتها في عرضه

هذه السورة - وهي أولى السور المكية التي نتعرض لها هنا في سياق هذه الضلال -
نموذج كامل للقرآن المكي الذي تحدثنا عن طبيعته وخصائصه ومنهجه في الصفحات

السابقة ; وهي تمثل طبيعة هذا القرآن وخصائصه ومنهجه , في موضوعها الأساسي , وفي منهج تناول , وفي طريقة العرض سواء . . ذلك مع احتفاظها " بشخصيتها " الخاصة ; وفق الظاهرة الملحوظة في كل سور القرآن ; والتي لا تخطئها الملاحظة البصيرة في أية سورة . . فلكل سورة شخصيتها , وملامحها , ومحورها , وطريقة عرضها لموضوعها الرئيسي ; والمؤثرات الموحية المصاحبة للعرض ; والصور والظلال والجو الذي يظللها ; والعبارات الخاصة التي تتكرر فيها ; وتكون أشبه باللوازم المطردة فيها . . . حتى وهي تتناول موضوعا واحدا أو موضوعات متقاربة . فليس الموضوع هو الذي يرسم شخصية السورة ; ولكنه هذه الملامح والسمات الخاصة بها !

وهذه السورة - مع ذلك - تعالج موضوعها الأساسي بصورة فريدة . . إنها في كل لمحة منها وفي كل موقف , وفي كل مشهد , تمثل " الروعة الباهرة " . . الروعة التي تبده النفس , وتشده الحس , وتبهر النفس أيضا ; وهو يلاحق مشاهدتها وإيقاعها وموحياتها مبهورا !

نعم ! هذه حقيقة ! حقيقة أجدها في نفسي وحسي وأنا أتابع سياق السورة ومشاهدتها وإيقاعاتها . . وما أظن بشرا ذا قلب لا يجد منها لونا من هذا الذي أجد . . إن الروعة فيها تبلغ فعلا حد البهر . حتى لا يملك القلب أن يتابعها إلا مبهورا مبدوها !

إنها - في جملتها - تعرض " حقيقة الألوهية " . . تعرضها في مجال الكون والحياة , كما تعرضها في مجال النفس والضمير , وتعرضها في مجاهيل هذا الكون المشهود , كما تعرضها في مجاهيل ذلك الغيب المكنون . . وتعرضها في مشاهد النشأة الكونية والنشأة الحيوية والنشأة الإنسانية , كما تعرضها في مصارع الغابرين واستخلاف المستخلفين . . وتعرضها في مشاهد الفطرة وهي تواجه الكون , وتواجه الأحداث , وتواجه النعماء والضراء , كما تعرضها في مظاهر القدرة الإلهية والهيمنة في حياة البشر الظاهرة والمستكنة , وفي أحوالهم الواقعة والمتوقعة . . وأخيرا تعرضها في مشاهد القيامة , ومواقف الخلائق وهي موقوفة على ربها الخالق . .

إن موضوعها الذي تعالجه من مبدئها إلى منتهاها هو موضوع العقيدة , بكل مقوماتها وبكل مكوناتها . وهي تأخذ بمجامع النفس البشرية , وتطوف بها في الوجود كله , وراء بنايع العقيدة وموحياتها المستترة والظاهرة في هذا الوجود الكبير . . إنها تطوف بالنفس البشرية في ملكوت السماوات والأرض , تلحظ فيها الظلمات والنور , وترقب الشمس والقمر والنجوم . وتسرح في الجنات المعروشات وغير المعروشات , والمياه الهاطلة عليها والجارية فيها ; وتقف بها على مصارع الأمم الخالية , وأثارها البائدة والباقية . ثم تسبح بها في ظلمات البر والبحر , وأسرار الغيب والنفس , والحي يخرج من الميت والميت يخرج من الحي , والحببة المستكنة في ظلمات الأرض , والنبطفة المستكنة في ظلمات الرحم . ثم تموج بالجن والإنس , والطير والوحش , والأولين والآخرين , والموتى والأحياء , والحفظة على النفس بالليل والنهار . .

إنه الحشد الكوني الذي يزحم أقطار النفس , وأقطار الحس . . ثم إنها للسمات المبدعة المحيية , التي تنتفض بعدها المشاهد والمعاني أحياء في الحس والخيال . . وإذا كل مكرور مألوف من المشاهد والمشاعر , جديد نابض , كأنما تتلقاه النفس أول مرة ; وكأنما لم يطلع عليه من قبل ضمير إنسان !

وهي تشبه في سياقها المتدافع بهذه المشاهد والمواقف والموحيات والإيقاعات والصور والظلال مجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة . ما تكاد الموجة تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية ملاحقة لها , متشابكة معها ; في المجرى المتصل المتدفق !

وهي في كل موجة من هذه الموجات المتدافعة المتلاحقة المتشابكة , تبلغ حد " البروعة الباهرة " التي وصفنا - مع تناسق منهج العرض في شتى المشاهد كما سنبين - وتأخذ على النفس أقطارها بالبروعة الباهرة , وبالحيوية الدافقة , وبالإيقاع التصويري والتعبيري والموسيقى وبالتجمع والاحتشاد ومواجهة النفس من كل درب ومن كل نافذة !

ونحن - سلفا - على يقين أننا لسنا بالبالغين شيئاً في نقل إيقاعات هذه السورة إلى أي قلب إلا بأن ندع السورة ذاتها تنطلق بسياقها الذاتي , وإيقاعها الذاتي , إلى هذا القلب . لسنا بالبالغين شيئاً بالوصف البشري والأسلوب البشري . . ولكنها مجرد المحاولة لإقامة القنطرة بين المعزولين عن هذا القرآن - بحكم بعدهم عن الحياة في جو القرآن - وبين هذا القرآن !

والحياة في جو القرآن لا تعني مدارس القرآن ; وقراءته والاطلاع على علومه . . إن هذا ليس "جو القرآن" الذي نعنيه . . إن الذي نعنيه بالحياة في جو القرآن: هو أن يعيش الإنسان في جو , وفي ظروف , وفي حركة , وفي معاناة , وفي صراع , وفي اهتمامات . . كالتالي كان يتنزل فيها هذا القرآن . . أن يعيش الإنسان في مواجهة هذه الجاهلية التي تعم وجه الأرض اليوم , وفي قلبه , وفي همه , وفي حركته , أن "ينشئ" الإسلام في نفسه وفي نفوس الناس , وفي حياته وفي حياة الناس , مرة أخرى في مواجهة هذه الجاهلية . بكل تصوراتها , وكل اهتماماتها وكل تقاليدھا , وكل واقعها العملي ; وكل ضغطها كذلك عليه , وحربتها له , ومناهضتها لعقيدتها الربانية , ومنهج الرباني ; وكل استجاباتها كذلك لهذا المنهج ولهذه العقيدة ; بعد الكفاح والجهاد والإصرار . .

هذا هو الجو القرآني الذي يمكن أن يعيش فيه الإنسان ; فيتذوق هذا القرآن . . فهو في مثل هذا الجو نزل , وفي مثل هذا الخضم عمل . . والذين لا يعيشون في مثل هذا الجو معزولون عن القرآن مهما استغرقوا في مدارسته وقراءته والاطلاع على علومه . .

والمحاولة التي نبذلها لإقامة القنطرة بين المخلصين من هؤلاء وبين القرآن , ليست بالغة شيئاً , إلا بعد أن يجتاز هؤلاء القنطرة ; ويصلوا إلى المنطقة الأخرى ; ويحاولوا أن يعيشوا في "جو القرآن" حقا بالعمل والحركة . وعندئذ فقط سيتذوقون هذا القرآن ; ويتمتعون بهذه النعمة التي ينعم الله بها على من يشاء . .

6 - مجالات عرض الألوهية والعبودية والحاكمية في الأنعام

هذه السورة تعالج قضية العقيدة الأساسية . . قضية الألوهية والعبودية . . تعالجها بتعريف العباد برب العباد . . من هو ؟ ما مصدر هذا الوجود ؟ ماذا وراءه من أسرار ؟ من هم العباد ؟ من ذا الذي جاء بهم إلى هذا الوجود ؟ من أنشأهم ؟ من يطعمهم ؟ من يكفلهم ؟ من يدبر أمرهم ؟ من يقلب أفئدتهم وأبصارهم ؟ من يقلب ليلهم ونهارهم ؟ من يبدئهم ثم يعيدهم ؟ لأي شيء خلقهم ؟ ولأي أجل أجلهم ؟ ولأي مصير يسلمهم ؟ . . هذه الحياة المنبثقة هنا وهناك . . من بثها في هذا الموات ؟ . . هذا الماء الهاطل . هذا البرعم النايغ . هذا الحب المتراكب . هذا النجم الثاقب . هذا الصبح البازغ . هذا الليل السادل . هذا الفلك الدوار . . هذا كله من وراءه ؟ وماذا وراءه من أسرار , ومن أخبار ؟

. . هذه الأمم , وهذه القرون , التي تذهب وتجيء , وتهلك وتستخلف . . من ذا يستخلفها ? ومن ذا يهلكها ? لماذا تستخلف ? ولماذا يدركها البوار ? وماذا بعد الاستخلاف والابتلاء والوفاء من مصير وحساب وجزاء ? ? ?

هكذا تطوف السورة بالقلب البشري في هذه الآماد والآفاق , وفي هذه الأغوار والأعماق . . ولكنها تمضي في هذه كله على منهج القرآن المكي . . الذي أسلفنا الحديث عنه في الصفحات السابقة - وعلى منهج القرآن كله . . إنها لا تهدف إلى تصوير نظرية في العقيدة ولا إلى جدل لاهوتي يشغل الأذهان والأفكار . . إنما تهدف إلى تعريف الناس بربهم الحق ; لتصل من هذا التعريف إلى تعبيد الناس لربهم الحق . تعبيد ضمائرهم وأرواحهم , وتعبيد سعيهم وحركتهم , وتعبيد تقاليدهم وشعائرهم , وتعبيد واقعهم كله لهذا السلطان المتفرد . . سلطان الله الذي لا سلطان لغيره في الأرض ولا في السماء . .

ويكاد اتجاه السورة كله يمضي إلى هذا الهدف المحدد . . من أولها إلى آخرها . . فالله هو الخالق . والله هو الرازق . والله هو المالك . والله هو صاحب القدرة والقهر والسلطان . والله هو العليم بالغيوب والأسرار . والله هو الذي يقرب القلوب والأبصار كما يقرب الليل والنهار . . وكذلك يجب أن يكون الله هو الحاكم في حياة العباد ; وألا يكون لغيره نهى ولا أمر , ولا شرع ولا حكم , ولا تحليل ولا تحريم . فهذا كله من خصائص الألوهية , ولا يجوز أن يزاوله في حياة الناس أحد من دون الله , لا يخلق , ولا يرزق , ولا يحيي ولا يميت , ولا يضر ولا ينفع , ولا يمنح ولا يمنع , ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً في الدنيا ولا في الآخرة . .

وسياق السورة يسوق على هذه القضية أدلته في تلك المشاهد والمواقف والإيقاعات البالغة حد الروعة الباهرة ; والتي تواجه القلب بالحشود الحاشدة من المؤثرات الموحية , من كل درب ومن كل باب !

والقضية الكبيرة التي تعالجها السورة هي قضية الألوهية والعبودية في السماوات والأرض . في محيطها الواسع , وفي مجالها الشامل . . ولكن المناسبة الحاضرة في حياة الجماعة المسلمة حينذاك , المناسبة التطبيقية لهذه القاعدة الكبيرة الشاملة , هي ما تزاوله الجاهلية من حق التحليل والتحريم في الذبائح والمطاعم , ومن حق تقرير بعض الشعائر في النذور من الذبائح والثمار والأولاد . . وهي المناسبة التي تتحدث عنها هذه الآيات في أواخر السورة:

(فكلوا مما ذكر اسم الله عليه , إن كنتم بآياته مؤمنين . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه , وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه , وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم , إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه , إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون . ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه , وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم , وإن أطعتموهم إنكم لمشركون). . [118 - 121] .

(وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا , فقالوا: هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله , وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم , ساء ما يحكمون ! وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم , ولو شاء الله ما فعلوه , فذرهم وما يفترون . وقالوا: هذه أنعام وحرث حجر , لا يطعمها إلا من نشاء - بزعمهم - وأنعام حرمت ظهورها , وأنعام لا

يذكرون اسم الله عليها - افتراء عليه - سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا , وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم , إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ; وحرموا ما رزقهم الله - افتراء على الله - قد ضلوا وما كانوا مهتدين). [140 - [136

هذه هي المناسبة الحاضرة في حياة الأمة المسلمة - والجاهلية حولها - التي تتمثل فيها تلك القضية الكبيرة . . قضية التشريع . . ومن ورائها القضية الكبرى . . قضية الألوهية والعبودية التي تعالجها السورة كلها , ويعالجها القرآن المكي كله , كما يعالجها القرآن المدني أيضا كلما جاء ذكر النظام فيه وذكر التشريع .

والحشد الذي يتدفق به سياق السورة من التقريرات والمؤثرات , وهو يواجه الجاهلية وأهلها في أمر هذه الأنعام والذبايح والندور - وهي المناسبة التي تتمثل فيها قضية حق التشريع - وربطها بقضية العقيدة كلها - قضية الألوهية والعبودية - وجعلها مسألة إيمان أو كفر , ومسألة إسلام أو جاهلية . . هذا الحشد - على النحو الذي سنحاول أن نستعرض نماذج منه في هذا التعريف المختصر بالسورة , والذي سيتجلى على حقيقته في المواجهة التفصيلية للنصوص في السياق بعد ذلك - يوقع في النفس تلك الحقيقة الأصيلة في طبيعة هذا الدين . وهي أن كل جزئية صغيرة في الحياة الإنسانية يجب أن تخضع خضوعا مطلقا لحاكمية الله المباشرة , الممثلة في شريعته . وإلا فهو الخروج من هذا الدين جملة من أجل الخروج على حاكمية الله المطلقة في تلك الجزئية الصغيرة .

كذلك يدل ذلك الحشد على مدى الأهمية التي ينوطها هذا الدين بتخليص مظهر الحياة كله من ظلال حاكمية البشر في أي شأن من شؤون البشر - جل أم حقر , كبر أم صغر - وربط أي شأن من هذه الشؤون بالأصل الكبير الذي يتمثل فيه هذا الدين . . وهو حاكمية الله المطلقة التي تتمثل فيها ألوهيته في الأرض , كما تتمثل ألوهيته في الكون كله بتصرف أمر هذا الكون كله بلا شريك .

إن سياق السورة يعقب على تلك الشعائر الجاهلية في شأن الأنعام والثمار , والندور منها ومن الأولاد تعقيبات متنوعة . بعضها مباشر , لتصوير مدى السخف والتناقض في هذه الشعائر , وبعضها للربط بين مزاولة البشر لحق التحريم والتحليل وقضية العقيدة الكبرى , وليبان أن اتباع أمر الله فيها هو صراطه المستقيم , الذي يخرج من لا يتبعه عن هذا الدين . . على النحو التالي بعد ذكر تلك الشعائر في الآيات السابقة:

وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات , والنخل والزرع مختلفا أكله , والزيتون والرمان متشابها وغير متشابهه . كلوا من ثمره إذا أثمر وأتوا حقه يوم حصاده , ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . ومن الأنعام حمولة وفرشا , كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان , إنه لكم عدو مبين . ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين . قل: الذكربن حرم أم الأنثيين ? أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ? نبتوني بعلم إن كنتم صادقين . ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل: الذكربن حرم أم الأنثيين ? أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ? أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ? فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم , إن الله لا يهدي القوم الظالمين . قل: لا أجد فيما أوحى إلي محرما علي طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا , أو لحم خنزير - فإنه رجس - أو فسقا أهل لغير الله به . فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم . وعلى الذين هادوا حرما كل ذي ظفر , ومن البقر والغنم حرما عليهم

شحومهما - إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم - ذلك جزيناهم بغيرهم , وإنا لصادقون . فإن كذبوك فقل: ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين . سيقول الذين أشركوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آبأنا , ولا حرمانا من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل: هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ? إن تتبعون إلا الظن , وإن أنتم إلا تخرصون . قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين . قل هلم شهداءكم الذين يشهدون ان الله حرم هذا , فإن شهدوا فلا تشهد معهم , ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا , والذين لا يؤمنون بالآخرة , وهم بربهم يعدلون . قل: تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم: ألا تشركوا به شيئاً , وبالوالدين إحساناً . ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم , ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن , ولا تقتلوا النفس التي حرم الله - إلا بالحق - ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم - إلا بالتي هي أحسن - حتى يبلغ أشده , وأوفوا الكيل والميزان بالقسط - لا نكلف نفساً إلا وسعها - وإذا قتلتم فاعدلوا - ولو كان ذا قربى - وبعهد الله أوفوا . ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه , ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . ذلك وصاكم به لعلكم تتقون . . [141 - 153]

وكذلك نرى أن هذه المسألة الجزئية الخاصة بالتحريم والتحليل في الأنعام والنذور في الأنعام والثمار , وفي الأولاد - على ما كان متبعاً في الجاهلية - يربطها السياق بتلك القضايا الكبيرة: بالهدى والضلال . واتباع منهج الله أو اتباع خطوات الشيطان , وبرحمة الله أو بأسه وبالشهادة بوحداية الله أو عدل غيرها به . واتباع صراطه مستقيماً أو التفرق عنه . ويستخدم نفس التعبيرات التي استخدمها وهو بصدد القضية الكبرى في محيطها الشامل . .

كما نراه يحشد لها من المؤثرات والموجيات - في هذا الموضوع وحده - مشهد الخلق والإحياء في الجنات والمعروشات وغير المعروشات . ومشهد النخل والزرع مختلفاً ألوانه والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه .

وموقف الإشهاد والمفاصلة . وموقف البأس والتدمير على المشركين . .

وهي ذات المشاهد التي حشدتها السياق في السورة كلها من قبل , وهو يتناول قضية العقيدة بجملتها , قبل أن يتعرض لهذه المناسبة الخاصة التي تتمثل فيها . ولكل هذا دلالة التي لا تخطى على طبيعة هذا الدين , ونظرته لقضية الحاكمية والتشريع في الكثير والقليل . .

ولعلنا قد سبقنا سياق السورة ; ونحن نبين منهجها الموضوعي وهي تتناول قضية العقيدة بجملتها , في مواجهة مناسبة جزئية تتعلق بأمر التشريع والحاكمية . وهي المناسبة التي لا نقول: إنها اقتضت ذلك الحشد المتجمع المتدفق من التقريرات والتأثيرات في سياق السورة كله , وهذا البيان الرائع الباهر لحقيقة الألوهية في مجالها الواسع الشامل . ولكننا نقول: إنها المناسبة التي ربطت في سياق السورة بهذا كله ; فدل هذا الربط على طبيعة هذا الدين ; ونظرته لقضية التشريع والحاكمية في الكبير والصغير , وفي الجليل والحقير من شؤون هذه الحياة الدنيا . . كما أسلفنا . .

فالآن نمضي في التعريف المجمل بالسورة وخصائصها وملامحها , على النحو الذي ألفناه في هذه الظلال , قبل الدخول في الاستعراض المفصل للسياق:

في روايات عن ابن عباس , وعن أسماء بنت يزيد , وعن جابر , وعن أنس بن مالك وعن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنهم جميعا - أن هذه السورة مكية , وأنها نزلت كلها جملة واحدة .

وليس في هذه الروايات ما يعين تاريخ نزول السورة ; وليس في موضوعها كذلك ما يحدد زمن نزولها من العهد المكي . . وهي حسب الترتيب الراجح لسور القرآن يجيء ترتيبها بعد سورة الحجر ; وتكون هي السورة الخامسة والخمسين . . ولكننا - كما بينا من قبل في التعريف بسورة البقرة - لا نستطيع بمثل هذه المعلومات أن نجزم بشيء عن تاريخ محدد لنزول السور . فالمعول عليه عندهم - في الغالب - في ترتيب السور على هذا النحو هو تاريخ نزول أوائلها - لا جملتها - وقد تكون هناك أجزاء من سورة متقدمة نزلت بعد أجزاء من سورة متأخرة . إذ المعول في الترتيب على أوائل السورة . أما في سورة الأنعام فقد نزلت كلها جملة . ولكننا لا نملك تحديد تاريخ نزولها . غير أننا نرجح أنها كانت بعد السنوات الأولى من الرسالة . . ربما الخامسة أو السادسة . . ولا نعتمد في هذا الترجيح على أكثر من رقم الترتيب ; ثم على سعة الموضوعات التي تناولتها , والتوسع في عرضها على هذا النحو , الذي يشي بأن الدعوة والجدل مع المشركين , وطول الإعراض منهم والتكذيب لرسول الله , أصبح يقتضي التوسع في عرض القضايا العقيدية على هذا النحو ; كما يقتضي تسليية رسول الله [ص] عن طول الصد والإعراض والتكذيب . .

وفي رواية عن ابن عباس وقتادة: أن السورة مكية كلها إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة . قوله تعالى: (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء . قل: من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس , تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا , وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا أبأؤكم , قل: الله , ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) . . وهي الآية: 91 . نزلت في مالك بن الصيف وكعب بن الأشرف اليهوديين . وقوله تعالى: (وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله , والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه , كلوا من ثمره إذا أثمر , وآتوا حقه يوم حصاده , ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) . .

وهي الآية 141 , نزلت في ثابت بن قيس شماس الأنصاري . . وقال ابن جريج والماوردي: نزلت في معاذ ابن جبل .

والرواية عن الآية الأولى محتملة ; بسبب أن فيها ذكرا للكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس , ومواجهة لليهود في قوله تعالى: (تجعلونه قراطيس تبدونها) . . وإن كان هناك روايات أخرى عن مجاهد , وعن ابن عباس أن الذين قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء هم مشركو مكة وأن الآية مكية . وهناك قراءة: قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها ويخفون كثيرا . . فهي على هذه القراءة خبر عن اليهود وليست خطابا لهم . وسياق الآية كله عن المشركين . وقد رجح ابن جرير هذه الرواية واستحسن هذه القراءة . . وعلى هذا تكون الآية مكية . .

وأما الآية الثانية فالسياق لا يحتمل أن تكون مدنية . لأن السياق بدونها ينقطع ما قبلها فيه عما بعدها في المعنى وفي العبارة . والحديث متصل عن إنشاء الله للجنات المعروشات , وعن جعله حمولة وفرشا من الأنعام في الآية التي تليها: (ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله , ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) . . ثم يمضي السياق في تكملة الحديث عن الأنعام , الذي كان قد بدأه قبل آية الثمار . .

يجمعها كلها موضوع واحد , هو الذي تحدثنا عنه في الفقرة السابقة الخاصة بقضية التحريم والتحليل والنذور .

وإنما الذي جعل بعضهم يعتبرها مدنية هو ما جاء فيها من قوله تعالى: (كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده). . واعتبارهم هذا الأمر يعني الزكاة . والزكاة لم تتقرر بأنصبتها المحددة في الزروع والثمار إلا في المدينة . . ولكن هذا المعنى ليس متعينا في الآية . إذ أن هناك أقوالا ماثورة في تفسيرها بأنها تعني الصدقات , أو بأنها تعني الإطعام منها لمن يمر بهم يوم الحصاد أو جني الثمار ; أو لقرابتهم . . وأن الزكاة حددت فيما بعد بالعشر ونصف العشر . . وعلى هذا تكون الآية مكية .

وقال الثعلبي:سورة الأنعام مكية إلا ست آيات نزلت بالمدينة: (وما قدرُوا الله حق قدره). . إلى آخر ثلاث آيات . و (قل:تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم). . إلى آخر ثلاث آيات . .

والآيات الأولى بينا مكيتها , إذ ينطبق على الآيتين الثانية والثالثة من هذه المجموعة ما ينطبق على الآية الأولى منها . .

أما المجموعة الثانية فليس هناك - فيما وصل إليه اطلاعي - رواية عن صحابي ولا تابعي عن كونها مدنية ; وليس في موضوعها ما يدعو إلى اعتبارها مدنية . وهي تتحدث عن تصورات جاهلية ; وهي متصلة بموضوع التحريم والتحليل في الذبائح والنذور الذي سبق الحديث عنه , اتصالا وثيقا . . لذلك نميل إلى اعتبارها مكية كذلك . .

وفي المصحف الأميري أن الآيات [153 , 152 , 151 , 141 , 114 , 92 , 91 , 23 , 20] مدنية . وقد تحدثنا عن الآيات [92 - 91] و [141] و [153 - 151] وليس في الآيات [114 , 23 , 20] ما يدعو إلى الظن بأنها مدنية إلا ذكر أهل الكتاب فيها . وهذا ليس دليلا فقد ورد مثل هذه في الآيات المكية . .

لهذا كله نحن نميل إلى اعتبار الروايات المطلقة , التي تنص على أن السورة نزلت بجملتها في مكة في ليلة واحدة . وقد وردت عن ابن عباس وعن أسماء بنت يزيد , وفي الرواية عن أسماء تحديد للرواية بحادث مصاحب على النحو التالي:

"قال سفيان الثوري عن ليث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت:"نزلت سورة الأنعام على النبي [ص] جملة وأنا أخذه بزمام ناقة النبي [ص] إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة " .

أما الرواية عن ابن عباس فقد رواها الطبراني قال:

حدثنا علي بن عبد العزيز , حدثنا حجاج بن منهال , حدثنا حماد بن سلمة , عن علي بن زيد , عن يوسف بن مهران , عن ابن عباس , قال:"نزلت الأنعام بمكة ليلة ; جملة واحدة , حولها سبعون ألف ملك يجارون حولها بالتسبيح" . .

وهاتان الروايتان أوثق من الأقوال التي جاء فيها أن بعض الآيات مدنية . وذلك بالإضافة إلى التحليل الموضوعي الذي أسلفنا .

والواقع أن سياق السورة في تماسكه وفي تدافعه وفي تدفقه يوقع في القلب أن هذه السورة نهر يتدفق ، أو سيل يتدفق ، بلا حواجز ولا فواصل ؛ وإن بناءها ذاته ليصدق تماما هذه الروايات ، أو على الأقل يرجحها ترجيحاً قوياً .

8 - عرض سورة الأنعام لموضوعاتها في موجات متدافقة وأمثلة على ذلك

أما موضوع السورة الأساسي وشخصيتها العامة فقد أجملنا الإشارة إليهما في مطلع الحديث عنها . ولكن لا بد من شيء من التفصيل في هذا التعريف . .

روى أبو بكر بن مردويه - بإسناده - عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله [ص] "نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سد ما بين الخافقين ، لهم زجل بالتسيح ، والأرض بهم ترتج" . ورسول الله يقول: " سبحان الله العظيم . سبحان الله العظيم . . "

هذا الموكب ، وهذا الارتجاج ، واضح ظلهما في السورة ! . . إنها هي ذاتها موكب موكب ترتج له النفس ، ويرتج له الكون ! . . إنها زحمة من المواقف والمشاهد والموجيات والإيقاعات ! . . وهي - كما قلنا من قبل - تشبه في سياقها المتدافع بهذه المشاهد والمواقف والموجيات والإيقاعات مجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة . ما تكاد الموجه تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية ملاحقة لها ، ومتشابكة معها ، في المجرى المتصل المتدفق !

والموضوع الرئيسي الذي تعالجه متصل ؛ فلا يمكن تجزئة السورة إلى مقاطع ، كل مقطع منها يعالج جانباً من الموضوع . . إنما هي موجات . . وكل موجة تتفق مع التي قبلها وتكملها .

ومن ثم فلن نحاول عرض الموضوعات التي تحتويها السورة في هذا التعريف ؛ وإنما سنحاول فقط عرض نماذج من هذه الموجات المتلاحقة فيها:

تبدأ السورة بمواجهة المشركين ، الذين يتخذون مع الله آلهة أخرى ، بينما دلائل التوحيد تجبههم وتواجههم وتحيط بهم وتطالعهم في الآفاق وفي أنفسهم . . تبدأ بمواجهتهم بحقيقة الألوهية متجلية في لمسات عريضة تشمل الوجود كله ؛ وتشمل وجودهم كله . . تبدأ في لمسات ثلاث ترسم مجالي الوجود الكبيرة على أقصى عمق واتساع:

(الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون . هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً ، وأجل مسمى عنده ، ثم أنتم تموتون . وهو الله في السماوات وفي الأرض ، يعلم سركم وجهركم ، ويعلم ما تكسبون) . .

ثلاث آيات تذرع الوجود الكوني كله في الآية الأولى ، وتذرع الوجود الإنساني كله في الآية الثانية . . ثم تحيط الألوهية بالوجودين كليهما في الآية الثالثة !

أي إعجاز ! وأية روعة ! وأي شمول ! وأية إحاطة !

وأمام هذا الوجود الكوني الشاهد بوحدة الخالق . وأمام هذا الوجود الإنساني الشاهد بتدبيره . وأمام هذه الألوهية الحاكمة في السماوات وفي الأرض ؛ العالمة بالسر والجر

والكسب . . يبدو شرك المشركين , وامتراء الممترين , عجا منكرا لا مكان له في نظام الكون , ولا مكان له في فطرة النفس , ولا سند له في القلب والعقل !

وفي هذه اللحظة تبدأ الموجة التالية تعرض موقف المكذبين بآيات الله هذه المثبوتة في الكون والحياة ; ومع عرض الموقف المنكر الغريب , يجيء التهديد , وتعرض مصارع الغابرين , ويتجلى السلطان القاهر الذي تدل عليه هذه المصارع , وهذه القوارع . فيبدو عجيبا منكرا تعنت المنكرين أمام هذا الحق المبين ; ويبدو أن المنكرين ليس الذي ينقصهم هو الدليل ولكنه صدق النية , وتفتح القلب للدليل:

وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون , ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم , وأرسلنا السماء عليهم مدرارا , وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم , فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين . ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم , لقال الذين كفروا: إن هذا إلا سحر مبين . وقالوا: لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا , وللبسنا عليهم ما يلبسون . ولقد استهزئ برسل من قبلك ; فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون . قل: سيروا في الأرض , ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين . .

ومن هنا تبدأ موجة ثالثة في التعريف بحقيقة الألوهية , متجلية في ملكية الله سبحانه لما في السماوات وما في الأرض , ولما سكن بالليل والنهار . ومتجلية في كونه الرازق الذي يطعم ولا يطعم . فهو من ثم الولي الذي لا ولي غيره . الذي يجب أن يسلم العبيد أنفسهم إليه وحده . وهو الذي يعذب العصاة في الآخرة . وهو الذي يملك الضر والخير . وهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده . وهو الحكيم الخبير . .

وتبلغ الموجة قمتها بعد هذا التمهيد كله , في الإشهاد والمفاصلة بين الرسول [ص] وبين القوم , وإنذارهم والتبرؤ من شركهم , وإعلان التوحيد في مواجعتهم , في رنة عالية فاصلة جازمة:

6: لمن ما في السماوات والأرض ? قل: لله . كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه , الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون . وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم , قل: أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض , وهو يطعم ولا يطعم ? قل: إني أمرت أن أكون أول من أسلم , ولا تكونن من المشركين . قل: إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه , وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو , وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده , وهو الحكيم الخبير . قل: أي شيء أكبر شهادة ? قل الله شهيد بيني وبينكم , وأوحيا لي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أننكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ? قل: لا أشهد . قل إنما هو إله واحد , وإني بريء مما تشركون) . .

ثم تبدأ موجة رابعة تتحدث عن معرفة أهل الكتاب لهذا الكتاب الجديد الذي يكذب به المشركون ; وتصف هذا الشرك بأنه أظلم الظلم ; وتقف المشركين أمام مشهدهم يوم الحشر وهم يسألون عن شركائهم فينكرون الشرك ويذهب عنهم الافتراء ; وتصور حالهم وأجهزة الاستقبال الفطرية فيهم معطلة , لا تلتقط موحيات الإيمان ولا تستجيب , وقلوبهم محجوبة لا تدرك دلائل الإيمان , وهم يدعون أن هذا القرآن أساطير الأولين ;

وتقول لهم: إنهم يهلكون أنفسهم وهم يnehون غيرهم عن الهدى , وبنأون عنه . ثم تصور حالهم وهم موقوفون على النار يقولون: يا ليتنا نرد ولا نكذب آيات ربنا ونكون من المؤمنين ! ثم تعود بهم إلى الدنيا وهم ينكرون البعث والمعاد . ثم تعقب على هذا بتصوير حالهم وهم موقوفون على ربهم , وهم يسألون عن هذا الإنكار ; وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم . وتنتهي الموجة بتقرير خسارة المكذبين بقاء الله , وتفاهة الحياة الدنيا إلى جانب الدار الآخرة المدخرة للذين يتقون:

الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم , الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون . ومن أضلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ; إنه لا يفلح الظالمون . ويوم نحشرهم جميعا . ثم نقول للذين أشركوا: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون . ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم , وضل عنهم ما كانوا يفترون . ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا , وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها , حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا: إن هذا إلا أساطير الأولين . وهم يnehون عنه وبنأون عنه , وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون . ولو ترى إذ وقفوا على النار , فقالوا: يا ليتنا نرد ولا نكذب آيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل , ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه , وإنهم لكاذبون . وقالوا: إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين . ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال: أليس هذا بالحق ? قالوا: بلى وربنا ! قال: فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . قد خسر الذين كذبوا بقاء الله , حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا: يا حسرتنا على ما فرطنا فيها , وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم , ألا ساء ما يزرون ! وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو , وللدار الآخرة خير للذين يتقون , أفلا تعقلون . .

ثم تبدأ موجة خامسة , يلتفت فيها السياق إلى رسول الله [ص] يسليه ويسري عنه ما يحزنه من تكذيبهم له ولما جاءهم من عند الله به . ويجعل له أسوة في الرسل قبله ممن صبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله . ويقرر أن سنة الله لا تتبدل , ولكنها كذلك لا تستعجل ! فإن كان [ص] لا يصبر على إغراضهم , فليبدل جهده البشري في إتيانهم بخارقة ! ولو شاء الله لجمعهم على الهدى . إنما اقتضت مشيئته في خلقه - وهو وحده صاحب الأمر المتصرف - أن يستجيب الذين لا تتعطل أجهزتهم الفطرية عن التلقي . والموتى لا حياة فيهم فهم لا يستقبلون موحيات الهدى ولا يستجيبون . والله يبعثهم , وهم إليه يرجعون . .

(قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون , فإنهم لا يكذبونك , ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذبت رسل من قبلك , فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا , ولا مبدل لكلمات الله , ولقد جاءك من نبي المرسلين . وإن كان كبير عليك إغراضهم فإن استطعت أن تتبغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم مآبئة . ولو شاء الله لجمعهم على الهدى , فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون , والموتى يبعثهم الله , ثم إليه يرجعون) . .

وهكذا يمضي سياق السورة موجة في إثر موجة على هذا النسق الذي عرضنا منه نماذج , لعلها تصور طبيعة السورة , كما تصور موضوعها . . وهي تبلغ في بعض موجاتها ذروة أعلى من ذرى هذه الموجات التي استعرضناها ; كما أن تدفقها في بعض المسالك أشد جيشانا وأعلى إبقاعًا . . ولكننا لا نملك أن نستعرض السورة كلها في هذا التعريف المجمل , وسيأتى شيء من ذلك في الفقرة التالية . .

ولقد سبق القول بأن هذه السورة تعالج موضوعها الأساسي بصورة فريدة ، إذ أنها في كل لحظة منها وفي كل موقف وفي كل مشهد ، تبلغ حد "الروعة الباهرة " التي تبده النفس وتشده الحس ، وتبهر النفس وهو يلاحق مشاهدتها وإيقاعاتها وموجياتها . .

فالآن ندع نصوصا من السورة ذاتها تصور هذه الحقيقة بأسلوبها القرآني . ذلك أن الوصف مهما بلغ ، لا يبلغ شيئا في نقل هذه الحقيقة إلى القلب البشري !

إن تقرير حقيقة الألوهية ، وتعريف الناس بربهم الحق ، وتعييدهم له وحده ، هو الموضوع الأساسي للسورة . فلنسمع إذن تقرير السياق القرآني لهذه الحقيقة في مواقف منه شتى:

في موقف الإشهاد والمفاصلة ، حيث تتجلى تلك الحقيقة في القلب المؤمن بها ؛ وحيث يواجه بها المخالفين ، ويصدع بها في قوة وفي يقين:

(قل:أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ! قل:إني أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين . قل:إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين ، وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . قل:أي شيء أكبر شهادة ؟ قل:الله شهيد بيني وبينكم ، وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل:لا أشهد . قل:إنما هو إله واحد ، وإني بريء مما تشركون). .

وفي موقف التهديد ، حيث يتجلى سلطان الله محيطا بالعباد ؛ وتتعى أمامه الفطرة ويسقط عنها الركام ، وتتجه إلى ربها الحق وحده وتنسى الآلهة الزائفة ، أمام الهول ، وأمام مصارع المكذبين:

قل:أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه - إن شاء - وتنسون ما تشركون . ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالأساء والضراء لعلمهم يتضرعون . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ! ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ، فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين:قل:أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ، من إله غير الله يأتيكم به ؟ انظر كيف نصرف الآيات ، ثم هم يصدفون . قل:أرأيتم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ؟ هل يهلك إلا القوم الظالمون ؟ . .

وفي موقف التعريف بإحاطة الله بالغيوب والأسرار ، والأنفاس والأعمار ، مع القدرة والقهر والسيطرة في البر والبحر ، والنهار والليل ، والدنيا والآخرة ، والحياة والممات:

(وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين . وهو الذي يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه لتقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق . ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين). .

وفي موقف شهادة الفطرة , واهتدائها الذاتي إلى ربها الحق , بمجرد تفتحها لاستقبال دلائل الهدى وموحياته في صفحات الكون , التي تخاطب الفطرة بلسان مفهوم الإيقاع في أعماقها المكنونة:

وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر: أتتخذ أصناما آلهة ? إني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا , قال: هذا ربي ; فلما أفل قال: لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال: هذا ربي , فلما أفل قال: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال: هذا ربي , هذا أكبر , فلما أفلت قال: يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيئا , وما أنا من المشركين . وحاجه قومه , قال: أتجاجوني في الله وقد هدان ? ولا أخاف ما تشركون به - إلا أن يشاء ربي شيئا - وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون ? وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ? فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ? الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . .

وفي مشهد الحياة النابضة في الفصائل والأنواع , ومشهد الإصباح والإمساء , ومشهد النجوم والظلمات في البر والبحر , ومشهد الماء الهاطل , والزرع النامي , والثمر اليانع . . حيث تتجلى وحدانية الخالق بلا شريك , المبدع بلا شبيه , وحيث تبدو دعوى الشركاء والأبناء سخفا تنكره العقول والقلوب:

إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت , ومخرج الميت من الحي , ذلكم الله فأنى تؤفكون فالق الإصباح , وجعل الليل سكنا , والشمس والقمر حسبانا , ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر , قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء , فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا , ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب , والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه , إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون . وجعلوا لله شركاء الجن - وخلقهم - وخرقوا له بنين وبنات بغير علم , سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السماوات والأرض , أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة , وخلق كل شيء , وهو بكل شيء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه , وهو على كل شيء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار , وهو اللطيف الخبير . .

وأخيرا في موقف الابتهاال والإنابة إلى الله الواحد بلا شريك , والتجرد له صلاة ونسكا , ومحبا ومماتا , واستنكار ابتغاء غيره ربا وهو رب كل شيء , ورد الأمر إليه كله في الدنيا في أمر الاستخلاف والابتلاء , وفي الآخرة في أمر الحساب والجزاء , حيث تختم السورة بهذا الابتهاال الخاشع المنيب:

(قل: إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم: دينا قيما ملة إبراهيم حنيئا وما كان من المشركين . قل: إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له , وبذلك أمرت , وأنا أول المسلمين . قل: أغير الله أبغي ربا , وهو رب كل شيء , ولا تكسب كل نفس إلا عليها , ولا تزرر وازرة وزر أخرى , ثم إلى ربكم مرجعكم , فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وهو الذي جعلكم خلائف الأرض , ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم , إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم) . .

وليست هذه النماذج الستة التي اخترناها إلا نماذج تصور حد "الروعة الباهرة" الذي يبلغه سياق السورة , في كل موقف , وفي كل مشهد , وفي كل إيقاع , وفي كل إحياء .

كذلك سبق القول: إن سياق السورة يبلغ حد الروعة الباهرة في كل مشهد وفي كل موقف ; مع تناسق في منهج العرض للمشاهد والمواقف ; ووعدنا أن نبين ما نعنيه بهذا التناسق .

ولن نعرض هنا إلا بعض النماذج في انتظار العرض التفصيلي للنصوص بعد التعريف المجل . ونكتفي من هذا التناسق بثلاثة ألوان منه بارزة في سياق السورة:

إن السياق يعرض المشاهد والمواقف متنوعة ; ولكنها تلتقي في ظاهرة واحدة . . إنه في كل مشهد أو موقف , كأنما يأخذ بالسامع ليقفه أمام المشهد يتملاه , وأمام المواقف يتدبره . . يقفه أمامه بحركة تكاد الألفاظ تجسمها ! كما أن المشاهد والمواقف ذاتها فيها ناس موقوفون , يراهم السامع في وقفهم , والسياق يقفه هو الآخر ليشاهدهم ويتملاهم !

ففي مشاهد القيامة ومشاهد الاحتضار ترد هذه الوقفات:

(ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا: يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين). .

(ولو ترى إذ وقفوا على ربهم . قال: أليس هذا بالحق ? قالوا: بلى وربنا ! قال: فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون). .

(ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت , والملائكة باسطوا أيديهم: أخرجوا أنفسكم , اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون . ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة , وتركتم ما حولناكم وراء ظهوركم , وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء . لقد تقطع بينكم , وصل عنكم ما كنتم تزعمون). .

(ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ? ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم وصل عنهم ما كانوا يفترون). .

وفي مواقف التهديد ببطش الله وأخذ المكذبين بسلطانه الذي لا يرد , يقفهم أمام هذا البطش كأنهم يعاينونه:

(قل: أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ; أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ? بل إياه تدعون , فيكشف ما تدعون إليه - إن شاء - وتنسون ما تشركون). .

(قل: أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم , من إله غير الله يأتيكم به ? انظر كيف نصرَف الآيات , ثم هم يصدفون . . قل: أرأيتم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة , هل يهلك إلا القوم الظالمون ?).

وفي تمثيل حالة الضلال بعد الهدى , والرجوع عن الحق بعد الاهتداء إليه , يرسم مشهدا شاخصا يقف السامع أمامه يتملاه , ولو لم يكن في اللفظ أمر بالنظر أو إشارة إلى الوقوف:

قل: أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا , ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله , كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران , له أصحاب يدعونه إلى الهدى ; اثنا . . .

كذلك يقف السياق السامع أمام مشهد الثمار اليانعة في الجنات التي تتمثل فيها الحياة , والتي تتجلى فيها يد الله المبدعة للألوان والثمار:

(. . .) وهو الذي أنزل من السماء ماء , فأخرجنا به نبات كل شيء , فأخرجنا منه خضرا , نخرج منه حبا متراكبا , ومن النخل من طلعها قنوان دانية , وحنات من أعناب , والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) . .

وهكذا كل مشاهد السورة ومواقفها يتجلى فيها هذا التناسق ويكون طابعها العام .

لون آخر من ألوان التناسق , يمت إلى هذا اللون بصلة كذلك . . مواقف الإشهاد . .

إن مشاهد القيامة في السورة تعرض كأنما هي مواقف إشهد على ما كان من المشركين والمكذبين ; ومواقف تشهير بهم ; وتوجيه الأنظار إلى هذه المواقف . . وقد سبق عرض نماذج منها . . وفي كل منها: (ولو ترى . . .)

وتلتقي بها مواقف الإشهد على العقيدة , ومواقف الإشهد على الشريعة . . كلتاهما سواء .

في أول السورة عند الحديث عن العقيدة في محيطها الشامل يجيء هذا الموقف:

(قل: أي شيء أكبر شهادة ? قل: الله شهيد بيني وبينكم , وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ? قل: لا أشهد . قل: إنما هو إله واحد , وإني بريء مما تشركون) .

حتى إذا جاء السياق إلى المناسبة الخاصة في السورة , المتعلقة بالعقيدة في قضية التحريم والتحليل أقام مشهدا آخر , ودعا إلى إشهد على هذه القضية الخاصة , كالإشهد على تلك القضية العامة , للدلالة على أنها هي من ناحية الموضوع ; ولضمان التناسق الذي هو طابع التعبير القرآني العام :

(قل: هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم , ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة , وهم بربهم يعدلون) . .

لون ثالث من ألوان التناسق ; هو التناسق التعبيري الذي يقتضيه التقرير الموضوعي . والذي يتمثل في تكرار عبارات بعينها للدلالة على أنها تعبير عن حقيقة واحدة في صور متعددة .

وهذا كالتعبير في أول السورة عن الذين كفروا حين يشركون بالله غيره بأنهم بربهم يعدلون . ثم التعبير كذلك في أواخرها عن الذين يشرعون لأنفسهم بأنهم كذلك بربهم يعدلون . على النحو التالي:

(الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض , وجعل الظلمات والنور , ثم الذين كفروا بربهم يعدلون).

(قل: هلّم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم , ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا , والذين لا يؤمنون بالآخرة . وهم بربهم يعدلون).

ففي الآية الأولى هم يعدلون بربهم لأنهم يشركون به . . وفي الثانية هم يعدلون بربهم لأنهم يشركون به كذلك . ممثلا هذا الشرك في ادعاء حق الألوهية في التشريع . .

ولهذا دلالة الموضوعية , وجماله التعبيري أيضا . . .

كذلك يكرر كلمة الصراط , وهو يعبر عن الإسلام جملة ; وهو يعبر عن قضية التشريع على هذا النحو:

(فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام , ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون . وهذا صراط ربك مستقيما . قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون).

وبعد أن يتحدث عن الأنعام والحرف , والحلال والحرام في نهاية السورة كما جاء في مقدمة التعريف بالسورة يقول:

(وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه , ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله: ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون).

فيدل على أن هذه القضية هي قضية العقيدة . وأن الالتزام فيها هو المضي على صراط الله , وأن الانحراف فيها هو الخروج عن هذا الصراط . . وأنها قضية إيمان أو كفر , وجاهلية أو إسلام . . كما فصلنا ذلك في مطلع الكلام !

وإلى هنا يحسن أن نكتفي في التعريف المجلد , لنواجه نصوص السورة في سياقها القرآني بعون الله . . ووفق طبيعة السورة سنعرضها موجة موجة - لا درسا درسا كما تعودنا ذلك في السور المدنية - فهذه الطريقة في العرض أدنى إلى طبيعة السورة ; وإلى تحقيق التناسق بينها وبين ظلالها كذلك . .

وبالله التوفيق . .

الوحدة الأولى: 1 - 3 الألوهية في الكون والإنسان

إنها اللمسات العريضة للحقيقة الكبيرة ; والإيقاعات المديدة في مطلع السورة . وهي ترسم القاعدة الكلية لموضوع السورة ولحقيقة العقيدة:

(الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض , وجعل الظلمات والنور , ثم الذين كفروا بربهم يعدلون).

إنها اللمسات الأولى . . تبدأ بالحمد لله . ثناء عليه , وتسبيحا له , واعترافا بأحقية للحمد والثناء , على ألوهيته المتجلية في الخلق والإنشاء . . بذلك تصل بين الألوهية المحمودة وخصيبتها الأولى . . الخلق . . وتبدأ بالخلق في أضخم مجالي الوجود . . السماوات والأرض . . ثم في أضخم الظواهر الناشئة عن خلق السماوات والأرض وفق تدبير مقصود . . الظلمات والنور . . فهي اللمسة العريضة التي تشمل الأجرام الضخمة في الكون المنظور , والمسافات الهائلة بين تلك الأجرام , والظواهر الشاملة الناشئة عن دورتها في الأفلاك . . لتعجب من قوم يرون صفحة الوجود الضخمة الهائلة الشاملة تنطق بقدرة الخالق العظيم كما تنطق بتدبيره الحكيم , وهم بعد ذلك كله لا يؤمنون ولا يوحدون ولا يحمدون ; بل يجعلون لله شركاء يعدلونهم به ويساؤونه:

(ثم الذين كفروا بربهم يعدلون).

فيا للمفارقة الهائلة بين الدلائل الناطقة في الكون , وآثارها الضائعة في النفس ! يا للمفارقة التي تعدل الأجرام الضخمة , والمسافات الشاسعة , والظواهر الشاملة . . بل تزيد . .

واللمسة الثانية:

(هو الذي خلقكم من طين , ثم قضى أجلا , وأجل مسمى عنده , ثم أنتم تمترون):

إنها لمسة الوجود الإنساني , التالي في وجوده للوجود الكوني . ولظاهرتي الظلمات والنور . لمسة الحياة الإنسانية في هذا الكون الخامد . لمسة النقلة العجيبة من عتمة الطين المظلم إلى نور الحياة البهيج ; تتناسق تناسقا فنيا جميلا مع "الظلمات والنور" . . وإلى جانبها لمسة أخرى متداخلة:لمسة الأجل الأول المقضى للموت , والأجل الثاني المسمى للبعث . . لمستان متقابلتان في الهمود والحركة كتقابل الطين الهامد والخلق الحي في النشأة . .

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّىٰ عِندَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (2) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (3)

وبين كل متقابلين مسافة هائلة في الكنه والزمن . . وكان من شأن هذا كله أن ينقل إلى القلب البشري اليقين بتدبير الله , واليقين بلقائه . ولكن المخاطبين بالسورة يشكون في هذا ولا يستيقنون:

(ثم أنتم تمترون).

واللمسة الثالثة تضم اللمستين الأوليين في إطار واحد ; وتقرر ألوهية الله في الكون والحياة الإنسانية سواء:

(وهو الله في السماوات وفي الأرض , يعلم سركم وجهركم , ويعلم ما تكسبون).

إن الذي خلق السماوات والأرض هو الله في السماوات وفي الأرض . هو المتفرد بالألوهية فيهما على السواء . وكل مقتضيات الألوهية متحققة عليهما , من خضوع للناموس الذي سنه الله لهما , وائتمار بأمره وحده . وكذلك ينبغي أن يكون الشأن في حياة الإنسان . فلقد خلقه الله كما خلق السماوات والأرض ; وهو في تكوينه الأول من

طين هذه الأرض ; وما رزقه من خصائص جعلت منه إنسانا رزقه إياه الله ; وهو خاضع من ناحية كيانه الجسمي للناموس الذي سنه الله له - رضي أم كره - يعطى وجوده وخلقته ابتداءً بمشيئة الله , لا بمشيئته هو ولا بمشيئة أبيه وأمه: فهما يلتقيان ولكن لا يملكان أن يعطيا جنينا وجوده ! وهو يولد وفق الناموس الذي وضعه الله لمدة الحمل وظروف الولادة ! وهو يتنفس هذا الهواء الذي أوجده الله بمقاديره هذه ; ويتنفسه بالقدر وبالكمية التي أرادها الله له . وهو يحس ويتألم , ويجوع ويعطش , وبأكل ويشرب . . . وبالجملة يعيش . . . وفق ناموس الله , على غير إرادة منه ولا اختيار . . . شأنه في هذا شأن السماوات والأرض سواء .

والله - سبحانه - يعلم سره وجهره . ويعلم ما يكسب في حياته في سره وجهره .

والأليق به أن يتبع - إذن - ناموس الله في حياته الاختيارية - فيما يتخذه من تصورات اعتقادية , وقيم اعتبارية , وأوضاع حيوية - لتستقيم حياته الفطرية المحكومة بناموس الله ; مع حياته الكسبية حين تحكمها شريعة الله . ولكي لا يناقض بعضه بعضا , ولا يصادم بعضه بعضا ; ولا يتمزق مزقا بين ناموسين وشرعين: أحدهما إلهي والآخر بشري وما هما بسواء . .

حاضر المسلمين

إن هذه الموجة العريضة الشاملة في مطلع السورة , إنما تخاطب القلب البشري والعقل البشري بدليل "الخلق" ودليل "الحياة" ممثلين في الآفاق وفي الأنفس . . . ولكنها لا تخاطب بهما الإدراك البشري خطابا جدليا , لاهوتيا أو فلسفيا ! ولكن خطابا موحيا موقظا للفطرة , حيث يواجهها بحركة الخلق والإحياء ; وحركة التدبير والهيمنة ; في صورة التقرير لا في صورة الجدل ; وبسلطان اليقين المستمد من تقرير الله ; ومن شهادة الفطرة الداخلية بصدق هذا التقرير فيما تراه .

ووجود السماوات والأرض , وتديبرهما وفق هذا النظام الواضح ; ونشأة الحياة - وحياة الإنسان في قمتها - وسيرها في هذا الخط الذي سارت فيه . . . كلاهما يواجه الفطرة البشرية بالحق , ويوقع فيها اليقين بوحدانية الله . . . والوحدانية هي القضية التي تستهدف السورة كلها - بل القرآن كله - تقريرها . وليست هي قضية "وجود" الله . فلقد كانت المشكلة دائما في تاريخ البشرية هي مشكلة عدم معرفة الإله الحق , بصفاته الحققة ; ولم تكن هي مشكلة عدم الإيمان بوجود إله !

ومشركو العرب الذين كانت هذه السورة تواجههم ما كانوا يجحدون الله البتة ; بل كانوا يقرون بوجوده سبحانه , وبأنه الخالق الرازق , المالك , المحيي المميت . . . إلى كثير من الصفات - كما يقرر القرآن ذلك في مواجهتهم , وفي حكاية أقوالهم - ولكن انحرافهم الذي وصمهم بالشرك هو أنهم ما كانوا يعترفون بمقتضا عترافهم ذلك: من تحكيم الله - سبحانه - في أمرهم كله ; ونفي الشركاء له في تدبير شؤون حياتهم ; واتخاذ شريعته وحدها قانونا , ورفض مبدأ تحكيم غير الله في أي شأن من شؤون الحياة .

هذا هو الذي وصمهم بالشرك والكفر ; مع إقرارهم بوجود الله سبحانه , ووصفه بتلك الصفات , التي من مقتضاها أن يتفرد سبحانه بالحكم في شأنهم كله , بما أنه الخالق الرازق المالك , كما كانوا يعترفون . . . ومواجهتهم في مطلع هذه السورة بصفات الله هذه من الخلق للكون وللإنسان , ومن تدبيره لأمر الكون وأمر الإنسان ; ومن علمه

وإحاطته بسرهم وجهرهم وعملهم وكسبهم . . إنما هو المقدمة التي يرتب عليها ضرورة إفراده سبحانه بالحاكمية والتشريع , كما أوضحنا في التعريف الممثل بخط السورة ومنهجها .

ودليل الخلق ودليل الحياة كما أنهما صالحان لمواجهة المشركين لتقرير الوجدانية , ولتقرير الحاكمية , هما كذلك صالحان لمواجهة اللوثات الجاهلية الحديثة التافهة في إنكار الله . .

والحقيقة أن هناك شكا كثيرا فيما إذا كان هؤلاء الملحدون يصدقون أنفسهم ! فأغلب الظن أنها بدأت مناورة في وجه الكنيسة ; ثم استغلها اليهود لرغبتهم في تدمير قاعدة الحياة البشرية الأساسية , كي لا يبقى على وجه الأرض من يقوم على هذه القاعدة غيرهم - كما يقولون في بروتوكولات حكماء صهيون - ومن ثم تنهار البشرية وتقع تحت سيطرتهم , بما أنهم هم وحدهم الذين سيحافظون على مصدر القوة الحقيقية الذي توفره العقيدة !

واليهود - مهما بلغ من كيدهم ومكرهم - لا يملكون أن يغلبوا الفطرة البشرية , التي تجد في قرارها الإيمان بوجود إله - وإن كانت تضل فقط في معرفة الإله الحق بصفاته الحقة ; كما أنها تنحرف بعدم توحيد سلطانه في حياتها , فتوصم بالشرك والكفر على هذا الأساس - ولكن بعض النفوس تفسد فطرتها , وتتعتل فيها أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية . وهذه النفوس وحدها هي التي يمكن أن يفلح معها كيد اليهود الذي يستهدف نفي وجود الله فيها . ولكن هذه النفوس المعطلة الفطرة ستظل قليلة وشاذة في مجموع البشر في كل زمان . . والملحدون الحقيقيون على ظهر الأرض اليوم لا يتجاوزون بضعة ملايين في روسيا والصين من بين مئات الملايين الذين يحكمهم الملحدون بالحديد والنار ; على الرغم من الجهد الناصب خلال أربعين عاما في نزع الإيمان بكل وسائل التعليم والإعلام !

إنما يفلح اليهود في حقل آخر . وهو تحويل الدين إلى مجرد مشاعر وشعائر . وطرده من واقع الحياة . وإيهام المعتقدين به أنهم يمكن أن يظلوا مؤمنين بالله ; مع أن هناك أربابا أخرى هي التي تشرع لحياتهم من دون الله ! ويصلون بذلك إلى تدمير البشرية فعلا , حتى مع وهمها أنها لا تزال تؤمن بالله .

وهم يستهدفون الإسلام - قبل كل دين آخر - لأنهم يعرفون من تاريخهم كله , أنهم لم يغلبهم إلا هذا الدين يوم كان يحكم الحياة . وأنهم غالبوا أهله طالما أهله لا يحكمونه في حياتهم ; مع توهمهم أنهم ما يزالون مسلمين مؤمنين بالله ! فهذا التخدير بوجود الدين - وهو غير موجود في حياة الناس - ضروري لتنجح المؤامرة . . أو يأذن الله فيصحو الناس !

وأحسب - والله أعلم - أن اليهود الصهيونيين , والنصارى الصليبيين , كليهما , قد يتسوا من هذا الدين في هذه المنطقة الإسلامية الواسعة في إفريقية وآسيا وأوربا كذلك . . يتسوا من أن يحولوا الناس فيها إلى الإلحاد - عن طريق المذاهب المادية - كما يتسوا كذلك من تحويلهم إلى ديانات أخرى عن طريق التبشير أو الاستعمار . . ذلك أن الفطرة البشرية بذاتها تنفر من الإلحاد وترفضه حتى بين الوثنيين - فضلا على المسلمين - وأن الديانات الأخرى لا تجرؤ على اقتحام قلب عرف الإسلام , أو حتى ورث الإسلام !

وأحسب - والله أعلم - أنه كان من ثمرة اليأس من هذا الدين أن عدل اليهود والصهيونيين والنصارى الصليبيون عن مواجهة الإسلام جهرة عن طريق الشيوعية أو عن طريق التبشير ; فعدلوا إلى طرائق أخبت , وإلى حبائل أمكر . . لجأوا إلى إقامة أنظمة وأوضاع في المنطقة كلها تنزبا بزي الإسلام ; وتتمسح في العقيدة ; ولا تنكر الدين جملة . . ثم هي تحت هذا الستار الخادع , تنفذ جميع المشروعات التي أشارت بها مؤتمرات التبشير وبروتوكولات صهيون , ثم عجزت عن تنفيذها كلها في المدى الطويل !

إن هذه الأنظمة والأوضاع ترفع راية الإسلام - أو على الأقل تعلن احترامها للدين - بينما هي تحكم بغير ما أنزل الله ; وتقصي شريعة الله عن الحياة ; وتحل ما حرم الله ; وتنشر تصورات وقيما مادية عن الحياة والأخلاق تدمر التصورات والقيم الإسلامية ; وتسلب جميع أجهزة التوجيه والإعلام لتدمير القيم الأخلاقية الإسلامية , وسحق التصورات والاتجاهات الدينية ; وتنفذ ما نصت عليه مؤتمرات المبشرين وبروتوكولات الصهيونيين , من ضرورة إخراج المرأة المسلمة إلى الشارع , وجعلها فتنة للمجتمع , باسم التطور والتحضر ومصالحة العمل والإنتاج ; بينما ملايين الأيدي العاملة في هذه البلاد متعطلة لا تجد الكفاف ! وتيسر وسائل الانحلال وتدفع الجنسين إليها دفعا بالعمل والتوجيه . . كل ذلك وهي تزعم أنها مسلمة وأنها تحترم العقيدة ! والناس يتوهمون أنهم يعيشون في مجتمع مسلم , وأنهم هم كذلك مسلمون ! أليس الطيبون منهم يصلون ويصومون ? أما أن تكون الحاكمة لله وحده أو تكون للأرباب المتفرقة , فهذا ما قد خدعهم عنه الصليبية والصهيونية والتبشير والاستعمار والاستشراق وأجهزة الإعلام الموجهة ; وأفهمتهم أنه لا علاقة له بالدين . وأن المسلمين يمكن أن يكونوا مسلمين ; وفي دين الله ; بينما حياتهم كلها تقوم على تصورات وقيم وشرائع وقوانين ليست من هذا الدين !

وإمعانا في الخداع والتضليل ; وإمعانا من الصهيونية العالمية والصليبية العالمية في التخفي , فإنها تثير حروبا مصطنعة - باردة أو ساخنة - وعداوات مصطنعة في شتى الصور , بينها وبين هذه الأنظمة والأوضاع التي أقامتها والتي تكفلها بالمساعدات المادية والأدبية , وتحرسها بالقوى الظاهرة والخفية , وتجعل أقلام مخابراتها في خدمتها وحراستها المباشرة !

تثير هذه الحروب المصطنعة والعداوات المصطنعة , لتزيد من عمق الخدعة ; ولتبعث الشبهة عن العملاء , الذين يقومون لها بما عجزت هي عن إتمامه في خلال ثلاثة قرون أو تزيد ; من تدمير القيم والأخلاق ; وسحق العقائد والتصورات ; وتجريد المسلمين في هذه الرقعة العريضة من مصدر قوتهم الأول . . وهو قيام حياتهم على أساس دينهم وشريعتهم . . وتنفيذ المخططات الرهيبة التي تضمنتها بروتوكولات الصهيونيين ومؤتمرات المبشرين ; في غفلة من الرقباء والعيون !

فإذا بقيت بقية في هذه الرقعة لم تجز عليها الخدعة ; ولم تستسلم للتخدير باسم الدين المزيف ; وباسم الأجهزة الدينية المسخرة لتحريف الكلم عن مواضعه ; ولوصف الكفر بأنه الإسلام ; والفسق والفجور والانحلال , بأنه تطور وتقدم وتجدد . . إذا بقيت بقية كهذه سلطت عليها الحرب الساحقة الماحقة ; وصبت عليها التهم الكاذبة الفاجرة وسحقت سحقا , بينما وكالات الأنباء العالمية وأجهزة الإعلام العالمية خرساء صماء عمياء !!!

ذلك بينما الطيبون السذج من المسلمين يحسبون أنها معركة شخصية , أو طائفية , لا علاقة لها بالمعركة المشبوبة مع هذا الدين ; وبروحون يشتغلون في سذاجة بلهاء - من تأخذه الحمية للدين منهم وللأخلاق - بالتنبيه إلى مخالفات صغيرة , وإلى منكرات صغيرة , ويحسبون أنهم أدوا واجبهم كاملا بهذه الصيحات الخافتة . .

بينما الدين كله يسحق سحقا , ويدمر من أساسه ; وبينما سلطان الله يغتصبه المغتصبون , وبينما الطاغوت - الذي أمروا أن يكفروا به - هو الذي يحكم حياة الناس جملة وتفصيلا !

إن اليهود الصهيونيين والنصارى الصليبيين يفركون أيديهم فرحا بنجاح الخطة وجواز الخدعة ; بعدما يئسوا من هذا الدين أن يقضوا عليه مواجهة باسم الإلحاد , أو يحولوا الناس عنه باسم التبشير , فترة طويلة من الزمان . .

إلا أن الأمل في الله أكبر ; والثقة في هذا الدين أعمق , وهم يمكرون والله خير الماكرين . وهو الذي يقول:(وقد مكروا مكروهم , وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله , إن الله عزيز ذو انتقام). .

أما مواجهة دليل الخلق ودليل الحياة للوثة الإلحاد , فهي مواجهة قوية , لا يجد الملحدون إزاءها إلا المماحلة والمغالطة والالتواء:

إن وجود هذا الكون ابتداء , بهذا النظام الخاص , يستلزم - بمنطق الفطرة البديهي وبمنطق العقل الواعي على السواء - أن يكون وراءه خالق مدبر . .

فالمسافة بين الوجود والعدم مسافة لا يملك الإدراك البشري أن يعبرها , إلا بتصور إله ينشئ ٤ ويخلق ويوجد هذا الوجود .

والذين يلحدون يعمدون إلى هذه الفجوة فيريدون ملأها بالمكابرة . ويقولون:إنه لا داعي لأن نفترض أنه كان هناك عدم قبل الوجود ! . . ومن هؤلاء فيلسوف عرف بأنه فيلسوف "الروحية" المدافع عنها في وجه "المادية" . وعلى هذا الأساس ربما أشاد به بعض المخدوعين من "المسلمين" وأستأنسوا بأقواله لدينهم كأنما ليؤازروا دين الله بقول عبد من العبيد . . هذا الفيلسوف هو "برجسون" . . اليهودي !!!

إنه يقول:إن هذا الوجود الكوني لم يسبقه عدم ! وإن فرض الوجود بعدم العدم ناشئ ٤ من طبيعة العقل البشري الذي لا يستطيع أن يتصور إلا على هذا النحو . .

فإلى أي منطق يا ترى يستند برجسون إذن في إثبات أن الوجود الكوني لم يسبقه عدم ?

إلى العقل ? لا . فإن العقل - كما يقرر - لا يمكن أن يتصور إلا وجودا بعد عدم ! إلى وحي من الله ? إنه لا يدعي هذا . وإن كان يقول:إن حدس المتصوفة كان دائما يجد إلهها ولا بد أن نصدق هذا الحدس المطرد [الإله الذي يتحدث عنه برجسون ليس هو الله إنما هو الحياة !] . . فأين المصدر الثالث الذي يعتمد عليه [برجسون] إذن في إثبات أن الوجود الكوني غير مسبوق بعدم ? لا ندري !

إنه لا بد من الالتجاء إلى تصور خالق خلق هذا الكون . . لا بد من الالتجاء إلى هذا التصور لتعليل مجرد وجود الكون . . فكيف إذا كان الحال أنه لم يوجد مجرد وجود . ولكنه وجد

محكوما بنواميس لا تتخلف , محسوبا فيها كل شيء بمقاييس , قصارى العقول البشرية
أن تدرك أطرافاً منها , بعد التدبر الطويل !?

كذلك نشأة هذه الحياة . والمسافة بينها وبين المادة - أيا كان مدلول المادة ولو كان هو
الإشعاع - لا يمكن تعليلها إلا بتصور وجود إله خالق مدبر . يخلق الكون بحالة تسمح
بنشأة الحياة فيه ; وتسمح بكفالة الحياة أيضاً بعد وجودها . والحياة الإنسانية بخصائصها
الباهرة درجة فوق مجرد الحياة . . وأصله من طين . . أي من مادة هذه الأرض وجنسها
; ولا بد من إرادة مدبرة تمنحه الحياة , وتمنحه خصائص الإنسان عن قصد واختيار .

وكل المحاولات التي بذلها الملحدون لتعليل نشأة الحياة باءت بالفشل - عند العقل
البشري ذاته - وآخر ما قرأته في هذا الباب محاولة [ديورانت] المتفلسف الأمريكي
للتقريب بين نوع الحركة الذي في الذرة - وهو يسميه درجة من الحياة - ونوع الحياة
المعروف في الأحياء . وذلك في جهد مستميت لملء الفجوة بين المادة الهامدة والحياة
النابضة . بقصد الاستغناء عن الإله الذي ينشئ الحياة في الموات !

ولكن هذه المحاولة المستميتة لا تنفعه ولا تنفع الماديين في شيء . . ذلك أنه إن كانت
الحياة صفة كامنة في المادة , ولم يكن وراء هذه المادة قوة أخرى ذات إرادة , فما
الذي يجعل الحياة التي في المادة الكونية تتبدى في درجات بعضها أرقى وأعقد من
بعض ? فتتبدى في الذرة مجرد حركة آلية غير واعية . ثم تتبدى في النبات في صورة
عضوية . ثم تتبدى في الأحياء المعروفة في صورة عضوية أكثر تركيباً وتعقيداً . .

ما الذي جعل المادة - المتضمنة للحياة كما يقال - يأخذ بعضها من عنصر الحياة أكثر مما
يأخذ البعض الآخر , بلا إرادة مدبرة ? ما الذي جعل الحياة الكامنة في المادة , تختلف
في مدارجها المترقية !?

إننا نفهم هذا التفاوت يوم نقدر أن هناك إرادة مدبرة هي التي تصنع ذلك مختارة مريدة .
فأما حين تكون المادة [الحية ولنفرض ذلك !] هي وحدها , فإنه يستحيل على العقل
البشري ذاته أن يفهم هذا التفاوت أو يعلله !

إن التعليل الإسلامي لانبثاق الحياة في درجاتها المتفاوتة هو الحل الوحيد لهذه الظاهرة
التي لا تعللها المحاولات المادية البائسة !

وإذ كنا - في هذه الظلال - لا نخرج عن المنهج القرآني ; فإننا لا نمضي أكثر من هذا في
مواجهة لوثة الإلحاد ببراہین الخلق والتدبير والحياة . . فالقرآن الكريم لم يجعل قضية
وجود الله قضية . لعلم الله أن الفطرة ترفض هذه اللوثة . إنما القضية هي قضية توحيد
الله ; وتقرير سلطانه في حياة العبد ; وهي القضية التي تتوخاها السورة في هذه
الموجة التي استعرضناها .

الوحدة الثانية: 4 - 11 الموضوع: عناد الكفار في رفض الحق وتهديدهم

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (4)
موضوع الوحدة الثانية: موقف المشركين هذه هي الموجة التالية في افتتاح السورة ;
بعد الموجة الأولى ذات اللمسات العريضة . . الموجة التي غمرت الكون كله بحقيقة

الوجود الإلهي متجلى في خلق السماوات والأرض , منشئة للظلمات والنور ; ثم في خلق الإنسان من مادة هذه الأرض ; وتقدير أجله الذي ينتهي بالموت ; والاحتفاظ بسر الأجل الآخر المضروب للبعث ; والإحاطة بسر الناس وجهرهم , وما يكسبون في السر والجهر . .

هذا الوجود الإلهي الذي يتجلى في الآفاق والأنفس , هو وجود متفرد متوحد ; ليس مثله وجود ; لأنه ما من خالق غير الله ; كما أنه وجود غامر باهر قاهر يبدو التكذيب في ظله والإعراض عن هذه الآيات الهائلة , منكرا قبيحا , لا سند له , ولا عذر لصاحبه . .

ومن ثم يعرض السياق موقف المشركين الذين يعارضون الدعوة الإسلامية في ظل هذا الوجود الغامر الباهر القاهر ; فيبدو هذا الموقف منكرا قبيحا , حتى في حس أصحابه الذين يواجههم هذا القرآن بهذه الحقيقة ! ويكسب القرآن المعركة في الجولة الأولى . يكسبها في أعماق فطرة الناس , على الرغم من مكابرتهم ومن عنادهم الظاهرين !

وهو يعرض في هذه الموجة صورة العناد والمكابرة ; ويواجهها بالتهديد مرة ; ويتوجه القلوب إلى مصارع المكذبين من قبل مرة ; ويحشد فيها عدة مؤثرات وموجيات . بعد الهزة الأولى التي مضت بها تلك الموجة العريضة:

الدرس الأول: 4 - 6 موقف الكفار من الحق

وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم , وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين . .

إنهم يتخذون موقف الإعراض عنادا واصرارا . فليس الذي ينقصهم هو الآيات الداعية إلى الإيمان , ولا العلامات الدالة على صدق الدعوة والداعية , ولا البراهين الناطقة بما وراء الدعوة والداعية من ألوهية حقة , هي التي يدعون إلى الإيمان بها والاستسلام لها . ليس هذا هو الذي ينقصهم , إنما تنقصهم الرغبة في الاستجابة , ويمسك بهم العناد والإصرار , ويقعد بهم الإعراض عن النظر والتدبر:

فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (5)
(وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) . .

وحين يكون الأمر كذلك . حين يكون الإعراض متعمدا ومقصودا - مع توافر الأدلة , وتواتر الآيات ووضوح الحقائق - فإن التهديد بالبطش قد يحدث الهزة التي تفتح نوافذ الفطرة حين تسقط عنها حاجز الكبر والعناد:

(فقد كذبوا بالحق لما جاءهم . فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون) . .

إنه الحق هذا الذي جاءهم من لدن خالق السماوات والأرض , وجاعل الظلمات والنور , وخالق الإنسان من طين , والإله في السماوات وفي الأرض الذي يعلم سرهم وجهرهم ويعلم ما يكسبون . . إنه الحق وقد كذبوا به , مصرين على التكذيب , معرضين عن

الآيات , مستهزئين بالدعوة إلى الإيمان . . فليرتقبوا إذن أن يأتيهم الخبر اليقين عما كانوا به يستهزئون !

ويتركهم أمام هذا التهديد المجمل , الذي لا يعرفون نوعه ولا مواعده . . يتركهم يتوقعون في كل لحظة أن تأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ! حيث يتكشف لهم الحق أمام العذاب المرتقب المجهول !

وفي موقف التهديد يلفت أعناقهم وأنظارهم وقلوبهم وأعصابهم إلى مصارع المكذبين من قبلهم - وقد كانوا يعرفون بعضها في دور عاد بالأحقاد وثمود بالحجر , وكانت أطلالهم باقية يمر عليها العرب في رحلة الشتاء وللجنوب وفي رحلة الصيف للشمال , كما كانوا يمرون بقري لوط المخسوفة ويعرفون ما يتناقله المحيطون بها من أحاديث - فالسياق يلفتهم إلى هذه المصارع وبعضها منهم قريب .

(ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم , وأرسلنا السماء عليهم مدرارا , وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم . فأهلكناهم بذنوبهم , وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) . .

ألم يروا إلى مصارع الأجيال الغابرة . وقد مكنهم الله في الأرض , وأعطاهم من أسباب القوة والسلطان ما لم يعط مثله للمخاطبين من قريش في الجزيرة ; وأرسل المطر عليهم متتابعاً ينشىء في حياتهم الخصب والنماء ويفيض عليهم من الأرزاق . . ثم ماذا ؟ ثم عصوا ربهم , فأخذهم الله بذنوبهم , وأنشأ من بعدهم جيلاً آخر , ورث الأرض من بعدهم ; ومضوا هم لا تحفل بهم الأرض ! فقد ورثها قوم آخرون ! فما أهون المكذبين المعرضين أصحاب القوة والتمكين من البشر ! ما أهونهم على الله ; وما أهونهم على هذه الأرض أيضا ! لقد أهلكوا وغبروا فما أحسبت هذه الأرض بالخلاء والخواء ; إنما عمرها جيل آخر ; ومضت الأرض في دورتها كأن لم يكن هنا سكان ; ومضت الحياة في حركتها كأن لم يكن هنا أحياء !

وهي حقيقة ينساها البشر حين يمكن الله لهم في الأرض . ينسون أن هذا التمكين إنما تم بمشيئة الله , ليلوهم فيه : يقومون عليه بعهد الله وشرطه , من العبودية له وحده , والتلقي منه وحده - بما أنه هو صاحب الملك وهم مستخلفون فيه - أم يجعلون من أنفسهم طواغيت , تدعي حقوق الألوهية وخصائصها ; ويتصرفون فيما استخلفوا فيه تصرف المالك لا المستخلف .

إنها حقيقة ينساها البشر - إلا من عصم الله - وعندئذ ينحرفون عن عهد الله وعن شرط الاستخلاف ; ويمضون على غير سنة الله ; ولا يتبين لهم في أول الطريق عواقب هذا الانحراف , ويقع الفساد رويداً رويداً وهم ينزلقون ولا يشعرون . . حتى يستوفي الكتاب أجله ; ويحق وعد الله . . ثم تختلف أشكال النهاية : مرة يأخذهم الله بعذاب الاستئصال - بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير من الأقسام - ومرة يأخذهم بالسنين ونقص الأنفس والثمرات كما حدث كذلك لأقسام - ومرة يأخذهم بأن يذيق بعضهم بأس بعض ; فيعذب

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِمَّنْ قَرْنٌ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا
السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مَدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ
بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (6)

بعضهم بعضا , ويدمر بعضهم بعضا , ويؤذي بعضهم بعضا , ولا يعود بعضهم يأمن بعضا ;
فتضعف شوكتهم في النهاية ; ويسلط الله عليهم عبادا له - طائعين أو عصاة - يخضدون
شوكتهم , ويقتلعونهم مما مكنوا فيه ; ثم يستخلف الله العباد الجدد ليبتلهم بما مكنهم .
وهكذا تمضي دورة السنة . . السعيد من وعى أنها السنة , ومن وعى أنه الابتلاء ;
فعمل بعهد الله فيما استخلف فيه . والشقي من غفل عن هذه الحقيقة , وظن أنه أوتيتها
بعلمه , أو أوتيتها بحيلته , أو أوتيتها جزافا بلا تدبير !

وإنه لما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي , أو المستهتر الفاسد , أو الملحد الكافر ,
ممكنا له في الأرض , غير مأخوذ من الله . . ولكن الناس إنما يستعجلون . . إنهم يرون
أول الطريق أو وسطه ; ولا يرون نهاية الطريق . . ونهاية الطريق لا ترى إلا بعد أن
تجيء ! لا ترى إلا في مصارع الغابرين بعد أن يصبحوا أحاديث . . والقرآن الكريم يوجه
إلى هذه المصارع ليتنبه المخدوعون الذين لا يرون - في حياتهم الفردية القصيرة - نهاية
الطريق ; فيخدعهم ما يرون في حياتهم القصيرة ويحسبونه نهاية الطريق !

إن هذا النص في القرآن: (فأهلكناهم بذنوبهم). . وما يماثله , وهو يتكرر كثيرا في
القرآن الكريم . . إنما يقرر حقيقة , ويقرر سنة , ويقرر طرفا من التفسير الإسلامي
لأحداث التاريخ . .

إنه يقرر حقيقة أن الذنوب تهلك أصحابها , وأن الله هو الذي يهلك المذنبين بذنوبهم ;
وأن هذه سنة ماضية - ولو لم يرها فرد في عمره القصير , أو جيل في أجله المحدود -
ولكنها سنة تصير إليها الأمم حين تفسو فيها الذنوب ; وحين تقوم حياتها على الذنوب . .
كذلك هي جانب من التفسير الإسلامي للتاريخ: فإن هلاك الأجيال واستخلاف الأجيال ;
من عوامله , فعل الذنوب في جسم الأمم ; وتأثيرها في إنشاء حالة تنتهي إلى الدمار ;
إما بقارعة من الله عاجلة - كما كان يحدث في التاريخ القديم - وإما بالانحلال البطيء
الفطري الطبيعي , الذي يسري في كيان الأمم - مع الزمن - وهي توغل في متاهة
الذنوب !

وأمامنا في التاريخ القريب - نسييا - الشواهد الكافية على فعل الانحلال الأخلاقي ,
والدعارة الفاشية , واتخاذ المرأة فتنة وزينة , والترف والرخاوة , والتلهي بالنعيم . .
أمامنا الشواهد الكافية من فعل هذا كله في انهيار الإغريق والرومان - وقد أصبحوا
أحاديث - وفي الانهيار الذي تتجلى أوائله , وتلوح نهايته في الأفق في أُمم معاصرة ,
كفرنسا وانجلترا كذلك - على الرغم من القوة الظاهرة والثراء العريض .

إن التفسير المادي للتاريخ يحذف هذا الجانب حذفًا باتا من تفسيره لأطوار الأمم
وأحداث التاريخ , ذلك أن وجهته ابتداء هي استبعاد العنصر الأخلاقي من الحياة ,
واستبعاد القاعدة الاعتقادية التي يقوم عليها . . ولكن هذا التفسير يضطر إلى مماحكات
مضحكة في تفسير أحداث وأطوار في حياة البشرية لا سبيل إلى تفسيرها إلا على
أساس القاعدة الاعتقادية .

والتفسير الإسلامي - بشموله وجديته وصدقته وواقعيته - لا يغفل أثر العناصر المادية -
التي يجعلها التفسير . المادي هي كل شيء - ولكنه يعطيها مكانها الذي تستحقه في
رقعة الحياة العريضة ; ويبرز العناصر الفعالة الأخرى التي لا ينكرها إلا أصحاب العناد

الصفيق لواقعيات الوجود . . يبرز قدر الله من وراء كل شيء ; ويبرز التغير الداخلي في الضمائر والمشاعر والعقائد والتصورات ; ويبرز السلوك الواقعي والعنصر الأخلاقي . .

وَلَوْ تَرَّأْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (7)
ولا يغفل عاملا واحدا من العوامل التي تجري بها سنة الله في الحياة . .

الدرس الثاني: 7 - 9 عناد الكفار ليس لنقص الآيات

ثم يمضي السياق يصور طبيعة العناد , التي ينبعث منها ذلك الإعراض ; فيرسم نموذجا عجيبا من النفوس البشرية . . ولكنه نموذج مع ذلك مكرور , يجده الإنسان في كل عصر وفي كل بيئة وفي كل جيل . . نموذج النفس المكابرة , التي يخرق الحق عينها ولا تراه ! والتي تنكر ما لا ينكر لأنه من الوضوح بحيث يخجل المخالف أن ينكره ! على الأقل من باب الحياة ! . . والقرآن يرسم هذا النموذج شاخصا في كلمات قلائل , على طريقة التعبير القرآني المبدعة المعجزة في التعبير والتصوير :

(ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم , لقال الذين كفروا: إن هذا إلا سحر مبين) . .

إنه ليس الذي يجعلهم يعرضون عن آيات الله , أن البرهان على صدقها ضعيف , أو غامض , أو تختلف فيه العقول . إنما الذي يجعلهم يقفون هذا الموقف هو المكابرة الغليظة والعناد الصفيق ! وهو الإصرار مبدئيا على الرفض والإنكار وعدم اعتبار البرهان أو النظر إليه أصلا ! ولو أن الله - سبحانه - نزل على رسول الله [ص] هذا القرآن , لا عن طريق الوحي الذي لا يروونه ; ولكن في ورقة منظورة ملموسة محسوسة ; ثم لمسوا هم هذه الورقة بأيديهم - لا سماعا عن غيرهم , ولا مجرد رؤية بعيونهم - ما سلموا بهذا الذي يروونه ويلمسونه , ولقالوا جازمين مؤكدين:

إن هذا إلا سحر مبين .

وهي صورة صفيقة , منكرة , تشير الاشتمزاز , وتستعدي من يراها عليها ! صورة تشير النفس لتتقدم فتصفعها ! حيث لا مجال مع هذه الجبيلات لحجة أو جدل أو دليل !

وتصويرها على هذا النحو - وهي صورة تمثل حقيقة لنماذج مكرورة - يؤدي غرضين أو عدة أغراض:

إنه يجسم للمعارضين أنفسهم حقيقة موقفهم الشائن الكريه البغيض ; كالذي يرفع المرأة لصاحب الوجه الشائه والسحنة المنكرة , , ليرى نفسه في هذه المرأة , ويخجل منها !

وهو في الوقت ذاته يستجيش ضمائر المؤمنين تجاه إعراض المشركين وإنكار المنكرين ; ويثبت قلوبهم على الحق , فلا تتأثر بالجو المحيط من التكذيب والإنكار والفتنة والإيذاء .

كذلك هو يوحى بحلم الله الذي لا يعجل على هؤلاء المعارضين المكذبين , وهم في مثل هذا العناد المنكر الصفيق .

وكلها أسلحة وحركة في المعركة التي كانت تخوضها الجماعة المسلمة بهذا القرآن في مواجهة المشركين .

بعد ذلك يحكي نموذجا من اقتراحات المشركين , التي يملئها التحمل والعناد , كما يملئها الجهل وسوء التصور . ذلك إذ يقترحون أن ينزل الله - سبحانه - على الرسول [ص] ملكا يصاحبه في تبليغ الدعوة ; ويصدقه في أنه مرسل من عند الله . ثم يبين لهم ما في هذا الاقتراح من جهل بطبيعة الملائكة , وبسنة الله في إرسالهم , كما يبين لهم رحمة الله بهم في أن لا يستجيب لهم فيما يقترحون:

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَاً لَفُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (8)
(وقالوا: لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا , وللبسنا عليهم ما يلبسون) .

وهذا الاقتراح الذي كان المشركون يقترحونه ; والذي اقترحه من قبلهم أقوام كثيرون على رسلهم - كما يحكي القرآن الكريم في قصصهم - والرد القرآني عليه في هذا الموضوع . . هذا وذاك يثيران جملة حقائق نلم بها هنا بقدر الإمكان:

الحقيقة الأولى: أن أولئك المشركين من العرب لم يكونوا يجحدون الله ; ولكنهم كانوا يريدون برهانا على ان الرسول [ص] مرسل من عنده ; وأن هذا الكتاب الذي يتلوه عليه 7م منزل من عند الله حقا . ويقترحون برهانا معينا: هو أن ينزل الله عليه ملكاً يصاحبه في الدعوة ويصدق دعواه . . ولم يكن هذا إلا اقتراحا من اقتراحات كثيرة من مثله , ورد ذكرها في القرآن في مواضع منه شتى . وذلك كالذي ورد في سورة الإسراء , وهو يتضمن هذا الاقتراح , واقتراحات من نوعه تدل كلها على التعنت الذي وصفته الآية السابقة , كما تدل على الجهل بكثير من الحقائق الكونية وكثير من القيم الحقيقية: (ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل , فابى أكثر الناس إلا كفورا . وقالوا: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا , أو تأتي بالله والملائكة قبلا . أو يكون لك بيت من زخرف , أو ترقى في السماء , ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . قل: سبحان ربي ! هل كنت إلا بشرا رسولا ? وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا: أبعث الله بشرا رسولا ? قل: لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) . . [الإسراء: 89-95] .

ومن مثل هذه الاقتراحات يتبين التعنت كما تتبين الجهالة . . وإلا فقد كان لهم من خلق رسول الله [ص] الذي يعرفونه جيدا بالخبرة الطويلة ; ما يدلهم على صدقة وأمانته وهم كانوا يلقبونه الأمين , ويودعون لديه أماناتهم حتى وهم معه على أشد الخلاف ; وقد هاجر [ص] وترك ابن عمه عليا - رضي الله عنه - يرد إلى قريش ودائعهم التي كانت ما تزال عنده ; وهم معه على الخلاف الذي يدبرون معه قتله ! وكذلك كان صدقه عندهم مستيقنا كأمانته ; فإنه لما دعاهم أول مرة دعوة جماعية جهرية على الصفا - حين أمره ربه بذلك - وسألهم: إن كانوا يصدقونه لو أنبأهم نبيا , أجابوه كلهم بأنه عندهم مصدق . . فلو كانوا يريدون أن يعلموا صدقه لقد كان لهم في ماضيه برهان , ولقد كانوا

يعلمون: إنه لصادق . . وسيأتي في سياق السورة خبر الله الصادق لنبيه: أنهم لا يكذبونه: (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون . فإنهم لا يكذبونك . ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون). . فهي الرغبة في الإنكار والإعراض ; وهو العناد والاستكبار عن الحق . وليس أنهم يشكون في صدقه [ص] !

ثم لقد كان لهم في القرآن ذاته برهان أصدق من هذه البراهين المادية التي يطلبون . فإن هذا القرآن شاهد بذاته , بتعبيره ثم بمحتوى هذا التعبير , على أنه من عند الله . . وهم لم يكونوا يجحدون الله . . وهم - على وجه التأكيد - كانوا يحسون ذلك ويعرفونه . . كانوا يعرفون بحسهم اللغوي الأدبي الفني مدى الطاقة البشرية ; ويعرفون أن هذا القرآن فوق هذا المدى - وهذا الإحساس يعرفه من يمارس فن القول ويتذوقه أكثر مما يعرفه من ليست له هذه الممارسة . وكل من مارس فن القول يدرك إدراكا واضحا أن هذا القرآن فوق ما يملك البشر أن يبلغوا ; لا ينكر هذا إلا معاند يجد الحق في نفسه ثم يخفيه ! كما أن المحتوى القرآني من التصور الاعتقادي بالمنهج الذي يتخذه لتقرير هذا الاعتقاد في الإدراك البشري , ونوع المؤثرات واللمسات الموحية . . كلها غير معهود في طبيعة التصورات البشرية والمناهج البشرية , والطرائق البشرية في الإداء النفسي والتعبيري أيضا . . والعرب لم يكن يخفي عليهم الشعور بهذا في قرارة نفوسهم . وأقوالهم ذاتها وأحوالهم تقرر أنهم ما كانوا يشكون في أن هذا القرآن من عند الله . .

وهكذا يبدو أن هذه الاقتراحات لم تكن طلبا للبرهان ; إنما كانت وسيلة من وسائل الإعانة ; وأسلوبا من أساليب التعنت ; وخطة للمماحكة والمعاندة ; وأنهم كانوا كما قال الله سبحانه عنهم في الآية السابقة: (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم , لقال الذين كفروا: إن هذا إلا سحر مبين)!

والحقيقة الثانية: أن العرب كانوا يعرفون الملائكة ; وكانوا يطلبون أن ينزل الله على رسوله ملكا يدعو معه ويصدق . . ولكنهم لم يكونوا يعرفون طبيعة هذا الخلق التي لا يعلمها إلا الله ; وكانوا يخطون في التيه بلا دليل في تصور هذا الخلق ; وفي نوع علاقته بربه ; ونوع علاقته بالأرض وأهلها . . وقد حكى القرآن الكريم كثيرا من ضلالات العرب وأساطير الوثنية حول الملائكة ; وصححها كلها لهم ليستقيم تصور من يهتدي بهذا الدين منهم ; وتصح معرفتهم لهذا الكون وما يعمره من خلائق . وكان الإسلام - من هذا الجانب - منهجا لتقويم العقل والشعور , كما كان منهجا لتقويم القلب والضمير , ومنهجا لتقويم الأوضاع والأحوال سواء . .

وحكى القرآن الكريم من أضراليل العرب ومن جهالاتهم في جاهليتهم , أنهم كانوا يظنون أن الملائكة بنات الله ! سبحانه وتعالى عما يصفون ! وأنهم - من ثم - لهم شفاععة عند الله لا ترد ! والراجح أن بعض كبار الأصنام كانت رموزا للملائكة ! كما حكى قولهم هذا في طلبهم أن ينزل الله على رسوله ملكا ليصدقه في دعواه . .

وقد صحح لهم القرآن ضلالتهم الأولى في مواضع منه شتى . كالذي جاء في سورة النجم:

أفرايتم اللات والعزى ? ومناة الثالثة الأخرى ? ألكم الذكر وله الأنثى ? تلك إذا قسمة ضيزى ! إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان , إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس , ولقد جاءهم من ربهم الهدى . أم للإنسان ما تمنى ? فله الآخرة والأولى . وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن

يأذن الله لمن يشاء ويرضى . إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن , وإن الظن لا يغني من الحق شيئا .

كما صحح لهم ضلالتهم الثانية في تصورهم لطبيعة الملائكة في هاتين الآيتين في هذه السورة وفي مواضع أخرى كثيرة:

(وقالوا: لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون). .

وهذا جانب من التعريف بهذا الخلق من عباد الله . . إنهم يقترحون أن ينزل الله ملكا . ولكن سنة الله أن ينزل الملائكة - حين ينزلون إلى الأرض على قوم كذبوا برسولهم - أن ينزلوا للتدمير عليهم , وتحقيق أمر الله فيهم بالهلاك والدمار . ولو أن الله استجاب للمشركين من العرب فأنزل ملكا , لقضي الأمر , وتم التدمير , ولم ينظروا إلى مهلة بعد هذا التنزيل ! فهل هذا ما يريدون وما يقترحون ? وهلا يستشعرون رحمة الله في عدم إجابتهم لما يقترحون لأنفسهم من الهلاك المبين !? . . هكذا يفهم السياق وجهها لوجه أمام رحمة الله بهم وحلمه عليهم ; وأمام جهلهم بمصلحة أنفسهم , وجهلهم بسنة الله في تنزيل الملائكة . . وهم بهذا الجهل الذي يكاد يدمر عليهم حياتهم , يرفضون الهدى ويرفضون الرحمة ويتعنتون في طلب الدليل !

والجانب الثاني من التعريف بهذا الخلق من عباد الله تتضمنه الآية الثانية:

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبَسُونَ (9) وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالذِّينِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (10)
(ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا , وللبسنا عليهم ما يلبسون). .

إنهم يقترحون أن ينزل الله - سبحانه - ملكا على رسوله [ص] يصدقه في دعواه . . ولكن الملائكة خلق آخر غير الخلق الإنساني . خلق ذو طبيعة خاصة يعلمها الله . وهم - كما يقول الله عنهم , ونحن لا علم لنا بهم إلا مما يقوله عنهم الذي خلقهم - لا يستطيعون أن يمشوا في الأرض بهيئتهم التي خلقهم الله عليها ; لأنهم ليسوا من سكان هذا الكوكب ; ولكن لهم - مع ذلك - من الخصائص ما يجعلهم يتخذون هيئة البشر حين يؤدون وظيفة من وظائفهم في حياة البشر ; كتبليغ الرسالة ; أو التدمير على من يريد الله أن يدمر عليهم من المكذبين ; أو تثبيت المؤمنين , أو قتال أعدائهم وقتلهم . . إلى آخر الوظائف التي يقص القرآن الكريم أنهم يكلفون بها من ربهم , فلا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

فلو شاء الله أن يرسل ملكا يصدق رسوله , لتبدي للناس في صورة رجل - لا في صورته الملائكية - وعندئذ يلبس عليهم الأمر مرة أخرى ! وإذا كانوا يلبسون على أنفسهم الحقيقة ومحمد [ص] يقول لهم: أنا محمد الذي تعرفونه أرسلني الله إليكم لأنذركم وأبشركم . . , فكيف يكون اللبس إذا جاءهم ملك - في صورة رجل لا يعرفونه - يقول لهم: أنا ملك أرسلني الله لأصدق رسوله . . بينما هم يرونه رجلا كأي منهم !? إنهم يلبسون الحقيقة البسيطة . فلو أرسل الله ملكا لجعله رجلا ولبس عليهم الحقيقة التي يلبسونها ; ولما اهتموا قط إلى يقين !

وهكذا يكشف الله - سبحانه - جهلهم بطبيعة خلائقه , كما كشف لهم جهلهم في معرفة سنته . . وذلك بالإضافة إلى كشف تعنتهم وعنادهم بلا مبرر , وبلا معرفة , وبلا دليل !

والحقيقة الثالثة التي يثيرها النص القرآني في الفكر: هي طبيعة التصور الإسلامي ومقومات هذا التصور - ومن بينها تلك العوالم الظاهرة والمغيبة التي علم الإسلام المسلم أن يدركها أولا , وأن يتعامل معها أخيرا - ومن بين تلك العوالم المغيبة عالم الملائكة . . وقد جعل الإسلام الإيمان بها مقوما من مقومات الإيمان , لا يتم الإيمان إلا به . . الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره . .

وقد سبق أن ذكرنا في هذه الظلال ونحن نتحدث عن مطلع سورة البقرة: ما ملخصه أن الإيمان بالغيب نقلة في حياة الإنسان ضخمة ; لأن خروجه من دائرة المحسوس الضيقة إلى إدراك أن هناك غيبا مجهولا يمكن وجوده ويمكن تصوره , هو - بلا شك - نقلة من دائرة الحس الحيواني إلى مجال الإدراك الإنساني . وأن إغلاق هذا المجال دون الإدراك الإنساني نكسة به إلى الوراء ; وهو ما تحاوله المذاهب المادية الحسية ; وتدعوه "تقدمية" ! وسنتحدث - إن شاء الله - بشيء من التفصيل عن "الغيب" عندما نواجه في هذه السورة قوله تعالى: (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو). . فنقصر الحديث هنا عن الملائكة , من عالم الغيب .

لقد تضمن التصور الإسلامي عن عالم الغيب , أن هناك خلقا من عباد الله اسمهم الملائكة . وأخبرنا القرآن الكريم عن قدر من صفاتهم , يكفي لهذا التصور , ويكفي للتعامل معهم في حدوده .

فهم خلق من خلق الله , يدين لله بالعبودية , وبالطاعة المطلقة ; وهم قريبون من الله - لا ندري كيف ولا ندري نوع القرب على وجه التحديد -:(وقالوا: اتخذ الرحمن ولدا . سبحانه ! بل عباد مكرمون , لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون , يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون). . (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون , يسبحون الليل والنهار لا يفترون). .

وهم يحملون عرش الرحمن , ويحفون به يوم القيامة كذلك - لا ندري كيف فليس لنا من علم إلا بقدر

ما كشف الله لنا في هذا الغيب :- (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به . . .). . (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم , وقضى بينهم بالحق وقيل: الحمد لله رب العالمين). .

وهم خزنة الجنة وخزنة النار , يستقبلون أهل الجنة بالسلام والدعاء , ويستقبلون أهل النار بالتأنيب والوعيد: وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا , حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها , وقال لهم خزنتها: ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ? قالوا: بلى ! ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين: قيل: ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين . وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا , حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها , وقال لهم خزنتها: سلام عليكم , طبتم فادخلوها خالدين . . (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة). .

وهم يتعاملون مع أهل الأرض في صور شتى:

فهم يقومون عليهم حفظة بأمر الله ; يتابعونهم ويسجلون عليهم كل ما يصدر عنهم ; ويتوفونهم إذا جاء أجلهم:(وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون). . (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه . . من أمر الله . .). (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد). .

وهم يبلغون الوحي إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم . . وقد أعلمنا الله - سبحانه - أن جبريل عليه السلام هو الذي يقوم منهم بهذه الوظيفة:(ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده:أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون). . (قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله). . ووصفه - سبحانه - بأنه ذو مرة [أي قوة] وأن رسول الله [ص] رآه على هيئة الملائكية مرتين اثنتين , بينما جاءه في صور شتى في مرات الوحي التالية: والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى

وهم ينزلون على المؤمنين بالثبوت والمدد والتأييد في معركتهم الكبرى مع الباطل والطاغوت:(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون). . (إذ تقول للمؤمنين:ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به , وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . .). (إذ يوحى ربك إلى الملائكة:أني معكم فثبتوا الذين آمنوا , سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب , فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان). .

وهم مشغولون بأمر المؤمنين , يسبحون ربهم , ويستغفرون للذين آمنوا من ذنوبهم , ويدعون ربهم لهم دعاء المحب المشفق المشغول بشأن من يحب: لذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به , ويستغفرون للذين آمنوا , ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما , فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك , وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم , ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم , إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات , ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته , وذلك هو الفوز العظيم . . وهم كذلك يبشرون المؤمنين بالجنة عند قبض أرواحهم , ويستقبلونهم بالبشرى في الآخرة ويسلمون عليهم في الجنة:(الذين تتوفاهم الملائكة طيبين , يقولون:سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون). . (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم , والملائكة يدخلون عليهم من كل باب , سلام عليكم بما صبرتم , فنعم عقبى الدار). .

وهم يستقبلون الكافرين في جهنم بالتأنيب والوعيد - كما سبق - ويقاطلونهم في معارك الحق كذلك . وكذلك هم يستلون أرواحهم في تعذيب وتأنيب ومهانة: ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم:أخرجوا أنفسكم , اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون . . (فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم!). .

ولقد كان لهم شأن مع البشر منذ نشأة أبيهم آدم , كما أن هذه الصلة امتدت في طول الحياة وعرضها حتى مجال الحياة الباقية على النحو الذي أشرنا إليه في المقتطفات القرآنية السابقة . وشأن الملائكة مع النشأة الإنسانية يرد في مواضع شتى , كالذي جاء في سورة البقرة:(وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة . قالوا:أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء , ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ? قال:إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة , فقال:أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا:سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال:يا آدم أنبئهم بأسمائهم , فلما أنبأهم بأسمائهم قال:ألم أقل لكم:إني أعلم غيب السماوات والأرض , وأعلم ما تدون وما كنتم تكتمون وإذ قلنا للملائكة:اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . . .)

فهذا المجال الفسيح الذي تتصل فيه حياة البشر بهذا الملاً الأعلى , هو فسحة في التصور , وفسحة في إدراك حقائق هذا الوجود , وفسحة في الشعور , وفسحة في الحركة النفسية والفكرية , يتيحها التصور الإسلامي للمسلم ; والقرآن يعرض عليه هذا المجال الفسيح , وعالم الغيب المتصل بما هو فيه من عالم الشهود .

والذين يريدون أن يغلقوا على "الإنسان" هذا المجال . . . ومجال عالم الغيب كله . . . إنما يريدون به أقبح الشر . . . يريدون أن يغلقوا عالمه على مدى الحس القريب المحدود ; ويريدون بذلك أن يزجوا به في عالم البهائم ; وقد كرمه الله بقوة التصور ; التي يملك بها أن يدرك ما لا تدركه البهائم ; وأن يعيش في بحبوحة من المعرفة , وبحبوحة من الشعور ! وأن ينطلق بعقله وقلبه إلى مثل هذا العالم ; وأن يتطهر وهو يرف بكيانه كله في مثل هذا النور !

والعرب في جاهليتهم - على كل ما في هذه الجاهلية من خطأ في التصور - كانوا [من هذا الجانب] أرقى من أهل الجاهلية [العلمية !] الحديثة ; الذين يسخرون من الغيب كله ! ويعدون الإيمان بمثل هذه العوالم الغيبية سذاجة غير علمية ! ويضعون "الغيبية" في كفة , و"العلمية" في الكفة الأخرى ! وسناقش عند مواجهة قوله تعالى: (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) هذه الدعوى التي لا سند لها من العلم , كما أنه لا سند لها من الدين . أما هنا فنكتفي بكلمة مختصرة عن شأن الملائكة .

ونسأل:ماذا عند أدعياء العقلية "العلمية" , من علمهم ذاته , يحتم عليهم نفي هذا الخلق المسمى بالملائكة , وإبعاده عن دائرة التصور والتصديق ? ماذا لديهم من علم يوجب عليهم ذلك ?

إن علمهم لا يملك أن ينفي وجود حياة من نوع آخر غير الحياة المعروفة في الأرض في أجرام أخرى , يختلف تركيب جوها وتختلف طبيعتها وظروفها عن جو الأرض وظروفها . . فلماذا يجزمون بنفي هذه العوالم , وهملا يملكون دليلاً واحداً على نفي وجودها ?

إننا لا نحاكمهم إلى عقيدتنا , ولا إلى قول الله سبحانه ! إنما نحاكمهم إلى "علمهم" الذي يتخذونه إلهاً . . . فلا نجد إلا أن المكابرة وحدها - من غير أي دليل من هذا العلم - هي التي تقودهم إلى هذا الإنكار "غير العلمي" ! المجرد أن هذه العوالم غيب ? لقد نرى حين تناقش هذه القضية أن الغيب الذي ينكرونه هو الحقيقة الوحيدة التي يجزم هذا "العلم" اليوم بوجودها ; حتى في عالم الشهادة الذي تلمسه الأيدي وتراه العيون .

الدرس الثالث:10 - 11 دعوة الكفار للإعتبار من هلاك السابقين

وتنتهي هذه الموجة بعرض ما وقع للمستهزئين بالرسول . ودعوة المكذبين إلى تدبر مصارع أسلافهم , والسير في الأرض لرؤية هذه المصارع ; الناطقة بسنة الله في المستهزئين المكذبين :

ولقد استهزئ برسول من قبلك , فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون .
قل:سيروا في الأرض , ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين . .

إن هذه اللفتة - بعد ذكر إعراضهم عنادا وتعنتا ; وبعد بيان ما في اقتراحاتهم من عنت وجهالة ; وما في عدم الاستجابة لهذه المقترحات من رحمة من الله وحلم - لترمي إلى غرضين ظاهرين:

الأول:تسلية رسول الله [ص] والتسرية عنه , مما يلقاه من عناد المعرضين , وعنت المكذبين ; وتطمين قلبه [ص] إلى سنة الله سبحانه في أخذ المكذبين لمستهزئين بالرسول ; وتأسيته كذلك بأن هذا الإعراض والتكذيب ليس بدعا في تاريخ الدعوة إلى الحق . فقد لقي مثله الرسول قبله ; وقد لقي المستهزئون جزاءهم الحق وحق بهم ما كانوا يستهزئون به من العذاب , ومن غلبة الحق على الباطل في نهاية المطاف . .

والثاني:لمس قلوب المكذبين المستهزئين من العرب بمصارع أسلافهم من المكذبين المستهزئين:وتذكيرهم بهذه المصارع التي تنتظرهم إن هم لجوا في الاستهزاء والسخرية والتكذيب . وقد أخذ الله - من قبلهم - قرونا كانت أشد منهم قوة وتمكينا في الأرض ; وأكثر منهم ثراء ورخاء , كما قال لهم في مطلع هذه الموجة ; التي ترج القلوب رجا بهذه رجا بهذه اللفات الواقعية المخيفة .

ومما يستدعي الانتباه ذلك التوجيه القرآني:

(قل:سيروا في الأرض , ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين). . .

والسير في الأرض للاستطلاع والتدبر والاعتبار ; ولمعرفة سنن الله مرتسمة في الأحداث , والوقائع ; مسجلة في الآثار الشاخصة , وفي التاريخ المروي في الأحاديث المتداولة حول هذه الآثار في أرضها وقومها . . السير على هذا النحو , لمثل هذا الهدف , وبمثل هذا الوعي . . أمور كلها كانت جديدة على العرب ; تصور مدى النقلة التي كان المنهج الإسلامي الرباني ينقلهم إليها من جاهليتهم إلى هذا المستوى من الوعي والفكر والنظر والمعرفة .

لقد كانوا يسيرون في الأرض , ويتنقلون في أرجائها للتجارة والعيش , وما يتعلق بالعيش من صيد ورعي . . أما أن يسيروا وفق منهج معرفي تربوي . . فهذا كان جديدا عليهم . وكان هذا المنهج الجديد يأخذهم به ; وهو يأخذ بأيديهم من سفح الجاهلية , في الطريق الصاعد , إلى القمة السامقة التي بلغوا إليها في النهاية .

ولقد كان تفسير التاريخ الإنساني وفق قواعد منهجية كهذه التي كان القرآن يوجه إليها العرب ; ووفق سنن

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (11)

مطرده تتحقق آثارها كلما تحققت أسبابها - بإذن الله - ويستطيع الناس ملاحظتها ; وبناء تصوراتهم للمقدمات والنتائج عليها ; ومعرفة مراحلها وأطوارها . . كان هذا المنهج برمته في تفسير التاريخ شيئاً جديداً على العقل البشري كله في ذلك الزمان . إذ كان قصارى ما يروى من التاريخ وما يدون من الأخبار , مجرد مشاهدات أو روايات عن الأحداث والعادات والناس ; لا يربط بينها منهج تحليلي أو تكويني يحدد الترابط بين الأحداث , كما يحدد الترابط بين المقدمات والنتائج , وبين المراحل والأطوار . . فجاء المنهج القرآني ينقل البشرية إلى هذا الأفق ; ويشعر لهم منهج النظر في أحداث التاريخ الإنساني . وهذا المنهج ليس مرحلة في طرائق الفكر والمعرفة . إنما هو "المنهج" . . هو الذي يملك وحده إعطاء التفسير الصحيح للتاريخ الإنساني .

والذين يأخذهم الدهش والعجب للنقلة الهائلة التي انتقل إليها العرب في خلال ربع قرن من الزمان على عهد الرسالة المحمدية , وهي فترة لا تكفي إطلاقاً لحدوث تطور فجائي في الأوضاع الاقتصادية , سيرتفع عنهم الدهش ويزول العجب , لو أنهم حولوا انتباههم من البحث في العوامل الاقتصادية ; لبحثوا عن السر في هذا المنهج الرباني الجديد , الذي جاءهم به محمد [ص] من عند الله العليم الخبير . . ففي هذا المنهج تكمن المعجزة , وفي هذا المنهج يكمن السر الذي يبحثون عنه طويلاً عند الإله الزائف الذي أقامته المادية حديثاً . . إله الاقتصاد . .

وإلا فأين هو التحول الاقتصادي المفاجئ في الجزيرة العربية ; الذي ينشئ من التصورات الاعتقادية ونظام الحكم , ومناهج الفكر , وقيم الأخلاق , وأما المعرفة , وأوضاع المجتمع , كل هذا الذي نشأ في ربع قرن من الزمان !

إن هذه اللفتة:

(قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين).

إلى جانب اللفتة التي جاءت في صدر هذه الموجة من قوله تعالى:(ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم , وأرسلنا السماء عليهم مدراراً , وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم , فأهلكناهم بذنوبهم , وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين) . .

إلى جانب أمثالها في هذه السورة وفي القرآن كله لتؤلف جانباً من منهج جديد جده كاملة على الفكر البشري . وهو منهج باق . ومنهج كذلك فريد . .

الوحدة الثالثة: 12 - 19 الموضوع: حقيقة الألوهية من خلال الملكية والفاعلية موضوع الوحدة

هذه الموجة الجديدة ذات المد العالي والإيقاع الرهيب , تجيء في أعقاب الحديث عن التكذيب والإعراض والسخرية والاستهزاء ; وما ختم به هذا الحديث وما تخلله من التهديد المخيف ; مع توجيه الأنظار والقلوب إلى الاعتبار بمصارع المكذبين المستهزئين . . كما أنها تجيء بعد موجة الافتتاح السابقة للحديث عن المكذبين ; والتي عرضت حقيقة الألوهية في المجال الكوني العريض ; وفي المجال الإنساني العميق . وهي كذلك تعرض حقيقة الألوهية في مجالات أخرى , بإيقاعات جديدة ; ومع مؤثرات كذلك جديدة . . فيقع الحديث عن التكذيب بين موجة الافتتاح وهذه الموجة ; ويبدو أمره في غاية النكارة وفي غاية البشاعة !

ولقد عرضت الموجة الأولى حقيقة الألوهية ممثلة في خلق السماوات والأرض , وجعل الظلمات والنور , وخلق الإنسان من طين , وقضاء الأجل الأول لعمره , وتسمية الأجل الثاني لبعثه . مقررة شمول ألوهية الله للسماوات وللأرض , وإحاطة علمه بسر الناس وجهرهم وما يكسبونه في السر والجهر . . كل أولئك لا لمجرد التقرير اللاهوتي أو الفلسفي النظري السلبي . ولكن لتقرير مقتضيات هذه الحقائق في الحياة الإنسانية . من إسلامها بجملتها لله وحده , لا تعدل به أحدا , ولا تمتري في هذه الوجدانية . ومن إقرارها بشمول الألوهية لشيئون الكون ولشيئون الحياة الإنسانية في السر والجهر . ومن ترتيب النتائج الطبيعية لهذه الحقائق في الاستسلام لحاكمية الله وحده في شؤون الحياة الأرضية كالاستسلام لهذه الحاكمية في الشؤون الكونية . .

فأما هذه الموجة الجديدة فتستهدف كذلك إبراز حقيقة الألوهية , ممثلة في الملك والفاعلية , وفي الرزق والكفالة ; وفي القدرة والقهر ; وفي النفع والضر . . كل ذلك لا لمجرد التقرير اللاهوتي أو الفلسفي النظري السلبي . . ولكن لتقرير مقتضيات هذه الحقائق من توحيد الولاية والتوجه ; وتوحيد الاستسلام والعبودية . . واعتبار الولاية والتوجه مظهر الاستسلام والعبودية . فإذا أمر رسول الله [ص] أن يستنكر أن يتخذ غير الله وليا ; بين أن هذا الاستنكار قائم أولا على أن الله يطعم ولا يطعم ; وقائم ثانيا على أن تولي غير الله نقض لما أمر به من الإسلام وعدم الشرك أيضا . .

وبصاحب عرض حقيقة الألوهية , في هذه الصورة ولهذا الغرض , جملة مؤثرات قوية تخلخل القلوب . تبدأ بعرض حقيقة الملكية لكل شيء . وحقيقة أن الله هو الذي يطعم ولا يطعم . وعرض العذاب الرعيب الذي يعد مجرد صرفه رحمة من الله وفوزا عظيما . وعرض القدرة على الضر والخير . وعرض الاستعلاء والقهر .

وعرض الحكمة والخبرة . . ثم الإيقاع الرهيب المزلزل , المتمثل في الأمر العلوي الهائل: قل . قل . قل:

فإذا تم هذا العرض بكل مؤثراته العميقة , جاء الختام بالإيقاع العالي المجلجل . . إيقاع الإشهاد على التوحيد , وإنكار الشرك , والمفاصلة الحاسمة ; مصحوبا كذلك بالأمر العلوي في كل فاصلة: (قل: أي شيء أكبر شهادة ?) . . (قل: الله) . . (قل: لا أشهد) . . (قل: إنما هو إله واحد) . . مما يضفي على الجو كله رهبة غامرة ; ويضفي على الأمر كله طابع جد مرهوب !

الدرس الأول: 12 شمول ملكية الله للزمان والمكان

(قل: لمن ما في السماوات والأرض ? قل لله , كتب على نفسه الرحمة , ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه , الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون . وله ما سكن في الليل والنهار , وهو السميع العليم) . .

إنه موقف المواجهة للبيان والتقرير , ثم المفاصلة . . ومن ثم يبدأ بتوجيه الرسول [ص] لهذه المواجهة . مواجهة المشركين - الذين يعرفون أن الله هو الخالق ثم يعدلون به من لا يخلق ; فيجعلون له شركاء مع الله في تصريف حياتهم - مواجعتهم بالسؤال عن الملكية - بعد الخلق - لكل ما في السماوات والأرض , مسقويا بهذا السؤال حدود الملكية في المكان:

(ما في السماوات والأرض). . مع تقرير الحقيقة التي لم يكونوا هم يجادلون فيها ;
والتي حكى القرآن في مواضع إقرارهم الكامل بها:

(قل: لمن ما في السماوات والأرض ? قل: لله). .

ولقد كان العرب في جاهليتهم - على كل ما في هذه الجاهلية من ضلال في التصور ينشأ
عنه انحطاط في الحياة - أرقى - في هذا الجانب - من الجاهلية "العلمية" الحديثة ,
التي لا تعرف هذه الحقيقة , والتي تغلق فطرتها وتعطلها دون رؤية هذه الحقيقة ! كانوا
يعرفون ويقررون أن لله ما في السماوات والأرض . ولكنهم ما كانوا يرتبون على هذه
الحقيقة نتائجها المنطقية ; بإفراد الله سبحانه بالحاكمة فيما يملك , وعدم التصرف فيه
إلا بإذن الله وحده وشرعه . . وبهذا اعتبروا مشركين , وسميت حياتهم بالجاهلية !
فكيف بمن يخرجون الحاكمة في أمرهم كله من اختصاص الله سبحانه ; ويزاولونها هم
بأنفسهم !? بماذا يوصفون وبماذا توصف حياتهم ? لا بد من إعطائهم صفة أخرى غير
الشرك . . فهو الكفر والظلم والفسق كما يقرر الله سبحانه . . أيا كانت دعواهم في
الإسلام وأيا كانت الصفة التي تعطونها لهم شهادات الميلاد !

ونعود إلى الآية . لنجد السياق يلحق بهذا التقرير لملكية الله - سبحانه - لما في
السماوات وما في الأرض , أنه - سبحانه :

(كتب على نفسه الرحمة). .

فهو سبحانه المالك , لا ينازعه منازع , ولكنه - فضلا منه ومنة - كتب على نفسه الرحمة
. كتبها بإرادته ومشيئته ; لا يوجبها عليه موجب ولا يقترحها عليه مقترح ; ولا يقتضيتها منه
مقتض - إلا إرادته الطليقة وإل ربوبيته الكريمة - وهي - الرحمة - قاعدة قضائه في
خلقه , وقاعدة معاملته لهم في الدنيا والآخرة . . والاعتقاد إذن بهذه القاعدة يدخل في
مقومات التصور الإسلامي , فرحمة الله بعباده هي الأصل , حتى في ابتلائه لهم أحيانا
بالضراء . فهو يبتليهم ليعد طائفة منهم بهذا الابتلاء لحمل أمانته , بعد الخلوص والتجرد
والمعرفة والوعي والاستعداد والتهيؤ عن طريق هذا الابتلاء ; وليميز الخبيث من الطيب
في الصف , وليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ; وليهلك من هلك عن بينة
وبحيا من حي عن بينة . . والرحمة في هذا كله ظاهرة . .

قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَيِّ نَفْسِي الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (12) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13)

على أن تلمس مواضع رحمة الله ومظاهرها يستغرق الأعمار والأجيال . فما من لحظة
إلا وتغمر العباد فيها الرحمة . . إنما ذكرنا الرحمة في الابتلاء بالضراء , لأن هذه هي التي
قد تزيغ فيها القلوب والأبصار !

ولن نحاول نحن أن نتقصى مواضع الرحمة الإلهية أو مظاهرها - وإن كنا سنشير إشارة
مجملة إلى شيء من ذلك فيما يلي - ولكننا سنحاول أن نقف قليلا أمام هذا النص
القرآني العجيب:

(كتب على نفسه الرحمة). .

وقد تكرر وروده في السورة في موضع آخر سيأتي: (كتب ربكم على نفسه الرحمة).

إن الذي يستوقف النظر في هذا النص هو ذلك التفضل الذي أشرنا من قبل إليه . . .
تفضل الخالق المالك ذي السلطان القاهر فوق عباده . . . تفضله - سبحانه - بأن يجعل
رحمته بعباده في هذه الصورة . . . مكتوبة عليه . . . كتبها هو على نفسه ; وجعلها عهدا
منه لعباده . . . بمحض إرادته ومطلق مشيئته . . . وهي حقيقة هائلة لا يثبت الكيان
البشري لتمليها وتأمليها وتذوق وقعها ; حين يقف لتدبرها في هذه الصورة العجبية . . .

كذلك يستوقف النظر مرة أخرى ذلك التفضل الآخر الذي يتجلى في إخباره لعباده بما
كتبه - سبحانه - على نفسه من رحمته . فإن العناية بإبلاغهم هذه الحقيقة هي تفضل
آخر , لا يقل عن ذلك التفضل الأول ! فمن هم العباد حتى تبلغ العناية بهم أن يبلغوا ما
جرت به إرادة الله في الملأ الأعلى ? وأن يبلغوا بكلمات منه سبحانه يحملها إليهم
رسوله ? من هم ? إلا أنه الفضل العميم , الفائض من خلق الله الكريم !?

إن تدبر هذه الحقيقة على هذا النحو ليدع القلب في عجب وفي دهش ; كما يدعه في
أنس وفي روح لا تبلغ الكلمات أن تصور جوانبه وحواشيه !

ومثل هذه الحقائق , وما تثيره في القلب من مشاعر ; ليس موكولا إلى التعبير البشري
ليبلغ شيئا في تصويره ; وإن كان القلب البشري مهيا لتذوقه , لا لتعريفه !

وتمثل هذه الحقيقة في التصور الإسلامي يكون جانبا أساسيا من تصور حقيقة الألوهية ,
وعلاقة العباد بها . . . وهو تصور جميل مطمئن ودود لطيف . يعجب الإنسان معه لمناكيد
الخلق الذين يتقولون على التصور الإسلامي في هذا الجانب , لأنه لا يقول بنوّة أحد من
عباد الله ! - على نحو ما تقول التصورات الكنسية المحرفة - فالتصور الإسلامي إذ
يرتفع على هذه التصورات الصبائية الطفولية , يبلغ في الوقت ذاته من تصوير العلاقة
الرحيمة بين الله وعباده هذا المستوى الذي يعجز التعبير البشري عن وصفه . والذي
يترع القلب بحلاوة مذاقه , كما يروعه بجلال إيقاعه . . .

ورحمة الله تفيض على عباده جميعا ; وتسعهم جميعا ; وبها يقوم وجودهم , وتقوم
حياتهم . وهي تتجلى في كل لحظة من لحظات الوجود أو لحظات الحياة للكائنات . فأما
في حياة البشر خاصة فلا نملك أن نتابعها في كل مواضعها ومظاهرها ; ولكننا نذكر منها
لمحات في مجالها الكبيرة:

إنها تتجلى ابتداء في وجود البشر ذاته . في نشأتهم من حيث لا يعلمون . وفي إعطائهم
هذا الوجود الإنساني الكريم ; بكل ما فيه من خصائص يتفضل بها الإنسان على كثير من
العالمين .

وتتجلى في تسخير ما قدر الله أن يسخره للإنسان , من قوى الكون وطاقاته . وهذا هو
الرزق في مضمونه الواسع الشامل . الذي يتقلب الإنسان في بحبوحة منه في كل
لحظة من لحظات حياته .

وتتجلى في تعليم الله للإنسان , بإعطائه ابتداء الاستعداد للمعرفة ; وتقدير التوافق بين
استعداداته هذه وإيحاءات الكون ومعطياته . . . هذا العلم الذي يتناول به بعض المناكيد
على الله , وهو الذي علمهم إياه ! وهومن رزق الله بمعناه الواسع الشامل كذلك .

وتتجلى في رعاية الله لهذا الخلق بعد استخلافه في الأرض , بموالة إرسال الرسل إليه بالهدى . كلما نسي وضل ; وأخذه بالحلم كلما لج في الضلال ; ولم يسمع صوت النذير , ولم يصغ للتحذير . وهو على الله هين . ولكن رحمة الله وحدها هي التي تمهله , وحلم الله وحده هو الذي يسعه .

وتتجلى في تجاوز الله - سبحانه - عن سيئاته إذا عمل السوء بجهالة ثم تاب , وبكتابة الرحمة على نفسه ممثلة في المغفرة لمن أذنب ثم أناب .

وتتجلى في مجازاته عن السيئة بمثلها , ومجازاته على الحسنة بعشر أمثالها . والمضاعفة بعد ذلك لمن يشاء . ومحو السيئة بالحسنة . . وكله من فضل الله . فلا يبلغ أحد أن يدخل الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته . حتى رسول الله [ص] كما قال عن نفسه , في معرفة كاملة بعجز البشر وفضل الله .

والإقصار منا عن متابعة رحمة الله في مظاهرها , وإعلان القصور والعي عنها , هو أجدر وأولى . وإلا فما نحن بالغبين من ذلك شيئاً ! وإن لحظة واحدة يفتح الله فيها أبواب رحمته لقلب العبد المؤمن ; فيتصل به ; ويعرفه ; وبطمئن إليه - سبحانه - ويأمن في كنفه ; ويستروح في ظله . . إن لحظة واحدة من هذه اللحظات لتعجز الطاقة البشرية عن تمليها واستجلاتها , فضلاً على وصفها والتعبير عنها .

فلننظر كيف مثل رسول الله [ص] لهذه الرحمة بما يقربها للقلوب شيئاً ما:

"أخرج الشيخان - بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه - قال: قال رسول الله [ص] لما قضى الله الخلق - وعند مسلم: لما خلق الله الخلق - كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي . . وعند البخاري في رواية أخرى: إن رحمتي غلبت غضبي " . .

وأخرج الشيخان - بإسناده عنه رضي الله عنه - قال: قال رسول الله [ص]: " جعل الله الرحمة مائة جزء . فأمسك عنده تسعة وتسعين , وأنزل في الأرض جزءاً واحداً . فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق . حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه " . .

وأخرج مسلم - بإسناده عن سلمان الفارسي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله [ص]: " إن لله مائة رحمة . فمنها رحمة يتراحم بها الخلق بينهم , وتسعة وتسعون ليوم القيامة " . .

وله في أخرى: " إن الله تعالى خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة , كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض . فجعل منها في الأرض رحمة واحدة , فيها تعطف الوالدة على ولدها , والوحش والطير بعضها على بعض . فإذا كان يوم القيامة أكملها الله تعالى بهذه الرحمة " . .

وهذا التمثيل النبوي الموحى , يقرب للإدراك البشري تصور رحمة الله تعالى . . ذلك إذ ينظر إلى رحمة الأمهات بأطفالها في الخلائق الحية ويتملاها ويعجب لها , وإلى رحمة القلوب البشرية بالطفولة والشيخوخة , والضعف والمرض ; وبالأقرباء والأوداء والأصحاب ; وبرحمة الطير والوحش بعضها على بعض - ومنها ما يدعو إلى الدهش والعجب - ثم يرى أن هذا كله من فيض رحمة واحدة من رحمات الله سبحانه . فهذا مما يقرب إلى إدراكه تصور هذه الرحمة الكبرى شيئاً ما !

وكان رسول الله [ص] لا يني يعلم أصحابه ويذكرهم بهذه الرحمة الكبرى:

عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: قدم على رسول الله [ص] بسبي . فإذا امرأة من السبي تسعى قد تحلب ثديها , إذ وجدت صبيا في السبي , فأخذته , فألزقته ببطنها فأرضعته . فقال [ص]: " أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ? " قلنا: لا والله وهي تقدر على ألا تطرحه . قال: " فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها " . . [أخرجه الشيخان] .

وكيف لا . وهذه المرأة إنما ترحم ولدها , من فيض رحمة واحدة من رحمت الله الواسعة ?

ومن تعليم رسول الله [ص] لأصحابه هذه الحقيقة القرآنية , بهذا الأسلوب الموحى , كان ينتقل بهم خطوة أخرى ; ليتخلقوا بخلق الله هذا في رحمته , ليتراحموا فيما بينهم وليرحموا الأحياء جميعا ; ولتتذوق قلوبهم مذاق الرحمة وهم يتعاملون بها , كما تذوقتها في معاملة الله لهم بها من قبل .

عن ابن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله [ص] " الراحمون يرحمهم الله تعالى . ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء " . . [أخرجه أبو داود والترمذي] .

وعن جرير - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله [ص]: " لا يرحم الله من لا يرحم الناس " . . . [أخرجه الشيخان والترمذي] .

وفي رواية لأبي داود والترمذي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال [ص]: " لا تنزع الرحمة إلا من شقي " .

وعن أبي هريرة كذلك . قال: قبل رسول الله [ص] الحسن بن علي - رضي الله عنهما - وعنده الأقرع بن حابس . فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا ! فنظر إليه رسول الله [ص] ثم قال: " من لا يرحم لا يرحم " . . [أخرجه الشيخان] .

ولم يكن [ص] يقف في تعليمه لأصحابه - رضوان الله عليهم - عند حد الرحمة بالناس . وقد علم أن رحمه ربه وسعت كل شيء . وأن المؤمنين مأمورن أن يتخلقوا بأخلاق الله ; وأن الإنسان لا يبلغ تمام إنسانيته إلا حين يرحم كل حي تخلقا بخلق الله سبحانه . وكان تعليمه لهم بالطريقة الموحية التي عهدناها:

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله [ص] " بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش , فوجد بئرا , فنزل فيها فشرب , ثم خرج , وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني , فنزل البئر , فملا خفه ماء , ثم أمسكه بفيه حتى رقي , فسقى الكلب . فشكر الله تعالى له فغفر له " . قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجرا ? قال: " في كل كبد رطبة أجر " . . [أخرجه مالك والشيخان] .

وفي أخرى: إن امرأة بغيا رأت كلبا في يوم حار يطيف ببئر , قد أدلع [أي أخرج] لسانه من العطش فنزعت له موقها [أي خفها] فغفر لها به .

وعن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه - رضي الله عنه - قال: كنا مع رسول الله [ص] في سفر . فرأينا حمرة [طائر] معها فرخان لها فأخذناهما . فجاءت الحمرة تعرش [أو تفرش] - [أي ترخي جناحيها وتدنو من الأرض] فلما جاء رسول الله [ص] قال: " من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها " . ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال: " من أحرق هذه ؟ قلنا: نحن . قال: إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار " . . [أخرجه أبو داود] . .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله [ص] " قرصت نملة نيبا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فحرق . فأوحى الله تعالى إليه: أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح ؟ " . . . [أخرجه الشيخان] .

وهكذا علم رسول الله [ص] أصحابه هدى القرآن . ليتذوقوا رحمة الله من خلال مزاولتهم للرحمة . . أليس أنهم إنما يتراحمون برحمة واحدة من رحمت الله الكثيرة !?

وبعد فإن استقرار هذه الحقيقة في تصور المسلم لينشئ في حسه وفي حياته وفي خلقه أثارا عميقة ; يصعب كذلك تفصيها ; ولا بد من الاكتفاء بالإشارة السريعة إليها , كي لا نخرج من نطاق الظلال القرآنية , إلى قضية مستقلة !

إن الشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو ليسكب في قلب المؤمن الطمأنينة إلى ربه - حتى وهو يمر بفترات الابتلاء بالضراء , التي تزيغ فيها القلوب والأبصار - فهو يستيقن أن الرحمة وراء كل لمحة , وكل حالة , وكل وضع ; وأن ربه لا يعرضه للابتلاء لأنه تولى عنه , أو طرده من رحمته . فإن الله لا يطرد من رحمته أحدا يرجوها . إنما يطرد الناس أنفسهم من هذه الرحمة حين يكفرون بالله ويرفضون رحمته ويبعدون عنها !

وهذه الطمأنينة إلى رحمة الله تملأ القلب بالثبات والصبر , وبالرجاء والأمل , وبالهدوء والراحة . . فهو في كنف ودود , يستروح ظلالة , ما دام لا يبعد عنه في الشرود !

والشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو يستجيش في حس المؤمن الحياء من الله . فإن الطمع في المغفرة والرحمة لا يجري على المعصية - كما يتوهم البعض - إنما يستجيش الحياء من الله الغفور الرحيم . والقلب الذي تجرئه الرحمة على المعصية هو قلب لم يتذوق حلاوة الإيمان الحقيقية ! لذلك لا أستطيع أن أفهم أو أسلم ما يجري على السنة بعض المتصوفة من أنهم يلجون في الذنب ليتذوقوا حلاوة الحلم , أو المغفرة , أو الرحمة . . إن هذا ليس منطق الفطرة السوية في مقابلة الرحمة الإلهية !

كذلك فإن الشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو يؤثر تأثيرا قويا في خلق المؤمن , وهو يعلم أنه مأمور أن يتخلق بأخلاق الله - سبحانه - وهو يرى نفسه مغمورا برحمة الله مع تقصيره وذنبه وخطئه - فيعلمه ذلك كله كيف يرحم , وكيف يعفو , وكيف يغفر . . كما رأينا في تعليم الرسول [ص] لأصحابه ; مستمدا تعليمه لهم من هذه الحقيقة الكبيرة . .

ومن مواضع رحمة الله التي تقررها الآية الكريمة: أن الله كتب ليجمعهم إلى يوم القيامة:

(قل لمن ما في السماوات والأرض ؟ قل: لله . كتب على نفسه الرحمة . ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه . .) . .

فمن هذه الرحمة المكتوبة , ذلك الجمع الذي لا ريب فيه . . ذلك الجمع الذي يشي بما وراءه من عناية الله - سبحانه - بعباده من الناس ; فقد خلقهم لأمر ; واستخلفهم في هذه الأرض لغاية , ولم يخلقهم عبثا , ولم يتركهم سدى . ولكن يجمعهم إلى يوم القيامة - فهذا اليوم هو نهاية المطاف الذي يفيئون إليه كما يفيء الراحل إلى وجهته - فيعطيهم جزاء كدحهم إليه , وينقدهم أجر عملهم في دار الدنيا . فلا يضيع عليهم كدح ولا أجر ; إنما يوفون أجورهم يوم القيامة . . وفي هذه العناية تتجلى الرحمة في مظهر من مظاهرها . . كما أن ما يتجلى من فضل الله في جزاء السيئة بمثلها , والحسنة بعشرة أمثالها , والإضعاف لمن يشاء , والتجاوز عما يشاء لمن يشاء . . كل أولئك من مظاهر الرحمة التي تتجلى في هذا الجمع أيضا .

ولقد كان العرب في جاهليتهم - قبل أن يمن الله عليهم بهذا الدين ويرفعهم إلى مستواه الكريم - يكذبون يوم القيامة - شأنهم في هذا شأن أهل الجاهلية "العلمية" الحديثة !!! لذلك جاء التعبير في هذه الصيغة المؤكدة بشتى التوكيدات , لمواجهة ذلك التكذيب: (ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) . .

ولن يخسر في هذا اليوم إلا الذين لم يؤمنوا في الدنيا . . وهؤلاء لن يخسروا شيئا ويكسبوا شيئا . . هؤلاء خسروا كل شيء . . فقد خسروا أنفسهم كلها , فلم يعودوا يملكون أن يكسبوا شيئا . أليس أن الإنسان إنما يكسب لنفسه ? فإذا خسر نفسه ذاتها فماذا يكسب ? ولمن يكسب ? ! . (الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) . .

لقد خسروا أنفسهم وفقدوها ; فلم تعد لهم نفس تؤمن ! . . وهو تعبير دقيق عن حالة واقعة . . إن الذين لا يؤمنون بهذا الدين - مع عمق ندائه وإيحائه للفطرة بموحيات الإيمان ودلائله - هؤلاء لا بد أن يكونوا قد فقدوا قبل ذلك فطرتهم ! لا بد أن تكون أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية في كياناتهم معطلة مخربة ; أو محجوبة مغلفة . فهم في هذه الحالة قد خسروا أنفسهم ذاتها , بفقدانهم أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية الحية في كياناتها , ومن ثم فهم لا يؤمنون . . إذ أنهم لم يعودوا يملكون أنفسهم التي بها يؤمنون . . وهذا هو التفسير العميق لعدم إيمانهم مع توافر دلائل الإيمان وموحياته من حولهم . . وهذا هو الذي يحدد مصيرهم في ذلك اليوم . وهو الخسارة الكبرى المترتبة على خسارتهم من قبل لنفوسهم !

بعد ذلك يمضي السياق يستقصي الخلائق في الزمان - كما استقصاها في الآية السابقة في المكان - ليقرر تفرد الله - سبحانه - بملكيتها ; وعلمه - سبحانه - وسمعه المحيطين بها:

(وله ما سكن في الليل والنهار , وهو السميع العليم) . .

وأقرب تأويل لقوله: (ما سكن) أنه من السكنى - كما ذكر الزمخشري في الكشاف - وهو بهذا يعني كل ما اتخذ الليل والنهار سكنا ; فهو يعني جميع الخلائق ; ويقرر ملكيتها لله وحده . كما قرر من قبل ملكية الخلائق كلها له سبحانه . غير أنه في الآية الأولى: (قل: لمن ما في السماوات والأرض ? قل: لله) قد استقصى الخلائق من ناحية المكان . وفي هذه الآية الثانية: (وله ما سكن في الليل والنهار) . . قد استقصى الخلائق من ناحية

الزّمان . . ومثله معروف في التعبير القرآني حين يتّجه إلى الاستقصاء . . وهذا هو التأويل الذي نطمئن إليه في الآيتين من بين شتى التأويلات .

والتعقيب بصفتي السمع والعلم يفيد الإحاطة بهذه الخلائق , وبكل ما يقال عنها كذلك من مقولات المشركين الذي يواجههم هذا النص . . ولقد كانوا مع إقرارهم بوحدانية الخالق المالك , يجعلون لأربابهم المزعومة جزءا من الثمار ومن الأنعام ومن الأولاد - كما سيحييء في نهاية السورة - فهو يأخذ عليهم الإقرار هنا بملكية كل شيء ; ليواجههم بها فيما يجعلونه للشركاء بغير إذن من الله . كما أنه يمهد بتقرير هذه الملكية الخاصة لما سيلي في هذه الفقرة من ولاية لله وحده , بما أنه هو المالك المتفرد بملكية كل شيء . في كل مكان وفي كل زمان , الذي يحيط سمعه وعلمه بكل شيء , وبكل ما يقال عن كل شيء كذلك !

الدرس الثاني: 14 - 18 مظاهر الألوهية في حياة الناس واستنكار موالاته غيره

والآن , وقد تقرر أن الله وحده هو الخالق , وأن الله وحده هو المالك . . . يحييء الاستنكار العنيف للاستنصار بغير الله , والعبودية لغير الله , والولاء لغير الله . ويتقرر أن هذا مناقض لحقيقة الإسلام لله , وأنه هو الشرك الذي لا يجتمع مع الإسلام . وتذكر من صفات الله سبحانه: أنه فاطر السماوات والأرض , وأنه الرازق

قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ أَخِيذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14)
المطعم , وأنه الضار النافع , وأنه القادر القاهر . كما يذكر العذاب المخوف المرهوب . . فتجلل الموقف كله ظلال الجلال والرهبة , في إيقاع مدو عميق:

قل: أغير الله أتخذ وليا , فاطر السماوات والأرض , وهو يطعم ولا يطعم ? قل: إنني أمرت أن أكون أول من أسلم , ولا تكونن من المشركين . قل: إنني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه , وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو , وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . .

إن هذه القضية . . قضية اتخاذ الله وحده وليا . بكل معاني كلمة "الولي" . أي اتخاذه وحده ربا ومولى معبودا يدين له العبد بالعبودية ممثلة في الخضوع لحاكميته وحده ; ويدين له بالعبادة له شعائرها وحده . واتخاذه وحده ناصرا يستنصر به ويعتمد عليه , ويتوجه إليه في الملمات . . إن هذه القضية هي قضية العقيدة في صميمها . فإما إخلاص الولاء لله - بهذه المعاني كلها - فهو الإسلام . وإما إشراك غيره معه في أي منها , فهو الشرك الذي لا يجتمع في قلب واحد هو والإسلام !

وفي هذه الآيات تقرر هذه الحقيقة بأقوى عبارة وأعمق إيقاع:

(قل:أغير الله أتخذ وليا , فاطر السماوات والأرض , وهو يطعم ولا يطعم ? قل:إني أمرت أن أكون أول من أسلم , ولا تكونن من المشركين). .

إنه منطق الفطرة القوي العميق . . لمن يكون الولاء ولمن يتمحض ? لمن إن لم يكن لفاطر السماوات والأرض الذي خلقهما وأنشأهما ? لمن إن لم يكن لرازق من في السماوات والأرض الذي يطعم ولا يطلب طعاما ?

(قل:أغير الله أتخذ وليًا). . وهذه صفاته سبحانه . . أي منطق يسمح بأن يتخذ غير الله وليا ? إن كان يتولاه لينصره ويعينه , فالله هو فاطر السماوات والأرض , فله السلطان في السماوات والأرض . وإن كان يتولاه ليرزقه ويطعمه , فالله هو الرازق المطعم لمن في السماوات ومن في الأرض . ففيم الولاء لغير صاحب السلطان الرزاق ?

ثم . . (قل:إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين). . والإسلام وعدم الشرك معناهما المتعين ألا أتخذ غير الله وليا . فاتخاذ غير الله وليا - بأي معنى - هو الشرك . ولن يكون الشرك إسلاما . .

قضية واحدة محددة , لا تقبل لنا ولا تميعا . . إما أفراد الله سبحانه بالتوجه والتلقي والطاعة والخضوع والعبادة والاستعانة ; والإقرار له وحده بالحاكمة في كل أمر من هذه الأمور ورفض إشراك غيره معه فيها ; وولاء القلب والعمل , في الشعيرة والشريعة له وحده بلا شريك . . إما هذا كله فهو الإسلام . . وإما إشراك أحد من عباده معه في شيء من هذا كله فهو الشرك . الذي لا يجتمع في قلب واحد مع الإسلام .

لقد أمر رسول الله [ص] أن يعلن هذا الاستنكار في وجه المشركين الذين كانوا يدعونه إلى الملاينة والمداهنة ; ليجعل لأهتهم مكانا في دينه , مقابل أن يدخلوا معه في هذا الدين . وليترك لهم بعض خصائص الألوهية يزاولونها إبقاء على مكانتهم وكبريائهم ومصالحهم , . . وأولها تقاليد التحريم والتحليل . . في مقابل أن يكفوا عن معارضته , وأن يجعلوه رئيسا فيهم ; ويجمعوا له من مالهم , ويزوجوه أجمل بناتهم !

لقد كانوا يرفعون يدا للإيذاء والحرب والتنكيل , ويمدون يدا بالإغراء والمصالحة واللين .

وفي وجه هذه المحاولة المزدوجة أمر رسول الله [ص] أن يقذف بهذا الاستنكار العنيف , وبهذا الحسم الصريح , وبهذا التقرير الذي لا يدع مجالا للتميع .

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) مَّن يُضَرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْقَوْمُ الْمُبِينُ (16) وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18)

وأمر كذلك أن يقذف في قلوبهم بالرعب والترويع ; في الوقت الذي يعلن فيه تصوره لجدية الأمر والتكليف ولخوفه هو من عذاب ربه , إن عصاه فيما أمر به من الإسلام والتوحيد:

(قل:إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه , وذلك الفوز المبين). .

إنه تصوير لحقيقة مشاعر الرسول [ص] تجاه أمر ربه له ; وتجسيم لخوفه من عذابه . العذاب الذي يعتبر مجرد صرفه عن العبد رحمه من الله وفوزا مبينا . ولكنه في الوقت ذاته حمله منزللة على قلوب المشركين في ذلك الزمان , وقلوب المشركين بالله في كل زمان . حملة منزللة تصور العذاب في ذلك اليوم العظيم ; يطلب الفريسة , ويحلق عليها , ويهجم ليأخذها . فلا تصرفه عنها إلا القدرة القادرة التي تأخذ بخطامه فتلويه عنها ! وإن أنفاس القاريء لهذا التصوير لتحتبس - وهو يمثل المشهد - في انتظار هذه اللقطة الأخيرة !

ثم إنه لماذا يتخذ غير الله وليا , ويعرض نفسه للشرك الذي نهى عنه وللمخالفة عن الإسلام الذي أمر به , ولما يعقب المعصية من هذا العذاب الهائل الرعب ? . . أعل ذلك رجاء جلب نفع أو دفع ضرر في هذه الحياة الدنيا ? رجاء نصرة الناس له في الضراء ; ورجاء نفع الناس له بالسراء ? . . إن هذا كله بيد الله ; وله القدرة المطلقة في عالم الأسباب ; وله القهر كذلك على العباد ; وعنده الحكمة والخبرة في المنع والعطاء:

(وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو , وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير) . .

إنه تتبع هواجس النفس ووساوس الصدر ; وتتبع مكامن الرغائب والمخافات , ومطارح الظنون والشبهات وتجليه هذا كله بنور العقيدة , وفرقان الإيمان , ووضوح التصور , وصدق المعرفة بحقيقة الألوهية . ذلك لخطورة القضية التي يعالجها السياق القرآني في هذا الموضع , وفي جملة هذا القرآن:

الدرس الثالث: 19 الإشهاد على الوحدانية والرسالة والبراءة من الشرك

وأخيرا تجيء قمة المد في هذه الموجة ; ويجيء الإيقاع المدوي العميق ; في موقف الإشهاد والإنذار والمفاصلة والتبرؤ من المشاركة في الشرك . . كل ذلك في رنة عالية , وفي حسم رهيب:

(قل: أي شيء أكبر شهادة ? قل الله . شهيد بيني وبينكم , وأوحى إلي هذا القرآن لأذركم به ومن بلغ , أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ? قل: لا أشهد , قل: إنما هو إله واحد , وإني بريء مما تشركون) . .

إن تتابع المقاطع والإيقاعات في الآية الواحدة عجيب ; وإن هذا التتابع ليرسم الموقف لحظة لحظة , ومشهدا مشهدا , وبكاد ينطق بلامح الوجوه فيه وخلجات الصدور . .

فها هو ذا رسول الله [ص] يؤمر من ربه هذا الأمر . . ثم ها هو ذا يواجه المشركين الذين يتخذون من دون الله أولياء ; يجعلون لهم بعض خصائص الألوهية مع الله ; ويدعون رسول الله [ص] أن يقرهم على هذا الذي هم فيه ليدخلوا هم فيما جاءهم به ! كان ذلك يمكن أن يكون ! وكأنه يمكن أن يجتمع الإسلام والشرك في قلب واحد على هذا النحو الذي كانوا يتصورونه ; والذي لا يزال يتصوره ناس في هذا الزمان , من أنه يمكن أن يكون الإنسان مسلما لله ; بينما هو يتلقى من غير الله في شؤون الحياة ; وبينما هو يخضع لغير الله ويستنصر بغير الله , ويتولى غير الله !

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتُشْهِدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُهُ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (19) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمُ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ قَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20)

ها هو ذا رسول الله [ص] يواجه هؤلاء المشركين ; ليبين لهم مفرق الطريق بين دينه ودينهم , وبين توحيدده وشركهم , وبين إسلامه وجاهليتهم . وليقرر لهم: أنه لا موضع للقاء بينه وبينهم , إلا أن يتخلصوا هم من دينهم ويدخلوا في دينه . وأنه لا وجه للمصالحة في هذا الأمر ; لأنه يفترق معهم في أول الطريق !

وها هو ذا يبدأ معهم مشهد الإشهاد العلني المفتوح المكشوف:

(قل: أي شيء أكبر شهادة ؟) . .

أي شاهد في هذا الوجود كله هو أكبر شهادة ؟ أي شاهد تعلق شهادته كل شهادة ؟ أي شاهد تحسم شهادته في القضية فلا يبقى بعد شهادته شهادة ؟

وللتعميم المطلق , حتى لا يبقى في الوجود كله (شيء) لا يستقصى وزنه في مقام الشهادة: يكون السؤال: (أي شيء أكبر شهادة ؟).

وكما يؤمر رسول الله [ص] بالسؤال , فهو يؤمر كذلك بالجواب . ذلك أنه لا جواب غيره باعتراف المخاطبين أنفسهم . ولا جواب غيره في حقيقة الأمر والواقع:

ل:الله . .

نعم ! فالله - سبحانه وتعالى - هو أكبر شهادة . . هو الذي يقص الحق وهو خير الفاصلين . . هو الذي لا شهادة بعد شهادته , ولا قول بعد قوله . فإذا قال فقد انتهى القول , وقد قضى الأمر .

فإذا أعلن هذه الحقيقة: حقيقة أن الله سبحانه هو أكبر شهادة , أعلن لهم أنه - سبحانه - هو الشهيد بينه وبينهم في القضية:

(شاهد بيني وبينكم) . .

على تقدير: هو شهيد بيني وبينكم - فهذا التقطيع في العبارة هو الأنسب في جو المشهد: وهو أولى من الوصل على تقدير: (قل الله شهيد بيني وبينكم).

فإذا تقرر المبدأ: مبدأ تحكيم الله سبحانه في القضية , أعلن إليهم أن شهادة الله سبحانه , تضمنها هذا القرآن , الذي أوحاه إليه لينذرهم به ; وينذر به كل من يبلغه في حياته [ص] أو من بعد . فهو حجة عليهم وعلى من يبلغه غيرهم ; لأنه يتضمن شهادة الله في هذه القضية الأساسية ; التي تقوم عليها الدنيا والآخرة , ويقوم عليها الوجود كله والوجود الإنساني ضمنا:

(وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) . .

فكل من بلغه هذا القرآن من الناس , بلغة يفهمها , ويحصل منها محتواه , فقد قامت عليه الحجة به , وبلغه الإنذار , وحق عليه العذاب , إن كذب بعد البلاغ . . [فأما من يحول عدم فهمه للغة القرآن دون فهمه لفحواه , فلا تقوم عليه الحجة به ; ويبقى إثمه على أهل هذا الدين الذين لم يبلغوه بلغته التي يفهم بها مضمون هذا الشهادة . . هذا إذا كان مضمون القرآن لم يترجم إلى لغته] . .

فإذا أعلن إليهم أن شهادة الله - سبحانه - متضمنة في هذا القرآن , أعلن إليهم مضمون هذه الشهادة في صورة التحدي والاستنكار لشهادتهم هم , المختلفة في أساسها عن شهادة الله سبحانه . وعالئهم بأنه ينكر شهادتهم هذه ويرفضها ; وأنه يعلن غيرها ويقرر عكسها ويشهد لربه بالوحدانية المطلقة والألوهية المتفردة ; وأنه يفاصلهم على هذا عند مفرق الطريق ; وأنه يتبرأ من شركهم في صيغة التشديد والتوكيد:

أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل: لا أشهد , قل: إنما هو إله واحد , وإنني بريء مما تشركون . .

والنصوص القرآنية بمقاطعها هذه , وبايقاعاتها هذه , تهز القلوب بما لا يملك البيان البشري أن يفعل فلا أريد أن أوقف تدفقها وانسكابها في القلب بأي تعليق .

تعقيب على الوحدة - الولاء والتوحيد والمفاصلة

ولكني أريد أن أتحدث عن القضية التي تضمنها هذا المقطع , وجرت بها هذه الموجة . . إن هذه القضية التي عرضها السياق القرآني في هذه الآيات . . قضية الولاء والتوحيد والمفاصلة . . هي قضية هذه العقيدة ; وهي الحقيقية الكبرى فيها . وان العصبة المؤمنة اليوم لخليقة بأن تقف أمام هذا الدرس الرباني فيها وقفة طويلة . .

إن هذه العصبة تواجه اليوم من الجاهلية الشاملة في الأرض , نفس ما كانت تواجهه العصبة التي تنزلت عليها هذه الآيات , لتحدد على ضوئها موقفها , ولتسير على هذا الضوء في طريقها ; وتحتاج - من ثم - أن تقف وقفة طويلة أمام هذه الآيات , لترسم طريقها على هداها .

لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية ; وعادت البشرية إلى مثل الموقف الذي كانت فيه يوم تنزل هذا القرآن على رسول الله [ص] ويوم جاءها الإسلام مبينا على قاعدته الكبرى: "شهادة أن لا إله إلا الله" . . شهادة أن لا إله إلا الله بمعناها الذي عبر عنه ربي بن عامر رسول قائد المسلمين إلى رستم قائد الفرس , وهو يسأله: "ما الذي جاء بكم ؟ " فيقول: "الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده , ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام" . .

وهو يعلم أن رستم وقومه لا يعبدون كسرى بوصفه إلهًا خالقًا للكون ; ولا يقدمون له شعائر العبادة المعروفة ; ولكنهم إنما يتلقون منه الشرائع , فيعبدونه بهذا المعنى الذي يناقض الإسلام وينفيه ; فأخبره أن الله ابتعثهم ليخرجوا الناس من الأنظمة والأوضاع التي يعبد العباد فيها العباد , ويقرون لهم بخصائص الألوهية - وهي الحاكمية والتشريع والخضوع لهذه الحاكمية والطاعة لهذا التشريع - [وهي الأديان] . . إلى عبادة الله وحده وإلى عدل الإسلام .

لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية بلا إله إلا الله . فقد ارتدت البشرية إلى عبادة العباد , وإلى جور الأديان ; ونكصت عن لا إله إلا الله , وإن ظل فريق منها يردد على المآذن: "لا إله إلا الله" ; دون أن يدرك مدلولها , ودون أن يعني هذا المدلول وهو يرددها , ودون أن يرفض شرعية "الحاكمية" التي يدعيها العباد لأنفسهم - وهي مرادف الألوهية - سواء ادعوها كأفراد , أو كتشكيلات تشريعية , أو كشعوب . فالأفراد , كالتشكيلات , كالشعوب , ليست آلهة , فليس لها إذن حق الحاكمية . . إلا أن البشرية عادت إلى الجاهلية , وارتدت عن لا إله إلا الله . فأعطت لهؤلاء العباد خصائص الألوهية . ولم تعد توحده الله , وتخلص له الولاء . .

البشرية بحملتها , بما فيها أولئك الذين يرددون على المآذن في مشارق الأرض ومغاربها كلمات: "لا إله إلا الله" بلا مدلول ولا واقع . . وهؤلاء أثقل إثما وأشد عذابا يوم القيامة , لأنهم ارتدوا إلى عبادة العباد - من بعدما تبين لهم الهدى - ومن بعد أن كانوا في دين الله !

فما أحوج العصبة المسلمة اليوم أن تقف طويلا أمام هذه الآيات البينات !

ما أحوجها أن تقف أمام آية الولاء:

(قل: أغبر الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض , وهو يطعم ولا يطعم ? قل: إني أمرت أن أكون أول من أسلم , ولا تكونن من المشركين) . .

ذلك لتعلم أن اتخاذ غير الله وليا - بكل معاني "الولي" . . وهي الخضوع والطاعة , والاستنصار والاستعانة . . يتعارض مع الإسلام , لأنه هو الشرك الذي جاء الإسلام ليخرج منه الناس . . ولتعلم أن أول ما يتمثل فيه الولاء لغير الله هو تقبل حاكمية غير الله في الضمير أو في الحياة . . الأمر الذي تزاوله البشرية كلها بدون استثناء . ولتعمل أنها تستهدف اليوم إخراج الناس جميعا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ; وأنها تواجه جاهلية كالتى واجهها رسول الله [ص] والجماعة المسلمة حين تلقي هذه الآيات . .

وما أحوجها أن تستصحب في مواجهتها للجاهلية تلك الحقائق والمشاعر التي تسكبها في القلب المؤمن الآيات التالية:

قل: إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه , وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو , وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . .

فما أحوج من يواجه الجاهلية بطاغوتها وجبروتها , وبإعراضها وعنادها , وبالتوائها وكيدها , وبفسادها وانحلالها . . ما أحوج من يواجه هذا الشر كله , أن يستصحب في قلبه هذه الحقائق وهذا المشاعر . . مخافة المعصية والولاء لغير الله . ومخافة العذاب الرعب الذي يترقب العصاة . . واليقين بأن الضار والنافع هو الله . وأن الله هو القاهر فوق عباده فلا معقب على حكمه ولا راد لما قضاه . إن قلبا لا يستصحب هذه الحقائق وهذه المشاعر لن يقوى على تكاليف "إنشاء" الإسلام من جديد في وجه الجاهلية الطاغية . . وهي تكاليف هائلة تنوء بها الجبال !

ثم ما أحوج العصبة المؤمنة - بعد أن تستيقن حقيقة مهمتها في الأرض اليوم ; وبعد أن تستوضح حقيقة العقيدة التي تدعو إليها ومقتضياتها من أفراد الله سبحانه بالولاء بكل

مدلولاته ; وبعد أن تستصحب معها في مهمتها الشاقة تلك الحقائق والمشاعر . ما أحوجها بعد ذلك كله إلى موقف الإشهاد والقطع والمفاصلة والتبرؤ من الشرك الذي تزاوله الجاهلية البشرية اليوم كما كانت تزاوله جاهلية البشرية الأولى . وأن تقول ما أمر رسول الله [ص] أن يقوله ; وأن تقذف في وجه الجاهلية , بما قذف به في وجهها الرسول الكريم , تنفيذاً لأمر به العظيم :

(قل: أي شيء أكبر شهادة ؟ قل: الله , شهيد بيني وبينكم , وأوحى إلي هذا القرآن لأذركم به ومن بلغ . أنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل: لا أشهد . قل: إنما هو إله واحد , وإني بريء مما تشركون) . .

إنه لا بد أن تقف العصبة المسلمة في الأرض , من الجاهلية التي تغمر الأرض , هذا الموقف . لا بد أن تقذف في وجهها بكلمة الحق هذه عالية مدوية , قاطعة فاصلة , مزلزلة رهيبة . . ثم تتجه إلى الله تعلم أنه على كل شيء قدير , وأنه هو القاهر فوق عباده . وأن هؤلاء العباد - بما فيهم الطواغيت المتجبرون - أضعف من الذباب , وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ! وأنهم ليسوا بضارين من أحد إلا بإذن الله ; وليسوا بنافعين أحداً إلا بإذن الله , وأن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ولا بد أن تستيقن العصبة المسلمة كذلك أنها لن تنصر ولن يتحقق لها وعد الله بالتكمين في الأرض , قبل أن تفاصل الجاهلية على الحق عند مفترق الطريق . وقبل أن تعلن كلمة الحق في وجه الطاغوت , وقبل أنتشهد على الجاهلية هذا الإشهاد , وتذرها هذه النذارة , وتعلنها هذا الإعلان , وتفاصلها هذه المفاصلة , وتبرأ منها هذه البراءة . .

إن هذا القرآن لم يأت لمواجهة موقف تاريخي ; إنما جاء منهاجاً مطلقاً خارجاً عن قيود الزمان والمكان . منهاجاً تتخذه الجماعة المسلمة حيثما كانت في مثل الموقف الذي تنزل فيه هذا القرآن . وهي اليوم في مثل هذا الموقف تماماً ; وقد استدار الزمان كهيبته يوم جاء هذا القرآن لينشيء الإسلام في الأرض إنشاء . . فليكن اليقين الجازم بحقيقة هذا الدين . والشعور الواضح بحقيقة قدرة الله وقهره . والمفاصلة الحاسمة مع الباطل وأهله . . لتكن هذه عدة الجماعة المسلمة . . والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين . .

الوحدة الرابعة: 20 - 32 مواجهة المشركين بمصيرهم في يوم البعث الذي يكذبون به

مقدمة الوحدة - الرابعة من سورة الأنعام هذه الجولة - أو هذه الموجه - عودة إلى مواجهة المشركين المكذبين بالقرآن الكريم , المكذبين بالبعث والآخرة . . ولكنها لا تواجههم بتصوير تعنتهم وعنادهم ; ولا تواجههم بمصارع الغابرين من المكذبين من أسلافهم - كما سبق في سياق السورة - إنما تواجههم بمصيرهم في يوم البعث الذي يكذبون به ; وبجزائهم في الآخرة التي ينكرونها . . تواجههم بهذا الجزاء وبذلك المصير في مشاهد حية شاخصة . . تواجههم به وهم محشورون جميعاً , مسؤولون سؤال التبكيت والتأنيب , وسؤال التشهير والتعجيب: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ وهم في رعب وفزع , وفي تضعع وذهول يقسمون بالله ويعترفون له وحده بالربوبية: (والله ربنا ما كنا مشركين)! . . وتواجههم به وهم موقوفون على النار , محبوسون عليها , وهم في رعب وفزع , وفي ندم وحسرة يقولون: (يا ليتنا نرد ولا نكذب آيات ربنا ونكون من المؤمنين)! . . وتواجههم به وهم موقوفون على ربهم , وهم يتذاوبون من الخجل والندم , ومن الروع والهول ; وهو - جل جلاله - يسألهم سبحانه: (أليس هذا

بالحق (?) فيجيون في استخذاء وتذاوب: (بلى وربنا). فلا يجديهم هذا الاعتراف شيئا:
(قال: فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون). . ويواجهون به وهم قد خسروا أنفسهم
وخسروا كل شيء إذن ; وجاءوا يحملون أوزارهم على ظهورهم ; وهم يجأرون
بالحسرة على تفریطهم في الآخرة , وأخذهم للصفقة الخاسرة !

مشهد وراء مشهد , وكل مشهد يزلزل القلوب , ويخلخل المفاصل , ويهز الكيان ,
ويفتح العين والقلب - عند من يشاء الله أن يفتح عينه وقلبه - على الحق الذي يواجههم
به رسول الله [ص] والكتاب الذي يكذبون به ; بينما الذين أوتوا الكتاب من قبلهم
يعرفونه كما يعرفون آبائهم !

الدرس الأول: 20 معرفة أهل الكتاب بنبوة محمد عليه السلام

(الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون آبائهم , الذين خسروا أنفسهم فهم لا
يؤمنون) . .

لقد تكرر في القرآن الكريم ذكر معرفة أهل الكتاب - وهم اليهود والنصارى - لهذا
القرآن ; أو لصحة رساله محمد [ص] وتنزيل هذا القرآن عليه من عند الله . . تكرر
ذكر هذه الحقيقة سواء في مواجهة أهل الكتاب أنفسهم , عندما كانوا يقفون من النبي [ص]
ومن هذا الدين وقفة المعارضة والإنكار والحرب والعداء [وكان هذا غالبا في
المدينة] أو في مواجهة المشركين من العرب ; لتعريفهم أن أهل الكتاب , الذين
يعرفون طبيعة الوحي والكتب السماوية , يعرفون هذا القرآن , ويعرفون صدق رسول
الله [ص] في أنه وحي أوحى به ربه إليه كما أوحى إلى الرسل من قبله .

وهذا الآية - كما رجحنا - مكية . وذكر أهل الكتاب فيها على هذا النحو - إذن - يفيد أنها
كانت مواجهة للمشركين بأن هذا القرآن الذي ينكرونه , يعرفه أهل الكتاب كما يعرفون
آبائهم ; وإذا كانت كثرتهم لم تؤمن به فذلك لأنهم خسروا أنفسهم , فهم لا يؤمنون .
شأنهم في هذا شأن المشركين , الذين خسروا أنفسهم , فلم يدخلوا في هذا الدين !
والسياق قبل هذه الآية وبعدها كله عن المشركين . مما يرجح مكيتها كما قلنا من قبل
في التعريف بالسورة . .

وقد جري المفسرون على تفسير مثل هذا التقرير: (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما
يعرفون آبائهم) . . على أنهم يعرفون أنه منزل من عند الله حقا ; أو على أن النبي [ص]
رسول من عند الله حقا , يوحى إليه بهذا القرآن . .

وهذا جانب من مدلول النص فعلا ولكننا نلمح - باستصحاب الواقع التاريخي وموقف أهل
الكتاب من هذا الدين فيه - أن هناك جانبا آخر من مدلول النص ; لعل الله - سبحانه -
أراد أن يعلمه للجماعة المسلمة , ليستقر في وعيها على مدار التاريخ , وهي تواجه أهل
الكتاب بهذا الدين . .

إن أهل الكتاب يعرفون أن هذا الكتاب حق من عند الله ; ويعرفون - من ثم - ما فيه من
سلطان وقوة ; ومن خير وصلاح ; ومن طاقة دافعة للأمة التي تدين بالعقيدة التي جاء
بها ; وبالأخلاق التي تنبثق منها ; وبالنظام الذي يقوم عليها . وبحسبون كل حساب لهذا
الكتاب وأهله ; ويعلمون جيدا أن الأرض لا تسعهم وتسع أهل الدين ! . . إنهم يعرفون ما
فيه من حق , ويعرفون ما هم فيه من باطل . . ويعرفون أن الجاهلية التي صاروا إليها ,
وصارت إليها أوضاع قومهم وأخلاقهم وأنظمتهم , لا يمكن أن يهادنها هذا الدين , أو يبقى

عليها . . وأنها - من ثم - معركة لا تهدأ حتى تجلو الجاهلية عن هذه الأرض , ويستعلي هذا الدين , ويكون الدين كله لله . . أي أن يكون السلطان في الأرض كله لله ; وأن يطارد المعتدون على سلطان الله في الأرض كلها . وبذلك وحده يكون الدين كله لله . .

إن أهل الكتاب يعلمون جيدا هذه الحقيقة في هذا الدين . . ويعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم . . وهم جيلا بعد جيل يدرسون هذا الدين دراسة دقيقة عميقة ; وينقبون عن أسرار قوته ; وعن مداخلة إلى النفوس ومساربه فيها ; ويبحثون بجد: كيف يستطيعون أن يفسدوا القوة الموجهة في هذا الدين ? كيف يلغون بالريب والشكوك في قلوب أهله ? كيف يحرفون الكلم فيه عن مواضعه ? كيف يصدون أهله عن العلم الحقيقي به ? كيف يحولونه من حركة دافعة تحطم الباطل والجاهلية وتسترد سلطان الله في الأرض وتطارد المعتدين على هذا السلطان , وتجعل الدين كله لله . . إلى حركة ثقافية بارده , وإلى بحوث نظرية مينة , وإلى جدل لاهوتي أو فقهي أو طائفي فارغ ? كيف يفرغون مفهوماته في اوضاع وأنظمة وتصورات غريبة عنه مدمرة له , مع إيهام أهله أن عقيدتهم محترمة مصونة ?! كيف في النهاية يملأون فراغ العقيدة بتصورات أخرى ومفهومات أخرى واهتمامات أخرى , ليجهزوا على الجذور العاطفية الباقية من العقيدة الباهتة ?!

إن أهل الكتاب يدرسون هذا الدين دراسة جادة عميقة فاحصة ; لا لأنهم يبحثون عن الحقيقية - كما يتوهم السذج من أهل هذا الدين ! - ولا لينصفوا هذا الدين وأصله - كما يتصور بعض المخدوعين حينما يرون اعترافا من باحث أو مستشرق بجانب طيب في هذا الدين ! - كلا ! إنما هم يقومون بهذه الدراسة الجادة العميقة الفاحصة , لأنهم يبحثون عن مقتل لهذا الدين ! لأنهم يبحثون عن منافذه ومساربه إلى الفطرة ليسدوها أو يميعوها ! لأنهم يبحثون عن أسرار قوته ليقاوموه منها ! لأنهم يريدون أن يعرفوا كيف يبني نفسه في النفوس لينبوا على غراره التصورات المضادة التي يريدون ملء فراغ الناس بها !

وهم من أجل هذه الأهداف والملابسات كلها يعرفونه كما يعرفون أبناءهم !

ومن واجبا نحن أن نعرف ذلك . . وأن نعرف معه أننا نحن الأولى بأن نعرف ديننا كما نعرف آبائنا !

إن الواقع التاريخي من خلال أربعة عشر قرنا ينطق بحقيقة واحدة . . هي هذه الحقيقة التي يقررها القرآن الكريم في هذه الآية: (الذين أتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم). . ولكن هذه الحقيقة تتضح في هذه الفترة تصدر بمعدل كتاب كل أسبوع ; بلغة من اللغات الأجنبية . . وتنطق هذه البحوث بمدى معرفة أهل الكتاب بكل صغيرة وكبيرة عن طبيعة هذا الدين وتاريخه , ومصادر قوته , ووسائل مقاومته , وطرق إفساد توجيهه ! ومعظمهم - بطبيعة الحال - لا يفصح عن نيته هذه ; فهم يعلمون أن الهجوم الصريح على هذا الدين كان يثير حماسة الدفاع والمقاومة ; وأن الحركات التي قامت لطرده الهجوم المسلح على هذا الدين - الممثل في الاستعمار - إنما كانت تركز على قاعدة من الوعي الديني أو على الأقل العاطفة الدينية ; وأن استمرار الهجوم على الإسلام - ولو في الصورة الفكرية - سيظل يثير حماسة الدفاع والمقاومة ! لذلك يلجأ معظمهم إلى طريقة أخبت . . يلجأ إلى إزجاء الشئ لهذا الدين , حتى ينوم المشاعر المتوفرة , ويخدر الحماسة المتحفزة , وينال ثقة القارىء واطمئنانه . .

ثم يضع السم في الكأس ويقدمها مترعة . . هذا الدين نعم عظيم . . ولكنه ينبغي أن يتطور بمفهوماته ويتطور كذلك بتنظيماته ليحاري الحضارة "الإنسانية" الحديثة !
وينبغي ألا يقف موقف المعارضة للتطورات التي وقعت في أوضاع المجتمع , وفي أشكال الحكم , وفي قيم الأخلاق ! وينبغي - في النهاية - أن يتمثل في صورة عقيدة في القلوب , وبدع الحياة الواقعية تنظمها نظريات وتجارب وأساليب الحضارة "الإنسانية" الحديثة ! ويقف فقط ليبارك ما تقرره الأرباب الأرضية من هذه التجارب والأساليب . .
وبذلك يظل دينا عظيما . . !!!

وفي أثناء عرض مواضع القوة والعمق في هذا الدين - وهي ظاهريا تبدو في صورة الإنصاف الخادع والثناء المخدر - يقصد المؤلف قومه من أهل الكتاب ; لينبهم إلى خطورة هذا الدين , وإلى أسرار قوته ; ويسير أمام الأجهزة المدمرة بهذا الضوء الكشاف , ليسددوا ضرباتهم على الهدف . وليعرفوا هذا الدين كما يعرفون أبناءهم !

إن أسرار هذا القرآن ستظل تتكشف لأصحابه ; جديده دائما ; كلما عاشوا في ظلاله ; وهم يخوضون معركة العقيدة ; ويتدبرون بوعي أحداث التاريخ ; ويطالعون بوعي أحداث الحاضر . ويرون بنور الله . الذي يكشف الحق , وينير الطريق . .

الدرس الثاني: 21 صور لخزي الكافرين الظالمين في الآخرة

(ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ? إنه لا يفلح الظالمون . ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ? ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم , وصل عنهم ما كانوا يفترون) . .

هذا استطراد في مواجهة المشركين بحقيقة ما يزاولونه , ووصف موقفهم وعملهم في تقدير الله سبحانه . . مواجهة تبدأ باستفهام تقريري لظلمهم بافتراء الكذب على الله ; وذلك فيما كانوا يدعونه من أنهم على دينه الذي جاء به إبراهيم عليه السلام ; ومن زعمهم أن ما يحلونه وما يحرمونه من الأنعام والمطاعم والشعائر - كالذي سيحيى في آخر السورة مشفوعا بقوله تعالى: (بزعمهم) - هو من أمر الله . . وليس من أمره .
وذلك كالذي يزعمه بعض من يدعون اليوم أنهم على دين الله الذي جاء به محمد [ص] ويقولون عن أنفسهم إنهم "مسلمون" ! وهو من الكذب المفترى على الله . ذلك أنهم يصدرن أحكاما وينشئن أوضاعا , ويتدعون قيما من عند أنفسهم يغتصبون فيها سلطان الله ويدعونه لأنفسهم , ويزعمون أنها هي دين الله ; ويزعم لهم بعض من باعوا دينهم ليشتروا به مئوى في دركات الجحيم , أنه هو دين الله ! . . وباستنكار تكذيبهم كذلك بآيات الله , التي جاءهم بها النبي [ص] فردوها وعارضوها وجدوها . وقالوا: إنها ليست من عند الله . بينما هم يزعمون أن ما يزاولونه في جاهليتهم هو الذي من عند الله ! وذلك كالذي يحدث من أهل الجاهلية اليوم . . حذوك النعل بالنعل . .

يواجههم باستنكار هذا كله ; ووصفه بأنه أظلم الظلم:

(ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته !) . .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21)

والظلم هنا كناية عن الشرك . في صورة التفضيح له والتقبيح . وهو التعبير الغالب في السياق القرآني عن الشرك . وذلك حين يريد أن يبشع الشرك وينفر منه . ذلك أن الشرك ظلم للحق , وظلم للنفس , وظلم للناس . هو اعتداء على حق الله - سبحانه - في أن يوحد ويعبد بلا شريك . واعتداء على النفس بإيرادها موارد الخسارة والبوار . واعتداء على الناس بتعبيدهم لغير ربهم الحق , وإفساد حياتهم بالأحكام والأوضاع التي تقوم على أساس هذا الاعتداء . . ومن ثم فالشرك ظلم عظيم , كما يقول عنه رب العالمين . ولن يفلح الشرك ولا المشركون:

(إنه لا يفلح الظالمون). .

والله - سبحانه - يقرر الحقيقة الكلية ; ويصف الحصيلة النهائية للشرك والمشركون - أو للظلم والظالمين - فلا عبرة بما تراه العيون القصيرة النظر , في الأمد القريب , فلاحا ونجاحا . . فهذا هو الاستدراج المؤدي إلى الخسار والبوار . . ومن أصدق من الله حديثا ؟ . .

وهنا يصور من عدم فلاحهم موقفهم يوم الحشر والحساب , في هذا المشهد الحي الشاخص الموحى:

(ويوم نحشرهم جميعا , ثم نقول للذين أشركوا: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ? ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم , وضل عنهم ما كانوا يفترون). .

إن الشرك ألوان , والشركاء ألوان , والمشركون ألوان . . وليست الصورة الساذجة التي تتراءى للناس اليوم حين يسمعون كلمة الشرك وكلمة الشركاء وكلمة المشركون: من أن هناك ناسا كانوا يعبدون أصناما أو أحجارا , أو أشجارا , أو نجوما , أو نارا . . الخ . . هي الصورة الوحيدة للشرك !

إن الشرك في صميمه هو الاعتراف لغير الله - سبحانه - بإحدى خصائص الألوهية . . سواء كانت هي الاعتقاد بتسيير إرادته للأحداث ومقادير الكائنات . أو كانت هي التقدم لغير الله بالشعائر التعبدية والندور وما إليها . أو كانت هي تلقي الشرائع من غير الله لتنظيم أوضاع الحياة . . كلها ألوان من الشرك , يزاولها ألوان من المشركون , يتخذون ألوانا من الشركاء !

والقرآن الكريم يعبر عن هذا كله بالشرك ; ويعرض مشاهد يوم القيامة تمثل هذه الألوان من الشرك والمشركون والشركاء ; ولا يقتصر على لون منها , ولا يقصر وصف الشرك على واحد منها ; ولا يفرق في المصير والجزاء بين ألوان المشركون في الدنيا وفي الآخرة سواء . .

ولقد كان العرب يزاولون هذه الألوان من الشرك جميعا:

كانوا يعتقدون أن هناك كائنات من خلق الله , لها مشاركة - عن طريق الشفاعة الملمزة عندالله - في تسيير الأحداث والأقدار . كالملائكة . أو عن طريق قدرتها على الأذى - كالجن بذواتهم أو باستخدام الكهان والسحرة لهم - أو عن طريق هذه وتلك - كأرواح الآباء والأجداد - وكل أولئك كانوا يرمزون له بالأصنام التي تعمرها أرواح هذه

الكائنات ; ويستنطقها الكهان ; فتحل لهم ما تحل , وتحرم عليهم ما تحرم . . وإنما هم الكهان في الحقيقة . . هم الشركاء !

وكانوا يزاولون الشرك في تقديم الشعائر لهذه الأصنام ; وتقديم قربان لها والندور - وفي الحقيقة للكهان - كما أن بعضهم - نقلا عن الفرس - كانوا يعتقدون في الكواكب ومشاركتها في تسبير الأحداث - عن طريق المشاركة لله - ويتقدمون لها كذلك بالشعائر [ومن هنا علاقة الحلقة المذكورة في هذه السورة من قصة إبراهيم عليه السلام بموضوع السورة كما سيأتي] . .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22)
يَوْمَ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى
أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24)

وكذلك كانوا يزاولون اللون الثالث من الشرك بإقامتهم لأنفسهم - عن طريق الكهان والشيوخ - شرائع وقيما وتقاليد , لم يأذن بها الله . . وكانوا يدعون ما يدعيه بعض الناس اليوم من أن هذا هو شريعة الله ! وفي هذا المشهد - مشهد الحشر والمواجهة - يواجه المشركين - كل أنواع المشركين بكل ألوان الشرك - بسؤالهم عن الشركاء - كل أصناف الشركاء - أين هم ؟ فإنه لا يبدو لهم أثر ; ولا يكفون عن أتباعهم الهول والعذاب:

(ويوم نحشرهم جميعا , ثم نقول للذين أشركوا: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟) . .

والمشهد شاخص , والحشر واقع , والمشركون مسؤولون ذلك السؤال العظيم . . الأليم: (أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟) . .

وهنا يفعل الهول فعلة . . هنا تتعري الفطرة من الركام الذي ران عليها في الدنيا . . هنا ينعدم من الفطرة ومن الذاكرة - كما هو منعدم في الواقع والحقيقة - وجود الشركاء ; فيشعرون أنه لم يكن شرك , ولم يكن شركاء . . لم يكن لهذا كله من وجود لا في حقيقة ولا واقع . . هنا "يفتنون فيذهب الخبث , ويسقط الركام - من فتنة الذهب بالنار ليخلص من الخبث والزيد :-

(ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا:والله ربنا ما كنا مشركين). . .

إن الحقيقة التي تجلت عنها الفتنة , أو التي تبلورت فيها الفتنة , هي تخليهم عن ماضيهم كله وإقرارهم بربوبية الله وحده ; وتعريضهم من الشرك الذي زاولوه في حياتهم الدنيا . . ولكن حيث لا ينفع الإقرار بالحق والتعري من الباطل . . فهو إذن بلاء هذا الذي تمثله قولتهم وليس بالنجاة . . لقد فات الأوان . . فالיום للجزاء لا للعمل . . واليوم لتقرير ما كان لا لاسترجاع ما كان . .

لذلك يقرر الله سبحانه , معجبا رسوله [ص] من أمر القوم , أنهم كذبوا على أنفسهم يوم اتخذوا هؤلاء الشركاء شركاء , حيث لا وجود لشركتهم مع الله في الحقيقة . وأنهم اليوم غاب عنهم ما كانوا يفترونه , فاعترفوا بالحق بعد ما غاب عنهم الافتراء:

(انظر كيف كذبوا على أنفسهم , وصل عنهم ما كانوا يفترون). . .

فالكذب منهم كان على أنفسهم ; فهم كذبوها وخذعوها يوم اتخذوا مع الله شريكا ,
وافتروا على الله هذا الافتراء . وقد ظل عنهم ما كانوا يفترون وغاب , في يوم الحشر
والحساب !

هذا هو التأويل الذي أستريح إليه في حلفهم بالله يوم القيامة وهم في حضرته: أنهم ما
كانوا مشركين . وفي تأويل كذبهم على أنفسهم كذلك . فهم لا يجرؤون يوم القيامة أن
يكذبوا على الله , وأن يحلفوا أنهم ما كانوا مشركين عامدين بالكذب على الله - كما
تقول بعض التفاسير - فهم يوم القيامة لا يكتُمون الله حديثا . . إنما هو تعري الفطرة
عن الشرك أمام الهول الرعب ; وأنحاء هذا الباطل الكاذب حتى لا أثر له في حسهم
يومذاك . ثم تعجب الله - سبحانه - من كذبهم الذي كذبوه على أنفسهم في الدنيا ;
والذي لا ظل له في حسهم ولا في الواقع يوم القيامة !

. . والله أعلم بمراده على كل حال . . إنما هو احتمال . .

الدرس الثالث: 25 - 28 محاربة الكفار للحق وخزيهم في الآخرة وكذبهم في تمني
العودة للدنيا

وبمضي السياق يصور حال فريق من المشركين ; ويقرر مصيرهم في مشهد من
مشاهد القيامة . . يصور حالهم

وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا
كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ
الْأَوَّلِينَ (25)

وهم يستمعون القرآن معطلي الإدراك , مطموسي الفطرة , معاندين مكابرين ,
يجادلون رسول الله [ص] وهم على هذا النحو من الاستغلاق والعناد , ويدعون على
هذا القرآن الكريم أنه أساطير الأولين ; وبنأون عن سماعه وينهون غيرهم عنه أيضا . .
يصور حالهم هكذا في الدنيا في صفحة , وفي الصفحة الأخرى يرسم لهم مشهدا كئيبا
مكروبا ; وهم موقوفون على النار محبوسون عليها , وهي تواجههم بهول المصير
الرعب ; وهم يتهافتون متخاذلين ; ويتهاوون متحسرين ; يتمنون لو يردون إلى الدنيا
فيكون لهم موقف غير ذلك الموقف , الذي انتهى بهم إلى هذا المصير . فيردون عن هذا
التمني بالتصغير والتحقير:

ومِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ , وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا , وإن يروا
كل آية لا يؤمنوا بها , حتى إذا جاءوك يجادلونك , يقول الذين كفروا: إن هذا إلا أساطير
الأولين . وهم ينهون عنه وبنأون عنه , وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون . ولو ترى إذ
وقفوا على النار فقالوا: يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ! بل بدا لهم
ما كانوا يخفون من قبل , ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه , وإنهم لكاذبون . . إنهما صفحتان
متقابلتان: صفحة في الدنيا يرتسم فيها العناد والإعراض ; و صفحة في الآخرة يرتسم
فيها الندم والحسرة . . يرسمها السياق القرآني , ويعرضهما هذا العرض المؤثر الموحى
; ويخاطب بهما الفطر الجاسية ; ويهز بها هذه الفطر هذا , لعل الركام الذي ران عليها
يتساقط , ولعل مغاليقها الصلدة تفتح , ولعلها تفيء إلى تدبر هذا القرآن قبل فوات
الأوان .

(ومنهم من يستمع إليك , وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا , وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) . .

والأكنة:الأغلفة التي تحول دون أن تتفتح هذه القلوب فتفقه ; والوقر:الصمم الذي يحول دون هذه الآذان أن تؤدي وظيفتها فتسمع . .

وهذه النماذج البشرية التي تستمع ; ولكنها لا تفقه , كأن ليس لها قلوب تدرك ; وكأن ليس لها آذان تسمع . . نماذج مكرورة في البشرية في كل جيل وفي كل قبيل , في كل زمان وفي كل مكان . . إنهم أناسي من بني آدم . . ولكنهم يسمعون القول وكأنهم لا يسمعون . كأن آذانهم صماء لا تؤدي وظيفتها . وكأن إدراكهم في غلاف لا تنفذ إليه مدلولات ما سمعته الآذان !

وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها . حتى إذا جاؤوك يجادلونك . يقول الذين كفروا:إن هذا إلا أساطير الأولين . .

فأعينهم ترى كذلك . ولكن كأنها لا تبصر . أو كأن ما تبصره لا يصل إلى قلوبهم وعقولهم !

فما الذي أصاب القوم يا ترى ? ما الذي يحول بينهم وبين التلقي والاستجابة . بينما لهم آذان ولهم عيون ولهم عقول ? يقول الله - سبحانه :-

(وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا . وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) . .

وهذا يعبر عن قضاء الله فيهم بألا يتلقى إدراكهم هذا الحق ولا يفقهه ; وبألا تؤدي أسماعهم وظيفتها فتنتقل إلى إدراكهم ما تسمع من هذا الحق فتستجيب له , مهما يروا من دلائل الهدى وموجيات الإيمان .

غير أنه يبقى أن نلتمس سنة الله في هذا القضاء . . إنه سبحانه يقول: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) . .

ويقول:(ونفس وما سواها , فألهمها فجورها وتقواها , قد أفلح من زكاها , وقد خاب من دساها) . . فشان الله - سبحانه - أن يهدي من يجاهد ليلبغ الهدى ; وأن يفلح من يزكي نفسه ويطهرها . . فأما هؤلاء فلم يتوجهوا إلى الهدى ليهديهم الله ; ولم يحاولوا أن يستخدموا أجهزة الاستقبال الفطرية في كيانهم , فييسر الله لهم الاستجابة . . هؤلاء عطلوا أجهزتهم الفطرية ابتداء ; فجعل الله بينهم وبين الهدى حجابا ; وجرى قضاؤه فيهم بهذا الذي جرى جزاء على فعلهم الأول ونيتهم الأولى . . وكل شيء إنما يكون بأمر الله . ومن أمر الله أن يهدي من يجاهد , وأن يفلح من يتزكى . ومن أمر الله أن يجعل على قلوب المعرضين أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا , وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها . . والذين يحيلون ضلالهم وشركهم وخطاياهم على إرادة الله بهم , وعلى قضائه فيهم , إنما يغالطون في هذه الإحالة . والله سبحانه يجبههم بالحق , وهو يحكي أقوالهم في هذا الشأن ويسفهاها:(وقال الذين أشركوا:لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا , ولا حرمنا من دونه من شيء . كذلك فعل الذين من قبلهم . فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ? ولقد بعثنا في كل أمة رسولا:أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت , فمنهم من هدى الله , ومنهم من حقت عليه الضلالة , فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان

عاقبة المكذبين). . . فدل هذا على إنكار الله عليهم قولهم ; وعلى أن الضلالة إنما حقت عليهم - بعد النذارة - بفعلهم . .

والذين أثاروا قضايا القضاء والقدر , والجبر والاختيار , وإرادة العبد وكسبه . . ليجعلوا منها مباحث لاهوتية , تخضع لما تتصوره عقولهم من فروض وتقديرات , إنما يجانبون منهج القرآن في عرض هذه القضية في صورتها الواقعية التقريرية البسيطة ; التي تقرر أن كل شيء إنما يكون بقدر من الله ; وأن اتجاه الإنسان على هذا النحو أو ذاك داخل في حدود فطرته التي خلقه الله عليها , والتي جرى بها قدر الله فكانت على ما كانت عليه ; وأن اتجاهه على هذا النحو أو ذاك تترتب عليه نتائج وأثار في الدنيا والآخرة يجري بها قدر الله أيضا , فتكون . . وبهذا يكون مرجع الأمر كله إلى قدر الله . . ولكن على النحو الذي يرتب على إرادة الإنسان الموهوبة له ما يوقعه قدر الله به . . وليس وراء هذا التقرير إلا الجدل الذي ينتهي إلى المرء !

والمشركون كانت معروضة عليهم أمارات الهدى ودلائل الحق وموحيات الإيمان , في هذا القرآن , الذي يلفتهم إلى آيات الله في الأنفس والآفاق ; وهي وحدها كانت كفيلة - لو اتجهت إليها قلوبهم - أن توقع على أوتار هذه القلوب , وأن تهز فيها المدارك الغافية فتوقظها وتحياها , لتلقى وتستجيب . . إلا أنهم هم لم يجاهدوا ليهتدوا ; بل عطلوا فطرتهم وحوافزها ; فجعل الله بينهم وبين موحيات الهدى حجابا ; وصاروا حين يجيئون إلى الرسول [ص] لا يجيئون مفتوحين الأعين والأذان والقلوب ; ليتدبروا ما يقوله لهم تدبر الباحث عن الحق ; ولكن ليجادلوا ويتلمسوا أسباب الرد والتكذيب :

حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا: إن هذا إلا أساطير الأولين . .

والأساطير جمع أسطورة . وكانوا يطلقونها على الحكايات التي تتضمن الخوارق المتعلقة بالألوهة والأبطال في قصص الوثنيات . وأقربها إليهم كانت الوثنية الفارسية وأساطيرها .

وهم كانوا يعلمون جيدا أن هذا القرآن ليس بأساطير الأولين . ولكنهم إنما كانوا يجادلون ; ويبحثون عن أسباب الرد والتكذيب ; ويتلمسون أوجه الشبهات البعيدة . . وكانوا يجدون فيما يتلى عليهم من القرآن قصصا عن الرسل وأقوامهم ; وعن مصارع الغابرين من المكذبين . فمن باب التمثل والتماس أوهى الأسباب , قالوا عن هذا القصص وعن القرآن كله: (إن هذا إلا أساطير الأولين)!

وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (26) وَلَوْ تَرَى إِذِ
وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27)
وإمعانا في صرف الناس عن الاستماع لهذا القرآن , وثبتت هذه الفرية . . فربة أن هذا القرآن إن هو إلا أساطير الأولين . . كان مالك بن النضر , وهو يحفظ أساطير فارسية عن رستم واسفنديار من أبطال الفرس الأسطوريين , يجلس مجلسا قريبا من رسول الله [ص] وهو يتلو القرآن . فيقول للناس: إن كان محمد يقص عليكم أساطير الأولين , فعندي أحسن منها ! ثم يروح يقص عليهم مما عنده من الأساطير , ليصرفهم عن الاستماع إلى القرآن الكريم !

ولقد كانوا كذلك ينهون الناس عن الاستماع إليه - وهم كبراًؤهم - وبنأون هم عن الاستماع خشية التأثير والاستجابة:

(وهم ينهون عنه , وبنأون عنه , وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون) .

لقد كانوا على يقين من أنه ليس أساطير الأولين . وأن مواجهته بأساطير الأولين لا تجدي لو ترك الناس يسمعون ! وكان كبراء قريش يخافون على أنفسهم من تأثير هذا القرآن فيها كما يخافون على أتباعهم . فلم يكن يكفي إذن في المعركة بين الحق النفاذ بسلطانه القوي , والباطل الواهن المتداعي , أن يجلس النضر بن الحارث يروي للناس أساطير الأولين ! ومن ثم كانوا ينهون أتباعهم أن يستمعوا لهذا القرآن ; كما كانوا هم أنفسهم ينأون بأنفسهم - خوفاً عليها أن تتأثر وتستجيب - وحكاية الأخنس بن شريق , وأبي سفيان بن حرب , وعمرو بن هشام وهم يقاومون جاذبية القرآن التي تشدهم شداً إلى التسمع في خفية لهذا القرآن حكاية مشهورة في السيرة .

وهذا الجهد كله الذي كانوا يبذلونه ليمنعوا أنفسهم ويمنعوا غيرهم من الاستماع لهذا القرآن ; ومن التأثير والاستجابة له . . هذا الجهد كله إنما كانوا يبذلونه في الحقيقة لإهلاك أنفسهم - كما يقرر الله - سبحانه - : (وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون)!

وهل يهلك إلا نفسه من يجاهد نفسه ويجاهد غيره دون الهدى والصالح والنجاة , في الدنيا والآخرة ?

إنهم مساكين أولئك الذين يجعلون همهم كله في الحيلولة بين أنفسهم والناس معهم وبين هدى الله ! مساكين ! ولو تبدوا في ثياب الجبابرة وزي الطواغيت ! مساكين فهم لا يهلكون إلا أنفسهم في الدنيا والآخرة . وإن بدا لهم حيناً من الدهر وبدا للمخدوعين بالزبد أنهم رابحون مفلحون .

ومن شاء ان يرى فلينظر في الصفحة الأخرى المواجهة لهذه الصفحة الأولى:

(ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا: يا ليتنا نرد , ولا نكذب بآيات ربنا , ونكون من المؤمنين)!

إنه المشهد المقابل لمشهدهم في الدنيا . . مشهد الاستخذاء والندامة والخزي والحسرة . في مقابل مشهد الإعراض والجدال والنهي والنأي والادعاء العريض !

(ولو ترى إذ وقفوا على النار) . .

لو ترى ذلك المشهد ! لو تراهم وقد حبسوا على النار لا يملكون الإعراض والتولي ! ولا يملكون الجدل والمغالطة !

لو ترى لرأيت ما يهول ! ولرأيتهم يقولون:

بَلْ يَدَا لَهُمْ مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (28)
وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29)
(يا ليتنا نرد , ولا نكذب بآيات ربنا , ونكون من المؤمنين) . .

يعلمون الآن أنها كانت (آيات ربنا)! وهم يتمنون لو يردون إلى الدنيا . وعندئذ فلن يكون منهم تكذيب بهذه الآيات , وعندئذ سيكونون من المؤمنين !

ولكنها ليست سوى الأمانى التي لا تكون !

على أنهم إنما يجهلون جبلتهم . فهي جبلة لا تؤمن . وقولهم هذا عن أنفسهم:إنهم لو ردوا لما كذبوا ولكانوا مؤمنين , إنما هو كذب لا يطابق حقيقة ما يكون منهم لو كان لإجابتهم من سبيل ! وإنهم ما يقولون قولتهم هذه , إلا لأنه تكشف لهم من سوء عملهم وسوء مغيبهم ما كانوا من قبل يخفونه على أتباعهم ليوهموهم أنهم محقون , وأنهم ناجون , وأنهم مفلحون .

(بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل . ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه . وإنهم لكاذبون) . .

إن الله يعلم طبيعتهم ; ويعلم إصرارهم على باطلهم ; ويعلم أن رجفة الموقف الرعب على النار هي التي أنطقت ألسنتهم بهذه الأمانى وهذه الوعود . . (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) . .

ويدعهم السياق في هذا المشهد البائس , وهذا الرد يصفع وجوههم بالمهانة والتكذيب !

الدرس الرابع:29 - 32 حقيقة الحياة في التصور الإسلامي

يدعهم ليفتح صفتين جديدتين متقابلتين كذلك ; ويرسم لهما مشهدين متقابلين:أحدهما في الدنيا وهم يجزمون بأن لا بعث ولا نشور , ولا حساب ولا جزاء . وثانيهما في الآخرة وهم موقوفون على ربهم يسألهم عما هم فيه: (أليس هذا بالحق ?) . السؤال الذي يزلزل ويذيب . . فيجيبون إجابة المهين الذليل: (بلى ! وربنا) . . فيجبهون عندئذ بالجزاء الأليم بما كانوا يكفرون . . ثم يمضي السياق يرسم مشهدهم والساعة تأخذهم بغتة , بعدما كذبوا بقاء الله , فتنتابهم الحسرة ; وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ! وفي النهاية يقرر حقيقة وزن الدنيا والآخرة في ميزان الله الصحيح:

(وقالوا:إن هي إلا حياتنا الدنيا , وما نحن بمبعوثين . ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال:أليس هذا بالحق ? قالوا:بلى وربنا . قال:فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . . قد خسر الذين كذبوا بقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا:يا حسرتنا على ما فرطنا فيها , وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون , وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو , وللدار الآخرة خير للذين يتقون . أفلا تعقلون ?)

وقضية البعث والحساب والجزاء في الدار الآخرة من قضايا العقيدة الأساسية , التي جاء بها الإسلام ; والتي يقوم عليها بناء هذه العقيدة بعد قضية وحدانية الألوهية . والتي لا يقوم هذا الدين - عقيدة وتصورا , وخلقاً وسلوكاً , وشرعية ونظاماً - إلا عليها . . وبها . .

إن هذا الدين الذي أكمله الله , وأتم به نعمته على المؤمنين به , ورضيه لهم دينا - كما قال لهم في كتابه الكريم - هو منهج للحياة كامل في حقيقته , متكامل متناسق في تكوينه . . "يتكامل" ويتناسق فيه تصوره الاعتقادي مع قيمه الخلقية , مع شرائعه التنظيمية . . وتقوم كلها على قاعدة واحدة من حقيقة الألوهية فيه وحقيقة الحياة الآخرة .

فالحياة - في التصور الإسلامي - ليست هي هذه الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد ; وليست هي هذه الفترة المحدودة التي تمثل عمر الأمة من الناس ; كما أنها ليست هي هذه الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا .

إن الحياة - في التصور الإسلامي - تمتد طولا في الزمان , وتمتد عرضا في الآفاق , وتمتد عمقا في العوالم , وتمتد تنوعا في الحقيقة . . عن تلك الفترة التي يراها ويظنها ويتذوقها من يغفلون الحياة الآخرة من حسابهم ولا يؤمنون بها .

إن الحياة - في التصور الإسلامي - تمتد في الزمان , فتشمل هذه الفترة المشهودة - فترة الحياة الدنيا - وفترة الحياة الأخرى التي لا يعلم مداها إلا الله ; والتي تعد فترة الحياة الدنيا بالقياس إليها ساعة من نهار !

وتمتد في المكان , فتضيف إلى هذه الأرض التي يعيش عليها البشر ; دارا أخرى:جنة عرضها كعرض السماوات والأرض ; ونارا تسع الكثرة من جميع الأجيال التي عمرت وجه الأرض ملايين الملايين من السنين !

وتمتد في العوالم , فتشمل هذا الوجود المشهود إلى وجود مغيب لا يعلم حقيقة كلها إلا الله ; ولا نعلم نحن عنه إلا ما أخبرنا به الله . وجود يبدأ من لحظة الموت , وينتهي في الدار الآخرة . وعالم الموت وعالم الآخرة كلاهما من غيب الله . وكلاهما يمتد فيه الوجود الإنساني في صور لا يعلمها إلا الله .

وتمتد الحياة في حقيقتها ; فتشمل هذا المستوى المعهود في الحياة الدنيا , إلى تلك المستويات الجديدة في الحياة الأخرى . . في الجنة وفي النار سواء . . وهي ألوان من الحياة ذات مذاقات ليست من مذاقات هذه الحياة الدنيا . . ولا تساوي الدنيا - بالقياس إليها - جناح بعوضة !

والشخصية الإنسانية - في التصور الإسلامي - يمتد وجودها في هذه الأبعاد من الزمان , وفي هذه الآفاق من المكان , وفي هذه الأعماق والمستويات من العوالم والحيوات . . ويتسع تصورها للوجود كله ; وتصورها للوجود الإنساني ; ويتعمق تذوقها للحياة ; وتكبر اهتماماتها وتعلقاتها وقيمها , بقدر ذلك الامتداد في الأبعاد والآفاق والأعماق والمستويات . . بينما أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة , يتضاءل تصورهم للوجود الكوني , وتصورهم للوجود الإنساني ; وهم يحشرون أنفسهم وتصوراتهم وقيمهم وصراعاتهم في ذلك الجحر الضيق الصغير الضئيل من هذه الحياة الدنيا !

ومن هذا الاختلاف في التصور يبدأ الاختلاف في القيم , ويبدأ الاختلاف في النظم . . ويتجلى كيف أن هذا الدين منهج حياة متكامل متناسق ; وتبين قيمة الحياة الآخرة في بنائه:تصورا واعتقادا , وخلق وسلوكا وشرعية ونظاما . .

إن إنسانا يعيش في هذا المدى المتطاوول من الزمان والمكان والعوالم والمذاقات , غير إنسان يعيش في ذلك الجحر الضيق , وبصارع الآخرين عليه , بلا انتظار لعوض عما يفوته , ولا لجزاء عما يفعله وما يفعل به . . إلا في هذه الأرض ومن هؤلاء الناس !

إن اتساع التصور وعمقه وتنوعه ينشئ ء سعة في النفس وكبرا في الاهتمامات ورفعة في المشاعر ! ينشأ عنها هي بذاتها خلق وسلوك , غير خلق الذين يعيشون في الجحور وسلوكهم ! فإذا أضيف إلى سعة التصور وعمقه وتنوعه , طبيعة هذا التصور , والاعتقاد

في عدل الجزاء في الدار الآخرة ، وفي ضخامة العوض عما يفوت ونفاسته ؛ استعدت النفس للبذل في سبيل الحق والخير والصلاح الذي تعلم أنه من أمر الله ، وأنه مناط العوض والجزاء ؛ وصلح خلق الفرد واستقام سلوكه - متى استيقن من الآخرة كما هي في التصور الإسلامي - وصلحت الأوضاع والأنظمة ، التي لا يتركها الأفراد تسوء وتتحرف ، وهم يعلمون أن سكوتهم على فسادها لا يحرمهم صلاح الحياة الدنيا وحدها وخيراتها ؛ ولكنه يحرمهم كذلك العوض في الآخرة ، فيخسرون الدنيا والآخرة !

والذين يفترون على عقيدة الحياة الآخرة فيقولون: إنها تدعو الناس إلى السلبية في الحياة الدنيا ؛ وإلى إهمال هذه الحياة ؛ وتركها بلا جهد لتحسينها وإصلاحها ؛ وإلى تركها للطفاة والمفسدين تطلعا إلى نعيم الآخرة . . الذين يفترون هذا الافتراء على عقيدة الآخرة يضيفون إلى الافتراء الجهالة ! فهم يخلطون بين عقيدة الآخرة - كما هي في التصورات الكنسية المنحرفة - وعقيدة الآخرة كما هي في دين الله القويم . . فالدنيا - في التصور الإسلامي - هي مزرعة الآخرة . والجهاد في الحياة الدنيا لإصلاح هذه الحياة ، ورفع الشر والفساد عنها ، ورد الاعتداء عن سلطان الله فيها ، ودفع الطواغيت وتحقيق العدل والخير للناس جميعا . . كل أولئك هو زاد الآخرة ؛ وهو الذي يفتح للمجاهدين أبواب الجنة ، ويعوضهم عما فقدوا في صراع الباطل ، وما أصابهم من الأذى . .

فكيف يتفق لعقيدة هذه تصوراتها أن يدع أهلها الحياة الدنيا تركد وتأسن ، أو تفسد وتختل ، أو يشيع فيها الظلم والطغيان ، أو تتخلف في الصلاح وال عمران . . وهم يرجون الآخرة ، وينتظرون فيها الجزاء من الله ؟

إن الناس إذا كانوا في فترات من الزمان يعيشون سلبين ؛ ويدعون الفساد والشر والظلم والطغيان والتخلف والجهالة تغمر حياتهم الدنيا - مع ادعائهم الإسلام - فإنما هم يصنعون ذلك كله أو بعضه لأن تصورهم للإسلام قد فسد وانحرف ؛ ولأن يقينهم في الآخرة قد تزعزع وضعف ؛ لا لأنهم يدبنون بحقيقة هذا الدين ؛ ويستيقنون من لقاء الله في الآخرة . فما يستيقن أحد من لقاء الله في الآخرة ، وهو يعي حقيقة هذا الدين ، ثم يعيش في هذه الحياة سلبيا ، أو متخلفا ، أو راضيا بالشر والفساد والطغيان .

إنما يزاول المسلم هذه الحياة الدنيا ، وهو يشعر أنه أكبر منها وأعلى . ويستمتع بطبيعتها أو يزهدها فيها وهو يعلم أنها حلال في الدنيا خالصة له يوم القيامة . ويجاهد لترقية هذه الحياة وتسخير طاقاتها وقواها وهو يعرف أن هذا واجب الخلافة عن الله فيها . ويكافح الشر والفساد والظلم محتملا الأذى والتضحية حتى الشهادة وهو إنما يقدم لنفسه في الآخرة . . إنه يعلم من دينه أن الدنيا مزرعة الآخرة ؛ وأن ليس هنالك طريق للآخرة لا يمر بالدنيا ؛ وأن الدنيا صغيرة زهيدة ولكنها من نعمة الله التي يجتاز منها إلى نعمة الله الكبرى . .

وكل جزئية في النظام الإسلامي منظور فيها إلى حقيقة الحياة الآخرة ؛ وما تنشئه في التصور من سعة وجمال وارتفاع ؛ وما تنشئه في الخلق من رفعة وتطهر وسماحة ومن تشدد في الحق وتحرج وتقوى ؛ وما تنشئه في النشاط الإنساني من تسديد وثقة وتصميم .

من أجل ذلك كله لا تستقيم الحياة الإسلامية بدون يقين في الآخرة . ومن أجل ذلك كله كان هذا التوكيد في القرآن الكريم على حقيقة الآخرة . .

وكان العرب في جاهليتهم - وبسبب من هذه الجاهلية - لا تتسع آفاقهم التصورية والشعورية والفكرية للاعتقاد في حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا ; ولا في عالم آخر غير هذا العالم الحاضر: ولا في امتداد الذات الإنسانية إلى آمام وأفاق وأعماق غير هذه الآمام المحسوسة . . مشاعر وتصورات أشبه شيء بمشاعر الحيوان وتصوراته . . شأنهم في هذا شأن الجاهلية الحاضرة . . "العلمية " كما يصر أهلها على تسميتها !

(وقالوا: إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) . .

وكان الله - سبحانه - يعلم أن الاعتقاد على هذا النحو يستحيل أن تنشأ في ظلله حياة إنسانية رفيعة كريمة . . هذه الآفاق الضيقة في الشعور والتصوير , التي تلتصق الإنسان بالأرض , وتلتصق تصوره بالمحسوس منها

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُوقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَيْسَٰرَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (30)

كالبهيمة . . وهذه الرقعة الضيقة من الزمان والمكان , التي تطلق السعار في النفس , والتكالب على المتاع المحدود , والعبودية لهذا المتاع الصغير , كما تطلق الشهوات من عقالها تعربد وحدها بلا كايح , ولا هدنة , ولا أمل في عوض , إن لم تقض هذه الشهوات الهايطة الصغيرة , التي لا تكاد تبلغ نزوات البهيمة ! . . وهذه الأنظمة والأوضاع , التي تنشأ في الأرض منظورا فيها إلى هذه الرقعة الضيقة من الزمان والمكان ; بلا عدل ولا رحمة , ولا قسط ولا ميزان . . إلا أن يصرار الأفراد بعضهم بعضا , وتصارع الطبقات بعضها بعضا , وتصارع الأجناس بعضها بعضا . . وينطلق الكل في الغابة انطلاقا لا يرتفع كثيرا على انطلاق الوحوش والغيلان ! كما نشهد اليوم في عالم "الحضارة " . . في كل مكان . .

كان الله - سبحانه - يعلم هذا كله ; ويعلم أن الأمة التي قدر أن يعطيها مهمة الإشراف على الحياة البشرية , وقيادتها إلى القمة السامقة التي يريد أن تتجلى فيها كرامة الإنسانية في صورة واقعية . . أن هذه الأمة لا يمكن أن تؤدي واجبها هذا إلا بأن تخرج بتصوراتها وقيمها من ذلك الجحر الضيق إلى تلك الآفاق والآمام الواسعة . . من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة . .

ولهذا كان ذلك التوكيد على حقيقة الآخرة . . أولا لأنها حقيقة . والله يقص الحق . وثانيا لأن اليقين بها ضرورة لاستكمال إنسانية الإنسان: تصورا واعتقادا , وخلقاً وسلوكاً , وشرعية ونظاما .

ومن ثم كانت هذه الإيقاعات العنيفة العميقة التي نراها في هذه الموجة من نهر السورة المتدفق . . الإيقاعات التي يعلم الله أن فطرة الإنسان تهتز لها وترجف ; فتفتح نوافذها , وتستيقظ أجهزة الاستقبال فيها , وتتحرك وتحيا , وتناهب للتلقي والاستجابة . . ذلك كله فضلا على أنها تمثل الحقيقة:

(ولو ترى إذ وقفوا على ربهم . قال: أليس هذا بالحق ? قالوا: بلى وربنا . قال: فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) . .

هذا مصير الذين قالوا: (إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين). وهذا هو مشهدهم البائس المخزي المهين ; وهم موقوفون في حضرة ربهم الذي كذبوا بلفائه , لا يرحون الموقف . وكانما أخذ بأعناقهم حتى وقفوا في هذا المشهد الجليل الرهيب:

(قال: أليس هذا بالحق ?) . .

وهو سؤال يخزي ويذيب ! (قالوا: بلى وربنا) . .

الآن . وهم موقوفون على ربهم . في الموقف الذي نفوا على سبيل التوكيد أن يكون ! وفي اختصار يناسب جلال الموقف , ورهبة المشهد , وهول المصير , يجيء الأمر العلوي بالقضاء الأخير: قال: (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) . .

وهو مصير يتفق مع الخلائق التي أبت على نفسها سعة التصور الإنساني وأثرت عليه جحر التصور الحسي ! والتي أبت أن ترتفع إلى الأفق الإنساني الكريم , وأخلدت إلى الأرض , وأقامت حياتها وعاشت على أساس ذلك التصور الهابط الهزيل ! لقد ارتكست هذه الخلائق حتى أهلت نفسها لهذا العذاب ; الذي يناسب طبائع الكافرين بالآخرة ; الذين عاشوا ذلك المستوى الهابط من الحياة ! بذلك التصور الهابط الهزيل !

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ (31)

وبستكمل السياق المشهد الذي ختمه هناك بهذا القضاء العلوي تنسيقا له مع الجلال والروعة والهول . . يستكملة بتقرير حقيقته:

(قد خسر الذين كذبوا بقاء الله . حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا: يا حسرتنا على ما فرطنا فيها !) . .

فهي الخسارة المحققة المطلقة . . خسارة الدنيا بقضاء الحياة فيها في ذلك المستوى الأدنى . . وخسارة الآخرة على النحو الذي رأينا . . والمفاجأة التي لم يحسب لها أولئك الغافلون الجاهلون حسابا:

(حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا: يا حسرتنا على ما فرطنا فيها !) . .

ثم مشهدهم كالذباب الموقرة بالأحمال:

(وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) . .

بل الذباب أحسن حالا . فهي تحمل أوزارا من الأثقال . ولكن هؤلاء يحملون أوزارا من الآثام ! والذباب تحط عنها أوزارها فتذهب لتستريح . وهؤلاء يذهبون بأوزارهم إلى الجحيم . مشيعين بالتأثيم:

(ألا ساء ما يزررون !) . .

وفي ظلال هذا المشهد الناطق بالخسارة والضياع , بعد ذلك المشهد الناطق بالهول والرهبة . . يجيء الإيقاع الأخير في هذا القطع ; بحقيقة وزن الدنيا ووزن الآخرة في ميزان الله ; وقيمة هذه الدنيا وقيمة الآخرة في هذا الميزان الصحيح:

(وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو , وللدار الآخرة خير للذين يتقون . أفلا تعقلون ?) . .

هذه هي القيمة المطلقة الأخيرة في ميزان الله للحياة الدنيا وللدار الآخرة . . وما يمكن أن يكون وزن ساعة من نهار , على هذا الكوكب الصغير , إلا على هذا النحو , حين توازن بذلك الأبد الأبد في ذلك الملك العريض . وما يمكن أن تكون قيمة نشاط ساعة في هذه العبادة إلا لعبا ولهوا حين تقاس إلى الجد الرزين في ذلك العالم الآخر العظيم . .

هذا تقييم مطلق . . ولكنه في التصور الإسلامي لا ينشئ ء - كما قلنا - إهمالا للحياة الدنيا ولا سلبية فيها ولا انعزالا عنها . . وليس ما وقع من هذا الإهمال والسلبية والانعزال وبخاصة في بعض حركات "التصوف" "والزهد" بنابع من التصور الإسلامي أصلا . إنما هو عدوى من التصورات الكنسية الرهبانية ; ومن التصورات الفارسية . ومن بعض التصورات الإشرافية الإغريقية المعروفة بعد انتقالها للمجتمع الإسلامي !

والنماذج الكبيرة التي تمثل التصور الإسلامي في أكمل صورة , لم تكن سلبية ولا انعزالية . . فهذا جيل الصحابة كله ; الذين قهروا الشيطان في نفوسهم , كما قهروه في الأنظمة الجاهلية السائدة من حولهم في الأرض ; حيث كانت الحاكمية للعباد في الإمبراطوريات . . هذا الجيل الذي كان يدرك قيمة الحياة الدنيا كما هي في ميزان الله , هو الذي عمل للآخرة بتلك الآثار الإيجابية الضخمة في واقع الحياة , وهو الذي زاول الحياة بحيوية ضخمة , وطاقة فائضة , في كل جانب من جوانبها الحية الكثيرة .

إنما أفادهم هذا التقييم الرباني للحياة الدنيا وللدار الآخرة , أنهم لم يصبحوا عبيدا للدنيا . لقد ركبوها ولم تركبهم ! وعبدوها فذللوها لله ولسلطانه ولم تستعبدهم ! ولقد قاموا بالخلافة عن الله فيها بكل ما تقتضيه الخلافة عن الله من تعمیر وإصلاح , ولكنهم كانوا يتبعون في هذه الخلافة وجه الله , ويرجون الدار الآخرة فسبقوا أهل الدنيا في الدنيا , ثم سبقوهم كذلك في الآخرة !

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ حَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (32)

والآخرة غيب . فالإيمان بها سعة في التصور . وارتقاء في العقل . والعمل لها خير للمتقين يعرفه الذين يعقلون:

(وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون) . .

والذين ينكرون الآخرة اليوم لأنها "غيب" إنما هم الجهال الذين يدعون العلم . . فالعلم علم الناس - [كما سنذكر فيما بعد] لم يعد لديه اليوم حقيقة واحدة مستيقنة له إلا حقيقة الغيب وحقيقة المجهول !!!

الوحدة الخامسة: 33 - 39 الموضوع: مواساة الرسول وبيان طريق الدعوة مقدمة الوحدة من سورة الأنعام

في هذه الموجة من موجات السياق المتدفق في السورة ; يتجه الحديث إلى رسول الله [ص] يطيب الله - سبحانه - خاطره في أوله , مما يلاقيه من تكذيب قومه له , وهو الصادق الأمين , فإنهم لا يظنون به الكذب , إنما هم مصرّون على الجحود بآيات الله وعدم الاعتراف بها وعدم الإيمان , لأمر آخر غير ظنهم به الكذب ! كما يواسيه بما وقع لإخوانه الرسل قبله من التكذيب والأذى , وما وقع منهم من الصبر والاحتمال , ثم ما انتهى إليه أمرهم من نصر الله لهم . وفق سنته التي لا تتبدل . . حتى إذا انتهى من المواساة والتسرية والتطمين , التفت إلى النبي [ص] يقرر له الحقيقة الكبرى في شأن هذه الدعوة . . إنها تجري بقدر الله وفق سنته , وليس للداعية فيها إلا التبليغ والبيان . . إن الله هو الذي يتصرف في الأمر كله , فليس على الداعية إلا أن يمضي وفق هذا الأمر , لا يستعجل خطوة ولا يقترح على الله شيئاً . حتى ولو كان هو

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ آتَاهُم نَصْرًا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِيِّ الْمُرْسَلِينَ (34)

النبي الرسول ! ولا يستمع إلى مقترحات المكذبين - ولا الناس عامة - في منهج الدعوة , ولا في اقتراح براهين وآيات معينة عليه . . والأحياء الذين يسمعون سيستجيبون , أما موتى القلوب فهم موتى لا يستجيبون , والأمر إلى الله إن شاء أحياهم وإن شاء أبقاهم موتى حتى يرجعوا إليه يوم القيامة .

وهم يطلبون آية خارقة على نحو ما كان يقع للأقوام من قبلهم , والله قادر على أن ينزل آية . ولكنه سبحانه لا يريد - لحكمة يراها - فإذا كبر على الرسول إعراضهم فليحاول هو إذن بجهد البشري أن يأتيهم بآية ! . . إن الله - سبحانه - هو خالق الخلائق جميعاً , وعنده أسرار خلقهم , وحكمة اختلاف خصائصهم وطباعهم . وهو يترك المكذبين من البشر صماً وبكماً في الظلمات , ويضل من يشاء ويهدي من يشاء وفق ما يعلمه من حكمة الخلق والتنوع . .

الدرس الأول: 33 - 36 مواساة الرسول على ما يلاقيه من قومه وبيان طريق الدعوة

(قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون . فإنهم لا يكذبونك . ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) . .

إن مشركي العرب في جاهليتهم - وخاصة تلك الطبقة التي كانت تتصدي للدعوة من قريش - لم يكونوا يشكون في صدق محمد [ص] فلقد عرفوه صادقاً أميناً , ولم يعلموا عنه كذبة واحدة في حياته الطويلة بينهم قبل الرسالة , كذلك لم تكن تلك الطبقة التي تتزعم المعارضة لدعوته تشك في صدق رسالته , وفي أن هذا القرآن ليس من كلام البشر , ولا يملك البشر أن يأتوا بمثله . .

ولكنهم - على الرغم من ذلك - كانوا يرفضون إظهار التصديق , ويرفضون الدخول في الدين الجديد ! إنهم لم يرفضوا لأنهم يكذبون النبي [ص] ولكن لأن في دعوته خطراً على نفوذهم ومكانتهم . . وهذا هو السبب الذي من أجله قرروا الجحود بآيات الله , والبقاء على الشرك الذي كانوا فيه . .

والأخبار التي تقرر الأسباب الحقيقية لموقف قريش هذا وحقيقة ظنهم بهذا القرآن كثيرة:

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري: أنه حدث , أن أبا سفيان بن حرب , وأبا جهل بن هشام , والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي , حليف بني زهرة , خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله [ص] وهو يصلي من الليل في بيته فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه . وكل لا يعلم بمكان صاحبة . فباتوا يستمعون له , حتى إذا طلع الصبح تفرقوا , فجمعهم الطريق , فتلاوموا , وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رأيتم بعض سفهائهم لأوقعتم في نفسه شيئا . ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه , فباتوا يستمعون له , حتى إذا طلع الفجر تفرقوا , فجمعهم الطريق , فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة . ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه , فباتوا يستمعون له . حتى إذا طلع الفجر تفرقوا , فجمعهم الطريق , فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود . فتعاهدوا على ذلك . . ثم تفرقوا . . فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه , ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته , فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ? قال: يا أبا ثعلبة , والله لقد سمعت أشياء أعرفها , وأعرف ما يراد بها , وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به . ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل , فدخل عليه في بيته , فقال: يا أبا الحكم , ما رأيك فيما سمعت من محمد ? قال: ماذا سمعت ? قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف . . أطعموا فأطعمنا , وحملوا فحملنا , وأعطوا فأعطينا , حتى إذا تجاثنا على الركب , وكنا كفرنسي رهان , قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء , فمتى ندرك هذه ? والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقها ! قال: فقام عنه الأخنس وتركه . .

وروى ابن جرير - من طريق أسباط عن السدي - في قوله: (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك , ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون). . لما كان يوم بدر , قال الأخنس بن شريق لبني زهرة: يا بني زهرة إن محمدا ابن أختكم , فأنتم أحق من ذب عن ابن أخته , فإن كان نبيا لم تقاقلوه اليوم , وإن كان كاذبا كنتم أحق من كف عن ابن أخته . قفوا حتى ألقى أبا الحكم , فإن غلب محمد رجعتم سالمين , وإن غلب محمد فإن قومكم لن يصنعوا بكم شيئا - فيومئذ سمي الأخنس وكان اسمه أبي - فالتقى الأخنس بأبي جهل , فخلاه به , فقال: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد: أصادق هو أم كاذب ? فإنه ليس ها هنا من قريش غيري وغيرك يستمع كلامنا ! فقال أبو جهل: ويحك ! والله إن محمدا لصادق , وما كذب محمد قط , ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابه والنبوة , فماذا يكون لسائر قريش ? فذلك قوله: (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون). .

ونلاحظ: أن السورة مكية , وهذه الآية مكية لا شك في ذلك ; بينما الحادثة المذكورة كانت في المدينة يوم بدر . . ولكن إذا عرفنا أنهم كانوا يقولون أحيانا عن آية ما: "فذلك قوله: كذا . . " ويقرنون إليها حادثا ما لا للنص على أنها نزلت بسبب الحادث الذي يذكرونه ; ولكن بسبب انطباق مدلولها على الحادث , بغض النظر عما إذا كان سابقا أو لاحقا . . فإننا لا نستغرب هذه الرواية . .

وقال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن زياد , عن محمد بن كعب القرظي , قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة - وكان سيديا - قال يوما وهو جالس في نادي قريش , ورسول الله [ص] جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش , ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله أن يقبل بعضها , فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ? - وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه , ورأوا أصحاب رسول الله [ص] يزيدون ويكثر - فقالوا: بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه . فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله [ص] فقال: يا ابن أخي . . إنك منا حيث علمت من البسطة في العشيرة , والمكان في النسب . وإنك قد أتيت

قومك بأمر عظيم , فرقت به جماعتهم , وسفهت أحلامهم , وعبت به آلهتهم ودينهم , وكفرت به من مضى من آبائهم . فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها , لعلك تقبل منها بعضها . قال: فقال له رسول الله [ص]: "قل: يا أبا الوليد أسمع" قال: يا ابن أخي , إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا , وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع امرنا دونك , وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا , وإن كان هذا الذي يأتيك رثيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء , وبذلنا فيها أموالنا حتى نبرئك منه , فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه . . . أو كما قال . . . حتى إذا فرغ عتبة , ورسول الله [ص] يستمع منه - قال: "أفرغت يا أبا الوليد ?" قال: نعم . قال: " فاستمع مني " . قال: أفعل . قال: بسم الله الرحمن الرحيم (حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . . .) ثم مضى رسول الله [ص] فيها وهو يقرؤها عليه . فلما سمع عتبة أنصت لها , وألقى يديه خلف ظهره , معتمدا عليهما , يستمع منه , حتى انتهى رسول الله [ص] إلى السجدة منها فسجد . ثم قال: " قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت , فأنت وذاك " . . . فقام عتبة إلى أصحابه . فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ! فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد ? قال: ورأيتني أني سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالسحر , ولا بالشعر , ولا بالكهانة . يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي . . . خلوا بين الرجل وما هو فيه , فاعتزلوه , فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ , فإن تصبه العرب كفيتموه بغيركم , وإن يظهر على العرب فملكه ملككم , وعزه عزكم , وكنتم أسعد الناس به . . . قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ! قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم !

وقد روى البغوي في تفسيره حديثا - بإسناده - عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أن رسول الله [ص] مضى في قراءته إلى قوله: (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود). . . فأمسك عتبة على فيه , وناشده الرحم , ورجع إلى أهله , ولم يخرج إلى قريش , واحتبس عنهم . . . إلى آخره . . . ثم لما حدثوه في هذا قال: فأمسكت بفيه , وناشدته الرحم أن يكف . وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب فخشيت أن ينزل بكم العذاب . . .

وقال ابن اسحاق: إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش - وكان ذا سن فيهم - وقد حضر الموسم . فقال لهم: يا معشر قريش , إنه قد حضر هذا الموسم , وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه , وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا , فاجتمعوا فيه رأيا واحدا , ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا , ويرد قولكم بعضه بعضا . قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل , وأقم لنا رأيا نقل به . قال: بل أنتم فقولوا: أسمع . قالوا: نقول: كاهن ! قال: لا والله ما هو بكاهن , لقد رأينا الكهان , فما هو بزمرة الكاهن ولا سجعه ! قالوا: فنقول: مجنون ! قال: ما هو بمجنون , لقد رأينا الجنون وعرفناه , فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته ! قالوا: فنقول: شاعر ! قال: ما هو بشاعر , لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه , فما هو بالشعر ! قالوا: فنقول: ساحر ! قال: ما هو بساحر , لقد رأينا السحار وسحرهم , فما هو بنفثهم ولا عقدهم ! قالوا: فما نقول يا أبا عبد الشمس ? قال: والله إن لقوله لحلاوة ,

وإن أصله لعذق , وإن فرعه لجناة , وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ! وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: هو ساحر , جاء بقول هو سحر , يفرق به بين المرء وأبيه , وبين المرء وأخيه , وبين المرء وزوجته , وبين المرء وعشيرته . . . فتفرقوا عنه

بذلك . فجعلوا يجلسون بسبل الناس - حين قدموا الموسم - لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه , وذكروا له أمره !

وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى , حدثنا محمد بن ثور , عن معمر , عن عبادة بن منصور , عن عكرمة: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي [ص] فقرأ عليه القرآن , فكأنه رق له . فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام . فأتاه فقال له: أي عم ! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ! قال: لم ? قال: يعطونك , فإنك أتيت محمدا تتعرض لما قبله ! [يريد الخبيث أن يثير كبرياءه من الناحية التي يعرف أنه أشد بها اعتزازا !] قال: قد علمت قريش أنني أكثرها مالا ! قال: فقل فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال , وأنت كاره له ! قال: فماذا أقول فيه ? فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني , ولا أعلم برجزه ولا بقصيده , ولا بأشعار الجن ! والله ما يشبه الذي يقوله شيئا من هذا . والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة , وإن عليه لطلاوة , وإنه ليحطم ما تحته , وإنه ليعلو وما يعلى . قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه . . قال: فدعني حتى أفكر فيه . . فلما فكر قال: إن هذا إلا سحر يؤثر . يؤثره عن غيره . فنزلت: (ذري ومن خلقت وحيدا . .) حتى بلغ: (عليها تسعة عشر).

وفي رواية أخرى أن قريشا قالت: لئن صبا الوليد لتصبون قريش كلها ! فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه ! ثم دخل عليه . . وأنه قال - بعد التفكير الطويل - إنه سحر يؤثر . أما ترون أنه يفرق بين المرء وأهله وولده ومواليه .

فهذه الروايات كلها تبين أن هؤلاء المكذبين لم يكونوا يعتقدون أن رسول الله [ص] يكذبهم فيما يبلغه لهم . وإنما هم كانوا مصرين على شركهم لمثل هذه الأسباب التي وردت بها الروايات , وما وراءها من السبب الرئيسي , وهو ما يتوقعونه من وراء هذه الدعوة من سلب السلطان المغتصب , الذي يزاولونه , وهو سلطان الله وحده . كما هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله التي يقوم عليها الإسلام . وهم كانوا يعرفون جيدا مدلولات لغتهم ; وكانوا لا يريدون أن يسلموا بمدلول هذه الشهادة . وهو إنما يمثل ثورة كاملة على كل سلطان غير سلطان الله في حياة العباد . . وصدق الله العظيم:

(قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون . فإنهم لا يكذبونك , ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) . .

والظالمون في هذا الموضوع هم المشركون . كما يغلب في التعبير القرآني الكريم .

ويستطرد من تطيب خاطر الرسول [ص] وبيان الأسباب الحقيقية لموقف المكذبين منه ومن دعوته , ومن آيات الله الناطقة بصدقه وصدق ما جاء به . . يستطرد من هذا إلى تذكيره بما وقع لإخوانه الرسل قبله - وقد جاءه من أخبارهم في هذا القرآن - ثم ما كان منهم من الصبر والمضي في الطريق , حتى جاءهم نصر الله . ليقرر أن هذه هي سنة الدعوات التي لا تتبدل , ولا يغير منها اقتراحات المقترحين , كما أنها لا تستعجل مهما ينزل بالدعاة من الأذى والتكذيب والضيق:

(ولقد كذبت رسل من قبلك , فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا , ولا مبدل لكلمات الله , ولقد جاءك من نبي المرسلين) . .

إن موكب الدعوة إلى الله موغل في القدم , ضارب في شعاب الزمن , ماض في الطريق اللاحق , ماض في الخط الواصب . . مستقيم الخطي , ثابت الأقدام . يعترض

طريقه المجرمون من كل قبيل , ويقاومه التابعون من الضالين والمتبوعون , ويصيب الأذى من يصيب من الدعاة , وتسيل الدماء وتتمزق الأشلاء . . . والموكب في طريقه لا ينحني ولا ينثني ولا ينكص ولا يحيد . . . والعاقبة هي العاقبة , مهما طال الزمن ومهما طال الطريق . . . إن نصر الله دائماً في نهاية الطريق:

(ولقد كذبت رسل من قبلك , فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا , ولا مبدل لكلمات الله , ولقد جاءك من نبي المرسلين) . . .

كلمات يقولها الله - سبحانه - لرسوله [ص] . . . كلمات للذكرى , وللتسرية وللمواساة , والتأسية . . . وهي ترسم للدعاة إلى الله من بعد رسول الله [ص] طريقهم واضحاً , ودورهم محدداً , كما ترسم لهم متاعب الطريق وعقباته , ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله في نهاية الطريق . . .

إنها تعلمهم أن سنة الله في الدعوات وإحداة . كما انها كذلك وحدة . وحدة لا تتجزأ . . . دعوة تتلقاها الكثرة بالتكذيب , وتتلقى أصحابها بالأذى . . . وصبر من الدعاة على التكذيب وصبر كذلك على الأذى . . . وسنة تجري بالنصر في النهاية . . . ولكنها تجيء في موعدها . لا يعجلها عن هذا الموعد أن الدعاة الأبرياء الطيبين المخلصين يتلقون الأذى والتكذيب , ولا أن المجرمين الضالين والمضلين يقدرّون على أذى المخلصين

وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (35)

الأبرياء الطيبين ! ولا يعجلها كذلك عن موعدها أن صاحب الدعوة المخلص المتجرد من ذاته ومن شهواته إنما يرغب في هداية قومه حبا في هدايتهم , وبأسى على ما هم فيه من ضلال وشقوة , وعلى ما ينتظرهم من دمار وعذاب في الدنيا والآخرة . . . لا يعجلها عن موعدها شيء من ذلك كله . فإن الله لا يعجل لعجلة أحد من خلقه . ولا مبدل لكلماته . سواء تعلقت هذه الكلمات بالنصر المحتوم , أم تعلقت بالأجل المرسوم .

إنه الجد الصارم , والحسم الجازم , إلى جانب التطمين والتسرية والمواساة والتسلية

ثم يبلغ الجد الصارم مداه , في مواجهة ما عساه يعتمل في نفس رسول الله [ص] من الرغبة البشرية , المشتاقة إلى هداية قومه , المتطلعة إلى الاستجابة لما يطلبونه من آية لعلهم يهتدون . وهي الرغبة التي كانت تجيش في صدور بعض المسلمين في ذلك الحين , والتي تشير إليها آيات أخرى في السورة آتية في السياق . وهي رغبة بشرية طبيعية . ولكن في صدد الحسم في طبيعة هذه الدعوة ومنهجها ودور الرسل فيها , ودور الناس أجمعين , تجيء تلك المواجهة الشديدة في القرآن الكريم:

(وإن كان كبر عليك إعراضهم , فإن استطعت أن تبغى نفقا في الأرض , أو سلما في السماء , فتأتيهم بآية ! ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون . والموتى يبعثهم الله , ثم إليه يرجعون) . . .

وإنه للهول الهائل ينسكب من خلال الكلمات الجليلة . . . وما يملك الإنسان إن يدرك حقيقة هذا الأمر , إلا حين يستحضر في كيانه كله: أن هذه الكلمات موجهة من رب

العالمين إلى نبيه الكريم . . . النبي الصابر من أولي العزم من الرسل . . . الذي لقي ما لقي من قومه صابرا محتسبا , لم يدع عليهم دعوة نوح - عليه السلام - وقد لقي منهم سنوات طويلة , ما يذهب بحلم الحليم !

. . . تلك سنتنا - يا محمد - فإن كان قد كبر عليك إعراضهم , وشق عليك تكذيبهم , وكنت ترغب في إتيانهم بآية . . . إذن . . . فإن استطعت فابتغ لك نفقا في الأرض أو سلما في السماء , فاتهم بآية !

. . . إن هداهم لا يتوقف على أن تأتيهم بآية . فليس الذي ينقص هو الآية التي تدلهم على الحق فيما تقول . . . ولو شاء الله لجمعهم على الهدى: إما بتكويين فطرتهم من الأصل على أن لا تعرف سوى الهدى - كالملائكة - وإما بتوجيه قلوبهم وجعلها قادرة على استقبال هذا الهدى والاستجابة إليه . وإما بإظهار خارقة تلوي أعناقهم جميعا . وإما بغير هذه من الوسائل وكلها يقدر الله عليها .

ولكنه سبحانه - لحكمته العليا الشاملة في الوجود كله - خلق هذا الخلق المسمى بالإنسان , لوظيفة معينة , تقتضي - في تدبيره العلوي الشامل - أن تكون له استعدادات معينة غير استعدادات الملائكة . من بينها التنوع في الاستعدادات , والتنوع في استقبال دلائل الهدى وموجيات الإيمان , والتنوع في الاستجابة لهذه الدلائل والموجيات . في حدود من القدرة على الاتجاه , بالقدر الذي يكون عدلا معه تنوع الجزاء على الهدى والضلال . .

لذلك لم يجمعهم الله على الهدى بأمر تكويني من عنده , ولكنه أمرهم بالهدى وترك لهم اختيار الطاعة أو المعصية , وتلقي الجزاء العادل في نهاية المطاف . . فأعلم ذلك ولا تكن مما جهلونه .

(ولو شاء الله لجمعهم على الهدى . فلا تكونن من الجاهلين).

يا لهول الكلمة ! ويا لحسم التوجيه ! ولكنه المقام الذي يقتضي هول الكلمة وحسم التوجيه . .

وبعد ذلك بيان للفطرة التي فطر الله الناس عليها , ولمواقفهم المختلفة في مواجهة الهدى , الذي لا تنقصه البيئة ولا ينقصه الدليل:

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36)
(إنما يستجيب الذين يسمعون . والموتى يبعثهم الله . ثم إليه يرجعون).

إن الناس يواجهون هذا الحق الذي جاءهم به الرسول من عند الله وهم فريقان:

فريق حي , أجهزة الاستقبال الفطرية فيه حية , عاملة , مفتوحة . . وهؤلاء يستجيبون للهدى . فهو من القوة والوضوح والاصطلاح مع الفطرة والتلاقي معها إلى الحد الذي يكفي أن تسمعه , فتستجيب له:

(إنما يستجيب الذين يسمعون).

وفريق ميت , معطل الفطرة , لا يسمع ولا يستقبل , ومن ثم لا يتأثر ولا يستجيب . .
ليس الذي ينقصه أن هذا الحق لا يحمل دليله - فدليله كامن فيه , ومتى بلغ إلى الفطرة
وجدت فيها مصداقه , فاستجابت إليه حتما - إنما الذي ينقص هذا الفريق من الناس هو
حياة الفطرة , وقيام أجهزة الاستقبال فيها بمجرد التلقي ! وهؤلاء لا حيلة فيهم للرسول
, ولا مجال معهم للبرهان . إنما يتعلق أمرهم بمشيئة الله . إن شاء بعثهم إن علم منهم
ما يستحق أن يحييهم , وإن شاء لم يبعثهم في هذه الحياة الدنيا , وبقوا أمواتا بالحياة
حتى يرجعوا إليه في الآخرة .

(والموتى يبعثهم الله . ثم إليه يرجعون) . .

هذه هي قصة الاستجابة وعدم الاستجابة ! تكشف حقيقة الموقف كله , وتحدد واجب
الرسول وعمله , وتترك الأمر كله لصاحب الأمر يقضي فيه بما يريد .

الدرس الثاني: 37 الرد على طلب الكفار آيات والإشارة إلى الآيات في المخلوقات

ومن خطاب رسول الله [ص] بهذه الحقيقة , ينتقل السياق إلى حكاية ما يطلبه
المشركون من إنزال خارقة , وإلى بيان ما في هذا الطلب من الجهالة بسنة الله , ومن
سوء إدراك لرحمته بهم ألا يستجيب لهذا الإقتراح الذي في أعقابه التدمير لهم لو أجيوا
إليه ! ويعرض جانبا من دقة التدبير الإلهي وإحاطته بالأحياء جميعا , يوحى بحكمة السنة
الشاملة للأحياء جميعا . وينتهي بتقرير ما وراء الهدى والضلال من أسرار وسنن تجري
بها مشيئة الله طليقة .

وقالوا: لولا نزل عليه آية من ربه ! قل: إن الله قادر على أن ينزل آية , ولكن أكثرهم لا
يعلمون . وما من دابة في الأرض , ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في
الكتاب من شيء , ثم إلى ربهم يحشرون . والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات .
من يشأ الله يضلله , ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم . .

لقد كانوا يطلبون آية خارقة كالخوارق المادية التي صاحبت الرسائل السابقة , ولا
يقنعون بأية القرآن الباقية , التي تخاطب الإدراك البشري الراشد , وتعلن عهد الرشد
الإنساني , وتحترم هذا الرشد فتخاطبه هذا الخطاب الراقي ; والتي لا تنتهي بانتها
الجيل الذي يرى الخارقة المادية ; بل تظل باقية تواجه الإدراك البشري بإعجازها إلى
يوم القيامة . .

وكانوا يطلبون خارقة , ولا يفطنون إلى سنة الله في أخذ المكذبين بالدعوة بعد مجيء
الخارقة , وإهلاكهم في الدنيا . ولا يدركون حكمة الله في عدم مجيئهم بهذه الخارقة ,
وهو يعلم أنهم سيجحدون بها بعد وقوعها - كما وقع في الأقوام قبلهم - فيحق عليهم
الهلاك , بينما يريد الله أن يمهلهم ليؤمن منهم من يؤمن . فمن لم يؤمن استخرج الله
من ظهره ذرية مؤمنة . ولا يشكرون نعمة الله عليهم في إمهالهم , وذلك بعدم
الاستجابة لاقتراحهم , الذي لا يعلمون جرائمه !

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ (37) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا
فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38)

والقرآن يذكر اقتراحهم هذا , ويعقب عليه بأن أكثرهم لا يعلمون ما وراءه ولا يعلمون حكمه الله في عدم الاستجابة , ويقرر قدرة الله على تنزيل الآية , ولكن حكمته هي التي تقتضي , ورحمته التي كتبها على نفسه هي التي تمنع البلاء:7 (وقالوا:لولا نزل عليه آية من ربه ! قل:إن الله قادر على أن ينزل آية . ولكن أكثرهم لا يعلمون).

وبأخذ السياق القرآني طريقه إلى قلوبهم من مدخل آخر لطيف . ويوقظ فيها قوى الملاحظة والتدبر لما في الوجود حولهم من دلائل الهدى وموجيات الإيمان , لو تدبروه وعقلوه:

(وما من دابة في الأرض , ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم , ما فرطنا في الكتاب من شيء , ثم إلى ربهم يحشرون) . .

إن الناس ليسوا وحدهم في هذا الكون , حتى يكون وجودهم مصادفة , وحتى تكون حياتهم سدى ! إن حولهم أحياء أخرى , كلها ذات أمر منتظم , يوحى بالقصد والتدبير والحكمة , ويوحى كذلك بوحدة الخالق , ووحدة التدبير الذي يأخذ به خلقه كله . .

إنه ما من دابة تدب على الأرض - وهذا يشمل كل الأحياء من حشرات وهوام وزواحف وفقاريات - وما من طائر يطير بجناحية في الهواء - وهذا يشمل كل طائر من طير أو حشرة غير ذلك من الكائنات الطائرة . . ما من خلق حي في هذه الأرض كلها إلا وهو ينتظم في أمة , ذات خصائص واحدة , وذات طريقة في الحياة واحدة كذلك . . شأنها في هذا شأن أمة الناس . . ما ترك الله شيئاً من خلقه بدون تدبير يشمله , وعلم يحصيه . . وفي النهاية تحشر الخلائق إلى ربها . . فيقضي في أمرها بما يشاء . .

إن هذه الآية القصيرة - فوق تقريرها الحاسم في حقيقة الحياة والأحياء - لتهز القلب بما ترسم من آفاق الإشراف الشامل , والتدبير الواسع , والعلم المحيط , والقدرة القادرة , لله ذي الجلال . . وكل جانب من هذه الجوانب لا نملك التوسع في الحديث عنه حتى لا نخرج عن منهج الظلال , فنجاوزه إذن لتمشى مع السياق . . إذ المقصود الأول هنا هو توجيه القلوب والعقول , إلى أن وجود هذه الخلائق بهذا النظام , وشمولها بهذا التدبير , وإحصاءها في علم الله , ثم حشرها إلى ربها في نهاية المطاف . . توجيه القلوب والعقول إلى ما في هذه الحقيقة الهائلة الدائمة من دلائل وأمارات , أكبر من الآيات والخوارق التي يراها جيل واحد من الناس !

وتختم هذه الجولة - أو هذه الموجة - بتقرير ما وراء الهدى والضلال من مشيئة الله وسنته , وما يدلان عليه من فطرة الناس في حالات الهدى وحالات الضلال:

(والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات . من يشأ الله يضلله , ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) . .

وهو إعادة لتقرير الحقيقة التي مضت في هذه الجولة عن استجابة الذين يسمعون , وموت الذين لا يستجيبون . ولكن في صورة أخرى ومشهد آخر . . إن الذين كذبوا بآيات الله هذه المبنوثة في صفحات الوجود , وآياته الأخرى المسجلة في صفحات هذا القرآن , إنما كذبوا لأن أجهزة الاستقبال فيهم معطلة . . إنهم صم لا يسمعون , بكلم لا يتكلمون , غارقون في الظلمات لا يبصرون ! إنهم كذلك لا من ناحية التكوين الجثماني المادي . فإنهم عيوناً وأذاناً وأفواهاً . . ولكن إدراكهم معطل , فكأنما هذه الحواس لا تستقبل ولا تنقل ! . . وإنه كذلك فهذه الآيات تحمل في ذاتها فاعليتها وإيقاعها وتأثيرها

, لو أنها استقبلت وتلقاها الإدراك ! وما يعرض عنها معرض إلا وقد فسدت فطرته , فلم يعد صالحا لحياة الهدى , ولم يعد أهلا لذلك المستوى الراقي من الحياة .

ووراء ذلك كله مشيئة الله . . المشيئة الطليقة التي قضت أن يكون هذا الخلق المسمى بالإنسان على هذا الاستعداد المزدوج للهدى والضلال , عن اختيار وحكمة , لا عن اقتضاء أو إلزام . . وكذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم . بمشيئته تلك , التي تعين من يجاهد , وتضل من يعاند . ولا تظلم أحدا من العباد .

إن اتجاه الإنسان إلى طلب الهدى , أو اتجاهه إلى الضلال , كلاهما ينشأ من خلقته التي فطره الله عليها بمشيئته . فهذا الاتجاه وذاك مخلوق ابتداء بمشيئة الله . والنتائج التي تترتب على هذا الاتجاه وذاك من الاهتداء والضلال إنما ينشئها الله بمشيئته كذلك . فالمشيئة فاعلة ومطلقة . والحساب والجزاء إنما يقومان على اتجاه الإنسان . الذي يملكه , وإن كان الاستعداد للاتجاه المزدوج هو في الأصل من مشيئة الله . .

تعقيب على الوحدة: طريق الدعوة إلى الله شاق لكن الدعوة تسير بقدر الله

والآن بعد الانتهاء من استعراض هذه الموجة من السياق , نقف وقفة قصيرة لاستخلاص عبرة التوجيه فيها لكافة أصحاب الدعوة إلى هذا الدين في كل جيل , فإن مدى التوجيه فيها يتجاوز المناسبة التاريخية الخاصة , وينسحب على جميع الأجيال , وجميع الدعاة , ويرسم منهاجاً للدعوة إلى هذا الدين , لا يتقيد بالزمان والمكان . ونحن لا نملك هنا أن نفصل كل جوانب هذا المنهج , فنقف منه إذن عند معالم الطريق:

إن طريق الدعوة إلى الله شاق , محفوف بالمكاره , ومع أن نصر الله للحق آت لا ريب فيه , إلا أن هذا النصر إنما يأتي في موعده الذي يقدره الله , وفق علمه وحكمته , وهو غيب لا يعلم موعده أحد - حتى ولا الرسول - والمشقة في هذا الطريق تنشأ من عاملين أساسيين: من التكذيب والإعراض اللذين تقابل بهما الدعوة في أول الأمر , والحرب والأذى اللذين يعلنان على الدعاة . . ثم من الرغبة البشرية في نفس الداعية في هداية الناس إلى الحق الذي تذوقه , وعرف طعمه , والحماسة للحق والرغبة في استعلانه ! وهذه الرغبة لا تقل مشقة عن التكذيب والإعراض والحرب والأذى . فكلها من دواعي مشقة الطريق !

والتوجيه القرآني في هذه الموجة من السياق يعالج هذه المشقة من جانبيها . . ذلك حين يقرر أن الذين يكذبون بهذا الدين أو يحاربون دعوته , يعلمون علم اليقين أن ما يدعون إليه هو الحق , وأن الرسول الذي جاء به من عند الله صادق . ولكنهم مع هذا العلم لا يستجيبون , ويستمررون في جحودهم عنادا وإصرارا , لأن لهم هوى في الإعراض والتكذيب ! وأن هذا الحق يحمل معه دليل صدقه , وهو يخاطب الفطرة فتستجيب له , متى كانت هذه الفطرة حية , وأجهزة الاستقبال فيها سالحة: (إنما يستجيب الذين يسمعون). . فأما الذين يجحدون فإن قلوبهم ميتة وهم موتى وهو صم وبكم في الظلمات . والرسول لا يسمع الموتى ولا يسمع الصم الدعاء . والداعية ليس عليه أن يبعث الموتى . فذلك من شأن الله . . هذا كله من جانب , ومن الجانب الآخر , فإن نصر الله آت لا ريب فيه . . كل ما هنالك أنه يجري وفق سنة الله ويقدر الله , وكما أن سنة الله لا تستعجل , وكلماته لا تتبدل , من ناحية مجيء النصر في النهاية , فكذلك هي لا تتبدل ولا تستعجل من ناحية

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَاءِ اللَّهُ يُضِلِّهُ وَمَن يَشَاءُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (39)

الموعد المرسوم . . والله لا يعجل لأن الأذى والتكذيب يلحق بالدعاة - ولو كانوا هم الرسل - فإن استسلام صاحب الدعوة نفسه لقدر الله بلا عجلة , وصبره على الأذى بلا تملل , وبقيته في العاقبة بلا شك . . كلها مطلوبة من وراء تأجيل النصر إلى مواعده المرسوم .

وبحدد هذا التوجيه القرآني دور الرسول في هذا الدين - ودور الدعاة بعده في كل جيل - إنه التبليغ , والمضي في الطريق , والصبر على مشاق الطريق . . أما هدى الناس أو ضلالهم فهو خارج عن حدود واجبه وطاقته . . والهدى والضلال إنما يتبعان سنة إلهية لا تتبدل , ولا يغير منها رغبة الرسول في هداية من يحب , كما لا يغير منها ضيقه ببعض من يعاند ويحارب . . إن شخصه لا اعتبار له في هذه القضية , وحسابه ليس على عدد المهتدين , إنما حسابه على ما أدى وما صبر وما التزم , وما استقام كما أمر . . وأمر الناس بعد ذلك إلى رب الناس . . (من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) . . (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) . .

(إنما يستجيب الذين يسمعون) وقد بينا من قبل علاقة مشيئة الله الطليقة في الهدى والضلال باتجاه الناس وجهادهم . بما فيه الكفاية .

من هنا لا ينبغي لصاحب الدعوة إلى هذا الدين , أن يستجيب لاقتراحات المقترحين ممن يوجه إليهم الدعوة , في تحوير منهج دعوته عن طبيعته الربانية ; ولا أن يحاول تزيين هذا الدين لهم وفق رغباتهم وأهوائهم وشهواتهم . . ولقد كان المشركون يطلبون الخوارق - وفق مألوف زمانهم ومستوى مداركهم كما حكى عنهم القرآن في مواضع منه شتى , منها في هذه السورة (وقالوا: لولا أنزل عليه ملك!) . (وقالوا: لولا نزل عليه آية من ربه) . . (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها) . . وفي السور الأخرى ما هو أشد إثارة للعجب من هذه الاقتراحات . ذلك كالذي حكاه عنهم في سورة الإسراء: (وقالوا: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء - كما زعمت - علينا كسفا , أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف , أو ترقى في السماء . ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه!) . . وكالذي حكاه عنهم في سورة الفرقان: وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق , لولا أنزل إليه ملك , فيكون معه نذيرا . أو يلقي إليه كنز , أو تكون له جنة يأكل منها! . .

والتوجيه القرآني المباشر في هذه الموجه من السورة نهى رسول الله [ص] والمؤمنين أن يرغبوا في إتيانهم بآية - آية آية - مما يطلبون . وقيل للرسول [ص]: (وإن كان كبر عليك إعراضهم , فإن استطعت أن تتبغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية , ولو شاء الله لجمعهم على الهدى , فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون , والموتى يبعثهم الله , ثم إليه يرجعون) . . وقيل للمؤمنين الذين رغبت نفوسهم في الاستجابة للمشركين في طلبهم آية عندما أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ! قيل لهم: قل: إنما الآيات عند الله , وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة , ونذرهم في طغيانهم يعمهون . . ليعلموا أولا أن الذي ينقص المكذبين ليس هو الآية والدليل على الحق , ولكن الذي ينقصهم أنهم لا يسمعون , وأنهم موتى , وأن الله لم يقسم لهم

الهدى - وفق سنة الله في الهدى والضلال كما اسلفنا - ثم ليعلموا كذلك أن هذا الدين يجري وفق سنة لا تتبدل , وأنه أعز من أن يصيح تحت رغبات المقترحين وأهوائهم !

وهذا يقودنا إلى المجال الأشمل لهذا التوجيه القرآني . . إنه ليس خاصا بزمن , ولا محصورا في حادث , ولا مقيدا باقتراح معين . فالزمن يتغير , وأهواء الناس تتمثل في اقتراحات أخرى . وأصحاب الدعوة إلى دين الله ينبغي ألا تستخفهم أهواء البشر . . إن الرغبة في الاستجابة لمقترحات المقترحين هي التي تقود بعض أصحاب الدعوة الإسلامية اليوم إلى محاولة بلورة العقيدة الإسلامية في صورة "نظرية مذهبية" على الورق كالذي يجدونه في النظريات المذهبية الأرضية الصغيرة , التي يصوغها البشر لفترة من الفترات ; ثم يمضي الزمن فإذا كلها عورات وشطحات ومتناقضات ! . . وهي التي تقود بعض أصحاب هذه الدعوة إلى محاولة بلورة النظام الإسلامي في صورة مشروع نظام - على الورق - أو صورة تشريعات مفصلة - على الورق أيضا - تواجه ما عليه أهل الجاهلية الحاضرة من أوضاع لا علاقة لها بالإسلام [لأن أهل هذه الجاهلية يقولون: إن الإسلام عقيدة ولا علاقة له بالنظام العام الواقعي للحياة !] وتنظم لهم هذه الأوضاع ; بينما هم باقون على جاهليتهم يتحاكمون إلى الطاغوت , ولا يحكمون أو يتحاكمون إلى شريعة الله . . وكلها محاولات ذليلة , لا يجوز للمسلم أن يحاولها استجابة لأزياء التفكير البشري المتقلبة , التي لا تثبت على حال . باسم تطور وسائل الدعوة إلى الله !

وأذل من هذه المحاولة محاولة من يضعون على الإسلام أقنعة أخرى , ويصفونه بصفات من التي تروج عند الناس في فترة من الفترات . . كالاشتراكية . . والديمقراطية . . وما إليها . . طائنين أنهم إنما يخدمون الإسلام بهذه التقدمة الذليلة ! . . إن "الاشتراكية" مذهب اجتماعي اقتصادي من صنع البشر ; قابل للصواب والخطأ . وإن "الديمقراطية" نظام للحياة أو للحكم من صنع البشر كذلك , يحمل صنع البشر من القابلية للصواب والخطأ أيضا . . والإسلام منهج حياة يشمل التصور الاعتقادي , والنظام الاجتماعي الاقتصادي , والنظام التنفيذي والتشكيلي . . وهو من صنع الله المبرأ من النقص والعيب . . فأين يقف من الإسلام من يريد أن يستشفع لمنهج الله - سبحانه - عند البشر بوصفه بصفة من أعمال البشر ? بل أين يقف من الإسلام من يريد أن يستشفع لله - سبحانه - عند العبيد بقول من أقوال هؤلاء العبيد !? . .

لقد كان كل شرك المشركين في الجاهلية العربية أنهم يستشفعون عند الله ببعض خلقه . . يتخذونهم أولياء:

(والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . .) فهذا هو الشرك ! فما الوصف الذي يطلق إذن على الذين لا يستشفعون لأنفسهم عند الله بأولياء من عبيده , ولكنهم - ويا للنكر والبشاعة ! - يستشفعون لله - سبحانه - عند العبيد بمذهب أو منهج من مذاهب العبيد ومناهجهم !?

إن الإسلام هو الإسلام . والاشتراكية هي الاشتراكية . والديمقراطية هي الديمقراطية . . ذلك منهج الله ولا عنوان له ولا صفة إلا العنوان الذي جعله الله له , والصفة التي وصفه بها . . وهذه وتلك من مناهج البشر . ومن تجارب البشر . . وإذا اختاروها فليختاروها على هذا الأساس . . ولا ينبغي لصاحب الدعوة إلى دين الله , أن يستجيب لإغراء الرائج من أزياء الهوى البشري المتقلب . وهو يحسب أنه يحسن إلى دين الله !

على أننا نسأل هؤلاء الذين هان عليهم دينهم , ولم يقدرُوا الله حق قدره . . إذا كنتم تقدمون الإسلام اليوم للناس باسم الاشتراكية , وباسم الديمقراطية , لأن هذين زيان من أزياء الاتجاهات المعاصرة . فلقد كانت الرأسمالية في فترة من الفترات هي الزي المحبوب عند الناس وهم يخرجون بها من النظام الإقطاعي ! كما كان الحكم المطلق في فترة من الفترات هو الزي المطلوب في فترة التجميع القومي للولايات المتناثرة كما في ألمانيا وإيطاليا أيام بسمرك وماتزيني مثلاً ! وغداً من يدري ماذا يكون الزي الشائع من الأنظمة الاجتماعية الأرضية وأنظمة الحكم التي يضعها العبيد للعبيد , فكيف يا ترى ستقولون غداً عن الإسلام ? لتقدموه للناس في الثوب الذي يحبه الناس !?

إن التوجيه القرآني في هذه الموجة التي نحن بصددِها - وفي غيرها كذلك - يشمل هذا كله . . إنه يريد أن يستعلي صاحب الدعوة بدينه ; فلا يستجيب لاقتراحات المقترحين ; ولا يحاول تزيين هذا الدين بغير اسمه وعنوانه ; ولا مخاطبة الناس به بغير منهجه ووسيلته . . إن الله غني عن العالمين . ومن لم يستجب لدينه عبودية له , وانسلاخاً من العبودية لسواه , فلا حاجة لهذا الدين به , كما أنه لا حاجة لله - سبحانه - بأحد من الطائعين أو العصاة .

ثم إنه إذا كان لهذا الدين أصالته من ناحية مقوماته وخصائصه , التي يريد الله أن تسود البشرية . فإن له كذلك أصالته في منهجه في العمل , وفي أسلوبه في خطاب الفطرة البشرية . . إن الذي نزل هذا الدين بمقوماته وخصائصه , وبمنهجه الحركي وأسلوبه , هو - سبحانه - الذي خلق الإنسان , ويعلم ما توسوس به نفسه . .

وفي هذه الموجة من السورة نموذج من مخاطبته للفطرة الإنسانية . . نموذج من نماذج متنوعة شتى . . فهو يربط الفطرة البشرية بالوجود الكوني , ويدع الإيقاعات الكونية تواجه الفطرة البشرية , ويشير انتباه الكينونة البشرية لتلقي هذه الإيقاعات . . وهو يعلم أنها تستجيب لها متى بلغتها بعمقها وقوتها: (إنما يستجيب الذين يسمعون) . .

والنموذج الذي يواجهنا في هذه الموجة هو:

(وقالوا: لولا نزل عليه آية من ربه ! قل: إن الله قادر على أن ينزل آية . ولكن أكثرهم لا يعلمون) . .

وفي هذه الآية يحكي قول الذين يكذبون ويعارضون ويطلبون خارقة يراها جيلهم وتنتهي . . ثم يلمس قلوبهم بما يكمن وراء هذا الاقتراح لو أجيب ! إنه الأخذ والتدمير ! والله قادر على أن ينزل الآية . . ولكن رحمته هي التي اقتضت ألا ينزلها , وحكمته هي التي اقتضت ألا يستجيب لهم فيها . .

وفجأة ينقلهم من هذا الركن الضيق في التصور والتفكير , إلى الكون الواسع . إلى الآيات الكبرى من حولهم . الآيات التي تتضاءل دونها تلك الآية التي يطلبونها . الآيات الباقية في صلب الكون للأجيال كلها من قبلهم ومن بعدهم تراها:

(وما من دابة في الأرض , ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم . ما فرطنا في الكتاب من شيء . ثم إلى ربهم يحشرون) . .

وهي حقيقة هائلة . . هي حقيقة تستطيع ملاحظتهم وحدها حينذاك - حيث لم يكن لهم علم منظم - أن تشهد بها . . حقيقة تجمع الحيوان والطير والحشرات من حولهم في

أمم . . لها سماتها وخصائصها وتنظيماتها كذلك . . وهي الحقيقة التي تتسع مساحة رؤيتها كلما تقدم علم البشر , ولكن علمهم لا يزيد شيئاً على أصلها ! وإلى جانبها الحقيقة الغيبية الموصولة بها , وهي إحاطة علم الله اللدني بكل شيء , وتدير الله لكل شيء . . وهي الحقيقة التي تشهد بها تلك الحقيقة المشهودة . .

فأين تذهب الخارقة المادية التي كانوا يطلبون , أمام الخارقة الكبرى التي يرونها حيثما امتدت أبصارهم وملاحظتهم وقلوبهم فيما كان وفيما سيكون ?

إن المنهج القرآني - في هذا النموذج - لا يزيد على أن يربط الفطرة بالوجود , وأن يفتح النوافذ بين الوجود والفطرة , وأن يدع هذا الوجود الهائل العجيب يوقع إيقاعاته الهائلة العميقة في الكيان الإنساني . .

إنه لا يقدم للفطرة جدلاً لاهوتياً ذهنياً نظرياً . ولا يقدم لها جدلاً كلامياً [كعلم التوحيد] الغريب على المنهج الإسلامي . ولا يقدم لها فلسفة عقلية أو حسية , إنما يقدم لها هذا الوجود الواقعي - بعالمه عالم الغيب وعالم الشهادة - ويدعها تتفاعل معه وتتجاوب , وتتلقى عنه وتستجيب , ولكن في ظل منهج ضابط لا يدعها - وهي تتلقى من الوجود - تضل في المتاهات والدروب .

ثم يختم الفقرة بالتعقيب على موقف المكذبين بهذه الآيات الكبرى:

(والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات . من يشأ الله يضلله , ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) . .

فيقرر حقيقة حالة المكذبين وطبيعتهم . . إنهم صم وبكم في الظلمات . . ويقرر سنة الله في الهدى والضلال . . إنها تعلق مشيئة الله بهذا أو ذاك , وفق الفطرة التي فطر الله عليها العباد .

بذلك تلتئم جوانب التصور الإسلامي للأمر كله . إلى جانب وضوح المنهج في الدعوة , وتقرير موقف صاحب الدعوة , وهو يتحرك بهذه العقيدة , ويواجه النفوس البشرية في كل حال وفي كل جيل . .

ولعل هذه اللمسات - إلى جانب ما تقدم في مقدمة السورة - عن المنهج يكون فيها ما ينير الطريق . وبالله التوفيق . .

الوحدة السادسة: 40 - 49 الموضوع: لجوء الناس إلى الله عند الشدة والإبتلاء مقدمة الوحدة مواجهة المشركين بفطرتهم

هنا - في هذه الموجه - يواجه السياق القرآني فطرة المشركين ببأس الله . بل يواجههم بفطرتهم ذاتها حين تواجهه ببأس الله . . حين تتعري من الركام في مواجهة الهول , وحين يهزها الهول فيتساقط عنها ذلك الركام ! وتنسى حكاية الآلهة الزائفة ; وتتجه من فورها إلى ربها الذي تعرفه في قراراتها تسأله وحده الخلاص والنجاة !

ثم يأخذ بأيديهم ليوقفهم على مصارع الغابرين من أسلافهم , وفي الطريق يريهم كيف تجري سنة الله , وكيف يعمل قدر الله . ويكشف لأبصارهم وبصائرهم عن استدراج الله لهم , بعد تكذيبهم برسول الله , وكيف قدم لهم الابتلاء بعد الابتلاء - الابتلاء بالبأساء والضراء , ثم الابتلاء بالرخاء والنعماء - وأتاح لهم الفرصة بعد الفرصة , لينتهبوا من

الغفلة , حتى إذا استنفدوا الفرص كلها , وغرتهم النعمة بعد أن لم توقظهم الشدة .
جرى قدر الله , وفق سنته الجارية وجاءهم العذاب بغته:(فقطع دابر القوم الذين ظلموا
والحمد لله رب العالمين).

وما يكاد هذا المشهد الذي يهز القلوب هذا يتواري , حتى يجيء في أعقابه مشهد آخر
وهم يتعرضون لبأس الله أيضا , فيأخذ سمعهم وأبصارهم , ويختم على قلوبهم , ثم لا
يجدون إليها غير الله يرد عليهم سمعهم وأبصارهم وإدراكهم .

وفي مواجهة هذين المشهدين الرائعين الهائلين يتحدث إليهم عن وظيفة الرسل . . إنها
البشارة والندارة . . ليس وراء ذلك شيء . . ليس لهم أن يأتوا بالخوارق , ولا أن
يستجيبوا لمقترحات المقترحين ! إنما هم يبلغون . يبشرون وينذرون . ثم يؤمن فريق
من الناس ويعمل صالحا فيأمن الخوف وينجو من الحزن . ويكذب فريق ويعرض فيمسه
العذاب بهذا الإعراض والتكذيب . فمن شاء فليؤمن , ومن شاء فليكفر . . فهذا هو
المصير . .

الدرس الأول: 40 - 41 لجوء الناس إلى الله عند الشدة

(قل:أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة , أغير الله تدعون - إن كنتم صادقين -
بل إياه تدعون , فيكشف ما تدعون إليه - إن شاء - وتنسون ما تشركون). .

هذا طرف من وسائل المنهج الرباني في خطاب الفطرة الإنسانية بهذه العقيدة يضم
إلى ذلك الطرف الذي سبق بيانه في الفقرة السابقة وفيما قبلها وما بعدها كذلك في
سياق السورة .

لقد خاطبها هناك بما في عوالم الأحياء من آثار التدبير الإلهي والتنظيم ; وبما في علم
الله من إحاطة وشمول . وهو هنا يخاطبها ببأس الله ; وبموقف الفطرة إزاءه حين
يواجهها في صورة من صورة الهائلة , التي تهز القلوب , فيتساقط عنها ركام الشرك ;
وتتعري فطرتها من هذا الركام الذي يحجب عنها ما هو مستقر في أعماقها من معرفتها
بربها , ومن توحيدها له أيضا:

(قل:أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة . . أغير الله تدعون . . إن كنتم
صادقين). .

إنها مواجهة الفطرة بتصور الهول . . عذاب الله في الدنيا عذاب الهلاك والدمار ; أو
مجيء الساعة على غير انتظار . . والفطرة حين تلمس هذه اللمسة ; وتتصور هذا
الهول ; تدرك - ويعلم الله سبحانه أنها تدرك -

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَعَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُوْنَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (40)
بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (41)
حقيقة هذا التصور , وتهتز له ; لأنه يمثل حقيقة كامنة فيها , يعلم بارئها سبحانه أنها
كامنة فيها ويخاطبها بها على سبيل التصور ; فتتهز لها وترتجف وتتعرى !

وهو يسألهم ويطلب إليهم الجواب بالصدق من ألسنتهم ; ليكون تعبيراً عن الصدق في
فطرتهم:

(أغير الله تدعون . . إن كنتم صادقين).

ثم يبادر فيقرر الجواب الصادق , المطابق لما في فطرتهم بالفعل , ولو لم تنطق به ألسنتهم:

(بل إياه تدعون . . فيكشف ما تدعون إليه إن شاء . . وتنسون ما تشركون).

بل تدعونه وحده ; وتنسون شرككم كله ! . . إن الهول يعري فطرتكم - حينئذ - فتتجه بطلب النجاة إلى الله وحده . وتنسى أنها أشركت به أحدا . بل تنسى هذا الشرك ذاته . . إن معرفتها بربها هي الحقيقة المستقرة فيها ; فأما هذا الشرك فهو قشرة سطحية طارئة عليها , بفعل عوامل أخرى . قشرة سطحية في الركام الذي ران عليها . فإذا هزها الهول تساقط هذا الركام , وتطايرت هذه القشرة , وتكشفت الحقيقة الأصيلة , وتحركت الفطرة حركتها الفطرية نحو بارئها , ترجوه أن يكشف عنها الهول الذي لا يد لها به , ولا حيلة لها فيه . .

هذا شأن الفطرة في مواجهة الهول ; يواجه السياق القرآني به المشركين . . فأما شأن الله - سبحانه - فيقرره في ثنايا المواجهة . فهو يكشف ما يدعونه إليه - إن شاء - فمشيئته طليقة , لا يرد عليها قيد . فإذا شاء استجاب لهم فكشف عنهم ما يدعون كله أو بعضه ; وإن شاء لم يستجب , وفق تقديره وحكمته وعلمه .

هذا هو موقف الفطرة من الشرك الذي تزاوله أحيانا , بسبب ما يطرأ عليها من الانحراف , نتيجة عوامل شتى , تغطي على نضاعة الحقيقة الكامنة فيها . . حقيقة اتجاهها إلى ربها ومعرفتها بوحدانيته . . فما هو موقفها من الإلحاد وإنكار وجود الله أصلا ؟

نحن نشك شكاً عميقاً - كما قلنا من قبل - في أن أولئك الذين يمارسون الإلحاد في صورته هذه صادقون فيما يزعمون أنهم يعتقدونه . نحن نشك في أن هناك خلقاً أنشأته يد الله , ثم يبلغ به الأمر حقيقة أن ينطمس فيه تماماً طابع اليد التي أنشأته ; وفي صميم كينونته هذا الطابع , مختلطاً بتكوينه متمثلاً في كل خلية وفي كل ذرة !

إنما هو التاريخ الطويل من العذاب البشع , ومن الصراع الوحشي مع الكنيسة , ومن الكبت والقمع , ومن أنكار الكنيسة للدوافع الفطرية للناس مع استغراقها هي في اللذائذ المنحرفة . . إلى آخر هذا التاريخ النكد الذي عاشته أوربا قروناً طويلة . . هو الذي دفع الأوربيين في هذه الموجة من الإلحاد في النهاية . . فرارا في التية , من الغول الكريه .

ذلك إلى استغلال اليهود لهذا الواقع التاريخي ; ودفع النصارى بعيداً عن دينهم ; ليسلس لهم قيادهم , ويسهل عليهم إشاعة الانحلال والشقاء فيهم , وليتيسر لهم استخدامهم - كالحمير - على حد تعبير "التلمود" و"بروتوكولات" حكماء صهيون " . . وما كان اليهود ليلبغوا من هذا كله شيئاً إلا باستغلال ذلك التاريخ الأوربي النكد , لدفع الناس إلى الإلحاد هرباً من الكنيسة .

ومع كل هذا الجهد الناصب , المتمثل في محاولة "الشيوعية" - وهي إحدى المنظمات اليهودية - لنشر الإلحاد , خلال أكثر من نصف قرن , بمعرفة كل أجهزة الدولة الساحقة , فإن الشعب الروسي نفسه لم يزل

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالصَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42)
في أعماق فطرته الحنين إلى عقيدة في الله . . ولقد اضطر "ستالين" الوحشي - كما
يصوره خلفه خروشوف ! - أن يهادن الكنسية , في أثناء الحرب العالمية الثانية , وأن
يفرج عن كبير الأساقفة , لأن ضغط الحرب كان يلوي عنقه للاعتراف للعقيدة في الله
بأصالتها في فطرة الناس . . مهما يكن رأيه ورأي القليلين من الملحدين من ذوي
السلطان حوله .

ولقد حاول اليهود - بمساعدة "الحمير" الذين يستخدمونهم من الصليبيين - أن ينشروا
موجة من الإلحاد في نفوس الأمم التي تعلن الإسلام عقيدة لها ودينها . ومع أن الإسلام
كان قد بهت وذبل في هذه النفوس . . فإن الموجة التي أطلقوها عن طريق "البطل"
أتاتورك في تركيا . . انحسرت على الرغم من كل ما بذلوه لها - وللبطل - من التمجيد
والمساعدة . وعلى كل ما ألفوه من الكتب عن البطل والتجربة الرائدة التي قام بها . .
ومن ثم استداروا في التجارب الجديدة يستفيدون من تجربة أتاتورك , ألا يرفعوا على
التجارب الرائدة راية الإلحاد . إنما يرفعون عليها راية الإسلام . كي لا تصدم الفطرة ,
كما صدمتها تجربة أتاتورك . ثم يجعلون تحت هذه الراية ما يريدون من المستنقعات
والقاذورات والانحلال الخلقي , ومن أجهزة التدمير للخامة البشرية بجملتها في الرقعة
الإسلامية .

غير إن العبرة التي تبقى من وراء ذلك كله , هي أن الفطرة تعرف ربها جيدا , وتدين له
بالوحدانية , فإذا غشي عليها الركام فترة , فإنها إذا هزها الهول تساقط عنها ذلك الركام
كله وتعترت منه جملة , وعادت إلى بارئها كما خلقها أول مرة . . مؤمنة طائعة خاشعة
. . أما ذلك الكيد كله فحسبه صيحة حق تزلزل قوائمه , وترد الفطرة إلى بارئها سبحانه
. ولن يذهب الباطل ناجيا , وفي الأرض من يطلق هذه الصيحة . ولن يخلوا وجه الأرض
مهما جهدوا ممن يطلق هذه الصيحة .

الدرس الثاني: 42 - 45 حكمة الإبتلاء بالبأساء والضراء

(ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك , فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذ
جاءهم بأسنا تضرعوا , ولكن قست قلوبهم , وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما
نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء , حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة
فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين).

إنها المواجهة بنموذج من بأس الله سبحانه . نموذج من الواقع التاريخي . نموذج يعرض
ويفسر كيف يتعرض الناس لباس الله , وكيف تكون عاقبة تعرضهم له , وكيف يمنحهم
الله الفرصة بعد الفرصة , ويسوق إليهم التنبيه بعد التنبيه ; فإذا نسوا ما ذكروا به , ولم
توجههم الشدة إلى التوجه إلى الله والتضرع له , ولم توجههم النعمة إلى الشكر والحمد
من الفتنة , كانت فطرتهم قد فسدت الفساد الذي لا يرجى معه صلاح , وكانت حياتهم
قد فسدت الفساد الذي لا تصلح معه للبقاء . فحقت عليهم كلمة الله . ونزل بساحتهم
الدمار الذي لا تنجو منه ديار . .

(ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك , فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذ
جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم , وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) .

ولقد عرف الواقع البشري كثيرا من هذه الأمم , التي قص القرآن الكريم على الإنسانية خبر الكثير منها , قبل أن يولد "التاريخ" الذي صنعه الإنسان ! فالتاريخ الذي سجله بنو الإنسان حديث المولد , صغير السن , لا يكاد يعي إلا القليل من التاريخ الحقيقي للبشر على ظهر هذه الأرض ! وهذا التاريخ الذي صنعه البشر حافل -

قَالُوا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43)

على قصره - بالأكاذيب والأغاليط ; وبالعجز والقصور عن الإحاطة بجميع العوامل المنشئة والمحركة للتاريخ البشري ; والتي يكمن بعضها في أغوار النفس , ويتوارى بعضها وراء ستر الغيب , ولا يبدو منها إلا بعضها , وهذا البعض يخطىء البشر في جمعه , ويخطئون في تفسيره , ويخطئون أيضا في تمييز صحيحه من زائفة - إلا قليلا - ودعوى أي بشر أنه أحاط بالتاريخ البشري علما , وأنه يملك تفسيره تفسيراً "علمياً" وأنه يجزم بحتمياته المقبلة أيضا . . هي أكبر أكذوبة يمكن أن يدعيها بشر ! ومن عجب أن بعضهم يدعيها ! والأشد إثارة للعجب أن بعضهم يصدقها ! ولو قال ذلك المدعي: إنه يتحدث عن [توقعات] لا عن [حتميات] لكان ذلك مستساغاً . . ولكن إذا وجد المفترى من المغفلين من يصدقه فلماذا لا يفترى !?

والله يقول الحق ; ويعلم ماذا كان , ولماذا كان . ويقص على عبده - رحمة منه وفضلا - جانبا من أسرار سنته وقدره ; ليأخذوا حذرهم ويتعظوا ; وليدركوا كذلك ما وراء الواقع التاريخي من عوامل كامنة وأسباب ظاهرة ; يفسرون بها هذا الواقع التاريخي تفسيراً كاملاً صحيحاً . ومن وراء هذه المعرفة يمكن أن يتوقعوا ما سيكون , استناداً إلى سنة الله التي لا تتبدل . . هذه السنة التي يكشف الله لهم عنها . .

وفي هذه الآيات تصوير وعرض لنموذج متكرر في أمم شتى . . أمم جاءتهم رسالهم . فكذبوا . فأخذهم الله بالبأساء والضراء . في أموالهم وفي أنفسهم . في أحوالهم وأوضاعهم . . البأساء والضراء التي لا تبلغ أن تكون "عذاب الله" الذي تحدثت عنه الآية السابقة , وهو عذاب التدمير والاستئصال . .

وقد ذكر القرآن نموذجا محددًا من هذه الأمم , ومن البأساء والضراء التي أخذها بها . . في قصة فرعون وملئه:(ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا: لنا هذه , وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه . ألا إنما طائرهم عند الله , ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا: مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم , آيات مفصلات , فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين). .

وهو نموذج من نماذج كثيرة تشير إليها الآية . .

لقد أخذهم الله بالبأساء والضراء ليرجعوا إلى أنفسهم ; وينقبوا في ضمائرهم وفي واقعهم , لعلهم تحت وطأة الشدة يتضرعون إلى الله , ويتذللون له , وينزلون عن عنادهم واستكبارهم , ويدعون الله أن يرفع عنهم البلاء بقلوب مخلصه , فيرفع الله عنهم البلاء , ويفتح لهم أبواب الرحمة . . ولكنهم لم يفعلوا ما كان حريا أن يفعلوا . لم يلجأوا إلى الله , ولم يرجعوا عن عنادهم , ولم ترد إليهم الشدة وعيهم , ولم تفتح

بصيرتهم , ولم تلين قلوبهم . وكان الشيطان من ورائهم يزين لهم ما هم فيه من الضلال والعناد:

(ولكن قست قلوبهم , وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون).

والقلب الذي لا ترده الشدة إلى الله قلب تحجر فلم تعد فيه نداوة تعصرها الشدة ! ومات فلم تعد الشدة تثير فيه الإحساس ! وتعطلت أجهزة الاستقبال الفطرية فيه , فلم يعد يستشعر هذه الوخزة الموقظة , التي تنبه القلوب الحية للتلقي والاستجابة . والشدة ابتلاء من الله للعبد ; فمن كان حيا أبقظته , وفتحت مغاليق قلبه , وردته إلى ربه ; وكانت رحمه له من الرحمة التي كتبها الله على نفسه . . ومن كان ميتا حسبت عليه , ولم تفده شيئا , وإنما أسقطت عذرة وحجته , وكانت عليه شقوة , وكانت موظئة للعذاب !

وهذه الأمم التي يقص الله - سبحانه - من أنبيائها على رسوله [ص] ومن وراءه من أمته . . لم تفد من الشدة شيئا . لم تتضرع إلى الله , ولم ترجع عما زين لها الشيطان من الإعراض والعناد . . وهنا يملي

فَلَمَّا تَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (45)

لها الله - سبحانه - ويستدرجها بالرخاء:

(فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء . حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة , فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا , والحمد لله رب العالمين) . .

إن الرخاء ابتلاء آخر كابتلاء الشدة . وهو مرتبة أشد وأعلى من مرتبة الشدة ! والله يبتلي بالرخاء كما يبتلي بالشدة . يبتلي الطائعين والعصاة سواء . بهذه وبذاك سواء . . والمؤمن يبتلي بالشدة فيصير , ويبتلي بالرخاء فيشكر . ويكون أمره كله خيرا . . وفي الحديث: " عجباً للمؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن , إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له , وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له " [رواه مسلم] .

فأما هذه الأمم التي كذبت بالرسول , والتي يقص الله من أنبيائها هنا . فإنهم لما نسوا ما ذكروا به , وعلم الله - سبحانه - أنهم مهلكون , وابتلاهم بالبأساء والضراء فلم يتضرعوا . . فأما هؤلاء فقد فتح عليهم أبواب كل شيء للاستدراج بعد الابتلاء . .

والتعبير القرآني: (فتحنا عليهم أبواب كل شيء) . . يصور الأرزاق والخيرات , والمتاع , والسلطان . . متدفقة كالسيول ; بلا حواجز ولا قيود ! وهي مقبلة عليهم بلا عناء ولا كد ولا حتى محاولة !

إنه مشهد عجيب ; يرسم حالة في حركة ; على طريقة التصوير القرآني العجيب .

(حتى إذا فرحوا بما أوتوا) . .

وغمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة ; واستغرقوا في المتاع بها والفرح لها - بلا شكر ولا ذكر - وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم ومن خشيته وتقواه ; وانحصرت اهتماماتهم في لذائذ المتاع واستسلموا للشهوات , وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة كما هي عادة المستغرقين في اللهو والمتاع . وتبع ذلك فساد النظم والأوضاع , بعد فساد القلوب والأخلاق ; وجر هذا وذلك إلى نتائجه الطبيعية من فساد الحياة كلها . . عندئذ جاء موعد السنة التي لا تتبدل:

(أخذناهم بغتة , فإذا هم مبلسون) . .

فكان أخذهم على غرة ; وهم في سهوة وسكرة . فإذا هم حائرون منقطعوا الرجاء في النجاة عاجزون عن التفكير في أي اتجاه . وإذا هم مهلكون بجملتهم حتى آخر واحد منهم .

(فقطع دابر القوم الذين ظلموا) . .

ودابر القوم هو آخر واحد منهم يدبرهم أي يجيء على أدبارهم فإذا قطع هذا فأوائلهم أولى ! . . و (الذين ظلموا) تعني هنا الذين أشركوا . . كما هو التعبير القرآني في أغلب المواضع عن الشرك بالظلم وعن المشركين بالظالمين . .

(والحمد لله رب العالمين) . .

تعقيب على استئصال الظالمين [المشركين] بعد هذا الاستدراج الإلهي والكيد المتين . وهل يحمد الله على نعمة , أجل من نعمة تطهير الأرض من الظالمين , أو على رحمة أجل من رحمته لعباده بهذا التطهير ?

لقد أخذ الله قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط , كما أخذ الفراعنة والإغريق والرومان وغيرهم بهذه السنة ; ووراء ازدهار حضارتهم ثم تدميرها , ذلك السر المغيب من قدر الله ; وهذا القدر الظاهر من سنته ; وهذا التفسير الرباني لهذا الواقع التاريخي المعروف .

ولقد كان لهذه الأمم من الحضارة ; وكان لها من التمكين في الأرض ; وكان لها من الرخاء والمتاع ; ما لا يقل - إن لم يزد في بعض نواحيه - عما تتمتع به اليوم أمم ; مستغرقة في السلطان والرخاء والمتاع ; مخدوعة بما هي فيه ; خادعة لغيرها ممن لا يعرفون سنة الله في الشدة والرخاء . .

هذه الأمم لا تدرك أن هناك سنة , ولا تشعر أن الله يستدرجها وفق هذه السنة . والذين يدورون في فلكها يبهرهم الألاء الخاطف , ويتعاضمهم الرخاء والسلطان , ويخدعهم إملاء الله لهذه الأمم , وهي لا تعبد الله أو لا تعرفه , وهي تتمرد على سلطانه , وهي تدعي لأنفسها خصائص ألوهيته , وهي تعيش في الأرض فسادا , وهي تظلم الناس بعد اعتدائها على سلطان الله . .

ولقد كنت - في أثناء وجودي في الولايات المتحدة الأمريكية - أرى رأي العين مصداق قول الله سبحانه: (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء) . . فإن المشهد الذي ترسمه هذه الآية . . مشهد تدفق كل شيء من الخيرات والأرزاق بلا حساب ! . . لا يكاد يتمثل في الأرض كلها كما يتمثل هناك !

وكنت أرى غرور القوم بهذا الرخاء الذي هم فيه , وشعورهم بأنه وقف على "الرجل الأبيض" وطريقة تعاملهم مع الملونين في عجرفة مردولة , وفي وحشية كذلك بشعة ! وفي صلف على أهل الارض كلهم لا يقاس إليه صلف النازية الذي شهر به اليهود في الأرض كلها حتى صار علما على الصلف العنصري . بينما الأمريكي الأبيض يزاوله تجاه الملونين في صورة أشد وأقسى ! وبخاصة إذا كان هؤلاء الملونون من المسلمين . .

كنت أرى هذا كله فأذكر هذه الآية , وأتوقع سنة الله , وأكاد أرى خطواتها وهي تدب إلى الغافلين:

(حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين). .

وإذا كان الله قد رفع عذاب الاستئصال بعد بعثة رسول الله [ص] فهناك ألوان من العذاب باقية . والبشرية - وبخاصة الأمم التي فتحت عليها أبواب كل شيء - تذوق منها الكثير . على الرغم من هذا النتاج الوفير , ومن هذا الرزق الغزير !

إن العذاب النفسي , والشقاء الروحي , والشذوذ الجنسي , والانحلال الخلقي . . الذي تقاسي منه هذه الأمم اليوم , ليكاد يغطي على الإنتاج والرخاء والمتاع ; وليكاد يصيب الحياة كلها بالنكد والقلق والشقاء ! ذلك إلى جانب الطلائع التي تشير إليها القضايا الأخلاقية السياسية , التي تباع فيها أسرار الدولة , وتقع فيها الخيانة للأمة , في مقابل شهوة أو شذوذ . . وهي طلائع لا تخطىء على نهاية المطاف !

وليس هذا كله إلا بداية الطريق . . وصدق رسول الله [ص] قال: " إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا - على معاصيه - ما يحب . فإنما هو استدراج " . . ثم تلا: (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء . حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون). . [رواه ابن جرير , وابن أبي حاتم] .

غير أنه ينبغي , مع ذلك , التنبيه إلى أن سنة الله في تدمير [الباطل] أن يقوم في الأرض [حق] يتمثل في [أمة] . . ثم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق . . فلا يقعدن أهل الحق كسالى يرتقبون

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنِ إِلَهُ عَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ
انظُرْ كَيْفَ تَصَرَّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (46) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَعْتَهُ أَوْ
جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ (47)

أن تجري سنة الله بلا عمل منهم ولا كد . فإنهم حينئذ لا يمثلون الحق , ولا يكونون أهله . وهم كسالى قاعدون . . والحق لا يتمثل إلا في أمة تقوم لتقر حاكمية الله في الأرض , وتدفع المغتصبين لها من الذين يدعون خصائص الألوهية . . هذا هو الحق الأول , والحق الأصيل . . (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض). .

الدرس الثالث 46 - 47 عجز الناس عن دفع عذاب الله

بعد ذلك يقف السياق القرآني المشركين بالله ، أمام بأس الله ، في ذوات أنفسهم ، في أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم ، وهم عاجزون عن رده ، وهم لا يجدون كذلك إلها غير الله ، يرد عليهم أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم إن أخذها الله منهم:

(قل:أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ، من إله غير الله يأتيكم به ؟ انظر كيف نصرَف الآيات ثم هم يصدفون !).

وهو مشهد تصويري يجسم لهم عجزهم أمام بأس الله من جانب ، كما يصور لهم حقيقة ما يشركون به من دون الله في موقف الجد من جانب . . ولكن هذا المشهد يهزمهم من الأعماق . . إن خالق الفطرة البشرية يعلم أنها تدرك ما في هذا المشهد التصويري من جد ، وما وراءه من حق . . أنها تدرك أن الله قادر على أن يفعل بها هذا . قادر على أن يأخذ الأسماع والأبصار ، وأن يختم على القلوب ، فلا تعود هذه الأجهزة تؤدي وظائفها . وأنه - إن فعل ذلك - فليس هناك من إله غيره يرد بأسه . .

وفي ظلال هذا المشهد ، الذي يبعث بالرجفة في القلوب والأوصال ، ويقرر في الوقت ذاته تفاهة عقيدة الشرك ، وضلال اتخاذ الأولياء من دون الله . . في ظلال هذا المشهد يعجب من أمر هؤلاء الذين يصرف لهم الآيات ، وينوعها ، ثم هم يميلون عنها كالبعير الذي يصدف أي يميل بخفة إلى الجانب الوحشي الخارجي من مرض يصيبه !

(انظر كيف نصرَف الآيات ، ثم هم يصدفون !).

وهو تعجب مصحوب بمشهد الصدوف ! المعروف عند العرب ، والذي يذكرهم بمشهد البعير المؤوف ! فيثير في النفس السخرية والاستخفاف والعزوف !

وقبل أن يفيقوا من تأثير ذلك المشهد المتوقع يتلقاهم بتوقع جديد ، ليس على الله بعيد ، يريهم فيه مصارعهم - وهم الظالمون: أي المشركون - وهو يرسم مصارع الظالمين حين يباغتهم عذاب الله أو يواجههم ؛ وحين يأتيهم على غرة أو وهم مستيقظون:

(قل:أرأيتم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ، هل يهلك إلا القوم الظالمون ؟).

إن عذاب الله يأتي في أية صورة وفي أية حالة . وسواء جاءهم العذاب بغتة وهم غارون لا يتوقعونه ، أو جاءهم جهرة وهم صاحون متأهبون . فإن الهلاك سيحل بالقوم الظالمين - أي المشركين كغالبية التعبير في القرآن الكريم - وسينالهم هم دون سواهم . ولن يدفعوه عن أنفسهم سواء جاءهم بغتة أو جهرة . فهم أضعف من أن يدفعوه ولو واجهوه ! ولن يدفعه عنهم أحد ممن يتولونهم من الشركاء . فكلهم من عبيدالله الضعفاء !

وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (48) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (49)

وهو توقع يعرضه السياق عليهم ليتقوه ، ويتقوا أسبابه قبل أن يجيء . والله - سبحانه - يعلم أن عرض هذا التوقع في هذا المشهد يخاطب الكينونة البشرية خطابا تعرفه في قرارتها ، وتعرف ما وراءه من حقيقة ترجف لها القلوب !

الدرس الرابع: 48 - 49 وظيفة الرسل البلاغ

وحين تبلغ الموجة أقصى مدها , بعرض هذه المشاهد المتوالية , والتعقيبات الموحية , والإيقاعات التي تحمل الإنذار إلى أعماق السرائر . . تختم ببيان وظيفة الرسل , الذين تطالبهم أقوامهم بالخوارق , وإن هم إلا مبلغين , مبشرين ومنذرين , ثم يكون بعد ذلك من أمر الناس ما يكون , وفق ما يتخذونه لأنفسهم من مواقف يترتب عليها الجزاء الأخير:

(وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين . فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا يمسه العذاب بما كانوا يفسقون) . .

لقد كان هذا الدين يعد البشرية للرشد العقلي , ويؤهلها لاستخدام هذه الأداة العظيمة التي وهبها الله للإنسان استخداما كاملا في إدراك الحق الذي تنبث آياته في صفحات الوجود , وفي أطوار الحياة , وفي أسرار الخلق ; والذي جاء هذا القرآن لكشفه وتجليته وتوجيه الإدراك البشري إليه . .

وكان هذا كله يقتضي الانتقال بالبشرية من عهد الخوارق الحسية ; التي تلوي الأعناق وتجبر المنكرين على الإذعان , أمام القهر بالخارقة المادية البادية للعيان ! إلى توجيه الإدراك البشري لملاحظة بدائع الصنعة الإلهية في الوجود كله . وهي في ذاتها خوارق معجزة . . ولكنها خوارق دائمة يقوم عليها كيان الوجود , ويتألف منها قوامه . وإلى مخاطبة هذا الإدراك بكتاب من عند الله باهر , معجز في تعبيره ومعجز في منهجه , ومعجز في الكيان الاجتماعي العضوي الحركي الذي يرمي إلى إنشائه على غير مثال . والذي لم يلحق به من بعده أي مثال !

وقد اقتضى هذا الأمر تربية طويلة , وتوجيها طويلا , حتى يألف الإدراك البشري هذا اللون من النقلة , وهذا المدى من الرقي ; وحتى يتجه الإنسان إلى قراءة سفر الوجود بإدراكه البشري , في ظل التوجيه الرباني , والضبط القرآني , والتربية النبوية . . قراءة هذا السفر قراءة غيبية واقعية إيجابية في آن واحد , بعيدة عن منهج التصورات الذهنية التجريدية التي كانت سائدة في قسم من الفلسفة الإغريقية واللاهوت المسيحي , وعن منهج التصورات الحسية المادية التي كانت سائدة في قسم من تلك الفلسفة وفي بعض الفلسفة الهندية والمصرية والبوذية والمجوسية كذلك , مع الخروج من الحسية الساذجة التي كانت سائدة في العقائد الجاهلية العربية !

وجانب من تلك التربية وهذا التوجيه يتمثل في بيان وظيفة الرسول , وحقيقة دوره في الرسالة على النحو الذي تعرضه هاتان الآيتان - كما ستعرضه الموجة التالية في سياق السورة - فالرسول بشر , يرسله الله ليبشر وينذر , وهنا تنتهي وظيفته , وتبدأ استجابة البشر , ويمضي قدر الله ومشيئته من خلال هذه الاستجابة , وينتهي الأمر بالجزاء الإلهي وفق هذه الاستجابة . . فمن آمن وعمل صالحا يتمثل فيه الإيمان , فلا خوف عليه مما سيأتي ولا هو يحزن على ما أسلف . فهناك المغفرة على ما أسلف , والثواب على ما أصلح . . ومن كذب بآيات الله التي جاء بها الرسول , والتي لفته إليها في صفحات هذا الوجود . يمسه العذاب بسبب كفرهم , الذي يعبر عنه هنا بقوله: (بما كانوا يفسقون) حيث يعبر القرآن غالبا عن الشرك والكفر بالظلم والفسق في معظم المواضع . .

تصور واضح بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض . وبيان محكم عن الرسول ووظيفته وحدود عمله في هذا الدين . . تصور يفرد الله سبحانه بالألوهية وخصائصها ; ويرد إلى مشيئة الله وقدره الأمر كله , ويجعل للإنسان - من خلال ذلك - حرية اتجاهه وتبعية هذا الاتجاه ,

وبين مصائر الطائعين لله والعصاة بيانا حاسما ; وينفي كل الأساطير والتصورات الغامضة عن طبيعة الرسول وعمله , مما كان سائدا في الجاهليات . . . وبذلك ينقل البشرية إلى عهد الرشد العقلي ; دون أن يضرب بها في تيه الفلسفات الذهنية , والجدل اللاهوتي , الذي استنفذ طاقة الإدراك البشري أجيالا بعد أجيال !!!

الوحدة السابعة: 50 - 55 الموضوع: طبيعة الرسول والرسالة وفتنة الكافرين بالمؤمنين مقدمة الوحدة تقديم العقيدة مجردة

هذه الموجة بقية في مواجهة المشركين بحقيقة الرسالة , وطبيعة الرسول ; بمناسبة طلبهم للخوارق - التي ذكرنا نماذج منها في الفقرة السابقة في هذا السياق - وبقية في تصحيح التصورات الجاهلية - والبشرية بصفة عامة - عن الرسائل والرسول ; بعدما عبثت بهذه التصورات جاهليات العرب وغيرهم من الأمم حولهم ; فابتعدت بها عن حقيقة الرسالة وحقيقة النبوة , وحقيقة الوحي , وحقيقة الرسول ; ودخلت بها في خرافات وأساطير وأوهام وأضاليل ; حتى اختلطت النبوة بالسحر والكهانة , واختلط الوحي بالجن والجنون أيضا ! وأصبح يطلب من النبي أن يتنبأ بالغيب , وأن يأتي بالخوارق ; وأن يصنع ما عهد الناس أن يصنعه صاحب الجن والساحر ! . . ثم جاءت العقيدة الإسلامية لتقذف بالحق على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق , ولترد إلى التصور الإيماني وضوحه وبساطته وصدقه وواقعيته , ولتخلص صورة النبوة وصورة النبي من تلك الخرافات والأساطير والأوهام والأضاليل , التي شاعت في الجاهليات كلها . وكان أقربها إلى مشركي العرب جاهليات أهل الكتاب من اليهود والنصارى على اختلاف الملل والنحل بينهم , وكلها تشترك في تشويه صورة النبوة وصورة النبي أقبح تشويه !

وبعد بيان حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول , وتقديمها للناس مبرأة من كل ما علق بصورة النبوة وصورة النبي من أوهام وأضاليل . يقدم القرآن عقيدته للناس مجردة من كل إغراء خارج عن طبيعتها , ومن كل زينة زائدة عن حقيقتها . فالرسول الذي يقدمها للناس بشر , لا يملك خزائن الله , ولا يعلم الغيب , ولا يقول لهم: إني ملك . . . وهو لا يتلقى إلا من ربه , ولا يتبع إلا ما يوحى إليه منه . والذين يقبلون دعوته هم أكرم البشر عند الله , وعليه أن يلزمهم , وأن يهش لهم , وأن يبلغهم ما كتبه الله لهم على نفسه من الرحمة والمغفرة . كما أن عليه إنذار الذين تتحرك ضمائرهم من خشية الآخرة ; ليصلوا إلى مرتبة التقوى , وفي هذا وذلك تنحصر وظيفته , كما أنه في "البشرية" وفي "تلقي الوحي" تنحصر حقيقته . فتصح في التصورات حقيقته ووظيفته جميعا . . ثم إنه بهذا التصحيح , وبهذا الإنذار , تستبين سبيل المجرمين , عند مفرق الطريق , ويتضح الحق والباطل , وينكشف الغموض والوهم حول طبيعة الرسول وحول حقيقة الرسالة , كما ينكشف الغموض حول حقيقة الهدى وحقيقة الضلال , وتتم المفاصلة بين المؤمنين وغير المؤمنين في نور وفي يقين .

وفي ثنايا الإفصاح عن هذه الحقائق يعرض السياق جوانب من حقيقة الألوهية , وعلاقة الرسول بها , وعلاقة الناس جميعا - الطائعين منهم والعصاة - ويتحدث عن طبيعة الهدى وطبيعة الضلال عن هذه الحقيقة . فالهدى إليها بصر والضلال عنها عمى . والله كتب على نفسه الرحمة متمثلة في التوبة على عباده والمغفرة لما يرتكبونه من المعاصي في جهالة متى تابوا منها وأصلحوا بعدها . وهو يريد أن تستبين سبيل المجرمين , فيؤمن من يؤمن عن بينة , ويضل من يضل عن بينة , ويتخذ الناس مواقفهم في وضوح لا تغشيه الأوهام والظنون . .

الدرس الأول: 50 طبيعة الرسول وحدود وصلاحيته

(قل: لا أقول لكم: عندي خزان الله , ولا أعلم الغيب , ولا أقول لكم: إني ملك . إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل: هل يستوي الأعمى والبصير ? أفلا تتفكرون) .

لقد كان المعاندون من قريش يطلبون أن يأتيهم رسول الله [ص] بآية من الخوارق يصدقونه بها - وهم كانوا كما أسلفنا يعلمون صدقه ولا يشكون فيه - وتارة كانوا يطلبون أن تكون هذه الآية تحويل الصفا والمروة ذهبا ! وتارة تكون إبعادهما عن مكة ليصبح مكانهما خصبا مخضرا بالزرع والثمار ! وتارة تكون إنباءهم بما سيقع لهم من أحداث مغيبة ! وتارة تكون طلب إنزال ملك عليه ! وتارة تكون طلب كتاب مكتوب في قرطاس يرويه ينتزل عليه من السماء . . إلى آخر هذه المطالب التي يوارون وراءها تعنتهم وعنادهم !

ولكن هذه المطالب كلها إنما كانوا يصوغون فكرتها من تلك الأوهام والأساطير التي أحاطت بصورة النبوة وصورة النبي في الجاهليات من حولهم , وأقربها إليهم أوهام أهل الكتاب وأساطيرهم حول النبوة , بعدما انحرفوا عما جاءتهم به رسالتهم من الحق الواضح في هذه الأمور . .

ولقد شاعت في الجاهليات المتنوعة صور من "النبوءات" الزائفة , يدعيها "متنبئون" ويصدقونها مخدوعون . . ومن بينها نبوءات السحر والكهانة والتنجيم والجنون ! حيث يدعي المتنبئون قدرتهم على العلم بالغيب , والاتصال بالجن والأرواح , وتسخير نواميس الطبيعة بالرقى والتعاويذ , أو بالدعوات والصلوات , أو بغيرها من الوسائل والأساليب . وتتفق كلها في الوهم والضلالة , وتختلف بعد ذلك في النوع والشكل والمراسم والأساليب .

"فنبوءة السحر يغلب عليها أنها موكلة بالأرواح الخبيثة تسخرها للاطلاع على المجهول أو السيطرة على الحوادث والأشياء . ونبوءة الكهانة يغلب عليها أنها موكلة "بالأرباب ! " لا تطيع الكاهن , ولكنها تلي دعوته وصلواته وتفتح لها مغالق المجهول في يقظته أو منامه , وترشده بالعلامات والأحلام , ولا تلي سائر الدعوات والصلوات ! ولكنهما - نبوءة السحر ونبوءة الكهانة - تخالفان نبوءة الجذب والجنون المقدس . لأن الساحر والكاهن يدریان بما يطلبان , ويريدان قصدا ما يطلبانه بالعزائم والصلوات , ولكن المصاب بالجذب أو الجنون المقدس مغلوب على أمره , ينطلق لسانه بالعبارات المبهمة وهو لا يعيها , ولعله لا يعيها . ويكثر بين الأمم التي تشيع فيها نبوءة الجذب أن يكون مع المجدوب مفسر يدعي العلم بمغزى كلامه , ولحن رموزه وإشاراتِهِ . وقد كانوا في اليونان يسمون المجدوب "مانتي" "" ويسمون المفسر: "بروفيت" "" أي المتكلم بالنبأية عن غيره . ومن هذه الكلمة نقل الأورييون كلمة النبوة بجميع معانيها . وقلما يتفق الكهنة والمجدوبون , إلا أن يكون الكاهن متوليا للتفسير والتعبير عن مقاصد المجدوب , ومضامين رموزه وإشاراتِهِ . ويحدث في أكثر الأحيان أن يختلفا ويتنازعا لأنهما مختلفان بوظيفتهما الاجتماعية مختلفان بطبيعة النشأة والبيئة . فالمجدوب تائر لا يتقيد بالمراسم والأوضاع المصطلح عليها , والكاهن محافظ يتلقى علمه الموروث في أكثر الأحيان من آبائه وأجداده . وتتوقف الكهانة على البيئة التي تنشأ فيها الهياكل والصوامع المقصودة في الأرجاء القريبة والبعيدة ; ولا يتوقف الجذب على هذه البيئة , لأنه قد يعترى صاحبه في البرية , كما يعترى في الحاضر المقصود من أطراف البلاد" .

"وقد كثر عدد الأنبياء في قبائل بني إسرائيل كثرة يفهم منها أنهم كانوا في أزمنتهم المتعاقبة يشبهون في العصور الحديثة أصحاب الأذكار , ودرأويش الطرق الصوفية , لأنهم جاوزوا المئات في بعض العهود , واصطنعوا من الرياضة في جماعاتهم ما يصطنعه

هؤلاء الدراويش من التوسل إلى حالة الجذب تارة بتعذيب الجسد , وتارة بالاستماع إلى آلات الطرب .

"جاء في كتاب صموئيل الأول:

أن شاوّل أرسل لأخذ داود رسلا . . "فأوا جماعة الأنبياء يتنبأون , وشاوّل واقف بينهم رئيسا عليهم . فهبط روح الله على رسل شاوّل , فتنبأوا هم أيضا . وأرسل غيرهم فتنبأ هؤلاء . . . فخلع هو أيضا ثيابه , وتنبأ هو أيضا أمام صموئيل , وانتزع عاريا ذلك النهار كله وكل الليل" . .

"وجاء في كتاب صموئيل كذلك:

" . . أنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من الأكمة , وأممامهم رباب ودف وناي وعود , وهم يتنبأون , فيحل عليهم روح الرب , فتنبأ معهم , وتتحول إلى رجل آخر .

"وكانت النبوة صناعة وراثية يتلقاها الأبناء من الآباء كما جاء في سفر الملوك الثاني:" إذ قال بنو الأنبياء يا ليشع: هو ذا الموضوع الذي نحن مقيمون فيه أمامك قد ضاق علينا , فلنذهب إلى الأردن" .

"وكانت لهم خدمة تلحق بالجيش في بعض المواضع , كما جاء في سفر الأيام الأول . حيث قيل: إن داود ورؤساء الجيش أفرزوا للخدمة بني أساف وغيرهم من المتنبئين بالعيدان والرباب والصنوج" . . .

وهكذا حفلت الجاهليات - ومنها الجاهليات التي انحرفت عن التصور الصحيح الذي جاءت به الرسائل السماوية - بمثل هذه التصورات الباطلة عن طبيعة النبوة وطبيعة النبي . وكان الناس ينتظرون ممن يدعي النبوة مثل هذه الأمور; ويطالبونه بالتنبؤ بالغيب تارة; وبالتأثير في النواميس الكونية عن طريق الكهانة أو طريق السحر تارة . . ومن هذا المعين كانت اقتراحات المشركين على رسول الله [ص] ولتصحيح هذه الأوهام كلها جاءت التقارير المكررة في القرآن الكريم عن طبيعة الرسالة وطبيعة الرسول . . ومنها هذا التقرير:

(قل: لا أقول لكم عندي خزائن الله , ولا أعلم الغيب , ولا أقول لكم: إني ملك . إن أتبع إلا ما يوحى إلي . قل: هل يستوي الأعمى والبصير ? أفلا تتفكرون ?) . .

إنه [ص] يؤمر من ربه أن يقدم لهم نفسه بشرا مجردا من كل الأوهام التي سادت الجاهليات عن طبيعة النبي والنبوة . وأن يقدم لهم كذلك هذه العقيدة بذاتها مجردة من كل إغراء . . لا ثراء . ولا ادعاء . . إنها عقيدة يحملها رسول , لا يملك إلا هداية الله , تنير له الطريق !

ولا يتبع إلا وحي الله يعلمه ما لم يكن يعلم . . إنه لا يقعد على خزائن الله , ليغدق منها على من يتبعه , ولا يملك مفاتيح الغيب ليدل أتباعه على ما هو كائن; ولا هو ملك كما يطلبون أن ينزل الله ملكا . . إنما هو بشر رسول; وإنما هي هذه العقيدة وحدها , في صورتها الناصعة الواضحة البسيطة . .

إنها العقيدة هتاف هذه الفطرة , وقوام هذه الحياة ودليل الطريق إلى الآخرة , وإلى الله . فهي مستغنية بذاتها عن كل زخرف . . من أرادها لذاتها فهو بها حقيق , وهي عنده

قيمة أكبر من كل قيمة . ومن أرادها سلعة في سوق المنافع , فهو لا يدرك طبيعتها , ولا يعرف قيمتها , وهي لا تمنحه زادا , ولا غناء . .

لذلك كله يؤمر رسول الله [ص] أن يقدمها للناس هكذا , عاطلة من كل زخرف , لأنها غنية عن كل زخرف ; وليعرف من يفيئون إلى ظلها أنهم لا يفيئون إلى خزائن مال , ولا إلى وجهة دنيا , ولا إلى تميز على الناس بغير التقوى . إنما يفيئون إلى هداية الله وهي أكرم وأغنى .

قل: لا أقول لكم عندي خزائن الله , ولا أعلم الغيب , ولا أقول لكم: إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي . .

ثم ليعلموا أنهم حينئذ إنما يفيئون إلى النور والبصيرة , ويخرجون من الظلام والعماء:
(قل: هل يستوي الأعمى والبصير ? أفلا تتفكرون ?) . .

ثم . . إن اتباع الوحي وحده هداية وبصر , والمتروك بغير هذا الهادي متروك أعمى . . هذا ما تقرره هذه الآية في وضوح وصرامة . . فما شأن العقل البشري في هذا المجال ?

سؤال جوابه في التصور الإسلامي واضح بسيط . . إن هذا العقل الذي وهبه الله للإنسان قادر على تلقي ذلك الوحي , وإدراك مدلولاته . . وهذه وظيفته . . ثم هذه هي فرصته في النور والهداية ; وفي الانضباط بهذا الضابط الصحيح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فأما حين يستقل هذا العقل البشري بنفسه بعيدا عن الوحي , فإنه يتعرض حينئذ للضلال والانحراف , وسوء الرؤية , ونقص الرؤية , وسوء التقدير , وسوء التدبير .

يتعرض لهذا كله بسبب طبيعة تركيبه ذاتها في رؤية الوجود أجزاء لا كلا واحدا . تجربة بعد تجربة , وحادثة بعد حادثة , وصورة بعد صورة . . حيث يتعذر عليه أن يرى الوجود جملة , ليقيم على أساس هذه الرؤية الكاملة أحكاما , وبضع على أساسها نظاما , ملحوظا فيه الشمول والتوازن . . ومن ثم يظل - حين ينعزل عن منهج الله وهداه - يرتاد التجارب , ويغير الأحكام , ويبدل النظام , ويضطرب بين الفعل وردود الفعل , ويتخبط من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال . . وهو في ذلك كله يحطم كائنات بشرية عزيزة , وأجهزة إنسانية كريمة . . ولو اتبع الوحي لكفى البشر هذا الشر كله ; وجعل التجارب والتقلبات في "الأشياء" وفي "المادة" وفي "الأجهزة" وفي "الآلات" . . وهي مجاله الطبيعي الذي يمكن أن يستقل فيه . والخسارة في النهاية مواد وأشياء . لا أنفس وأرواح !

ويتعرض لهذا كله - بعد طبيعة تركيبه - بسبب ما ركب في الكيان البشري من شهوات وأهواء ونزعات , لا بد لها من ضابط , يضمن أن تؤدي وظائفها في استمرار حياة البشرية وارتقائها , ولا تتعدى هذا الحد المأمون فتؤدي إلى تدمير الحياة أو انتكاسها ! وهذا الضابط لا يمكن أن يكون هو العقل البشري وحده ; فلا بد لهذا العقل الذي يضطرب تحت ضغط الأهواء والشهوات والنزعات - وهي شتى - من ضابط آخر يضبطه هو ذاته ; وبحرسه بعد أن يضبطه من الخلل أيضا , ويرجع إليه هذا العقل بكل تجربة ,

وكل حكم - في مجال الحياة البشرية - ليقوم به تجربته وحكمه , وليضبط به اتجاهه وحرركته .

والذين يزعمون للعقل البشري درجة من الأصالة في الصواب كدرجة الوحي , باعتبار أن كليهما - العقل والوحي - من صنع الله فلا بد أن يتطابقا . . هؤلاء إنما يستندون إلى تقارير عن قيمة العقل قال بها بعض الفلاسفة من البشر , ولم يقل بها الله سبحانه !

والذين يرون أن هذا العقل يغني عن الوحي - حتى عند فرد واحد من البشر مهما بلغ عقله من الكبر - إنما يقولون في هذه القضية غير ما يقول الله . . فإله قد جعل حجته على الناس هي الوحي والرسالة , ولم يجعل هذه الحجة هي عقلهم البشري , ولا حتى فطرتهم التي فطرهم الله عليها من معرفة ربها الواحد والإيمان به . لأن الله سبحانه يعلم أن العقل وحده يضل , وأن الفطرة وحدها تنحرف . وأنه لا عاصم لعقل ولا لفطرة , إلا أن يكون الوحي هو الرائد الهادي , وهو النور والبصيرة .

والذي يزعمون أن الفلسفة تغني العقل عن الدين ; أو أن العلم - وهو من منتجات العقل - يغني البشرية عن هدي الله ; إنما يقولون قولاً لا سند له من الحقيقة ولا من الواقع كذلك . . فالواقع يشهد أن الحياة البشرية التي قامت أنظمتها على المذاهب الفلسفية أو على العلم , هي أبأس حياة يشقى فيها "الإنسان" مهما فتحت عليه أبواب كل شيء ; ومهما تضاعف الإنتاج والإيراد ; ومهما تيسرت أسباب الحياة ووسائل الراحة فيها على أوسع نطاق . . وليس مقابل هذا أن تقوم الحياة على الجهل والتلقائية ! فالذين يضعون المسألة هكذا مغرضون ! فإن الإسلام منهج حياة يكفل للعقل البشري الضمانات التي تقيه عيوب تركيبه الذاتي , وعيوب الضغوط التي تقع عليه من الأهواء والشهوات والنزعات . ثم يقيم له الأسس , ويضع له القواعد , التي تكفل استقامته في انطلاقه للعلم والمعرفة والتجربة ; كما تكفل له استقامة الحياة الواقعية التي يعيش في ظلها - وفق شريعة الله - فلا يضغط عليه الواقع لينحرف بتصوراته ومناهجه كذلك !

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَنبِئُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (50) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ (51)

والعقل بمصاحبة وحي الله وهداه بصير , وبترك وحي الله وهداه أعمى , واقتران الحديث عن تلقي الرسول [ص] من الوحي وحده , بالإشارة إلى العمى والبصر , بالسؤال التحضيضي على التفكير: إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل: هل يستوي الأعمى والبصير: أفلا تتفكرون ? . .

اقتران الإشارات وتتابعها على هذا النحو في السياق , أمر ذو دلالة في التعبير القرآني . . فالتفكير مطلوب , والحض عليه منهج قرآني ; ولكنه التفكير المضبوط بضابط الوحي , الذي يمضي معه مبصراً في النور ; لا مطلق التفكير الذي يخبط في الظلام أعمى , بلا دليل ولا هدى ولا كتاب منير . .

والعقل البشري حين يتحرك في إطار الوحي لا يتحرك في مجال ضيق , إنما يتحرك في مجال واسع جداً . . يتحرك في مجال هو هذا الوجود كله , الذي يحتوي عالم الشهادة وعالم الغيب أيضاً ; كما يحتوي أغوار النفس ومجالي الأحداث , ومجالات الحياة جميعاً .

. فالوحي لا يكف العقل عن شيء إلا عن انحراف المنهج , وسوء الرؤية والتواء الأهواء والشهوات ! وبعد ذلك يدفعه إلى الحركة والنشاط دفعا . فهذه الأداة العظيمة التي وهبها الله للإنسان . . العقل . . إنما وهبها له لتعمل وتنشط في حراسة الوحي والهدى الرباني . . فلا تضل إذن ولا تطغى . .

الدرس الثاني: 51 - 54 حقوق الإنسان في الإسلام

(وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلمهم يتقون . ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه , ما عليك من حسابهم من شيء , وما من حسابك عليهم من شيء . فتطردهم فتكون من الظالمين . وكذلك فتننا بعضهم ببعض ليقولوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ? أليس الله بأعلم بالشاكرين ? وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل: سلام عليكم , كتب ربكم على نفسه الرحمة: أنه من عمل منكم سوءا بجهالة , ثم تاب من بعده وأصلح , فإنه غفور رحيم). .

إنها عزة هذه العقيدة , واستعلاؤها على قيم الأرض الزائفة , وتخلصها من الاعتبار البشرية الصغيرة . .

لقد أمر رسول الله [ص] أن يقدمها للناس دون زخرف ولا طلاء ; ودون إطماع في شيء من قيم الأرض ولا إغراء . . كذلك أمر أن يوجه عنايته إلى من يرجى منهم الانتفاع بالدعوة , وأن يؤوي إليه الذين يتلقونها مخلصين ; ويتجهون بقلوبهم إلى الله وحده يريدون وجهه ; وألا يقيم وزنا بعد ذلك لشيء من قيم المجتمع الجاهلي الزائفة ; ولا لشيء من اعتبارات البشر الصغيرة:

(وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع , لعلمهم يتقون). .

أنذر به هؤلاء الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم , حالة أن ليس من دونه ولي ينصرهم ولا شفيع يخلصهم . ذلك أنه ما من شفيع يشفع عند الله إلا بإذنه , وهو لا يشفع يومئذ - بعد الإذن - إلا لمن ارتضى الله أن يتشفع عند الله فيهم . . فهؤلاء الذين تستشعر قلوبهم خوف ذلك اليوم الذي ليس فيه - من دون الله - ولي ولا شفيع , أحق بالإنذار , وأسمع له , وأكثر انتفاعا به . . لعلمهم أن يتوقوا في حياتهم الدنيا وما يعرضهم لعذاب الله في الآخرة . فالإنذار بيان كاشف كما أنه مؤثر موح . بيان يكشف لهم ما يتقونه ويحذرونه , ومؤثر يدفع قلوبهم للتوقى والحذر ; فلا يقعون فيما نهوا عنه بعدما تبين لهم:

(ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه). .

لا تطرد هؤلاء الذين أخلصوا نفوسهم لله ; فاتجهوا لعبادته ودعائه في الصباح والمساء ; يريدون وجهه

وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (52)
سبحانه ! ولا يبتغون إلا وجهه ورضاه . . وهي صورة للتجرد , والحب , والأدب . . فإن الواحد منهم لا يتوجه إلا إلى الله وحده بالعبادة والدعاء . وهو لا يبغي وجه الله , إلا إذا

تجرد . وهو لا يبغي وجه الله وحده حتى يكون قلبه قد أحب . وهو لا يفرد الله - سبحانه - بالدعاء والعبادة ابتغاء وجهه إلا ويكون قد تعلم الأدب , وصار ربانيا يعيش لله وبالله . .

ولقد كان أصل القصة أن جماعة من "أشراف" العرب , أنفوا أن يستجيبوا إلى دعوة الإسلام ; لأن محمدا [ص] يؤوي إليه الفقراء الضعاف , من أمثال صهيب وبلال وعمار وخباب وسلمان وابن مسعود . . ومن إليهم . . وعليهم جباب تفوح منها رائحة العرق لفقرهم ; ومكانتهم الاجتماعية لا تؤهلهم لأن يجلس معهم سادات قريش في مجلس واحد ! فطلب هؤلاء الكبراء إلى رسول الله [ص] أن يطردهم عنه . . فأبى . . فاقترحوا أن يخصص لهم مجلسا ويخصص للأشراف مجلسا آخر , لا يكون فيه هؤلاء الفقراء الضعاف , كي يظل للسلادة امتيازهم واختصاصهم ومهابتهم في المجتمع الجاهلي ! فهم [ص] رغبة في إسلامهم أن يستجيب لهم في هذه . فجاءه أمر ربه:

(ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) . .

روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص , قال: كنا مع النبي [ص] ستة نفر . فقال المشركون للنبي [ص]: اطرد هؤلاء عنك لا يجترئون علينا ! قال: وكنت أنا وابن مسعود , ورجل من هذيل , وبلال , ورجلان لست أسميهما . . فوقع في نفس رسول الله [ص] ما شاء الله أن يقع . فحدث نفسه . فأنزل الله عز وجل: (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) . .

ولقد تقول أولئك الكبراء على هؤلاء الضعاف , الذين يخصصهم رسول الله [ص] بمجلسه وبعنايته ; وطعنوا فيهم وعابوا ما هم فيه من فقر وضعف وما يسببه وجودهم في مجلس رسول الله [ص] من نفور السلادة وعدم إقبالهم على الإسلام . . فقضى الله سبحانه في هذه الدعوى بقضائه الفصل ; ورد دعواهم من أساسها ودحضها دحضا:

(ما عليك من حسابهم من شيء , وما من حسابك عليهم من شيء , فتطردهم فتكون من الظالمين) . .

فإن حسابهم على أنفسهم , وحسابك على نفسك . وكونهم فقراء مقدر عليهم في الرزق هذا حسابهم عند الله , لا شأن لك به . كذلك غناك وفقرك هو حسابك عند الله لا شأن لهم به . ولا دخل لهذه القيم في قضية الإيمان والمنزلة فيه . فإن أنت طردتهم من مجلسك بحساب الفقر والغنى كنت لا تزن بميزان الله , ولا تقوم بقيمة . . فكنت من الظالمين . . وحاشا لرسول الله [ص] أن يكون من الظالمين !

وبقي فقراء الجيوب أغنياء القلوب في مجلس رسول الله [ص] وبقي ضعاف الجاه الأقوياء بالله في مكانهم الذي يؤهلهم له إيمانهم ; والذي يستحقونه بدعائهم لله لا يبتغون إلا وجهه . واستقرت موازين الإسلام وقيمه على المنهج الذي قرره الله . .

عندئذ نفر المستكبرون المستنكفون يقولون: كيف يمكن أن يختص الله من بيننا بالخير هؤلاء الضعاف الفقراء ? إنه لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقونا إليه ; ولهدانا الله به قبل أن يهديهم ! فليس من المعقول أن يكون هؤلاء الضعاف الفقراء هم الذين يمن الله عليهم من بيننا وبتركنا ونحن أصحاب المقام والجاه !

وكانت هذه هي الفتنة التي قدرها الله لهؤلاء المتعالين بالمال والنسب ; والذين لم يدركوا طبيعة هذا الدين ; وطبيعة الدنيا الجديدة التي يطلع بها على البشرية , مشرقة الآفاق , مصعدة بهذه البشرية إلى تلك القمة السامقة ;

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ
بِالشَّاكِرِينَ (53) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ
الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (54)
وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَتِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ (55)
التي كانت يومذاك غريبة على العرب وعلى الدنيا كلها ; وما تزال غريبة في ما يسمونه
الديمقراطيات على اختلاف أشكالها وأسمائها !

(وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟) . .

ويرد السياق القرآني على هذا الاستفهام الاستنكاري الذي يطلقه الكبراء:

(أليس الله بأعلم بالشاكرين)؟

هذا الرد الحافل بالإحياءات والإيماءات:

إذ يقرر ابتداءً أن الهدى جزاء يجزي به الله من يعلم من أمرهم أنهم إذا هدوا سيشكرون
هذه النعمة , التي لا كفاء لها من شكر العبد , ولكن الله يقبل منه جهده ويجزيه عليه هذا
الجزء الهائل الذي لا يعدله جزاء .

وإذ يقرر أن نعمة الإيمان لا تتعلق بقيمة من قيم الأرض الصغيرة التي تسود في
الجاهليات البشرية . إنما يختص الله بها من يعلم أنهم شاكرون عليها . لا يهم أن يكونوا
من الموالي والضعاف والفقراء . فميزان الله لا مكان فيه لقيم الأرض الصغيرة التي
تتعاضم الناس في الجاهليات !

وإذ يقرر أن اعتراض المعترضين على فضل الله إنما ينشأ من الجهالة بحقائق الأشياء .
وأن توزيع هذا الفضل على العباد قائم على علم الله الكامل بمن يستحقه من هؤلاء
العباد . وما اعتراض المعترضين إلا جهل وسوء أدب في حق الله . .

والمضى السياق يأمر رسول الله [ص] وهو رسول الله أن يبدأ أولئك الذين أسبغ عليهم
فضل السبق بالاسلام ; والذين يسخر منهم أولئك الكبراء الأشراف ! . . أن يبدأهم
بالسلام . . وأن يبشرهم بما كتبه الله على نفسه من الرحمة ; متمثلاً في معفرته لمن
عمل منهم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح:

(وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل: سلام عليكم , كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه
من عمل منكم سوءاً بجهالة , ثم تاب من بعده وأصلح , فإنه غفور رحيم) . .

وهو التكريم - بعد نعمة الإيمان واليسر في الحساب , والرحمة في الجزاء , حتى ليجعل
الله - سبحانه - الرحمة كتاباً على نفسه للذين آمنوا بآياته ; ويأمر رسوله [ص] أن
يبلغهم ما كتبه ربهم على نفسه . وحتى لتبلغ الرحمة أن يشمل العفو والمغفرة الذنب
كله , متى تابوا من بعده وأصلحوا - إذ يفسر بعضهم الجهالة بأنها ملازمة لارتكاب الذنب

; فما يذنب الإنسان إلا من جهالة ; وعلى ذلك يكون النص شاملا لكل سوء يعمله صاحبه ; متى تاب من بعده وأصلح . ويؤيد هذا الفهم النصوص الأخرى التي تجعل التوبة من الذنب - أيا كان - والإصلاح بعده , مستوجبة للمغفرة بما كتب الله على نفسه من الرحمة . .

ونعود - قبل الانتهاء من استعراض هذه الفقرة من السورة - إلى بعض الآثار التي وردت عن ملايسات نزول هذه الآيات ; وعن دلالة هذه الآثار مع النصوص القرآنية على حقيقة النقلة الهائلة التي كان هذا الدين ينقل إليها البشرية يومذاك ; والتي ما تزال البشرية حتى اليوم دون القمة التي بلغتها يومها ثم تراجعت عنها جدا . .

قال أبو جعفر الطبري: حدثنا هناد بن السري , حدثنا أبو زيد , عن أشعث , عن كردوس الثعلبي , عن ابن مسعود , قال: مر الملاء من قريش بالنبى [ص] وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب , ونحوهم من ضعفاء المسلمين . فقالوا: يا محمد , رضيت بهؤلاء من قومك ? أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا ? نحن نكون تبعاً لهؤلاء ? اطردهم عنك ! فلعلك إن طردتهم أن تتبعك ! فنزلت هذه الآية: (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) . . (وكذلك فتننا بعضهم ببعض) إلى آخر الآية .

وقال: حدثني الحسين بن عمرو بن محمد العنقزي , قال: حدثنا أبي , حدثنا أسباط , عن السدي , عن أبي سعيد الأزدي - وكان قارىء الأزدي - عن أبي الكنود , عن خباب في قول الله تعالى ذكره: (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) . . إلى قوله: فتكون من الظالمين . . قال: جاء الأقرع ابن حابس التميمي , وعيينة بن حصن الفزاري , فوجد النبي [ص] قاعداً مع بلال وصهيب وعمار وخباب , في أناس من الضعفاء من المؤمنين . فلما رأوهم حقروهم . فأتوه فقالوا: إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا العرب به فضلنا , فإن وفود العرب تأتيك , فنستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعداء ; فإذا نحن جنناك فأقمهم عنا ; فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت ! قال: نعم ! قالوا: فاكتب لنا عليك بذلك كتاباً . قال: فدعا بالصحيفة , ودعا عليها ليكتب . قال: ونحن قعود في ناحية , إذ نزل جبريل بهذه الآية:

(ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء , وما من حسابك عليهم من شيء , فتطردهم , فتكون من الظالمين) . . ثم قال: (وكذلك فتننا بعضهم ببعض ليقولوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ? أليس الله بأعلم بالشاكرين ?) . . ثم قال: (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل: سلام عليكم , كتب ربكم على نفسه الرحمة) . . فألقى رسول الله [ص] الصحيفة من يده ; ثم دعانا فأتيناه وهو يقول: " سلام عليكم , كتب ربكم على نفسه الرحمة " . . فكنا نقعد معه , فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا . فأنزل الله تعالى: (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه , ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا) . [سورة الكهف: 28] قال: فكان رسول الله [ص] يقعد معنا بعد , فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم !

وكان [ص] بعدها إذا رأهم بدأهم بالسلام , وقال: " الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني ربي أن أبدأهم بالسلام " .

وفي صحيح مسلم: عن عائذ بن عمرو , أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال , ونفر . فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عدو الله ما أخذها ! قال: فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم ? فأتى النبي [ص] فأخبره . فقال: " يا أبا بكر ,

لعلك أغضبتهم . لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك " . فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوانه , أغضبتكم ? قالوا: لا يغفر الله لك يا أخي . .

نحن في حاجة إلى وقفة طويلة أمام هذه النصوص . . والبشرية بجملتها في حاجة إلى هذه الوقفة كذلك . . إن هذه النصوص لا تمثل مجرد مبادئ وقيم ونظريات في "حقوق الإنسان ! " . . إنها أكبر من ذلك بكثير . . إنها تمثل شيئاً هائلاً تحقق في حياة البشرية فعلاً . . تمثل نقلة واسعة نقلها هذا الدين للبشرية بجملتها . . تمثل خطأ وضيئاً على الأفق بلغته هذه البشرية ذات يوم في حياتها الحقيقة . . ومهما يكن من تراجع البشرية عن هذا الخط الوضيء الذي سعدت إليه في خطو ثابت على حذاء هذا الدين , فإن هذا لا يقلل من عظمة تلك النقلة ; ومن ضخامة هذا الشيء الذي تحقق يوماً ; ومن أهمية هذا الخط الذي ارتسم بالفعل في حياة البشر الواقعية . . إن قيمة ارتسام هذا الخط وبلوغه ذات يوم . أن تحاول البشرية مرة ومرة ومرة الارتفاع إليه ; ما دام أنها قد بلغت ; فهو في طوقها إذن وفي وسعها . . والخط هناك على الأفق , والبشرية هي البشرية ; وهذا الدين هو هذا الدين . . فلا يبقى إلا العزم والثقة واليقين . .

وقيمة هذه النصوص أنها ترسم للبشرية اليوم ذلك الخط الصاعد بكل نقطه ومراحله . . من سفح الجاهلية الذي التقط الإسلام منه العرب , إلى القمة السامقة التي بلغ بهم إليها , وأطلعتهم في الأرض يأخذون بيد البشرية من ذلك السفح نفسه إلى تلك القمة التي بلغوها !

فأما ذلك السفح الهابط الذي كان فيه العرب في جاهليتهم - وكانت في البشرية كلها - فهو يتمثل واضحاً في قوله: "الملاء" من قريش: "يا محمد , رضيت بهؤلاء من قومك ? هؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا ? نحن نكون تبعاً لهؤلاء ? اطردهم عنك ! فلعلك إن طردتهم أن نتبعك ! " . . أو في احتقار الأقرع بن حابس التميمي , وعيينة بن حصن الفزاري , للسابقين من أصحاب رسول الله [ص] بلال , وصهيب , وعمار , وخباب , وأمثالهم من الضعفاء ; وقولهما للنبي [ص]: إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا العرب به فضلنا ; فإن وفود العرب تأتيك , فنستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعداء !

. . هنا تتبدى الجاهلية بوجهها الكالح ! وقيمها الهزيلة , واعتباراتها الصغيرة . . عصبية النسب والجنس واعتبارات المال والطبقة . . وما إلى ذلك من اعتبارات . هؤلاء بعضهم ليسوا من العرب ! وبعضهم ليسوا من طبقة الأشراف ! وبعضهم ليسوا من ذوي الثراء ! . . ذات القيم التي تروج في كل جاهلية ! والتي لا ترتفع عليها جاهليات الأرض اليوم في نعراتها القومية والجنسية والطبقية !

هذا هو سفح الجاهلية . . وعلى القمة السامقة الإسلام ! الذي لا يقيم وزناً لهذه القيم الهزيلة ولهذه الاعتبارات الصغيرة , ولهذه النعرات السخيفة ! . . الإسلام الذي نزل من السماء ولم ينبت من الأرض . فالأرض كانت هي هذا السفح . . هذا السفح الذي لا يمكن أن ينبت هذه النبتة الغربية الجديدة الكريمة . . الإسلام الذي يثمر به - أول من يثمر - محمد [ص] محمد رسول الله الذي يأتيه الوحي من السماء ; والذي هو من قبل في الذؤابة من بني هاشم في الذروة من قريش . . والذي يثمر به أبو بكر صاحب رسول الله [ص] ; في شأن "هؤلاء الأعداء" . . نعم هؤلاء الأعداء الذين خلعوا عبودية كل أحد ; وصاروا أعباداً لله وحده ; فكان من أمرهم ما كان !

وكما أن سفح الجاهلية الهابط يرتسم في كلمات الملائم من قريش , وفي مشاعر الأقرع وعيينة . . فإن قمة الإسلام السامقة ترتسم في أمر الله العلي الكبير , لرسوله [ص] :-

(ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه . ما عليك من حسابهم من شيء , وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين . وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ? أليس الله بأعلم بالشاكرين ? وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل: سلام عليكم , كتب ربكم على نفسه الرحمة: أنه من عمل منكم سوءا بجهالة , ثم تاب من بعده وأصلح , فإنه غفور رحيم) . .

ويتمثل في سلوك رسول الله [ص] مع "هؤلاء الأعداء" . . الذين أمره ربهم أن يبدأهم بالسلام وأن يصبر معهم فلا يقوم حتى يقوموا وهو محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم - وهو بعد ذلك - رسول الله وخير خلق الله , وأعظم من شرفت بهم الحياة !

ثم يتمثل في نظرة "هؤلاء الأعداء" لمكانهم عند الله ; ونظرتهم لسيوفهم واعتبارها "سيوف الله" ونظرتهم لأبي سفيان "شيخ قريش وسيدهم" بعد أن أخره في الصف المسلم كونه من الطلقاء الذين أسلموا عام الفتح وذهبوا طلقاء عفو رسول الله [ص] وقدمهم هم في الصف كونهم من السابقين إلى الإسلام وهو في شدة الابتلاء . . فلما أن عاتبهم أبو بكر - رضي الله عنه - في أمر أبي سفيان , حذره صاحبه رسول الله [ص] [أن يكون قد أغضب "هؤلاء الأعداء" ! فيكون قد أغضب الله - يا الله ! فما يملك أي تعليق أن يبلغ هذا المدى وما نملك إلا أن تتملاه ! ويذهب أبو بكر - رضي الله عنه - يترضى "الأعداء" ليرضى الله: "يا إخوتاه . أغضبتكم" ? فيقولون: "لا يا أخي . يغفر الله لك" !

أي شيء هائل هذا الذي تحقق في حياة البشرية ? أية نقلة واسعة هذه التي قد تمت في واقع الناس ? أي تبدل في القيم والأوضاع , وفي المشاعر والتصورات , في أن ? والأرض هي الأرض والبيئة هي البيئة , والناس هم الناس , والاقتصاد هو الاقتصاد . . وكل شيء على ما كان , إلا أن وحيا نزل من السماء , على رجل من البشر , فيه من الله سلطان . . يخاطب فطرة البشر من وراء الركام , ويحدو للهابطين هنالك عند السفح , فيستجيشهم الحداء - على طول الطريق - إلى القمة السامقة . . فوق . . هنالك عند الإسلام !

ثم تتراجع البشرية عن القمة السامقة ; وتنحدر مرة أخرى إلى السفح . وتقوم - مرة أخرى - في نيويورك , وواشنطن , وشيكاغو . . وفي جوهانسبرج . . وفي غيرها من أرض "الحضارة" ! " تلك العصبية التنتنة . عصبية الجنس واللون , وتقوم هنا وهناك عصبية "وطنية" و"قومية" و"طبقية" لا تقل تننا عن تلك العصبية . .

ويبقى الإسلام هناك على القمة . . حيث ارتسم الخط الوضيء الذي بلغته البشرية . . يبقى الإسلام هناك - رحمة من الله بالبشرية - لعلها أن ترفع أقدامها من الوحل , وترفع عينها عن الحمأة . . وتتطلع مرة أخرى إلى الخط الوضيء ; وتسمع مرة أخرى حداء هذا الدين ; وتعرج مرة أخرى إلى القمة السامقة على حداء الإسلام . .

ونحن لا نملك - في حدود منهجنا في هذه الظلال - أن نستطرد إلى أبعد من هذه الإشارة . . لا نملك أن نقف هنا تلك "الوقف الطويلة" التي ندعو البشرية كلها أن تقفها أمام هذه النصوص ودلالاتها . لتحاول أن تستشرف المدى الهائل الذي يرتسم من خلالها

في تاريخ البشرية ; وهي تصعد على حذاء الإسلام من سفح الجاهلية الهابط , إلى تلك القمة السامقة البعيدة . . ثم تهبط مرة أخرى على عواء " الحضارة المادية " الخاوية من الروح والعقيدة ! . . ولتحاول كذلك أن تدرك إلى أين يملك الإسلام اليوم أن يقود خطاها مرة أخرى ; بعد أن فشلت جميع التجارب , وجميع المذاهب , وجميع الأوضاع , وجميع الأنظمة , وجميع الأفكار ; وجميع التصورات , التي ابتدعها البشر لأنفسهم بعيدا عن منهج الله وهداه . . فشلت في أن ترتفع بالبشرية مرة أخرى إلى تلك القمة ; وأن تضمن للإنسان حقوقه الكريمة في هذه الصورة الوضيئة ; وأن تفيض على القلوب الطمأنينة - مع هذه النقلة الهائلة - وهي تنقل البشرية إليها بلا مذابح ; وبلا اضطهادات ; وبلا إجراءات استثنائية تقضي على الحريات الأساسية ; وبلا رعب , وبلا فزع , وبلا تعذيب , وبلا جوع , وبلا فقر , وبلا عرض واحد من أعراض النقلات التي يحاولها البشر في ظل الأنظمة البائسة التي يضعها البشر ; ويتعبد فيها بعضهم بعضا من دون الله . .

فحسبنا هذا القدر هنا . . وحسبنا الإحياءات القوية العميقة التي تفيض بها النصوص ذاتها , وتسكبها في القلوب المستنيرة .

(وكذلك نفضل الآيات , ولتستبين سبيل المجرمين) . .

ختم هذه الفقرة التي قدمت طبيعة الرسالة وطبيعة الرسول في هذه النصاعة الواضحة . كما قدمت هذه العقيدة عارية من كل زخرف ; وفصلت الاعتبارات والقيم التي جاءت هذه العقيدة لتلغيها من حياة البشرية ; والاعتبارات والقيم التي جاءت لتقررها . .

(وكذلك نفضل الآيات) . .

يمثل هذا المنهج , ويمثل هذه الطريقة , ويمثل هذا البيان والتفصيل . . تفصل الآيات , التي لا تدع في هذا الحق ريبا ; ولا تدع في هذا الأمر غموضا ; ولا تبقى معها حاجة لطلب الخوارق ; فالحق واضح , والأمر بين , يمثل ذلك المنهج الذي عرض السياق القرآني منه ذلك النموذج . .

على أن كل ما سبق في السورة من تفصيل لدلائل الهدى وموجيات الإيمان ; ومن بيان للحقائق وتقرير للوقائع , يعتبر داخلا في مدلول قوله تعالى:

(وكذلك نفضل الآيات) . .

الدرس الثالث: استبانة سبيل المجرمين

أما ختام هذه الآية القصيرة:

(ولتستبين سبيل المجرمين) . .

فهو شأن عجيب ! . . إنه يكشف عن خطة المنهج القرآني في العقيدة والحركة بهذه العقيدة ! إن هذا المنهج لا يعني بيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب . إنما يعني كذلك بيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضا . . إن استبانة سبيل المجرمين ضرورة لاستبانة سبيل المؤمنين . وذلك كالخط الفاصل يرسم عند مفرق الطريق !

إن هذا المنهج هو المنهج الذي قرره الله - سبحانه - ليتعامل مع النفوس البشرية . . . ذلك أن الله سبحانه يعلم أن إنشاء اليقين الاعتقادي بالحق والخير يقتضي رؤية الجانب المضاد من الباطل والشر ; والتأكيد من أن هذا باطل محض وشر خالص ; وأن ذلك حق ممحض وخير خالص . . . كما أن قوة الاندفاع بالحق لا تنشأ فقط من شعور صاحب الحق أنه على الحق ; ولكن كذلك من شعوره بأن الذي يحاده ويحاربه إنما هو على الباطل . . . وأنه يسلك سبيل المجرمين ; الذين يذكر الله في آية أخرى أنه جعل لكل نبي عدوا منهم (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين). . . ليستقر في نفس النبي ونفوس المؤمنين , أن الذين يعادونهم إنها هم المجرمون ; عن ثقة , وفي وضوح , وعن يقين .

إن سفور الكفر والشر والإجرام ضروري لوضوح الإيمان والخير والصلاح . واستبانة سبيل المجرمين هدف من أهداف التفصيل الرباني للآيات . ذلك أن أي غبش أو شبهة في موقف المجرمين وفي سبيلهم ترتد غبشا وشبهة في موقف المؤمنين وفي سبيلهم . فهما صفحتان متقابلتان , وطريقان مفترقتان . . . ولا بد من وضوح الألوان والخطوط . . .

ومن هنا يجب أن تبدأ كل حركة إسلامية بتحديد سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين . يجب إن تبدأ من تعريف سبيل المؤمنين وتعريف سبيل المجرمين ; ووضع العنوان المميز للمؤمنين . والعنوان المميز للمجرمين , في عالم الواقع لا في عالم النظريات . فيعرف أصحاب الدعوة الإسلامية والحركة الإسلامية من هم المؤمنون ممن حولهم ومن هم المجرمون . بعد تحديد سبيل المؤمنين ومنهجهم وعلامتهم , وتحديد سبيل المجرمين ومنهجهم وعلامتهم . بحيث لا يختلط السيلان ولا يتشابه العنوانان , ولا تلبس الملامح والسمات بين المؤمنين والمجرمين . . .

وهذا التحديد كان قائما , وهذا الوضوح كان كاملا , يوم كان الإسلام يواجه المشركين في الجزيرة العربية . فكانت سبيل المسلمين الصالحين هي سبيل الرسول [ص] ومن معه . وكانت سبيل المشركين المجرمين هي سبيل من لم يدخل معهم في هذا الدين . . . ومع هذا التحديد وهذا الوضوح كان القرآن يتنزل وكان الله - سبحانه - يفصل الآيات على ذلك النحو الذي سبقت منه نماذج في السورة - ومنها ذلك النموذج الأخير - لتستبين سبيل المجرمين !

وحيثما واجه الإسلام الشرك والوثنية والإلحاد والديانات المنحرفة المتخلفة من الديانات ذات الأصل السماوي بعد ما بدلتها وأفسدتها التحريفات البشرية . . . حيثما واجه الإسلام هذه الطوائف والملل كانت سبيل المؤمنين الصالحين واضحة , وسبيل المشركين الكافرين المجرمين واضحة كذلك . . . لا يجدي معها التلبس !

ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الإسلام الحقيقية اليوم ليست في شيء من هذا . . . إنها تتمثل في وجود أقوام من الناس من سلالات المسلمين , في أوطان كانت في يوم من الأيام دارا للإسلام , يسيطر عليها دين الله , وتحكم بشريعته . . . ثم إذا هذه الأرض , وإذا هذه الأقوام , تهجر الإسلام حقيقة , وتعلنه أسما . وإذا هي تتنكر لمقومات الإسلام اعتقادا وواقعا . وإن ظنت أنها تدين بالإسلام اعتقادا ! فالإسلام شهادة أن لا إله إلا الله . . . وشهادة أن لا إله إلا الله تتمثل في الاعتقاد بأن الله - وحده - هو خالق هذا الكون المتصرف فيه . وأن الله - وحده - هو الذي يتقدم إليه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله . وأن الله - وحده - هو الذي يتلقى منه العباد الشرائع ويخضعون لحكمه في شأن حياتهم كله . . . وأيما فرد لم يشهد أن لا إله إلا الله - بهذا المدلول - فإنه لم يشهد ولم يدخل في الإسلام بعد . كائنا ما كان اسمه ولقبه ونسبه . وأيما أرض لم

تتحقق فيها شهادة أن لا إله إلا الله - بهذا المدلول - - فهي أرض لم تدن بدين الله , ولم تدخل في الإسلام بعد . .

وفي الأرض اليوم أقوام من الناس أسماؤهم أسماء المسلمين ; وهم من سلالات المسلمين . وفيها أوطان كانت في يوم من الأيام دارا للإسلام . . ولكن لا الأقوام اليوم تشهد أن لا إله إلا الله - بذلك المدلول - ولا الأوطان اليوم تدين لله بمقتضى هذا المدلول . .

وهذا أشق ما تواجهه حركات الإسلام الحقيقية في هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام !

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول لا إله إلا الله , ومدلول الإسلام في جانب ; ومدلول الشرك ومدلول الجاهلية في الجانب الآخر . .

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين , وطريق المشركين المجرمين ; واختلاط الشارات والعناوين ; والتباس الأسماء والصفات ; والته الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق !

ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة . فيعكفون عليها توسيعا وتمييعا وتليبسا وتخليطا . حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام ! . . تهمة تكفير "المسلمين" !!! ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم , لا إلى قول الله ولا إلى قول رسول الله !

هذه هي المشقة الكبرى . . وهذه كذلك هي العقبة الأولى التي لا بد أن يجتازها أصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل !

يجب أن تبدأ الدعوة إلى الله باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين . . ويجب ألا تأخذ أصحاب الدعوة إلى الله في كلمة الحق والفصل هوادة ولا مداهنة . وألا تأخذهم فيها خشية ولا خوف ; وألا تقعدهم عنها لومة لائم , ولا صيحة صائح: انظروا ! إنهم يكفرون المسلمين !

إن الإسلام ليس بهذا التميع الذي يظنه المخدوعون ! إن الإسلام بين والكفر بين . . الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله - بذلك المدلول - فمن لم يشهد بها على هذا النحو ; ومن لم يقيمها في الحياة على هذا النحو , فحكم الله ورسوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين . . المجرمين . .

(وكذلك نفضل الآيات , ولتستبين سبيل المجرمين) . .

أجل يجب أن يجتاز أصحاب الدعوة إلى الله هذه العقبة ; وأن تتم في نفوسهم هذه الاستبانة ; كي تنطلق طاقاتهم كلها في سبيل الله لا تصدها شبهة , ولا يعوقها غبش , ولا يميعها لبس . فإن طاقاتهم لا تنطلق إلا إذا اعتقدوا في يقين أنهم هم "المسلمون" وأن الذين يقفون في طريقهم ويصدونهم ويصدون الناس عن سبيل الله هم "المجرمون" . . كذلك فإنهم لن يحتملوا متاعب الطريق إلا إذا استيقنوا أنها قضية كفر وإيمان . وأنهم وقومهم على مفرق الطريق , وأنهم على ملة وقومهم على ملة . وأنهم في دين وقومهم في دين:

(وكذلك نفضل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين). .

. . وصدق الله العظيم . .

الوحدة الثامنة: 56 - 65 الموضوع: مجالات وميادين دالة على حقيقة الألوهية والوحدانية

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَأَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا
أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (56)
مقدمة الوحدة مجالات حقيقة الألوهية

هذه الموجه عودة إلى "حقيقة الألوهية" بعد بيان "حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول" في الموجه السابقة لها في السياق المتلاحم ; وبعد استبانة سبيل المجرمين واستبانة سبيل المؤمنين - كما ذكرنا ذلك في نهاية الفقرة السابقة .

وحقيقة الألوهية في هذه الموجه تتجلى في مجالات شتى ; نجلها هنا - قبل تفصيلها في استعراض النصوص القرآنية:

تتجلى في قلب رسول الله [ص] وهو يجد في نفسه بينة من ربه , هو منها على يقين , لا يزعه تكذيب المكذبين . ومن ثم يخلص نفسه لربه , ويفاصل قومه مفاصلة المستيقن من ضلالهم يقينه من هداه (قل:إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله . قل:لا أتبع أهواءكم , قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين . قل:إني على بينة من ربي وكذبتم به . ما عندي ما تستعجلون به , إن الحكم إلا لله , يقص الحق وهو خير الفاصلين). .

وتتجلى في حلم الله على المكذبين , وعدم استجابته لاقتراحاتهم أن ينزل عليهم خارقة مادية حتى لا يعجل لهم بالعذاب عند تكذيبهم بها - كما جرت سنته تعالى - وهو قادر عليه . ولو كان رسول الله [ص] يملك هذا الذي يستعجلون به , ما أمسكه عنهم , ولضاق بشريته بهم وتكذيبهم . فإمهالهم هذا الإمهال هو مظهر من مظاهر حلم الله ورحمته , كما أنها مجال تتجلى فيه ألوهيته:(قل:لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم , والله أعلم بالظالمين). .

وتتجلى في علم الله بالغيب ; وإحاطة هذا العلم بكل ما يقع في هذا الوجود ; في صورة لا تكون إلا لله ; ولا يصورها هكذا إلا الله:(وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو , ويعلم ما في البر والبحر , وما تسقط من ورقة إلا يعلمها . ولا حبة في ظلمات الأرض , ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين). .

وتتجلى في هيمنة الله على الناس وقهره للعباد في كل حالة من حالاتهم , في النوم والصحو , في الموت والحياة , في الدنيا والآخرة: (وهو الذي يتوفاكم بالليل , ويعلم ما جرحتم بالنهار , ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى , ثم إليه مرجعكم , ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده , ويرسل عليكم حفظة , حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا , وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق . ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين).

وتتجلى في فطرة المكذبين أنفسهم , حين يواجهون الهول ; فلا يدعون إلا الله لرفعه عنهم . . ثم هم مع ذلك يشركون , وينسون أن الله , الذي يدعونه لكشف الضر , قادر على أن يذيقهم ألوان العذاب فلا يدفعه عنهم أحد:(قل:من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية:لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ? قل:الله ينجيكم منها ومن كل كرب , ثم أنتم تشركون . قل:هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم , أو يلبسكم شيئا ويذيق بعضكم بأس بعض . انظر كيف نصرَف الآيات لعلهم يفقهون).

الدرس الأول: 56 - 58 الأمر والحكم لله وحدوده صلاحيات الرسول

(قل إنني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله . قل لا أتبع أهواءكم . قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين . . قل إنني على بينة من ربي - وكذبتم به - ما عندي ما تستعجلون به . إن الحكم إلا لله يقص الحق , وهو خير الفاصلين . قل:لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم , والله أعلم بالظالمين).

تحتشد هذه الموجة بالمؤثرات الموحية , التي تتمثل في شتى الإيقاعات التي تواجه القلب البشري بحقيقة الألوهية في شتى مجالها . . ومن بين هذه المؤثرات العميقة , ذلك الإيقاع المتكرر:"قل . . قل . . قل . . " خطابا لرسول الله [ص] ليبلغ عن ربه , ما يوحيه إليه ; وما لا يملك غيره ; ولا يتبع غيره ; ولا يستوحى غيره:

(قل:إنني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله . قل:لا أتبع أهواءكم . قد ضللت إذا , وما أنا من المهتدين).

يأمر الله - سبحانه - رسوله [ص] , أن يواجه المشركين بأنه منهي من ربه عن عبادة الذين يدعونهم من دون الله ويتخذونهم أندادا لله . . ذلك أنه منهي عن اتباع أهوائهم - وهم إنما يدعون الذين يدعون من دون الله عن هوى لا عن علم , ولا عن حق - وأنه إن يتبع أهواءهم هذه يضل ولا يهتدي . فما تقوده أهواؤهم وما تقودهم إلا إلى الضلال .

يأمر الله - سبحانه - نبيه [ص] أن يواجه المشركين هذه المواجهة , وأن يفاصلهم هذه المفاصلة , كما أمره من قبل في السورة بمثل هذا وهو يق 1 (أنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ? قل:لا أشهد . قل:إنما هو إله واحد , وإنني بريء مما تشركون . .

ولقد كان المشركون يدعون رسول الله [ص] أن يوافقهم على دينهم , فيوافقوه على دينه ! وأن يسجد لألهتم فيسجدوا لإلهه ! كأن ذلك يمكن أن يكون ! وكان الشرك والإسلام يجتمعان في قلب ! وكان العبودية لله يمكن أن تقوم مع العبودية لسواه ! وهو أمر لا يكون أبدا . فالله أغنى الشركاء عن الشرك وهو يطلب من عباده أن يخلصوا له العبودية ; ولا يقبل منهم عبوديتهم له إذا شابوها بشيء من العبودية لغيره . . في قليل أو كثير . .

ومع أن المقصود في الآية أن يواجههم رسول الله [ص] بأنه منهي عن عبادة أي مما يدعون ويسمون من دون الله , فإن التعبير ب(الذين)في قوله تعالى:

(قل إنني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله).

قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ يُقْضَىٰ
الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْقَاصِلِينَ (57)

يستوقف النظر . فكلمة الذين تطلق على العقلاء . ولو كان المقصود هي الأوثان ,
والأصنام , وما إليها لعبر ب "ما" بدل (الذين) . . فلا بد أن يكون المقصود بالذين نوعا آخر
- مع الأصنام والأوثان وما إليها - نوعا من العقلاء الذين يعبر عنهم بالاسم الموصول:
(الذين) فغلب العقلاء , ووصف الجميع بوصف العقلاء . . وهذا الفهم يتفق مع الواقع من
جهة ; ومع المصطلحات الإسلامية في هذا المقام من جهة :

فمن جهة الواقع نجد أن المشركين ما كانوا يشركون بالله الأصنام والأوثان وحدها .
ولكن كانوا يشركون معه الجن والملائكة والناس . . وهم ما كانوا يشركون الناس إلا في
أن يجعلوا لهم حق التشريع للمجتمع وللأفراد . حيث يسنون لهم السنن , ويضعون لهم
التقاليد ; ويحكمون بينهم في منازعاتهم وفق العرف والرأي . .

وهنا نصل إلى جهة المصطلحات الإسلامية . . فالإسلام يعتبر هذا شركا ; ويعتبر أن
تحكيم الناس في أمور الناس تأليه لهم ; وجعلهم أندادا من دون الله . . وينهى الله عنه
نهيه عن السجود للأصنام والأوثان ; فكلاهما في عرف الإسلام سواء . . شرك بالله ,
ودعوة أنداد من دون الله !

ثم يجيء الإيقاع الثاني موصولا بالإيقاع الأول ومتمما له: (قل:إني على بينة من ربي ;
وكذبتم به , ما عندي ما تستعجلون به . إن الحكم إلا لله , يقص الحق , وهو خير
الفاصلين) . .

وهو أمر من الله - سبحانه - لنيه [ص] أن يجهر في مواجهة المشركين المكذبين
بربهم - بما يجده في نفسه من اليقين الواضح الراسخ , والدليل الداخلي البين ,
والإحساس الوجداني العميق , بربه . . ووجوده , ووجدانيته , ووجهه إليه . وهو الشعور
الذي وجدته الرسل من ربهم , وعبروا عنه مثل هذا التعبير أو قريبا منه:

قالها نوح - عليه السلام -:(قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي , وآتاني رحمة
من عنده فعميت عليكم ? أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ?) . .

وقالها صالح - عليه السلام -: قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه
رحمة , فمن ينصرني من الله إن عصيته ? فما تزيدونني غير تخسير . .

وقالها إبراهيم - عليه السلام -:(وحاجه قومه . قال:أتحاجوني في الله وقد هدان ?) . .

وقالها يعقوب - عليه السلام - لنيه(فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا .
قال ألم أقل لكم:إني أعلم من الله ما لا تعلمون ?) . .

فهي حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب أوليائه ; ممن يتجلى الله لهم في قلوبهم ;
فيجدونه - سبحانه - حاضرا فيها ; ويجدون هذه الحقيقة بينة هنالك في أعماقهم تسكب
في قلوبهم اليقين بها . وهي الحقيقة التي يأمر الله نبيه أن يجهر بها في مواجهة
المشركين المكذبين ; الذين يطلبون منه الخوارق لتصديق ما جاءهم به من حقيقة ربه ,
الحقيقة التي يجدها هو كاملة واضحة عميقة في قلبه:

(قل إني على بينة من ربي , وكذبتم به) . .

كذلك كانوا يطلبون أن ينزل عليهم خارقة أو ينزل بهم العذاب , ليصدقوا أنه جاءهم من عند الله . . وكان يؤمر أن يعلن لهم حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول ; وأن يفرق فرقانا كاملا بينها وبين حقيقة الألوهية ; وإن يجهر بأنه لا يملك هذا الذي يستعجلونه ; فالذي يملكه هو الله وحده ; وهو ليس إلهها , إنما هو رسول:

قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (58)
(ما عندي ما تستعجلون به , إن الحكم إلا لله , يقص الحق وهو خير الفاصلين).

إن إيقاع العذاب بهم بعد مجيء الخارقة وتكذيبهم بها حكم وقضاء ; ولله وحده الحكم والقضاء . فهو وحده الذي يقص الحق ويخبر به ; وهو وحده الذي يفصل في الأمر بين الداعي إلى الحق والمكذبين به . وليس هذا أو ذلك لأحد من خلقه .

وبذلك يجرّد الرسول [ص] نفسه من أن تكون له قدرة , أو تدخل في شأن القضاء الذي ينزله الله بعباده . فهذا من شأن الألوهية وحدها وخصائصها , وهو بشر يوحى إليه , ليبلغ وينذر ; لا لينزل قضاء ويفصل . وكما أن الله سبحانه هو الذي يقص الحق ويخبر به ; فهو كذلك الذي يقضي في الأمر ويفصل فيه . . وليس بعد هذا تنزيه وتجريد لذات الله - سبحانه - وخصائصه , عن ذوات العبيد . .

ثم يؤمر أن يلمس قلوبهم وعقولهم ويلفتها إلى دلالة قوبة على أن هذا الأمر من عند الله , ومتروك لمشئته الله . فلو أن أمر الخوارق - بما فيها إنزال العذاب - في مقدوره - وهو بشر - ما استطاع أن يمسك نفسه عن الاستجابة لهم , وهم يلحفون هذا الإلحاف . ولكن لأن الأمر بيد الله وحده , فهو يحلم عليهم ; فلا يجيئهم بخارقة يتبعها العذاب المدمر , إن هم كذبوا بها كما فعل بمن قبلهم:(قل:لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم , والله أعلم بالظالمين).

إن للطاقة البشرية حدودا في الصبر والحلم والإمهال . وما يحلم على البشر ويمهلهم - على عصيانهم وتمردهم وتبجحهم - إلا الله الحليم القوي العظيم . .

وصدق الله العظيم . . فإن الإنسان ليرى من بعض الخلق ما يضيق به الصدر , وتبلغ منه الروح الحلقوم . . ثم ينظر فيجد الله - سبحانه - يسعهم في ملكه , ويطعمهم , ويسقيهم , ويغدق أحيانا عليهم , ويفتح عليهم أبواب كل شيء . . وما يجد الإنسان إلا أن يقول قوله أبي بكر - رضي الله عنه - والمشركون يضربونه الضرب المبرح الغليظ , حتى ما يعرف له أنف من عين:"رب ما أحلمك ! رب ما أحلمك ! " . . فإنما هو حلم الله وحده . . وهو يستدرجهم من حيث لا يعلمون ! (والله أعلم بالظالمين).

فهو يمهلهم عن علم , ويملي لهم عن حكمة , ويحلم عليهم وهو قادر على أن يجيئهم إلى ما يقترحون , ثم ينزل بهم العذاب الأليم . .

الدرس الثاني:59 مفاتيح الغيب ومجالات علم الله

وبمناسبة علم الله - سبحانه - بالظالمين ; واستطرادا في بيان حقيقة الألوهية ; يجلي هذه الحقيقة في مجال ضخم عميق من مجالاتها الفريدة . . مجال الغيب المكنون , وعلم الله المحيط بهذا الغيب إحاطته بكل شيء , ويرسم صورة فريدة لهذا العلم ;

ويرسل سهاما بعيدة المدى تشير إلى أماده وآفاقه من بعيد: (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو , ويعلم ما في البر والبحر , وما تسقط من ورقة إلا يعلمها , ولا حبة في ظلمات الأرض , ولا رطب ولا يابس , إلا في كتاب مبين) . .

إنها صورة لعلم الله الشامل المحيط ; الذي لا يند عنه شيء في الزمان ولا في المكان , في الأرض ولا في السماء , في البر ولا في البحر , في جوف الأرض ولا في طباق الجو , من حي وميت ويابس ورطب . . .

ولكن أين هذا الذي نقوله نحن - بأسلوبنا البشري المعهود - من ذلك النسق القرآني العجيب ? وأين

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (59)

هذا التعبير الإحصائي المجرد , من ذلك التصوير العميق الموحى ?

إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول , وعالم الغيب وعالم الشهود , وهو يتبع ضلال علم الله في أرجاء الكون الفسيح , ووراء حدود هذا الكون المشهود . . وإن الوجدان ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهد من كل فج وواد . وهو يرتاد - أو يحاول أن يرتاد - أستار الغيوب المختومة في الماضي والحاضر والمستقبل ; البعيدة الآماد والآفاق والأغوار . . مفاتيحها كلها عند الله ; لا يعلمها إلا هو . . ويجول في مجاهل البر وفي غيايات البحر , المكشوفة كلها لعلم الله . ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض , لا يحصيها عد , وعين الله على كل ورقة تسقط , هنا وهنا وهناك . ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله . ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض , لا يند منه شيء عن علم الله المحيط . .

إنها جولة تدير الرؤوس , وتذهل العقول . جولة في آماد من الزمان , وآفاق من المكان , وأغوار من المنظور والمحجوب , والمعلوم والمجهول . . جولة بعيدة موعلة مترامية الأطراف , يعيا بتصور أمادها الخيال . . وهي ترسم هكذا دقيقة كاملة شاملة في بضع كلمات . .

ألا إنه الإعجاز !

وننظر إلى هذه الآية القصيرة من أي جانب فنرى هذا الإعجاز , الناطق بمصدر هذا القرآن .

ننظر إليها من ناحية موضوعها , فنجزم للوهلة الأولى بأن هذا كلام لا يقوله بشر ; فليس عليه طابع البشر . . إن الفكر البشري - حين يتحدث عن مثل هذا الموضوع: موضوع شمول العلم وإحاطته - لا يرتاد هذه الآفاق . . إن مطارح الفكر البشري وانطلاقته في هذا المجال لها طابع آخر ولها حدود . إنه ينتزع تصورات التي يعبر عنها من اهتماماته . . فما اهتمام الفكر البشري بتقصي وإحصاء الورق الساقط من الشجر , في كل أنحاء الأرض ? إن المسألة لا تخطر على بال الفكر البشري ابتداء . لا يخطر على باله أن يتتبع ويحصى ذلك الورق الساقط في أنحاء الأرض . ومن ثم لا يخطر له أن يتجه هذا الاتجاه

ولا أن يعبر هذا التعبير عن العلم الشامل ! إنما الورق الساقط شأن يحصيه الخالق ;
ويعبر عنه الخالق !

وما اهتمام الفكر البشري بكل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض ? إن أقصى ما يحفل به
بنو البشر هو الحب الذي يخبأونه هم في جوف الأرض ويرتقبون إنباته . . فأما تتبع كل
حبة مخبوءة في ظلمات الأرض ; فمما لا يخطر للبشر على بال أن يهتموا به , ولا أن
يلحظوا وجوده , ولا أن يعبروا به عن العلم الشامل ! إنما الحب المخبوء في ظلمات
الأرض شأن يحصيه الخالق , ويعبر عنه الخالق !

وما اهتمام الفكر البشري بهذا الإطلاق: (ولا رطب ولا يابس) . . إن أقصى ما يتجه إليه
تفكير البشر هو الانتفاع بالرطب واليابس مما بين أيديهم . . فأما التحدث عنه كدليل
للعلم الشامل . فهذا ليس من المعهود في اتجاه البشر وتعبيراتهم كذلك ! إنما كل
رطب وكل يابس شأن يحصيه الخالق , ويعبر عنه الخالق !

ولا يفكر البشر أن تكون كل ورقة ساقطة , وكل حبة مخبوءة , وكل رطب وكل يابس
في كتاب مبین . وفي سجل محفوظ . . فما شأنهم بهذا , وما فائدته لهم ? وما احتفالهم
بتسجيله ? إنما الذي يحصيه ويسجله هو صاحب الملك , الذي لا يند عنه شيء في ملكه
. . الصغير كالكبير ; والحقير كالجليل ; والمخبوء كالظاهر ; والمجهول كالمعلوم ;
والبعيد كالقريب . .

إن هذا المشهد الشامل الواسع العميق الرائع . . مشهد الورق الساقط من شجر الأرض
جميعا , والحب المخبوء في أطواء الأرض جميعا , والرطب واليابس في أرجاء الأرض
جميعا . . إن هذا المشهد كما أنه لا يتجه إليه الفكر البشري والاهتمام البشري ; وكذلك
لا تلحظه العين البشرية ; ولا تلم به النظرة البشرية . . إنه المشهد الذي يتكشف هكذا
بجملته لعلم الله وحده ; المشرف على كل شيء , المحيط بكل شيء . . الحافظ لكل
شيء , الذي تتعلق مشيئته وقدره بكل شيء . . الصغير كالكبير , والحقير كالجليل ,
والمخبوء كالظاهر , والمجهول كالمعلوم , والبعيد كالقريب . .

والذين يزاولون الشعور ويزاولون التعبير من بني البشر يدركون جيدا حدود التصور
البشري , وحدود التعبير البشري أيضا . ويعلمون - من تجربتهم البشرية - أن مثل هذا
المشهد , لا يخطر على القلب البشري ; كما أن مثل هذا التعبير لا يتأتى له أيضا . .
والذين يمارون في هذا عليهم أن يراجعوا قول البشر كله , ليروا إن كانوا قد اتجهوا مثل
هذا الاتجاه أصلا !

وهذه الآية وأمثالها في القرآن الكريم تكفي وحدها لمعرفة مصدر هذا الكتاب الكريم . .

كذلك ننظر إليها من ناحية الإبداع الفني في التعبير ذاته , فنرى آفاقا من الجمال
والتناسق لا تعرفها أعمال البشر , على هذا المستوى السامق:

(وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) . . آحاد وآفاق وأغوار في "المجهول" المطلق . في
الزمان والمكان , وفي الماضي والحاضر والمستقبل , وفي أحداث الحياة وتصورات
الوجدان . .

(ويعلم ما في البر والبحر). . آماذ وآفاق وآغوار في "المنظور" , علي استواء وسعة
وشمول . . تناسب في عالم الشهود المشهود تلك الآماذ والآفاق والآغوار في عالم
الغيب المحجوب .

(وما تسقط من ورقة إلا يعلمها). . حركة الموت والفناء ; وحركة السقوط والانحدار ,
من علو إلى سفل , ومن حياة إلى اندثار .

(ولا حبة في ظلمات الأرض). . حركة البرزوخ والنماء , المنبثقة من الغور إلى السطح ,
ومن كمون وسكون إلى اندفاع وانطلاق .

(ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين). . التعميم الشامل , الذي يشمل الحياة والموت
, والأزدهار والذبول ; في كل حي على الإطلاق . .

فمن ذا الذي يبدع ذلك الاتجاه والانطلاق ? ومن ذا الذي يبدع هذا التناسق والجمال ? . .
من ذا الذي يبدع هذا كله وذلك كله , في مثل هذا النص القصير . . من ? إلا الله !

ثم نقف أمام قوله تعالى:

(وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو). .

نقف لنقول كلمة عن (الغيب) و(مفاتيحه) واختصاص الله - سبحانه - "بالعلم" بها . . ذلك
أن حقيقة الغيب من "مقومات التصور الإسلامي" الأساسية ; لأنها من مقومات العقيدة
الإسلامية الأساسية ; ومن قواعد "الإيمان" الرئيسية . . وذلك أن
كلمات (الغيب) و"الغيبية" تلاك في هذه الأيام كثيرا - بعد ظهور المذهب المادي -
وتوضع في مقابل "العلم" و"العلمية" . . والقرآن الكريم يقرر أن هناك "غيبا لا يعلم
مفاتيحه" إلا الله . ويقرر أن ما أوتيته الإنسان من العلم قليل . . وهذا القليل إنما أتاه الله
له بقدر ما يعلم هو - سبحانه - من طاقته ومن حاجته . وأن الناس لا يعلمون - فيما وراء
العلم الذي أعطاهم الله إياه - إلا ظنا , وأن الظن لا يغني من الحق شيئا . . كما يقرر -
سبحانه - أن الله قد خلق هذا الكون , وجعل له سننا لا تتبدل ; وأنه علم الإنسان أن
يبحث عن هذه السنن ويدرك بعضها ; ويتعامل معها - في حدود طاقته وحاجته - وأنه
سيكشف له من هذه السنن في الأنفس والآفاق ما يزيده يقينا وتأكدا أن الذي جاءه من
عند ربه هو الحق . . دون أن يخل هذا الكشف عن سنن الله التي لا تتبدل لها , بحقيقة
"الغيب" المجهول للإنسان , والذي سيظل كذلك مجهولا , ولا بحقيقة طلاقة مشيئة الله
وحدوث كل شيء بقدر غيبي خاص من الله , ينشئ هذا الحدث ويبرزه للوجود . . في
تناسق تام في العقيدة الإسلامية , وفي تصور المسلم الناشئ من حقائق العقيدة . .

فهذه الحقائق بجملتها - على هذا النحو المتعدد الجوانب المتناسق المتكامل - تحتاج منا
هنا - في الظلال - إلى كلمة نحاول بقدر الإمكان أن تكون جملة , وألا تخرج عن حدود
المنهج الذي اتبعناه في الظلال أيضا .

إن الله سبحانه يصف المؤمنين في مواضع كثيرة من القرآن بأنهم الذين يؤمنون بالغيب ;
فيجعل هذه الصفة قاعدة من قواعد الإيمان الأساسية:

الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه , هدى للمتقين: الذين يؤمنون بالغيب , ويطيعون الصلاة ,
ومما رزقناهم ينفقون , والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم
يوقنون . أولئك على هدى من ربهم , وأولئك هم المفلحون . . [البقرة: 5 - 1] .

والإيمان بالله - سبحانه - هو إيمان بالغيب . فذات الله - سبحانه - غيب بالقياس إلى البشر ; فإذا آمنوا به فإنما يؤمنون بغيب , يجدون آثار فعله , ولا يدركون ذاته , ولا كيفيات أفعاله .

والإيمان بالآخرة كذلك , هو إيمان بالغيب . فالساعة بالقياس إلى البشر غيب , وما يكون فيها من بعث وحساب وثواب وعقاب كله غيب يؤمن به المؤمن , تصديقا لخبر الله سبحانه .

والغيب الذي يتحقق الإيمان بالتصديق به يشمل حقائق أخرى يذكرها القرآن الكريم في وصف واقع المؤمنين وعقيدتهم الشاملة:

(آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون . كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . لا نفرق بين أحد من رسله . وقالوا: سمعنا وأطعنا . غفرانك ربنا , وإليك المصير). [البقرة: 285] .

ف نجد في هذا النص أن رسول الله [ص] والمؤمنين كذلك , كل آمن بالله - وهو غيب - وآمن بما أنزل الله على رسوله - وما أنزل الله على رسوله فيه جانب من إطلاعه [ص] على جانب من الغيب بالقدر الذي قدره الله - سبحانه - كما قال في الآية الأخرى: عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول . . [الجن: 27 - 26] .

وآمن بالملائكة - وهي غيب - لا يعرف عنه البشر إلا ما يخبرهم به الله , على قدر طاقتهم وحاجتهم .

ويبقى من الغيب الذي لا يقوم الإيمان إلا بالتصديق به: قدر الله - وهو غيب لا يعلمه الإنسان حتى يقع - كما جاء في حديث الإيمان: " . . . والقدر خيره وشره " . . . [أخرجه الشيخان] . .

على أن الغيب في هذا الوجود يحيط بالإنسان من كل جانب . . غيب في الماضي وغيب في الحاضر , وغيبي المستقبل . . غيب في نفسه وفي كيانه , وغيب في الكون كله من حوله . . غيب في نشأة هذا الكون وخط سيره , وغيب في طبيعته وحركته . . غيب في نشأة الحياة وخط سيرها , وغيب في طبيعتها وحركتها . . غيب فيما يجهله الإنسان , وغيب فيما يعرفه كذلك !

ويسبح الإنسان في بحر من المجهول . . حتى ليجهل اللحظة ما يجري في كيانه هو ذاته فضلا على ما يجري حوله في كيان الكون كله ; فضلا عما يجري بعد اللحظة الحاضرة له وللكون كله من حوله: ولكل ذره , وكل كهرب من ذرة ; وكل خلية وكل جزئي من خلية !

إنه الغيب . . إنه المجهول . . والعقل البشري - تلك الذبالة القريبة المدى - إنما يسبح في بحر المجهول . فلا يقف إلا على جزر طافية هنا وهناك يتخذ منها معالم في الخضم . ولولا عون الله له , وتسخير هذا الكون , وتعليمه هو بعض نواميسه , ما استطاع شيئا . ولكنه لا يشكر . . (وقليل من عبادي الشكور). . بل إنه في هذه الأيام ليتبجح بما كشف الله له من السنن , وبما آتاه من العلم القليل . . يتبجح فيزعم أحيانا أن "الإنسان يقوم وحده" ولم يعد في حاجة إلى إله يعينه ! ويتبجح أحيانا فيزعم أن "العلم" يقابل

"الغيب" وأن "العلمية" في التفكير والتنظيم تقابل "الغيبية" وأنه لا لقاء بين العلم والغيب ; كما أنه لا لقاء بين العقلية العلمية والعقلية الغيبية !

فلنلق نظرة على وقفة "العلم" أمام "الغيب" . . في بحوث وأقوال "العلماء" من بني البشر أنفسهم - بعد أن نقف أمام كلمة الفصل التي قالها العليم الخبير عن علم الإنسان القليل - (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) . . [الإسراء:85] (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) . . [النجم:29] وأن الغيب كله لله: (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) . . [الأنعام:59] وأن الذي يعلم الغيب هو الذي يرى: (أعنده علم الغيب فهو يرى ؟) . . [النجم:35] . . وهي ناطقة بذاتها عن مدلولاتها . .

فلنلق نظرة على وقفة "العلم" أمام "الغيب" في بحوث وأقوال العلماء من بني الإنسان لا لنصدق بها كلمة الفصل من الله سبحانه - فحاشا للمؤمن أن يصدق قول الله بقول البشر - ولكننا نقف هذه الوقفة لنحاكم الذين يلوكون كلمات العلم والغيب , والعلمية والغيبية , إلى ما يؤمنون هم به من قول البشر ! ليعلموا أن عليهم هم أن يحاولوا "الثقافة" و"المعرفة" ليعيشوا في زمانهم ; ولا يكونوا متخلفين عن عقلية ومقررات تجاربه !

وليستيقنوا أن "الغيب" هو الحقيقة "العلمية" الوحيدة المستيقنة من وراء كل التجارب والبحوث والعلم الإنساني ذاته ! وأن "العلمية" في ضوء التجارب والنتائج الأخيرة مرادفة تماما "للغيبية" . . أما الذي يقابل الغيبية حقا فهو "الجهلية" !!! الجهلية التي تعيش في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر - ربما - ولكنها لا تعيش في القرن العشرين !!!

عالم معاصر - من أمريكا - يقول عن "الحقائق" التي يصل إليها "العلم" بجملتها:

"إن العلوم حقائق مختبرة ; ولكنها مع ذلك تتأثر بخيال الإنسان وأوهامه ومدى بعده عن الدقة في ملاحظاته وأوصافه واستنتاجاته . ونتائج العلوم مقبولة داخل هذه الحدود . فهي بذلك مقصورة على الميادين الكمية في الوصف والتنبؤ . وهي تبدأ بالاحتمالات , وتنتهي بالاحتمالات كذلك . . وليس باليقين . . ونتائج العلوم بذلك تقريبية , وعرضة للأخطاء المحتملة في القياس والمقارنات ; ونتائجها اجتهادية , وقابلة للتعديل بالإضافة والحذف , وليست نهائية . وإنما لنرى أن العالم عندما يصل إلى قانون أو نظرية يقول: إن هذا هو ما وصلنا إليه حتى الآن , ويترك الباب مفتوحا لما قد يستجد من التعديلات" .

وهذه الكلمة تلخص حقيقة جميع النتائج التي وصل إليها العلم , والتي يمكن أن يصل إليها كذلك . فطالما أن "الإنسان" بوسائله المحدودة , بل بوجوده المحدود بالقياس إلى الأزل والأبد هو الذي يحاول الوصول إلى هذه النتائج ; فإنه من الحتم أن تكون مطبوعة بطابع هذا الإنسان , ولها مثل خصائصه من كونها محدودة المدى ; وقابلة للخطأ والصواب , والتعديل والتبديل . .

على أن الوسيلة التي يصل بها الإنسان إلى أية نتيجة هي التجربة والقياس . فهو يجرب , ثم يعمم النتيجة التي يصل إليها عن طريق القياس ; والقياس - باعتراف العلم وأهله - وسيلة تؤدي إلى نتيجة ظنية ; ولا يمكن أبدا أن تكون قطعية ولا نهائية . والوسيلة الأخرى - وهي التجربة والاستقصاء بمعنى تعميم التجربة على كل ما هو من جنس ما وقعت عليه التجارب في جميع الأزمنة وفي جميع الظروف - وسيلة غير مهيأة للإنسان .

وهي إحدى الوسائل الموصلة إلى نتائج قطعية . ولا سبيل إلى نتيجة قطعية وحقيقة يقينية إلا عن طريق هدى الله الذي يبينه للناس . ومن ثم يبقى علم الإنسان فيما وراء ما قرره الله له , علما ظنيا لا يصل إلى مرتبة اليقين بحال !

على أن "الغيب" ضارب حول الإنسان فيما وراء ما يصل إليه علمه الظني ذاك . . .

هذا الكون من حوله . . إنه ما يزال يضرب في الفروض والنظريات حول مصدره ونشأته وطبيعته وحول حركته , وحول "الزمان" ما هو وحول "المكان" وارتباطه بالزمان وارتباط ما يجري في الكون بالزمان والمكان .

والحياة . ومصدرها . ونشأتها . وطبيعتها . وخط سيرها . والمؤثرات فيها . وارتباطها بهذا الوجود "المادي" ! إن كان هناك في الكون مادة على الإطلاق ذات طبيعة غير طبيعة "الفكر" وغير طبيعة الطاقة على العموم !

"والإنسان" ما هو ؟ ما الذي يميزه من المادة ؟ وما الذي يميزه عن بقية الأحياء ؟ وكيف جاء إلى هذه الأرض وكيف يتصرف ؟ وما "العقل" الذي يتميز به ويتصرف ؟ وما مصيره بعد الموت والانحلال ؟ . .

بل هذا الكيان الإنساني ذاته , ما الذي يجري في داخله من تحليل وتركيب في كل لحظة ؟ وكيف يجري ؟ . .

إنها كلها ميادين للغيب , يقف العلم على حافاتها , ولا يكاد يقتحهما , حتى على سبيل الظن والترجيح . وإن هي إلا فروض واحتمالات !

ولندع ما لا يشغل العلم به نفسه - إلا قليلا في هذا القرن - من حقيقة الألوهية , وحقيقة العوالم الأخرى من ملائكة وجن وخلق لا يعلمه إلا الله . ومن حقيقة الموت , وحقيقة الآخرة . وحقيقة الحساب والجزاء . . لندع هذا كله لحظة ففي "الغيب" القريب , الكفاية , ومن هذا الغيب يقف العلم وقفة التسليم , الذي لا يخرج عنه إلا من يؤثرون المرء على "العلم" والتبجح على الإخلاص !

ونضرب بعض الأمثال . .

1 - في قاعدة بناء الكون وسلوكه:

الذرة - فيما يقول العلم الحديث - قاعدة بناء الكون . وليست هي أصغر وحدة في بناء هذا العالم . فهي مؤلفة من بروتونات [طاقة كهربية موجبة] والكترونات [طاقة كهربية سالبة] ونيوترونات [طاقة محايدة مكونه من طاقة كهربية موجبة وطاقة كهربية سالبة متعادلتين ساكنتين] وحين تحطم الذرة تتحرر الكهارب [الإلكترونات] ولكنها لا تسلك في المعمل سلوكا حتميا موحدا . فهي تسلك مرة كأنها أمواج ضوئية ومرة كأنها قذائف . ولا يمكن تحديد سلوكها المقبل مقدما . وإنما هي تخضع لقانون آخر - غير الحتمية - هو قانون الاحتمالات . وكذلك تسلك الذرة نفسها , والمجموعة المحدودة من الذرات [في صورة جزيئات] هذا السلوك . يقول سير جيمس جينر - الإنجليزي - الأستاذ في الطبيعيات والرياضيات:

"لقد كان العلم القديم يقرر تقرير الواثق , أن الطبيعة لا تستطيع أن تسلك إلا طريقا واحدا: وهو الطريق الذي رسم من قبل , لتسير فيه من بداية الزمن إلى نهايته , وفي

تسلسل مستمر بين علة ومعلول , وألا مناص من أن الحالة [أ] تتبعها الحالة [ب] أما العلم الحديث فكل ما يستطيع أن يقوله حتى الآن هو: أن الحالة [أ] يحتمل أن تتبعها [ب] أو [ج] أو [د] أو غيرها من الحالات الأخرى التي يخطئها الحصر . نعم إن في استطاعته أن يقول: إن حدوث الحالة [ب] أكثر احتمالا من حدوث الحالة [ج] وإن الحالة [ج] أكثر احتمالا من الحالة [د] . . وهكذا بل إن في مقدوره أن يحدد درجة احتمال كل حالة من الحالات [ب] و [ج] و [د] بعضها بالنسبة إلى بعض . ولكنه لا يستطيع أن يتنبأ عن يقين: أي الحالات تتبع الأخرى . لأنه يتحدث دائما عما يحتمل . أما ما يجب أن يحدث فأمره موكول إلى الأقدار - مهما تكن حقيقة هذه الأقدار ! " .

فماذا يكون "الغيب" وماذا يكون قدر الله المغيب عن علم الإنسان , إن لم يكن هو هذا الذي تنتهي إليه تجارب العلم الإنساني , وتقف على عتباته في صلب الكون وذراته ?

ويضرب مثلا لذلك إشعاع ذرات الراديوم , وتحولها إلى رصاص وهليوم . . وهي خاضعة تماما لقدر مجهول , وغيب مستور , يقف دونه علم الإنسان:

" ولنضرب لذلك مثلا ماديا يريده وضوحا: من المعروف أن ذرات الراديوم وغيره من المواد ذات النشاط الإشعاعي , تتفكك بمجرد مرور الزمن عليها , وتخلف وراءها ذرات من الرصاص والهليوم . ولهذا فإن كتلة من الراديوم ينقص حجمها باستمرار , ويحل مكانها رصاص وهليوم . والقانون العام الذي يتحكم في معدل التناقص غريب غاية الغرابة . ذلك أن كمية من الراديوم تنقص بنفس الطريقة التي ينقص بها عدد من السكان , إذا لم تجد عليهم مواليد , وكانت نسبة تعرض كل منهم للوفاة واحدة بغض النظر عن السن ; أو أنها تنقص كما ينقص عدد أفراد كتبية من الجند معرضين لنيران ترسل عليهم اعتباطا , ومن غير أن يكون أحدهم مقصودا لذاته . ومجمل القول إنه ليس لكبير السن أثر ما في ذرة الراديوم الواحدة . فإنها لا تموت لأنها قد استوفت حظها من الحياة , بل لأن المنية قد أصابتها خبط عشواء .

" ولنوضح هذه الحقيقة بمثل مادي فنقول: إذا فرض أن بحجرتنا ألفين من ذرات الراديوم . فإن العلم لا يستطيع أن يقول: كم منها يبقى حيا بعد عام . بل كل ما يستطيعه هو أن يذكر فقط الاحتمالات التي ترجح بقاء 2000 أو 1999 أو 1998 , وهكذا . وأكثر الأمور احتمالا في الواقع هو أن يكون العدد 1999 , أي أن أرجح الاحتمالات هو أن ذرة واحدة لا أكثر من الألفي ذرة , هي التي تتحلل في العام التالي .

" ولسنا ندري بأية طريقة تختار تلك الذرة المعينة من بين هذه الألفي ذرة . وقد نشعر في بادئ الأمر بميل إلى افتراض أن هذه الذرة ستكون هي التي تتعرض للاصطدام أكثر من غيرها , أو التي تقع في أشد الأمكنة حرارة , أو التي يصادفها غير هذا أو ذاك من الأسباب في العام التالي . ولكن هذا كله غير صحيح , لأنه إذا كان في استطاعة الصدمات أو الحرارة أن تفكك ذرة واحدة , فإن في استطاعتها أيضا أن تفكك الـ 1999 ذرة الباقية , ويكون في استطاعتنا أن نعجل بتفكيك الراديوم بمجرد ضغطه أو تسخينه ; ولكن كل عالم من علماء الطبيعة يقرر أن ذلك مستحيل ; بل هو يعتقد على الأرجح أن الموت يصيب في كل عام ذرة واحدة من كل 2000 من ذرات الراديوم , ويضطررها إلى أن تتفكك . وهذه هي نظرية "التفكك التلقائي" التي وضعها "رذرفورد" و"سدي" في عام 1903

فكيف إذن يكون القدر الغيبي إن لم يكن هو هذا الذي تتشعب به الذرات على غير اختيار منها ولا من أحد . وعلى غير علم منها ولا من أحد !?

إن الرجل الذي يقول هذا الكلام , لا يريد أن يثبت به القدر الإلهي المغيب عن الناس . بل إنه يحاول جاهداً أن يهرب من ضغط النتائج التي ينتهي إليها العلم البشري ذاته . ولكن حقيقة الغيب تفرض نفسها عليه فرضاً على النحو الذي نراه !

2 - وكما تفرض حقيقة "الغيب" نفسها على قاعدة بناء الكون وحركته , فهي كذلك تفرض نفسها على قاعدة انبثاق الحياة وحركتها بنفس القوة في النتائج التي ينتهي إليها العلم البشري .

يقول عالم الأحياء والنبات "رسل تشارلز إرنست" الأستاذ بجامعة فرانكفورت بألمانيا:

"لقد وضعت نظريات عديدة لكي تفسر نشأة الحياة من عالم الجمادات ; فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين , أو من الفيروس , أو من تجمع بعض الجزيئات البروتينية الكبيرة . وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات . ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به هو أن جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية , قد باءت بالفشل وخذلان ذريعتين . ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أن مجرد تجمع الذرات والجزيئات عن طريق المصادفة , يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية . وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة , فهذا شأنه وحده ! ولكنه إذ يفعل ذلك , فإنما يسلم بأمر أشد إعجازاً وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله , الذين خلق الأشياء ودبرها .

"إنني أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها . وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق . ولذلك فإنني أؤمن بوجود الله إيماناً راسخاً" .

والذي يهمنا هنا من هذه الشهادة هو أن سر الحياة ونشأتها غيب من غيب الله , كنشأة الكون وحركته ; وأن ليس لدى البشر عن ذلك إلا الاحتمالات . وصدق الله العظيم: (ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم) . . .

3 - ونخطو خطوة واسعة لنصل إلى الإنسان . . إن الدفقة الواحدة من ماء الرجل تحتوي على نحو ستين مليوناً من الحيوانات المنوية . . كلها تدخل في سباق لتلحق بالبويضة في رحم المرأة . . ولا يعلم أحد من الذي يسبق ! فهو غيب , أو هو قدر غيبي لا علم للبشر به - بما فيهم الرجل والمرأة صاحباً الدور في هذا الأمر ! - ثم يصل السابق من بين ستين مليوناً ! ويلتحم مع البويضة ليكونا معا خلية واحدة ملقحة هي التي ينتج منها الجنين . ولما كانت كل كروموسومات البويضة مؤنثة , بينما كروموسومات الحيوان المنوي بعضها مذكر وبعضها مؤنث ; فإن غلبة عدد كروموسومات التذكير أو كروموسومات التأنيث في الحيوان المنوي الذي يلتحم بالبويضة , هو الذي يقرر مصير الجنين - ذكراً أو أنثى - وهذا خاضع لقدرة الله الغيبي لا علم به ولا دخل للبشر - بما فيهم أبوا الجنين أنفسهم: (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) . [الرعد: 9 - 8] (لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكراً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً , إنه عليم قدير) . [الشورى: 50 - 49] (يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك , لا إله إلا هو فأنى تصرفون ؟) . . . [الزمر: 6] .

هذا هو "الغيب" الذي يقف أمامه "العلم" البشري ; ويواجهه في القرن العشرين . .
بينما الذين يعيشون على فئات القرون الماضية يزعمون أن "الغيبية" تنافي "العلمية"
" . وأن المجتمع الذي يريد أن يعيش بعقلية علمية ينبغي له أن يتخلص من العقلية
الغيبية ! ذلك بينما العلم البشري ذاته . . علم القرن العشرين . . يقول: إن كل ما يصل
إليه من النتائج هو "الاحتمالات" ! وإن الحقيقة المستيقنة الوحيدة هي أن هنالك "غيبًا"
لا شك فيه !

على أننا قبل أن نغادر هذه الوقفة المجملة أمام حقيقة الغيب , ينبغي أن نقول كلمة عن
طبيعة "الغيب" في العقيدة الإسلامية , وفي التصور الإسلامي , وفي العقلية الإسلامية .

إن القرآن الكريم - وهو المصدر الأساسي للعقيدة الإسلامية التي تنشأ عن التصور
الإسلامي والعقلية الإسلامية - يقرر أن هناك عالما للغيب وعالما للشهادة . فليس كل
ما يحيط بالإنسان غيبا , وليس كل ما يتعامل معه من قوى الكون مجهولا . .

إن هنالك سننا ثابتة لهذا الكون ; يملك "الإنسان" أن يعرف منها القدر اللازم له , حسب
طاقته وحسب حاجته , للقيام بالخلافة في هذه الأرض . وقد أودعه الله القدرة على
معرفة هذا القدر من السنن الكونية ; وعلى تسخير قوى الكون وفق هذه السنن
للنهوض بالخلافة , وتعمير الأرض , وترقية الحياة , والانتفاع بأقواتها وأرزاقها وطاقاتها

وإلى جانب هذه السنن الثابتة - في عمومها - مشيئة الله الطليقة ; لا تقيدها هذه السنن
وإن كانت من عملها . وهناك قدر الله الذي ينفذ هذه السنن في كل مرة تنفذ فيها .
فهي ليست آلية بحتة , فالقدر هو المسيطر على كل حركة فيها ; وإن جرت وفق السنة
التي أودعها الله إياها . وهذا القدر الذي ينفذ هذه السنن في كل مرة تنفذ فيها "غيب" لا
يعلمه أحد علم يقين ; وأقصى ما يصل إليه الناس هو الظنون و"الاحتمالات" . . وهذا ما
يعترف به العلم البشري أيضًا . .

وإن ملايين الملايين من العمليات لتتم في كيان الإنسان في اللحظة الواحدة ; وكلها
"غيب" بالقياس إليه , وهي تجري في كيانه ! ومثلها ملايين ملايين العمليات التي تتم
في الكون من حوله ; وهو لا يعلمها !

وإن الغيب ليحيط بماضيه وماضي الكون . وحاضره وحاضر الكون . ومستقبله
ومستقبل الكون . . وذلك مع وجود السنن الثابتة , التي يعرف بعضها , وينتفع بها انتفاعا
علميا منظما في النهوض بعبء الخلافة .

وإن "الإنسان" ليجيء إلى هذا العالم على غير رغبة منه ولا علم بموعد قدومه ! وإنه
ليذهب عن هذا العالم على غير رغبة منه ولا علم بموعد رحيله ! . . وكذلك كل شيء
حي . . ومهما تعلم ومهما عرف , فإن هذا لن يغير من هذا الواقع شيئا !

إن العقلية الإسلامية عقلية "غيبية علمية" لأن "الغيبية" هي "العلمية" بشهادة "العلم"
والواقع . . أما التنكر للغيب فهو "الجهلية" التي يتعامل أصحابها وهم بهذه الجهالة !

وإن العقلية الإسلامية لتجمع بين الاعتقاد بالغيب الممكنون الذي لا يعلم مفاتحه إلا الله ;
وبين الاعتقاد بالسنن التي لا تتبدل , والتي تمكن معرفة الجوانب اللازمة منها لحياة
الإنسان في الأرض , والتعامل معها على قواعد ثابتة . . فلا يفوت المسلم "العلم"

البشري في مجاله , ولا يفوته كذلك إدراك الحقيقة الواقعية ; وهي أن هنالك غيبا لا يطلع الله عليه أحدا , إلا من شاء , بالقدر الذي يشاء . .

والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها "الفرد" فيتجاوز مرتبة "الحيوان" الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه , إلى مرتبة "الإنسان" الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدود الذي تدركه الحواس - أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس - وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله , ولحقيقة وجوده الذاتي , ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود ; وفي إحساسه بالكون , وما وراء الكون من قدرة وتديبر . كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض . فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته ; ويتلقى أصداءه وإحساسه في أطوائه وأعماقه ; ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود ; وأن وراء الكون . . ظاهرة وخافية . . حقيقة أكبر من الكون , هي التي صدر عنها , واستمد من وجودها وجوده . . حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار , ولا تحيط بها العقول . .

. . . "لقد كان الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة . ولكن جماعة الماديين في هذا الزمان - كجماعة الماديين في كل زمان - يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقري . . إلى عالم البهيمة , الذي لا وجود فيه لغير المحسوس ! ويسمون هذا "تقدمية" ! وهو النكسة التي وقى الله المؤمنين إياها . فجعل صفتهم المميزة هي صفة: (الذين يؤمنون بالغيب). . . والحمد لله على نعمائه ; والنكسة للمنتكسين والمرتكسين" .

والذين يتحدثون عن "الغيبية" و"العلمية" يتحدثون كذلك عن "الحتمية التاريخية" كأن كل المستقبل مستيقن ! و"العلم" في هذا الزمان يقول: إن هناك "احتمالات" وليست هنالك "حتميات" !

ولقد كان ماركس من المنتبئين "بالحتميات" ! ولكن أين نبوءات ماركس اليوم ?

لقد تنبأ بحتمية قيام الشيوعية في إنجلترا , نتيجة بلوغها قمة الرقي الصناعي ومن ثم قمة الرأسمالية في جانب والفقر العمالي في جانب آخر . . فإذا الشيوعية تقوم في أكثر الشعوب تخلفا صناعيا . . في روسيا والصين وما إليها . . ولا تقوم قط في البلاد الصناعية الراقية !

ولقد تنبأ لينين وبعده ستالين بحتمية الحرب بين العالم الرأسمالي والعالم الشيوعي . وها هو ذا خليفتهما "خروشوف" يحمل راية "التعايش السلمي" !

ولا نمضي طويلا مع هذه "الحتميات" التنبؤية ! فهي لا تستحق جدية المناقشة !

إن هنالك حقيقة واحدة مستيقنة هي حقيقة الغيب , وكل ما عداها احتمالات . وإن هنالك حتمية واحدة هي وقوع ما يقضي به الله ويجري به قدره . وقدر الله غيب لا يعلمه إلا هو . وإن هنالك - مع هذا وذلك - سننا للكون ثابتة , يملك الإنسان أن يتعرف إليها , ويستعين بها في خلافة الأرض , مع ترك الباب مفتوحا لقدر الله النافذ ; وغيب الله المجهول . . وهذا قوام الأمر كله . . (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم).

الدرس الثالث: 60 خضوع الإنسان لقدر الله في دنياه وآخرته

ومن علم الله الشامل بمفاتيح الغيب , وبما يجري في جنات الكون , ينتقل السياق إلى مجال من مجالات هذا العلم الشامل , في ذوات البشر , ومجال كذلك من مجالات الهيمنة الإلهية , بعد العلم المحيط:

(وهو الذي يتوفاكم بالليل , ويعلم ما جرحتم بالنهار , ثم يعثكم فيه ليقضى أجل مسمى , ثم إليه مرجعكم , ثم ينبئكم بما كنتم تعملون). .

بضع كلمات أخرى , كالتي رسمت آفاق الغيب وآماده وأغواره , وأشارات إلى مدى العلم الإلهي وشموله في الآية السابقة . . بضع كلمات أخرى تضم حياة البشرية كلها في قبضة الله - سبحانه - وفي علمه وقدره وتديبه . . صحوهم ومنامهم . . موتهم وبعثهم . حشرهم وحسابهم . . ولكن على "طريقة القرآن" المعجزة في الإحياء والتشخيص , وفي لمس المشاعر واستجاشتها , مع كل صورة وكل مشهد وكل حركة يرسمها تعبيره العجيب .

(وهو الذي يتوفاكم بالليل). .

فهي الوفاة إذن حين يأخذهم النعاس ; هي الوفاة في صورة من صورها بما يعتري الحاس من غفلة , وما يعتري الحس من سهوة , وما يعتري العقل من سكون , وما يعتري الوعي من سبات - أي انقطاع - وهو السر الذي لا يعلم البشر كيف يحدث ; وإن عرفوا ظواهره وأثاره ; وهو "الغيب" في صورة من صورهِ الكثيرة المحيطة بالإنسان . . وهؤلاء هم البشر مجردين من كل حول وطول - حتى من الوعي - ها هم أولاء في سبات وانقطاع عن الحياة . ها هم أولاء في قبضة الله - كما هم دائماً في الحقيقة - لا يردهم إلى الصحو والحياة الكاملة إلا إرادة الله . . فما أضعف البشر في قبضة الله ! (ويعلم ما جرحتم بالنهار). .

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (60) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (61)

فما تتحرك جوارحهم لأخذ أو ترك , إلا وعند الله علم بما كسبت من خير أو شر . . وهؤلاء هم البشر مراقبين في الحركات والسكنات ; لا يند عن علم الله منهم شيء , مما تكسبه جوارحهم بعد الصحو بالنهار !

(ثم يعثكم فيه ليقضى أجل مسمى). .

أي يوقظكم في النهار من سباتكم وانقطاعكم ; لتتم آجالكم التي قضاها الله . . وهؤلاء هم البشر داخل المجال الذي قدره الله . لا مهرب لهم منه , ولا منتهى لهم سواه !

(ثم إليه مرجعكم). .

فهي الأوبة إلى الراعي بعد انقضاء المراح !

(ثم ينبئكم بما كنتم تعملون). .

فهو عرض السجل الذي وعى ما كان , وهو العدل الدقيق الذي لا يظلم في الجزاء .

وهكذا تشمل الآية الواحدة , ذات الكلمات المعدودة , ذلك الشريط الحافل بالصور والمشاهد , والمقررات والحقائق , والإيحاءات والظلال . . فمن ذا الذي يملك أن يصنع ذلك ? وكيف تكون الآيات الخوارق , إن لم تكن هي هذه ? التي يغفل عنها المكذبون , وبطلبون الخوارق المادية وما يتبعها من العذاب الأليم !

الدرس الرابع: 61 - 62 قهر الله لعباده ورقابته عليهم وحسابهم يوم البعث

ولمسة أخرى من حقيقة الألوهية . . لمسة القوة القاهرة فوق العباد . والرقابة الدائمة التي لا تغفل . والقدر الجاري الذي لا يتقدم ولا يتأخر , والمصير المحتوم الذي لا مفر منه ولا مهرب . والحساب الأخير الذي لا ينبي ولا يمهل . . وكله من الغيب الذي يلف البشر ويحيط بالناس:

(وهو القاهر فوق عباده , ويرسل عليكم حفظة , حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق , ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين) . .

(وهو القاهر فوق عباده) . .

فهو صاحب السلطان القاهر ; وهم تحت سيطرته وقهره . هم ضعاف في قبضة هذا السلطان ; لا قوة لهم ولا ناصر . هم عباد . والقهر فوقهم . وهم خاضعون له مقهورون .

وهذه هي العبودية المطلقة للألوهية القاهرة . . وهذه هي الحقيقة التي ينطق بها واقع الناس - مهما ترك لهم من الحرية ليتصرفوا , ومن العلم ليعرفوا , ومن القدرة ليقوموا بالخلافة - إن كل نفس من أنفاسهم بقدر ; وكل حركة في كيانه خاضعة لسلطان الله بما أودعه في كيانه من ناموس لا يملكون أن يخالفوه . وإن كان هذا الناموس يجري في كل مرة بقدر خاص حتى في النفس والحركة !

(ويرسل عليكم حفظة) . .

لا يذكر النص هنا ما نوعهم . . وفي مواضع أخرى أنهم ملائكة يحصون على كل إنسان كل ما يصدر عنه . . أما هنا فالمقصود الظاهر هو إلقاء ظل الرقابة المباشرة على كل نفس . ظل الشعور بأن النفس غير منفردة لحظة واحدة , وغير متروكة لذاتها لحظة واحدة . فهناك حفيظ عليها رقيب يحصي كل حركة وكل نامة ; ويحفظ ما يصدر عنها لا يند عنه شيء . . وهذا التصور كفيلا بأن ينتفض له الكيان البشري ; وتستيقظ فيه كل خالجة وكل جارحة .

ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (62)
(حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) . .

الظل نفسه , في صورة أخرى . . فكل نفس معدودة الأنفاس , متروكة لأجل لا تعلمه - فهو بالنسبة لها غيب لا سبيل إلى كشفه - بينما هو مرسوم محدد في علم الله , لا يتقدم ولا يتأخر . وكل نفس موكل بأنفاسها وأجلها حفيظ قريب مباشر حاضر , لا يغفو ولا يغفل ولا يهمل - فهو حفيظ من الحفظة - وهو رسول من الملائكة - فإذا جاءت اللحظة المرسومة الموعودة - والنفس غافلة مشغولة - أدى الحفيظ مهمته , وقام الرسول

برسالته . . وهذا التصور كفيل كذلك بأن يرتعش له الكيان البشري ; وهو يحس بالقدر الغيبي يحيط به ; ويعرف أنه في كل لحظة قد يقبض , وفي كل نفس قد يحين الأجل المحتوم .

(ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق). . .

مولاهم الحق من دون الآلهة المدعاة . . مولاهم الذي أنشأهم , والذي أطلقهم للحياة ما شاء . . في رقابته التي لا تغفل ولا تفرط . . ثم ردهم إليه عندما شاء ; ليقضي فيهم بحكمه بلا معقب:

(ألا له الحكم , وهو أسرع الحاسبين). . .

فهو وحده يحكم , وهو وحده يحاسب . وهو لا يبطل في الحكم , ولا يمهل في الجزاء . ولذا السرعة هنا وقع في القلب البشري . فهو ليس متروكا ولو إلى مهلة في الحساب !

وتصور المسلم للأمر على هذا النحو الذي توحى به أصول عقيدته في الحياة والموت والبعث والحساب , كفيل بأن ينزع كل تردد في إفراد الله سبحانه بالحكم - في هذه الأرض - في أمر العباد . .

إن الحساب والجزاء والحكم في الآخرة , إنما يقوم على عمل الناس في الدنيا ; ولا يحاسب الناس على ما اجترحوا في الدنيا إلا أن تكون هناك شريعة من الله تعين لهم ما يحل وما يحرم , مما يحاسبون يوم القيامة على أساسه ; وتوحد الحاكمية في الدنيا والآخرة على هذا الأساس . .

فأما حين يحكم الناس في الأرض بشريعة غير شريعة الله ; فعلام يحاسبون في الآخرة ? أيحاسبون وفق شريعة الأرض البشرية التي كانوا يحكمون بها ; ويتحاكمون إليها ? أم يحاسبون وفق شريعة الله السماوية التي لم يكونوا يحكمون بها ; ولا يتحاكمون إليها ?

إنه لا بد أن يستيقن الناس أن الله محاسبهم على أساس شريعته هو لا شريعة العباد . وأنهم إن لم ينظموا حياتهم , وقيموا معاملاتهم - كما يقيمون شعائرهم وعباداتهم - وفق شريعة الله في الدنيا , فإن هذا سيكون أول ما يحاسبون عليه بين يدي الله . وأنهم يومئذ سيحاسبون على أنهم لم يتخذوا الله - سبحانه - إلها في الأرض ; ولكنهم اتخذوا من دونه أربابا متفرقة . وأنهم محاسبون إذن على الكفر بالوهمية الله - أو الشرك به باتباعهم شريعته في جانب العبادات والشعائر , واتباعهم شريعة غيره في النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي , وفي المعاملات والارتباطات - والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن شاء . .

الدرس الخامس: 63 - 64 عودة الإنسان عند الشدة إلى الله وتضرعه إليه

ثم يحاكمهم إلى فطرتهم التي تعرف حقيقة الألوهية ; وتلتجىء إلى إلهها الحق في ساعة الشدة ; وبرسم لهم هذه الفطرة أمام الهول والكرب ; وكيف يخالفون عنها في اليسر والرخاء . . في مشهد قصير سريع , ولكنه واضح حاسم , وموح مؤثر .

إن الهول والكرب الذي ترتعد له الفرائض ليس مؤجلا دائما إلى يوم الحشر والحساب . فهم يصادفون

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ (64)
الهول في ظلمات البر والبحر . فلا يتوجهون عند الكرب إلا لله ; ولا ينجيهم من الكرب إلا الله . . ولكنهم يعودون إلى ما كانوا فيه من الشرك عند اليسر والرخاء:

(قل: من ينجيكم من ظلمات البر والبحر , تدعونه تضرعا وخفية: لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل: الله ينجيكم منها ومن كل كرب , ثم أنتم تشركون) . .

إن تصور الخطر , وتذكر الهول , قد يردان النفوس الجامحة , ويرققان القلوب الغليظة , ويذكران النفس لحظات الضعف والإنابة ; كما يذكرانها رحمة الفرج ونعمة النجاة:

(قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية: لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين) . .

إنها تجربة يعرفها كل من وقع في ضيقة , أو رأى المكروبين في لحظة الضيق . . وظلمات البر والبحر كثيرة . وليس من الضروري أن يكون الليل لتتحقق الظلمات . فالمتاهة ظلام , والخطر ظلام , والغيب الذي ينتظر الخلق في البر والبحر حجاب . . وحيثما وقع الناس في ظلمة من ظلمات البر والبحر لم يجدوا في أنفسهم إلا الله يدعونه متضرعين أو يناجونه صامتين . . إن الفطرة تتعري حينئذ من الركام ; فتواجه الحقيقة الكامنة في أعماقها . . حقيقة الألوهية الواحدة . . وتتجه إلى الله الحق بلا شريك ; لأنها تدرك حينئذ سخافة فكرة الشرك , وتدرك انعدام الشريك ! ويبدل المكروبون الوعود .

(لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين) . .

والله - سبحانه - يقول لرسوله [ص] ليذكرهم بحقيقة الأمر:

(قل: الله ينجيكم منها ومن كل كرب). فليس هنالك غيره يستجيب , ويقدر على دفع الكروب . .

ثم ليذكرهم بتصرفهم المنكر العجيب:

(ثم أنتم تشركون) . .

الدرس السادس: 65 عجز الناس عن دفع عذاب الله وبأسه عنهم

وهنا يواجههم ببأس الله الذي قد يأخذهم بعد النجاة ! فما هي مرة وتنتهي , ثم يفلتون من القبضة كما يتصورون:

(قل: هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم , أو من تحت أرجلكم , أو يلبسكم شيئا , ويذيق بعضكم بأس بعض . انظر كيف نصرَف الآيات لعلمهم يفقهون) . .

وتصور العذاب الغامر من فوق , أو النايح من تحت , أشد وقعا في النفس من تصويره أتيا عن يمين أو شمال . فالوهم قد يخيل للإنسان أنه قد يقدر على دفع العذاب من يمين

أو شمال ! أما العذاب الذي يصب عليه من فوق , أو يأخذه من تحت , فهو عذاب غامر قاهر مزلز , لا مقاومة له ولا ثبات معه ! والتعبير الموحى يتضمن هذا المؤثر القوي في حس الإنسان ووهمه , وهو يقرر حقيقة قدرة الله على أخذ العباد بالعذاب من حيث شاء وكيف شاء .

وبضيف إلى ألوان العذاب الداخلة في قدرة الله ; والتي قد يأخذ العباد بها متى شاء ; لونا آخر بطيئا طويلا ; لا ينهي أمرهم كله في لحظة ولكنه يصاحبهم ويساكنهم ويعايشهم بالليل والنهار:

(أو يلبسكم شيئا , ويذيق بعضكم بأس بعض). . .

وهي صورة من العذاب المقيم الطويل المديد ; الذي يذوقونه بأيديهم , ويجرعونه لأنفسهم ; إذ يجعلهم

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ (65)
شيئا وأحزابا , متداخلة لا يتميز بعضها عن بعض , ولا يفاصل بعضها بعضا , فهي أبدا في جدال وصراع , وفي خصومة ونزاع , وفي بلاء يصبه هذا الفريق على ذلك . .

ولقد عرفت البشرية في فترات كثيرة من تاريخها ذلك اللون من العذاب , كلما انحرفت عن منهج الله وتركت لأهواء البشر ونزواتهم وشهواتهم وجهالتهم وضعفهم وقصورهم . . . تصريف الحياة وفق تلك الأهواء والنزوات والشهوات والجهالة والضعف والقصور . وكلما تخبط الناس وهم يضعون أنظمة للحياة وأوضاعا وشرائع وقوانين وقيما وموازن من عند أنفسهم ; يتعبد بها الناس بعضهم بعضا ; ويريد بعضهم أن يخضع لأنظمتهم وأوضاعهم وشرائعهم وقوانينهم البعض الآخر , والبعض الآخر يأبى ويعارض , وأولئك يبطلون بمن يأبى ويعارض . وتتصارع رغباتهم وشهواتهم وأطماعهم وتصوراتهم . فيذوق بعضهم بأس بعض , ويحقد بعضهم على بعض , وينكر بعضهم بعضا , لأنهم لا يفتنون جميعا إلى ميزان واحد ; يضعه لهم المعبود الذي يعنوا له كل العبيد , حيث لا يجد أحدهم في نفسه استكبارا عن الخضوع له , ولا يحس في نفسه صغارا حين يخضع له .

إن الفتنة الكبرى في الأرض هي أن يقوم من بين العباد من يدعي حق الألوهية عليهم , ثم يزاول هذا الحق فعلا ! إنها الفتنة التي تجعل الناس شيئا ملتبسة ; لأنهم من ناحية المظهر يبدون أمة واحدة أو مجتمعا واحدا , ولكن من ناحية الحقيقة يكون بعضهم عبيدا لبعض ; ويكون بعضهم في يده السلطة التي يبطل بها - لأنها غير مقيدة بشريعة من الله - ويكون بعضهم في نفسه الحقد والتريص . . . ويذوق الذين يتربصون والذين يبطلون بعضهم بأس بعض ! وهم شيع ; ولكنها ليست متميزة ولا منفصلة ولا مفاصلة ! والأرض كلها تعيش اليوم في هذا العذاب البطيء المديد !

وهذا يقودنا إلى موقف العصبة المسلمة في الأرض . وضرورة مسارعتها بالتميز من الجاهلية المحيطة بها - والجاهلية كل وضع وكل حكم وكل مجتمع لا تحكمه شريعة الله وحدها , ولا يفرد الله سبحانه بالألوهية والحاكمية - وضرورة مفاصلتها للجاهلية من حولها ; باعتبار نفسها أمة متميزة من قومها الذي يؤثرون البقاء في الجاهلية , والتقيد بأوضاعها وشرائعها وأحكامها وموازنها وقيمتها .

إنه لا نجاه للعصبة المسلمة في كل أرض من أن يقع عليها هذا العذاب: (أو يلبسكم شيئا ويذيق بعضكم بأس بعض). . إلا بأن تنفصل هذه العصبة عقيدا وشعوريا ومنهج حياة عن أهل الجاهلية من قومها - حتى يأذن الله لها بقيام "دار إسلام" تعتصم بها - وإلا أن تشعر شعورا كاملا بأنها هي "الأمة المسلمة" وأن ما حولها ومن حولها , ممن لم يدخلوا فيما دخلت فيه , جاهلية وأهل جاهلية . وأن تفاضل قومها على العقيدة والمنهج ; وأن تطلب بعد ذلك من الله أن يفتح بينها وبين قومها بالحق وهو خير الفاتحين .

فإذا لم تفاضل هذه المفاصلة , ولم تتميز هذا التميز , حق عليها وعيد الله هذا . وهو أن تظل شيعة من الشيع في المجتمع , شيعة تتلبس بغيرها من الشيع , ولا تتبين نفسها , ولا يتبينها الناس مما حولها . وعندئذ يصيبها ذلك العذاب المقيم المديد ; دون أن يدركها فتح الله الموعود !

إن موقف التميز والمفاصلة قد يكلف العصبة المسلمة تضحيات ومشقات . . غير أن هذه التضحيات والمشقات لن تكون أشد ولا أكبر من الآلام والعذاب الذي يصيبها نتيجة التباس موقفها وعدم تميزه , ونتيجة اندغامها وتميعها في قومها والمجتمع الجاهلي من حولها . .

ومراجعة تاريخ الدعوة إلى الله على أيدي جميع رسل الله , يعطينا اليقين الجازم بأن فتح الله ونصره , وتحقيق وعده بغلبة رسله والذين آمنوا معهم . . لم يقع في مرة واحدة , قبل تميز العصبة المسلمة ومفاصلتها لقومها على العقيدة وعلى منهج الحياة - أي الدين - وانفصالها بعقيدتها ودينها عن عقيدة الجاهلية ودينها - أي نظام حياتها - وأن هذه كانت هي نقطة الفصل ومفرق الطريق في الدعوات جميعا .

وطريق هذه الدعوة واحد . ولن يكون في شأنها إلا ما كان على عهد رسل الله جميعا , صلوات الله عليهم وسلامه:

(انظر كيف نصرف الآيات لعلمهم يفقهون). .

والله نسأل أن يجعلنا ممن يصرف الله لهم الآيات فيفقهون . .

الوحدة التاسعة: 67 - 70 الموضوع: مفاصلة الكفار ومفارقتهم مقدمة الوحدة وجوب ومفاصلة الكفار

إنها جولة لتقرير المفاصلة التي انتهت بها الموجة السابقة ; فقوم النبي [ص] هم الذين كذبوا بما جاءهم به - وهو الحق - ومن ثم انفصل ما بينه وبين قومه وانبت ; وأمر أن يفاضلهم فيعلن إليهم أنه ليس عليهم يوكيل , وأنه يتركهم لمصيرهم الذي لا بد أت , وأمر أن يعرض عنهم فلا يجالسهم متي رأهم يخوضون في الدين , ويتخذونه لعبا ولهو , ولا يوقرونه التوقير الواجب للدين , وأمر - مع ذلك - أن يذكرهم ويحذرهم ويبلغهم وينذرهم , ولكن على أنه وإياهم - وهم قومه - فريقان مختلفان , وأمتان متميزتان . . فلا قوم ولا جنس ولا عشيرة ولا أهل في الإسلام . . إنما هو الدين الذي يربط ما بين الناس أو يفصم . . وإنما هي العقيدة التي تجمع بين الناس أو تفرق . وحين يوجد أساس الدين توجد تلك الروابط الأخرى . وحين تنفصم هذه العروة تفصم الروابط والصلات .

وهذه هي الخلاصة المجملة لهذه الموجة من السياق .

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَنْسُتَ عَلَيْكُمْ بَوَكِيلٍ (66) لَكُلِّ نَبَا مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (67) وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِبَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68)
الدرس الأول: 66 - 67 مفاصلة الكفار وتهديدهم بالمستقبل (وكذب به قومك - وهو الحق - قل: لست عليكم بوكيل . لكل نبا مستقر وسوف تعلمون) . .

والخطاب لرسول الله [ص] يعطيه , ويعطي المؤمنين من ورائه , الثقة التي تملأ القلب بالطمأنينة . الثقة بالحق - ولو كذب به قومه وأصروا على التكذيب - فما هم بالحكم في هذا الأمر , إنما كلمة الفصل فيه لله سبحانه . وهو يقرر أنه الحق . وأن لا قيمة ولا وزن لتكذيب القوم !

ثم يأمر الله تعالى نبيه [ص] أن يبرأ من قومه , وينفض منهم يده , وأن يعلنهم بهذه المفاصلة , ويعلمهم أنه لا يملك لهم شيئاً ; وأنه ليس حارساً عليهم ولا موكلاً بهم بعد البلاغ , ولا مكلفاً أن يهدي قلوبهم - فليس هذا من شأن الرسول - ومتى أبلغهم ما معه من الحق , فقد انتهى بينه وبينهم الأمر ; وأنه يخلي بينهم وبين المصير الذي لا بد أن ينتهي إليه أمرهم . فإن لكل نبا مستقراً ينتهي إليه ويستقر عنده . وعندئذ يعلمون ما سيكون !

(لكل نبا مستقر وسوف تعلمون) . .

وفي هذا الإجمال من التهديد ما يزلزل القلوب . .

إنها الطمأنينة الواثقة بالحق ; الواثقة بنهاية الباطل مهما تبجح , الواثقة بأخذ الله للمكذبين في الأجل المرسوم , الواثقة من أن كل نبا إلى مستقر ; وكل حاضر إلى مصير .

وما أحوج أصحاب الدعوة إلى الله - في مواجهة التكذيب من قومهم , والجفوة من عشيرتهم , والغربة في أهلهم , والأذى والشدة والتعب والأواء . . ما أحوجهم إلى هذه الطمأنينة الواثقة التي يسكبها القرآن الكريم في القلوب !

الدرس الثاني: 68 - 70 الأمر بمقاطعة الخائضين في آيات الله

فإذا أنهى إليهم هذا البلاغ , وإذا واجه تكذيبهم بهذه المفاصلة . . فإنه [ص] مأمور بعد ذلك ألا يجالسهم - حتى للبلاغ والتذكير - إذا رأهم يخوضون في آيات الله بغير توقيير ; ويتحدثون عن الدين بغير ما ينبغي للدين من الجد والمهابة ; ويجعلون الدين موضعاً للعب واللهو ; بالقول أو بالفعل ; حتى لا تكون مجالسته لهم - وهم على مثل هذه الحال - موافقة ضمنية على ما هم فيه ; أو قلة غيرة على الدين الذي لا يغار المسلم على حرمة كما يغار عليه . فإذا أنساه الشيطان فجلس معهم , ثم تذكر , قام من فورهم وفارق مجلسهم :

(وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره . وإما ينسبك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) . .

ولقد كان هذا الأمر للرسول [ص] ويمكن في حدود النص أن يكون أمراً لمن وراءه من المسلمين . . كان هذا الأمر في مكة . حيث كان عمل الرسول [ص] يقف عند حدود

الدعوة . وحيث كان غير مأمور بقتال للحكمة التي أرادها الله في هذه الفترة . وحيث كان الاتجاه واضحا لعدم الاصطدام بالمشركين ما أمكن . . فكان هذا الأمر بالأمر بالاجلس النبي [ص] في مجالس المشركين ; متى رأهم يخوضون في آيات الله ويذكرون دينه بغير توقير , والمسارعة إلى ترك هذه المجالس - لو أنساه الشيطان - بمجرد أن يتذكر أمر الله ونهيه . وكان المسلمون كذلك مأمورين بهذا الأمر كما تقول بعض الروايات . . والقوم الظالمون , المقصود بهم هنا القوم المشركون . كما هو التعبير الغالب في القرآن الكريم . .

وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69)

فأما بعد أن قامت للإسلام دولة في المدينة , فكان للنبي [ص] شأن آخر مع المشركين . وكان الجهاد والقتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . حيث لا يجترىء أحد على الخوض في آيات الله !

ثم يكرر السياق المفاصلة بين المؤمنين والمشركين , كما قررها من قبل بين الرسول [ص] وبين المشركين . ويقرر اختلاف التبعة واختلاف المصير:

(وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء , ولكن ذكرى لعلهم يتقون) . .

فليست هنالك تبعة مشتركة بين المتقين والمشركين . فهما أمتان مختلفتان - وإن اتحدتا في الجنس والقوم فهذه لا وزن لها في ميزان الله , ولا في اعتبار الإسلام . . إنما المتقون أمة , والظالمون [أي المشركون] أمة , وليس على المتقين شيء من تبعة الظالمين وحسابهم . ولكنهم إنما يقومون بتذكيرهم رجاء أن يتقوا مثلهم , وينضموا إليهم . . وإلا فلا مشاركة في شيء , إذا لم تكن مشاركة في عقيدة !

هذا دين الله وقوله . . ولمن شاء أن يقول غيره . ولكن ليعلم أنه يخرج من دين الله كله إذ يقول ما يقول ! ويستمر السياق في تقرير هذه المفاصلة ; وفي بيان الحدود التي تكون فيها المعاملة:

(وذري الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرثهم الحياة الدنيا , وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع , وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها . أولئك الذين أسبلوا بما كسبوا , لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) . .

ونقف من الآية أمام عدة أمور:

أولها: أن الرسول [ص] وينسحب الأمر على كل مسلم - مأمور أن يهمل شأن الذين يتخذون دينهم لعبا ولهوا . . وهذا يتم بالقول كما يتم بالفعل . . فالذي لا يجعل لدينه وقاره واحترامه باتخاذ قاعدة حياته اعتقادا وعبادة , وخلق وسلوكا , وشريعة وقانونا , إنما يتخذ دينه لعبا ولهوا . . والذي يتحدث عن مبادئ هذا الدين وشرائعه فيصفها أوصافا تدعو إلى اللعب واللهو . كالذين يتحدثون عن "الغيب" - وهو أصل من أصول العقيدة - حديث الاستهزاء . والذين يتحدثون عن "الزكاة" وهي ركن من أركان الدين حديث الاستصغار . والذين يتحدثون عن الحياء والخلق والعفة - وهي من مبادئ هذا الدين - بوصفها من أخلاق المجتمعات الزراعية , أو الإقطاعية , أو البرجوازية " الزائلة

! والذين يتحدثون عن قواعد الحياة الزوجية المقررة في الإسلام حديث إنكار أو استنكار . والذين يصفون الضمانات التي جعلها الله للمرأة لتحفظ عفتها بأنها "أغلال ! "
وقبل كل شيء وبعد كل شيء . . . الذين ينكرون حاكمية الله المطلقة في حياة الناس الواقعية . . . السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتشريعية . . . ويقولون: إن للبشر أن يزاولوا هذا الاختصاص دون التقيد بشريعة الله . . . أولئك جميعا من المعنيين في هذه الآيات بأنهم يتخذون دينهم لعبا ولهوا . وبأن المسلم مأمور بمفاصلتهم ومقاطعتهم إلا للذكرى . وبأنهم الظالمون - أي المشركون - والكافرون الذين أفسلوا بما كسبوا , فلهم شراب من حميم وعذاب أليم لما كانوا يكفرون . . .

وثانيها: أن الرسول [ص] وينسحب الامر على كل مسلم - مأمور بعد إهمال شأن هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا - أن يقوم بتذكيرهم وتخويفهم من أن ترتعن نفوسهم بما كسبوا , وأن يلاقوا الله ليس لهم من دونه ولي ينصرهم , ولا شفيع يشفع لهم ; كما أنه لا يقبل منهم فدية لتطلق نفوسهم بعد ارتهانها بما كسبت .

وللتعبير القرآني جماله وعمقه وهو يقول:

وَدَّرَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ يُبْسَلَ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70)
(وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع , وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها) . . .

فكل نفس على حدة تبسل [أي ترتعن وتؤخذ] بما كسبت , حالة أن ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع ولا يقبل منها عدل تفتدى به وتفك الريقة !

فأما أولئك الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا فهؤلاء قد ارتهنوا بما كسبوا ; وحق عليهم ما سبق في الآية ; وكتب عليهم هذا المصير:

(أولئك الذين أفسلوا بما كسبوا , لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) . . .

لقد أخذوا بما فعلوا ; وهذا جزاؤهم: شراب ساخن يشوي الحلق والبطون ; وعذاب أليم بسبب كفرهم , الذي دل عليه استهزاؤهم بدينهم . . .

وثالثها: قول الله تعالى في المشركين: (الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا) . . .

فهل هو دينهم ? . . .

إن النص ينطبق على من دخل في الإسلام , ثم اتخذ دينه هذا لعبا ولهوا . . . وقد وجد هذا الصنف من الناس وعرف باسم المنافقين . . . ولكن هذا كان في المدينة . . .

فهل هو ينطبق على المشركين الذين لم يدخلوا في الإسلام ? إن الإسلام هو الدين . . . هو دين البشرية جميعا . . . سواء من آمن به ومن لم يؤمن . . . فالذي رفضه إنما رفض دينه . . . باعتبار أنه الدين الوحيد الذي يعده الله دينا ويقبله من الناس بعد بعثة خاتم النبيين .

ولهذه الأضافة دلالتها في قوله:

(وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهواً) .

فهي - والله أعلم - إشارة إلى هذا المعنى الذي أسلفناه , من اعتبار الإسلام ديناً للبشرية كافة . فمن اتخذها لعباً ولهواً , فإنما يتخذ دينه كذلك . . ولو كان من المشركين . .

ولا نزال نجدنا في حاجة إلى تقرير من هم المشركون ؟ إنهم الذين يشركون بالله أحداً في خصائص الألوهية . سواء في الاعتقاد بالألوهية أحد مع الله . أو بتقديم الشعائر التعبدية لأحد مع الله . أو بقبول الحاكمية والشريعة من أحد مع الله . ومن باب أولى من يدعون لأنفسهم واحدة من هذه , مهما تسموا بأسماء المسلمين ! فلنكن من أمر ديننا على يقين !

ورابعها: حدود مجالسة الظالمين - أي المشركين - والذين يتخذون دينهم لعباً ولهواً . . وقد سبق القول بأنها لمجرد التذكير والتحذير . فليست لشيء وراء ذلك - متى سمع الخوض في آيات الله ; أو ظهر اتخاذها لعباً ولهواً بالعمل بأية صورة مما ذكرنا أو مثلها . .

وقد جاء في قول القرطبي في كتابه: الجامع لأحكام القرآن بصدده هذه الآية:

"في هذه الآية رد من كتاب الله عز وجل , على من زعم أن الأئمة الذين هم حجج وأتباعهم , لهم أن يخالطوا الفاسقين , ويصوبوا آراءهم تقية . . "

ونحن نقول: إن المخالطة بقصد الموعظة والتذكير وتصحيح الفاسد والمنحرف من آراء الفاسقين تبيحها الآية في الحدود التي بينها . أما مخالطة الفاسقين والسكوت عما يبذونه من فاسد القول والفعل من باب التقية فهو المحذور . لأنه - في ظاهرة - إقرار للباطل , وشهادة ضد الحق . وفيه تلبيس على الناس , ومهانة لدين الله وللقائمين على دين الله . وفي هذه الحالة يكون النهي والمفارقة .

كذلك روى القرطبي في كتابه هذه الأقوال:

"قال ابن خويز منداد: من خاض في آيات الله تركت مجالسته وهجر - مؤمناً كان أو كافراً - قال: وكذلك منع أصحابنا الدخول إلى أرض العدو , ودخول كنائسهم والبيع , ومجالسة الكفار وأهل البدع ; وألا تعتقد مودتهم , ولا يسمع كلامهم ولا مناظرتهم . وقد قال بعض أهل البدع لأبي عمران النخعي: اسمع مني كلمة , فأعرض عنه , وقال: ولا نصف كلمة ! . ومثله عن أيوب السخيتاني . وقال الفضيل بن عياض: من أحب صاحب بدعة أحبط الله عمله , وأخرج الإسلام من قلبه , ومن زوج كريمته من مبتدع فقد قطع رحمها ; ومن جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة , وإذا علم الله من رجل أنه مبغض لصاحب بدعة رجوت أن يغفر الله له . وروى أبو عبدالله الحاكم عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله [ص] " من وفر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام "

فهذا كله في صاحب البدعة وهو على دين الله . . وكله لا يبلغ مدى من يدعي خصائص الألوهية بمزاويلته للحاكمية ; ومن يقره على هذا الادعاء . . فليس هذا بدعة مبتدع ; ولكنه كفر كافر , أو شرك مشرك . مما لم يتعرض له السلف لأنه لم يكن في زمانهم .

فمنذ أن قام الإسلام في الأرض لم يبلغ من أحد أن يدعي هذه الدعوى - وهو يزعم الإسلام . ولم يقع شيء من ذلك إلا بعد الحملة الفرنسية التي خرج بعدها الناس من إطار الإسلام - إلا من عصم الله - وكذلك لم يعد في قول هؤلاء السلف ما ينطبق على هذا الذي كان ! فقد تجاوز كل ما تحدثوا عنه بمثل هذه الأحكام . .

الوحدة العاشرة: 71 - 73 حيرة متبع الشياطين ومن حقائق العقيدة هذه الوحدة بآياتها الثلاثة درس واحد

هذا الإيقاع القوي بحقيقة الألوهية وخصائصها ; وباستنكار الشرك والعودة إليه بعد الهدى ; وبمشهد الذي يرجع القهقري مرتدا عن دين الله ; وحيرته في التيه بلا اتجاه ; وبتقرير أن هدى الله وحده هو الهدى . . هذا الإيقاع يختم برنة عالية عميقة مدوية . عن سلطان الله المطلق , في الأمر والخلق ; وعن انكشاف هذا السلطان وتفرد بالظهور - حتى للمنكرين المظموسين - (يوم ينفخ في الصور) ويبعث من في القبور ; ويستيقن من لم يكن يستيقن أن الملك لله وحده , وأن إليه المصير:

قل:أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا , ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله , كالذي استهوته الشياطين في الأرض , حيران , له أصحاب يدعونه إلى الهدى . اثنا .
قل:إن هدى الله هو الهدى , وأمرنا لنسلم لرب العالمين . وأن أقيموا الصلاة واتقوه . .

(قل). . الإيقاع القوي المتكرر في السورة ; الذي يوحي بأن هذا الأمر لله وحده , وأن الرسول [ص] إنما هو منذر ومبلغ ; والذي يوحي بجلال هذا الأمر وعلويته ورهيبته ; وأن الرسول [ص] إنما هو مأمور به من ربه .

(قل:أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ? . .

قل لهم يا محمد ما هم عليه من دعوة غير الله والاستعانة به وإسلام مقادهم لهؤلاء الذين يدعونهم من دونه , وهم لا يملكون نفعا ولا ضرا . سواء كان ما يدعونه وثنا أو صنما , حجرا أو شجرا , روحا أم ملكا , شيطانا أم إنسانا . . فكلهم سواء في أنهم لا ينفعون شيئا ولا يضررون . فهم أعجز من النفع والضر . وكل حركة إنما تجري بقدر من الله . فما لم يأذن به الله لا يكون , ولا يكون إلا قدره وما جرى به قضاؤه من الأمور . .

قل لهم مستنكرا دعوة غير الله , وعبادة غير الله , والاستعانة بغير الله , والخضوع لغير الله . وسخف هذا التصرف وهذا الاتجاه . . وسواء كان ذلك ردا على ما كان يقترحه المشركون على النبي [ص] من مشاركتهم عبادة ألهم ليشاركوه عبادة ربه ! أو كان ذلك استنكارا مبتدأ لما عليه المشركون , وإعلانا للمفارقة والمفاصلة فيه من جانب النبي [ص] والمؤمنين . . فإن المؤدى في النهاية واحد ; وهو استنكار هذا السخف الذي يرفضه العقل البشري ذاته متى عرض له في النور ; بعيدا عن الموروثات الراسبة , وبعيدا كذلك عن العرف السائد في البيئة !

ولتجسيم السخف وتضخيم الاستنكار يعرض هذه المعتقدات في ضوء ما هدى الله المسلمين إليه من عبادته وحده , واتخاذ وحده إلهها , والدينونه له وحده بلا شريك: 1
(قل:أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا ? . .

فهو ارتداد على الأعقاب ; ورجوع إلى الوراء ; بعد التقدم والارتقاء . .

ثم هذا المشهد الشاخص المتحرك الموحى المثير:

(كالذي استهوته الشياطين في الأرض) (. . حيران . . له أصحاب يدعونه إلى الهدى: اثنتا) . .

إنه مشهد حي شاخص متحرك للضلالة والحيرة التي تنتاب من يشرك بعد التوحيد , ومن يتوزع قلبه بين الإله الواحد , والآلهة المتعددة من العبيد ! ويتفرق إحساسه بين الهدى والضلال , فيذهب في التيه . . إنه مشهد ذلك المخلوق التعيس: (الذي استهوته الشياطين في الأرض)- ولفظ الاستهواء لفظ مصور بذاته لمدلوله - ويا ليته يتبع هذا الاستهواء في اتجاهه , فيكون له اتجاه صاحب القصد الموحد - ولو في طريق الضلال !

قُلْ أَتَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُتْرَدُ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُوهُ إِلَىٰ الْهُدَىٰ اثْنًا قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرًا يُنْسَلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (71) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (72)

ولكن هناك , من الجانب الآخر , أصحاب له مهتدون , يدعونه إلى الهدى , وينادونه(اثنتا)- وهو بين هذا الاستهواء وهذا الدعاء(حيران)لا يدري أين يتجه , ولا أي الفريقين يجيب !

إنه العذاب النفسي يرتسم ويتحرك , حتى ليكاد يحس ويلمس من خلال التعبير !

ولقد كنت أتصور هذا المشهد وما يفيض به من عذاب الحيرة والتأرجح والقلقلة كلما قرأت هذا النص . . ولكن مجرد تصور . . حتى رأيت حالات حقيقية , يتمثل فيها هذا الموقف , ويفيض منها هذا العذاب . . حالات ناس عرفوا دين الله وذاقوه - أيا كانت درجة هذه المعرفة وهذا التذوق - ثم ارتدوا عنه إلى عبادة الآلهة الزائفة , تحت قهر الخوف والطمع . . ثم إذا هم في مثل هذا البؤس المرير . . وعندئذ عرفت ماذا تعني هذه الحالة , وماذا يعني هذا التعبير !

وبينما ظل المشهد الحي الشاخص المتحرك الموحى , يغمر النفس بالوجل من هذا المصير التعيس . . يأتي التقرير الحاسم بالاتجاه الثابت المستقيم:

(قل:إن هدى الله هو الهدى , وأمرنا لنسلم لرب العالمين , وأن أقيموا الصلاة واتقوه). .

إنه التقرير الحاسم في الطرف النفسي المناسب , فالنفس التي ترتسم لها صورة الحيرة الطاغية , والعذاب المرير من هذه الحيرة التي لا تستقر على قرار , تكون أقرب ما تكون إلى استقبال القرار الحاسم بالراحة والتسليم . .

ثم إنه الحق في ذلك التقرير الحاسم:

(قل:إن هدى الله هو الهدى). .

هو وحدة الهدى - كما يفيد التركيب البياني للجملة - وإنه لكذلك عن يقين . .

وإن البشرية لتخبط في التيه , كلما تركت هذا الهدى , أو انحرفت عن شيء منه واستبدلت به شيئاً من تصوراتها هي ومقولاتها , وأنظمتها وأوضاعها , وشرائعها وقوانينها , وقيمها وموازينها , بغير(علم)ولا(هدى)ولا(كتاب منير). .

إن "الإنسان" موهوب من الله القدرة على تعرف بعض نواميس الكون وبعض طاقاته وقواه , للانتفاع بها في الخلافة في الأرض , وترقية هذه الحياة . . ولكن هذا الإنسان ذاته غير موهوب من الله القدرة على استكناه الحقائق المطلقة في هذا الكون , ولا على الإحاطة بأسرار الغيوب التي تلفه من كل جانب , ومنها غيب عقله هو وروحه , بل غيب وظائف جسمه والأسباب الكامنة وراء هذه الوظائف , والتي تدفعها للعمل هكذا , وبهذا الانتظام , وفي هذا الاتجاه .

ومن ثم يحتاج هذا "الإنسان" إلى هدى الله في كل ما يختص بكيئوته وحياته من عقيدة وخلق , وموازن وقيم , وأنظمة وأوضاع , وشرائع وقوانين تحكم هذه الكيئونة وتنظم لها واقع الحياة . .

وكلما فاء هذا "الإنسان" إلى هدى الله اهتدى . لأن هدى الله هو الهدى . وكلما بعد كلية عنه , أو انحرف بعض الانحراف واستبدل به شيئاً من عنده ضل . لأن ما ليس من هدى الله فهو ضلال . . إذ ليس هنالك نوع ثالث (فماذا بعد الحق إلا الضلال?).

ولقد ذقت البشرية من ويلات هذا الضلال - وما تزال كلها تذوق - ما هو "حتمي" في تاريخ البشرية حين تنحرف عن هدى الله . . فهذه هي "الحتمية التاريخية" الوحيدة المستيقنة لأنها من أمر الله , ومن خبر الله , لا تلك الحتميات المدعاة ! والذي يريد أن يتملى شقاء البشرية في انحرافها عن هدى الله , لا يحتاج أن ينقب , فهو حوله في كل أرض تراه الأعين وتلمسه الأيدي , ويصرخ منه العقلاء في كل مكان .

ومن ثم يستطرد السياق في الآية ليقدر ضرورة الاستسلام لله وحده , وعبادته وحده , ومخافته وتقواه: (وأمرنا لنسلم لرب العالمين , وأن أقيموا الصلاة واتقوه) . .

قل يا محمد وأعلن أن هدى الله هو الهدى ; وأتأنا - من ثم - أمرنا أن نسلم لرب العالمين . فهو وحده الذي يستسلم له العالمون . فالعوالم كلها مستسلمة له , فماذا الذي يجعل الإنسان وحده - من بين العالمين - يشذ عن الاستسلام لهذه الربوبية الشاملة التي تستسلم لها العوالم في السماوات والأرضين ?

إن ذكر الربوبية للعالمين هنا له موضعه . . إنه يقرر الحقيقة التي لا مناص من الاعتراف بها وهي استسلام الوجود كله , وما فيه من عوالم مشهودة ومغيبية , للنواميس التي وضعها الله لها ; وهي لا تملك الخروج عليها , والإنسان - من ناحية تركيبه العضوي - يستسلم كذلك لهذه النواميس كرها , ولا يملك الخروج عليها . . فلا يبقى إلا أن يستسلم في الجانب الذي ترك له الخيار فيه لبيتلى فيه , وهو جانب الاختيار . . اختيار الهدى أو الضلال . . ولو استسلم فيه استسلام كيانه العضوي , لاستقام أمره , وتناسق تكوينه وسلوكه , وجسمه وروحه , ودينه وأخرته . .

وفي إعلان الرسول [ص] والمسلمين معه , أنهم أمروا بالاستسلام فاستسلموا , إحياء مؤثر لمن يفتح الله قلبه للتلقي والاستجابة على مدى الزمان .

وبعد إعلان الاستسلام لرب العالمين تجيء التكاليف التعبدية والشعورية:

(وأن أقيموا الصلاة واتقوه).

فالأصل هو الاستسلام لربوبية رب العالمين , وسلطانه وتربيته وتقويمه . ثم تجيء العبادات الشعائرية ; وتجيء الرياضات النفسية . . لتقوم على قاعدة الاستسلام . . فإنها لا تقوم إلا إذا رسخت هذه القاعدة ليقوم عليها البناء .

وفي الإيقاع الأخير في الفقرة يحشد السياق المؤثرات من الحقائق الأساسية في العقيدة: حقيقة الحشر . وحقيقة الخلق . وحقيقة السلطان . وحقيقة العلم بالغيب والشهادة . وحقيقة الحكمة والخبرة . . من خصائص الألوهية , التي هي الموضوع الرئيسي في هذه السورة:

(وهو الذي إليه تحشرون . وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق . وبوم يقول: كن فيكون . قوله الحق , وله الملك يوم ينفخ في الصور , عالم الغيب والشهادة , وهو الحكيم الخبير) . .

(وهو الذي إليه تحشرون) . .

إن الاستسلام لرب العالمين ضرورة وواجب . . فهو الذي إليه تحشر الخلائق . . فأولى لهم أن يقدموا بين يدي الحشر - الحتمي - ما ينجيهم ; وأولى لهم أن يستسلموا اليوم له استسلام العالمين ; قبل أن يقفوا أمامه

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَبَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73)
مسؤولين . . وكذلك يصبح تصور هذه الحقيقة - حقيقة الحشر - موحيا بالاستسلام في المبدأ , ما دام أنه لا مفر من الاستسلام في المصير !

(وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق) . .

وهذه حقيقة أخرى تحشد كمؤثر آخر . . فالله الذي يؤمرون بالاستسلام له هو الذي خلق السماوات والأرض - والذي يخلق يملك ويحكم ويقضي ويتصرف - ولقد خلق السماوات والأرض (بالحق). فالحق قوام هذا الخلق . . وفضلا عما يقرره هذا النص من نفي الأوهام التي عرفتھا الفلسفة عن هذا الكون - وبخاصة الأفلاطونية والمثالية - من أن هذا العالم المحسوس وهم لا وجود له على الحقيقة ! - فضلا على تصحيح مثل هذه التصورات , فإن النص يوحى بأن الحق أصيل في بنية هذا الكون , وفي مآلاته كذلك . فالحق الذي يلوذ به الناس يستند إلى الحق الكامن في فطرة الوجود وطبيعته , فيؤلف قوة هائلة , لا يقف لها الباطل , الذي لا جذور له في بنية الكون , وإنما هو كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار . وكالزبد يذهب جفاء , إذ لا أصالة له في بناء الكون . . كالحق . . وهذه حقيقة ضخمة , ومؤثر كذلك عميق . .

إن المؤمن الذي يشعر أن الحق الذي معه - هو شخصيا وفي حدود ذاته - إنما يتصل بالحق الكبير في كيان هذا الوجود . [وفي الآية الأخرى: (ذلك بأن الله هو الحق)] فيتصل الحق الكبير الذي في الوجود بالحق المطلق في الله سبحانه . . إن المؤمن الذي يشعر بهذه الحقيقة على هذا النحو الهائل , لا يرى في الباطل - مهما تضخم وانتفخ وطفغى وتجبر وقدر على الأذى المقدر - إلا فقاعة طارئة على هذا الوجود ; لا جذور لها ولا مدد ; تنفثىء من قريب , وتذهب كأن لم تكن في هذا الوجود .

كما أن غير المؤمن يرتجف حسه أمام تصور هذه الحقيقة . وقد يستسلم ويثوب ! (ويوم يقول:كن فيكون).. .

فهو السلطان القادر , وهي المشيئة الطليقة , في الخلق والإبداع والتغيير والتبديل . . وعرض هذه الحقيقة - فضلا على أنه من عمليات البناء للعقيدة في قلوب المؤمنين - هو كذلك مؤثر موح في نفوس الذين يدعون إلى الاستسلام لله رب العالمين الخالق بالحق . . الذي يقول:كن فيكون . (قوله الحق).. .

سواء في القول الذي يكون به الخلق: (كن فيكون). أو في القول الذي يأمر به بالاستسلام له وحده . أو في القول الذي يشرع به للناس حين يستسلمون . أو في القول الذي يخبر به عن الماضي والحاضر والمستقبل . وعن الخلق والنشأة والحشر والجزاء .

قوله الحق في هذا كله . . فأولى أن يستسلم له وحده من يشركون به ما لا ينفع ولا يضر من خلقه . ومن يتبعون قول غيره كذلك وتفسيره للوجود وتشريعه للحياة . في أي اتجاه .

(وله الملك يوم ينفخ في الصور).. .

ففي هذا اليوم يوم الحشر . . يوم ينفخ في الصور [هو القرن المجوف كالبوق] وهو اليوم الذي يكون فيه البعث والنشر ; بكيفية غيبية لا يعلمها البشر , فهي من غيب الله الذي احتفظ به . والصور كذلك غيب من ناحية ماهيته وحقيقته , ومن ناحية كيفية استجابة الموتى له , والروايات المأثورة ; تقول:هو بوق من نور ينفخ فيه ملك , فيسمع من في القبور , حيث يهبون للنشور - وهذه هي النفخة الثانية - أما الأولى فيصعق لها من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله كما جاء في آية الزمر:(ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض - إلا من شاء الله - ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون).. . وهذه الأوصاف للصور ولآثار النفخة فيه تعطينا - عن يقين - أنه على غير ما يمكن أن يكون البشر قد عهدوه في هذه الأرض أو تصوروه . . وهو من ثم غيب من غيب الله . . نعلمه بقدر ما أعطانا الله من وصفه وأثره , ولا نتجاوز هذا القدر الذي لا أمان في تجاوزه , ولا يقين . إنما هي الظنون !

في هذا اليوم الذي ينفخ فيه في الصور يبرز - حتى للمنكرين - ويظهر - حتى للمطموسين - أن الملك لله وحده , وأنه لا سلطان إلا لسلطانه , ولا إرادة إلا إرادته . . فأولى لمن يأبون الاستسلام له في الدنيا طائعين أن يستسلموا قبل أن يستسلموا لسلطانه المطلق يوم ينفخ في الصور .

(عالم الغيب والشهادة).. .

الذي يعلم ذلك الغيب المحجوب , كما يعلم هذا الكون المشهود . والذي لا تخفي عليه خافية من أمر العباد , ولا يند عنه شأن من شؤونهم . . فأولى لهم أن يسلموا له ويعبدوه ويتقوه . وهكذا تذكر هذه الحقيقة لذاتها , وتتخذ مؤثرا موحيا في مواجهة المكذبين والمعارضين .

(وهو الحكيم الخبير):-

يصرف أمور الكون الذي خلقه , وأمور العباد الذين يملكهم في الدنيا والآخرة بالحكمة والخبرة . . فأولى أن يستسلموا لتوجيهه وشرعه , ويسعدوا بأثار حكمته وخبرته .
وبفئوا إلى هداه وحده . ويخرجوا من التيه , ومن الحيرة , إلى ظلال الحكمة والخبرة , وإلى كنف الهدى والبصيرة . .

وهكذا تتخذ هذه الحقيقة مؤثرا موحيا للعقول والقلوب . .

الوحدة الحادية عشرة: 74 - 94 الموضوع: عرض حقائق العقيدة من خلال القصص والحياة هذا الدرس بطوله لحمة واحدة ; يتناول موضوعا متصل الفقرات . . إنه يعالج الموضوع الأساسي في السورة - وهو بناء العقيدة على قاعدة من التعريف الشامل بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية , وما بينهما من ارتباطات - ولكنه يعالجه في أسلوب آخر غير ما جرى به السياق منذ أول السورة . . يعالجه في أسلوب القصص والتعقيب عليه . . مع استصحاب المؤثرات الموحية التي تزخر بها السورة ; ومنها مشهد الاحتضار الكامل السمات ; وذلك كله في نفس طويل رتيب يتوسط الموجات المتلاحقة التي تحدثنا عنها في تقديم السورة . .

والدرس - في جملته - يعرض موكب الإيمان الموصول منذ نوح - عليه السلام , إلى محمد [ص] وفي مطلع هذا الموكب يستعرض حقيقة الألوهية - كما تتجلى في فطرة عبد من عباد الله الصالحين - إبراهيم عليه السلام - ويرسم مشهدا رائعا حقا للفطرة السليمة , وهي تبحث عن إلهها الحق , الذي تجده في أعماقها , بينما هي تصطدم في الخارج بانحرافات الجاهلية وتصوراتها . إلى أن يخلص لها تصور حق , يطابق ما ارتسم في أعماقها عن إلهها الحق . ويقوم على ما تحده في أطوائها من برهان داخلي هو أقوى وأثبت من المشهود المحسوس ! ذلك حين يحكي السياق عن إبراهيم عليه السلام بعد اهتدائه إلى ربه الحق , واطمئنانه إلى ما وجده في قلبه منه: (وحاجه قومه . قال: أتاجوني في الله وقد هدان ? ولا أخاف ما تشركون به , إلا أن يشاء ربي شيئا , وسع ربي كل شيء علما , أفلا تتذكرون ? وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ? فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ?).

ثم يمضي السياق مع موكب الإيمان الموصول ; يقوده الرهط الكريم من رسل الله على توالي العصور ; حيث يبدو شرك المشركين وتكذيب المكذبين لغوا لا وزن له , يتناثر على جانبي الموكب الجليل , الماضي في طريقه الموصول . وحيث يلتحم آخره مع أوله ; فيؤلف الأمة الواحدة , يقتدي آخرها بالهدى الذي اهتدى به أولها , دون اعتبار لزمان أو مكان ; ودون اعتبار لجنس أو قوم , ودون اعتبار لنسب أو لون . . فالحبل الموصول بين الجميع هو هذا الدين الواحد الذي يحمله ذلك الرهط الكريم .

إنه مشهد رائع كذلك ; يبدو من خلال قول الله تعالى لرسوله الكريم بعد استعراض الموكب العظيم: (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده , ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة . فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده . قل: لا أسألكم عليه أجرا , إن هو إلا ذكرى للعالمين) . .

وبعد استعراض هذا الموكب الجليل يجيء التنديد بمن يزعمون أن الله لم يرسل رسلا , ولم ينزل على بشر كتابا . . إنهم لم يقدروا الله حق قدره . فما قدر الله حق قدره من يقول: إنه - سبحانه - تارك الناس لأنفسهم وعقولهم وما يتعاورها من الأهواء والشهوات

والضعف والقصور . فما يليق هذا بالوهية الله وربوبيته , وعلمه وحكمته وعدله ورحمته .
إنما اقتضت رحمة الله وعلمه ورحمته وعدله أن يرسل إلى عباده رسلا , وأن ينزل
على بعض الرسل كتباً , ليحاولوا جميعاً هداية البشرية إلى بارئها , واستنقاد فطرتها من
الركام الذي يربن عليها , ويغلق منافذها , ويعطل أجهزة الالتقاط والاستجابة فيها . .
ويضرب مثلاً الكتاب الذي أنزل على موسى . وهذا الكتاب الذي يصدق ما بين يديه من
الكتب جميعاً . .

وبنتهي الدرس الطويل المتلاحم الفقرات باستنكار الافتراء ممن يفترى على الله ,
وادعاء من يزعم أنه يوحى إليه من الله , وادعاء القدرة على تنزيل مثل ما أنزل الله . .
وهي الدعاوى التي كان يدعيها بعض من يواجهون الدعوة الإسلامية , وفيهم من ادعى
الوحي وفيهم من ادعى النبوة .

وفي الختام يجيء مشهد الاحتضار المكروب للمشركين: ولو ترى إذ الظالمون في
غمرات الموت , والملائكة باسطوا أيديهم: أخرجوا أنفسهم: اليوم تجزون عذاب الهون
بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون . ولقد جئتمونا فرادى
كما خلقناكم أول مرة , وتركتم ما حولناكم وراء ظهوركم , وما نرى معكم شفعاءكم
الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ! لقد تقطع بينكم , وصل عنكم ما كنتم تزعمون ! . .

وهو مشهد كئيب مكروب رعب ; يجلله الهوان ويصاحبه التنديد والتأنيب . جزاء
الاستكبار والإعراض والافتراء والتكذيب . .

الدرس الأول: 74 - 79 إبراهيم يقيم الحجة على قومه حول الوجدانية وينقض ألوهية
غير الله (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر: أتتخذ أصناماً آلهة ؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين
. . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض , وليكون من الموقنين . . فلما جن
عليه الليل رأى كوكباً . قال: هذا ربي , فلما أفل قال: لا أحب الأفلين . فلما رأى القمر
بازغاً قال: هذا ربي , فلما أفل قال: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما
رأى الشمس بازغة قال: هذا ربي , هذا أكبر , فلما أفلت قال: يا قوم إني بريء مما
تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً , وما أنا من
المشركين . .

إنه مشهد رائع باهر هذا الذي يرسمه السياق القرآني في هذه الآيات . . مشهد الفطرة
وهي - للوهلة الأولى - تنكر تصورات الجاهلية في الأصنام وتستنكرها . وهي تنطلق بعد
إذ نفضت عنها هذه الخرافة في شوق عميق دافق تبحث عن إلهها الحق , الذي تجده
في ضميرها , ولكنها لا تتبينه في وعيها وإدراكها . وهي تتعلق في لهفتها الممكنة بكل ما
يلوح أنه يمكن أن يكون هو هذا الإله ! حتى إذا اختبرته وجدته زائفاً , ولم تجد فيه
المطابقة لما هو مكنون فيها من حقيقة الإله وصفته . . ثم وهي تجد الحقيقة تشرق فيها
وتتجلى لها . وهي تنطلق بالفرحة الكبرى , والامتلاء الجياش , بهذه الحقيقة , وهي تعلن
في جيشان اللقيا عن يقينها الذي وجدته من مطابقة الحقيقة التي انتهت إليها بوعياها
للحقيقة التي كانت كامنة من قبل فيها ! . . إنه مشهد رائع باهر هذا الذي يتجلى في
قلب إبراهيم - عليه السلام - والسياق يعرض التجربة الكبرى التي اجتازها في هذه
الآيات القصار . . إنها قصة الفطرة مع الحق والباطل . وقصة العقيدة كذلك يصدع بها
المؤمن ولا يخشى فيها لومة لائم ; ولا يجامل على حسابها أبا ولا أسرة ولا عشيرة ولا
قوما . . كما وقف إبراهيم من أبيه وقومه هذه الوقفة الصلبة الحاسمة الصريحة:

(وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر: أتتخذ أصناماً آلهة ؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين) . .

إنها الفطرة تنطق على لسان إبراهيم . إنه لم يهتد بعد بوعيه وإدراكه - إلى إلهة - ولكن فطرته السليمة تنكر ابتداء أن تكون هذه الأصنام التي يعبدها قومه آلهة - وقوم إبراهيم من الكلدانيين بالعراق كانوا يعبدون الأصنام كما كانوا يعبدون الكواكب والنجوم - فالإله الذي يعبد , والذي يتوجه إليه العباد في السراء والضراء , والذي خلق الناس والأحياء . . هذا الإله في فطرة إبراهيم لا يمكن أن يكون صنما من حجر , أو وثنا من خشب . . وإذا لم تكن هذه الأصنام هي التي تخلق وترزق وتسمع وتستجيب - وهذا ظاهر من حالها للعيان - فما هي بالتي تستحق أن تعبد ; وما هي بالتي تتخذ آلهة حتى على سبيل أن تتخذ واسطة بين الإله الحق والعباد !

وإذن فهو الضلال البين تحسه فطرة إبراهيم - عليه السلام - للوهلة الأولى . وهي النموذج الكامل للفطرة التي فطر الله الناس عليها . . ثم هي النموذج الكامل للفطرة وهي تواجه الضلال البين , فتنكره وتستنكره ,

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (74)
وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75)
وتجهر بكلمة الحق وتصدع , حينما يكون الأمر هو أمر العقيدة:

(أتخذ أصناما آلهة ? إني أراك وقومك في ضلال مبين) . .

كلمة يقولها إبراهيم - عليه السلام - لأبيه . وهو الأواه الحليم الرضي الخلق السمج اللين , كما ترد أوصافه في القرآن الكريم . ولكنها العقيدة هنا . والعقيدة فوق روابط الأبوة والبنوة , وفوق مشاعر الحلم والسماحة . وإبراهيم هو القدوة التي أمر الله المسلمين من بنيه أن يتأسوا بها . والقصة تعرض لتكون أسوة ومثالا . .

وكذلك استحق إبراهيم - عليه السلام - بصفاء فطرته وخلوصها للحق أن يكشف الله لبصيرته عن الأسرار الكامنة في الكون , والدلائل الموحية بالهدى في الوجود:

(وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض , وليكون من الموقنين) . .

بمثل هذه الفطرة السليمة , وهذه البصيرة المفتوحة ; وعلى هذا النحو من الخلوص للحق , ومن إنكار الباطل في قوة . . نري إبراهيم حقيقة هذا الملك . . ملك السماوات والأرض . . ونطلعه على الأسرار المكنونة في صميم الكون , ونكشف له عن الآيات الماثورة في صحائف الوجود , ونصل بين قلبه وفطرته وموجيات الإيمان ودلائل الهدى في هذا الكون العجيب . لينتقل من درجة الإنكار على عبادة الآلهة الزائفة , إلى درجة اليقين الواعي بالإله الحق . .

وهذا هو طريق الفطرة البديهي العميق . . وعي لا يطمسه الركام . وبصر يلحظ ما في الكون من عجائب صنع الله . وتدبر يتبع المشاهد حتى تنطق له بسرها المكنون . . وهداية من الله جزاء على الجهاد فيه . .

وكذلك سار إبراهيم - عليه السلام - وفي هذا الطريق وجد الله . . وجده في إدراكه ووعيه , بعد أن كان يجده فحسب في فطرته وضميره . . ووجد حقيقة الألوهية في الوعي والإدراك مطابقة لما استكن منها في الفطرة والضمير .

فلنتابع الرحلة الشائقة مع فطرة إبراهيم الصادقة . . إنها رحلة هائلة وإن كانت تبدو هينة ميسرة ! رحلة من نقطة الإيمان الفطري إلى نقطة الإيمان الوعي ! الإيمان الذي يقوم عليه التكليف بالفرائض والشرائع ; والذي لا يكمل الله - سبحانه - جمهرة الناس فيه إلى عقولهم وحدها , فيبينه لهم في رسالات الرسل , ويجعل الرسالة - لا الفطرة ولا العقل البشري - هي حجتهم عليهم , وهي مناط الحساب والجزاء , عدلا منه ورحمة , وخبرة بحقيقة الإنسان وعلماء . .

فأما إبراهيم - عليه السلام - فهو إبراهيم ! خليل الرحمن وأبو المسلمين . .

(فلما جن عليه الليل رأى كوكبا . قال: هذا ربي , فلما أفل قال: لا أحب الآفلين). .

إنها صورة لنفس إبراهيم , وقد ساورها الشك - بل الإنكار الجازم - لما يعبد أبوه وقومه من الأصنام . وقد باتت قضية العقيدة هي التي تشغل باله , وتزحم عالمه . . صورة يزيدتها التعبير شخوصا بقوله: (فلما جن عليه الليل). . كأنما الليل يحتويه وحده , وكأنما يعزله عن الناس حوله , ليعيش مع نفسه وخواطره وتأملاته , ومع همه الجديد الذي يشغل باله ويزحم خاطره:

(فلما جن عليه الليل رأى كوكبا , قال: هذا ربي). .

وكان قومه يعبدون الكواكب والنجوم - كما أسلفنا - فلما أن يئس من أن يكون إلهة الحق - الذي يجده

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77)

في فطرته في صورة غير مدركة ولا واعية - صنما من تلك الأصنام , فلعله رجا أن يجده في شيء مما يتوجه إليه قومه بالعبادة !

وما كانت هذه أول مرة يعرف فيها إبراهيم أن قومه يتجهون بالعبادة إلى الكواكب والنجوم . وما كانت هذه أول مرة يرى فيها إبراهيم كوكبا . . ولكن الكوكب - الليلة - ينطق له بما لم ينطق من قبل , ويوحى إلى خاطره بما يتفق مع الهم الذي يشغل باله , ويزحم عليه عالمه:

(قال: هذا ربي). .

فهو بنوره وبزوغه وارتفاعه أقرب - من الأصنام - إلى أن يكون ربا ! . . ولكن لا ! إنه يكذب ظنه: (فلما أفل قال: لا أحب الآفلين). .

إنه يغيب . . يغيب عن هذه الخلائق . فمن ذا يرعاها إذن ومن ذا يدبر أمرها . . إذا كان الرب يغيب !?

لا , إنه ليس ربا , فالرب لا يغيب !

إنه منطق الفطرة البديهي القريب . . لا يستشير القضايا المنطقية والفروض الجدلية , إنما ينطلق مباشرة في يسر وجزم . لأن الكينونة البشرية كلها تنطق به في يقين عميق . . .

(لا أحب الآفلين). . .

فالصلة بين الفطرة وإلهها هي صلة الحب ; والآصرة هي آصرة القلب . . وفطرة إبراهيم " لا تحب " الآفلين , ولا تتخذ منهم إلهًا . إن الإله الذي تحبه الفطرة . . لا يغيب . .

(فلما رأى القمر بازغا قال: هذا ربي . فلما أفل قال: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين). . .

إن التجربة تتكرر . وكأن إبراهيم لم ير القمر قط ; ولم يعرف أن أهله وقومه يعبدونه ! فهو الليلة في نظره جديد:

(قال: هذا ربي). . .

بنوره الذي ينسكب في الوجود ; وتفردته في السماء بنوره الحبيب . . ولكنه يغيب ! . . والرب - كما يعرفه إبراهيم بفطرته وقلبه - لا يغيب !

هنا يحس إبراهيم أنه في حاجة إلى العون من ربه الحق الذي يجده في ضميره وفطرته . ربه الذي يحبه , ولكنه بعد لم يجده في إدراكه ووعيه . . ويحس أنه ضال مضيع إن لم يدركه ربه بهدأيته . إن لم يمد إليه يده . ويكشف له عن طريقه:

(قال: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين). . .

(فلما رأى الشمس بازغة قال: هذا ربي . هذا أكبر . فلما أفلت قال: يا قوم إنني بريء مما تشركون . إنني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً , وما أنا من المشركين).

إنها التجربة الثالثة مع أضخم الأجرام المنظورة وأشدها ضوءاً وحرارة . . الشمس . . والشمس تطلع كل يوم وتغيب . ولكنها اليوم تبدو لعيني إبراهيم كأنها خلق جديد . إنه اليوم يرى الأشياء بكيانه المتطلع إلى إله يطمئن به ويطمئن إليه ; وبستقر على قرار ثابت بعد الحيرة المقلقة والجهد الطويل:

(قال: هذا ربي . هذا أكبر).

ولكنها كذلك تغيب . . .

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)

هنا يقع التماس , وتنطلق الشرارة , ويتم الاتصال بين الفطرة الصادقة والله الحق , ويغمر النور القلب ويفيض على الكون الظاهر وعلى العقل والوعي . . هنا يجد إبراهيم إلهه . . يجده في وعيه وإدراكه كما هو في فطرته وضميره . . هنا يقع التطابق بين الإحساس الفطري الممكن والتصور العقلي الواضح . .

وهنا يجد إبراهيم إلهه . ولكنه لا يجده في كوكب يلمع , ولا في قمر يطلع , ولا في شمس تسطع . . ولا يجده فيما تبصر العين , ولا فيما يحسه الحس . . إنه يجده في قلبه وفطرته , وفي عقله ووعيه , وفي الوجود كله من حوله . . إنه يجده خالقا لكل ما تراه العين , ويحسه الحس , وتدركه العقول .

وعندئذ يجد في نفسه المفاصلة الكاملة بينه وبين قومه في كل ما يعبدون من آلهة زائفة ; ويبرأ في حسم لا مواربة فيه من وجهتهم ومنهجهم وما هم عليه من الشرك - وهم لم يكونوا يجحدون الله البتة , ولكنهم كانوا يشركون هذه الأرباب الزائفة - وإبراهيم يتجه إلى الله وحده بلا شريك:

(قال: يا قوم إنني بريء مما تشركون . إنني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) . .

فهو الاتجاه إلى فاطر السماوات والأرض . الاتجاه الحنيف الذي لا ينحرف إلى الشرك . وهي الكلمة الفاصلة , واليقين الجازم , والاتجاه الأخير . . فلا تردد بعد ذلك ولا حيرة فيما تجلى للعقل من تصور مطابق للحقيقة التي في الضمير . .

الدرس الثاني: 80 - 83 ثبات إبراهيم على الحق وأمنه وثناء الله عليه

ومرة أخرى نشهد ذلك المشهد الرائع الباهر . . مشهد العقيدة وقد استعلنت في النفس , واستولت على القلب , بعدما وضحت وضوحها الكامل وانجلى عنها الغيب . . نشهدها وقد ملأت الكيان الإنساني , فلم يعد وراءها شيء . وقد سكبت فيه الطمأنينة الواثقة بربه الذي وجدته في قلبه وعقله وفي الوجود من حوله . . وهو مشهد يتجلى بكل روعته وبهائه في الفقرة التالية في السياق .

لقد انتهت إبراهيم إلى رؤية الله - سبحانه - في ضميره وعقله وفي الوجود من حوله . وقد اطمأن قلبه واستراح باله . وقد احس بيد الله تأخذ بيده وتقود خطاه في الطريق . . والآن يجيء قومه ليجادلوه فيما انتهى إليه من يقين ; وفيما انشرح له صدره من توحيد ; وليخوفوه ألتهم التي تنكر لها أن تنزل به سوءا . . وهو يواجههم في يقينه الجازم ; وفي إيمانه الراسخ ; وفي رؤيته الباطنة والظاهرة لربه الحق الذي هداه:

(وحاجه قومه , قال: أتجاجوني في الله وقد هدان ? ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا , وسع ربي كل شيء علما . أفلا تتذكرون ? وكيف أخاف ما أشركتم , ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ? فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ?) . .

إن الفطرة حين تنحرف تضل ; ثم تتماذى في ضلالها , وتتسع الزاوية ويبعد الخط عن نقطة الابتداء , حتى ليصعب عليها أن تثوب . . وهؤلاء قوم إبراهيم - عليه السلام - يعبدون أصناما وكواكب ونجوما . فلا يتفكرون ولا يتدبرون هذه الرحلة الهائلة التي تمت في نفس إبراهيم . ولم يكن هذا داعيا لهم لمجرد التفكير والتدبر .

بل جاءوا يجادلونه ويحاجونه . وهم على هذا الوهن الظاهر في تصوراتهم وفي ضلال ميين .

ولكن إبراهيم المؤمن الذي وجد الله في قلبه وعقله وفي الوجود كله من حوله , يواجههم مستنكرا في طمانينة وبقين:

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81)
(قال:أتحاجوني في الله وقد هدان ؟) . .

أتجادلونني في الله وقد وجدته يأخذ بيدي , ويفتح بصيرتي , ويهديني إليه , ويعرفني به . . لقد أخذ بيدي وقادني فهو موجود - وهذا هو في نفسي دليل الوجود - لقد رأيته في ضميري وفي وعيي , كما رأيته في الكون من حولي . فما جدالكم في أمر أنا أجده في نفسي ولا أطلب عليه الدليل . فهدايته لي إليه هي الدليل !?

(ولا أخاف ما تشركون به) . .

وكيف يخاف من وجد الله ؟ وماذا يخاف ومن ذا يخاف ؟ وكل قوة - غير قوة الله - هزيلة وكل سلطان - غير سلطان الله - لا يخاف !?

ولكن إبراهيم في عمق إيمانه , واستسلام وجدانه , لا يريد أن يجزم بشيء إلا مرتكنا إلى مشيئة الله الطليقة , وإلى علم الله الشامل:

(إلا أن يشاء ربي شيئا . وسع ربي كل شيء علما).

فهو يكل إلى مشيئة الله حمايته ورعايته ; ويعلن أنه لا يخاف من آلهتهم شيئا , لأنه يركن إلى حماية الله ورعايته . ويعلم أنه لا يصيبه إلا ما شاءه الله , ووسعه علمه الذي يسع كل شيء . .

(وكيف أخاف ما أشركتم , ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ؟ فأَيُّ الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟).

إنه منطلق المؤمن الواثق المدرك لحقائق هذا الوجود . إنه إن كان أحد قمينا بالخوف فليس هو إبراهيم - وليس هو المؤمن الذي يضع يده في يد الله ويمضي في الطريق - وكيف يخاف ألهة عاجزة - كائنة ما كانت هذه الألهة , والتي تتبدى أحيانا في صورة جبارين في الأرض بطاشين ; وهم أمام قدرة الله مهزولون مضعوفون ! - كيف يخاف إبراهيم هذه الألهة الزائفة العاجزة , ولا يخافون هم أنهم أشركوا بالله ما لم يجعل له سلطانا ولا قوة من الأشياء والأحياء ؟ وأي الفريقين أحق بالأمن ؟ الذي يؤمن به ويكفر بالشركاء ؟ أم الذي يشرك بالله ما لا سلطان له ولا قوة ؟ أي الفريقين أحق بالأمن , لو كان لهم شيء من العلم والفهم !?

هنا يتنزل الجواب من الملاء الأعلى ; ويقضي الله بحكمه في هذه القضية:

(الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم , أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) . .

الذين آمنوا وأخلصوا أنفسهم لله , لا يخلطون بهذا الإيمان شركا في عبادة ولا طاعة ولا اتجاه . هؤلاء لهم الأمن , وهؤلاء هم المهتدون (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) . .

ولقد كانت هذه هي الحجة التي ألهمها الله إبراهيم ليدحض بها حجتهم التي جاءوا بها يجادلونه . ولقد كشف لهم عن وهن ما هم عليه من تصورهم أن هذه الآلهة تملك أن تسيء إليه . . وواضح أنهم ما كانوا يجحدون وجود الله ; ولا أنه هو صاحب القوة والسلطان في الكون , ولكنهم كانوا يشركون به هذه الآلهة . فلما واجههم إبراهيم , بأن من كان يخلص نفسه لله لا يخاف من دونه , فأما من يشرك بالله فهو أحق بالمخافة . . لما واجههم بهذه الحجة التي آتاها الله له وألهمه إياها , سقطت حجتهم , وعلت حجة , وارتفع إبراهيم على قومه عقيدة وحجة ومنزلة . . وهكذا يرفع الله من يشاء درجات . متصرفا في هذا بحكمته وعلمه:

(إن ربك حكيم عليم) . .

وقبل أن نغادر هذه الفقرة نحب أن نستمتع بنفحة من نفحات الحياة في عصر صحابة رسول الله [ص]

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ (82) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّبِيِّكَ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن دُرِّيَّةٍ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) وَرَكَبْنَا وَيَجِي وَعِيسَىٰ وَالْيَاسَرَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (86)

- وهذا القرآن يتنزل عليهم غضا ; وتشربه نفوسهم ; وتعيش به وله ; وتتعامل به وتتعايش بمدلولاته وإيحاءاته ومقتضياته , في جد وفي وعي وفي التزام عجيب , تأخذنا روعته وتبهرنا جديته ; ونذكر منه كيف كان هذا الرهط الفريد من الناس , وكيف صنع الله بهذا الرهط ما صنع من

وَمِنَ آبَائِهِمْ وَدُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (87) ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (88) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (89)

وفي الآيات ذكر لسبعة عشر نبيا رسولا - غير نوح وإبراهيم - وإشارة إلى آخرين (من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم) . . والتعقيبات على هذا الموكب: (وكذلك نجزي المحسنين) . . (وكلا فضلنا على العالمين) . . (واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم) . . وكلها تعقيبات تقرر إحسان هذا الرهط الكريم واصطفاءه من الله , وهدايته إلى الطريق المستقيم .

وذكر هذا الرهط على هذا النحو , واستعراض هذا الموكب في هذه الصورة , كله تمهيد للتقارير التي تليه:

(ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده , ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون).. .

وهذا تقرير لينابيع الهدى في هذه الأرض . فهدى الله للبشر يتمثل فيما جاءت به الرسل . وينحصر المستيقن منه , والذي يجب اتباعه , في هذا المصدر الواحد , الذي يقرر الله - سبحانه - أنه هو هدى الله ; وأنه هو الذي يهدي إليه من يختار من عباده . . ولو أن هؤلاء العباد المهديين حادوا عن توحيد الله , وتوحيد المصدر الذي يستمدون منه هداه , وأشركوا بالله في الاعتقاد أو العبادة أو التلقي , فإن مصيرهم أن يحبط عنهم عملهم: أي ان يذهب ضياعا , ويهلك كما تهلك الدابة التي ترعى نبتا مسموما فتنتفخ ثم تموت . . وهذا هو الأصل اللغوي للحبوط !

(أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة . فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين).. .

وهذا هو التقرير الثاني . . فقرر في الأول مصدر الهدى , وقصره على هدى الله الذي جاءت به الرسل . وقرر في الثاني أن الرسل الذين ذكرهم والذين أشار إليهم , هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكمة والسلطان والنبوة - (والحكم) يجيء بمعنى الحكمة كما يجيء بمعنى السلطان كذلك - وكلا المعنيين محتمل في الآية . فهؤلاء الرسل أنزل الله على بعضهم الكتاب كالتوراة مع موسى , والزبور مع داود , والإنجيل مع عيسى . وبعضهم آتاه الله الحكم كداود وسليمان - وكلهم أوتي السلطان على معنى أن ما معه من الدين هو حكم الله , وأن الدين الذي جاءوا به يحمل سلطان الله على النفوس وعلى الأمور . فما أرسل الله الرسل إلا ليطاعوا , وما أنزل الكتاب إلا ليحكم بين الناس بالقسط , كما جاء في الآيات الأخرى . وكلهم أوتي الحكمة وأوتي النبوة . . وأولئك هم الذين وكلهم الله بدينه , يحملونه إلى الناس , ويقومون عليه , ويؤمنون به ويحفظونه . . فإذا كفر بالكتاب والحكم والنبوة مشركو العرب:(هؤلاء)فإن دين الله غني عنهم ; وهؤلاء الرهط الكرام والمؤمنون بهم هم حسب هذا الدين ! . . إنها حقيقة قديمة امتدت شجرتها , وموكب موصول تماسكت حلقاته ; ودعوة واحدة حملها رسول بعد رسول ; وأمن بها ويؤمن من يقسم الله له الهداية ; بما يعلمه من استحقاقه للهداية ! . . وهو تقرير يسكب الطمانينة في قلب المؤمن , وفي قلوب العصابة المسلمة - أيا كان عددها - إن هذه العصابة ليست وحدها . ليست مقطوعة من شجرة ! إنها فرع منبثق من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء , وحلقة في موكب جليل موصول , موصولة أسبابه بالله وهداه . . إن المؤمن الفرد , في أي أرض وفي أي جيل , قوي قوي , وكبير كبير , إنه من تلك الشجرة المتينة السامقة الضاربة الجذور في أعماق الفطرة البشرية وفي أعماق التاريخ الأنساني , وعضو من ذلك الموكب الكريم الموصول بالله وهداه منذ أقدم العصور .

(أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده . قل: لا أسألكم عليه أجرا . إن هو إلا ذكرى للعالمين).. .

وهو التقرير الثالث . . فهؤلاء الرهط الكرام الذين يقودون موكب الإيمان , هم الذين هداهم الله . وهداهم الذي جاءهم من الله فيه القدوة لرسول الله [ص] ومن آمن به . فهذا الهدى وحده هو الذي

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَفْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ
(90)

يسير عليه . وهذا الهدى وحده هو الذي يحتكم إليه , وهذا الهدى وحده هو الذي يدعو إليه ويبشر به . . قائلا لمن يدعوهم:

(لا أسألكم عليه أجرا) . . (إن هو إلا ذكرى للعالمين) . . للعالمين . . لا يختص به قوم ولا جنس ولا قريب ولا بعيد . . إنه هدى الله لتذكير البشر كافة . ومن ثم فلا أجر عليه يتقاضاه . وإنما أجره على الله !

الدرس الرابع: 91 - 92 الرد على منكري النبوات وإثبات الرسالة الإسلامية

ثم يمضي السياق يندد بمنكري النبوات والرسالات , ويصمهم بأنهم لا يقدرّون الله قدره , ولا يعرفون حكمة الله ورحمته وعدله . ويقرر أن الرسالة الأخيرة إنما تجري على سنة الرسالات قبلها ; وأن الكتاب الأخير مصدق لما بين يديه من الكتب . . مما يتفق مع ظل الموكب الذي سبق عرضه ويتناسق:

(وما قدرّوا الله حق قدره إذ قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء . قل: من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس - تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا - وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ? قل: الله . ثم ذرهم في خوضهم يلعبون . وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه , ولتنذّر أم القرى ومن حولها , والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به , وهم على صلاتهم يحافظون) . .

لقد كان المشركون في معرض العناد واللجاج يقولون: إن الله لم يرسل رسولا من البشر ; ولم ينزل كتابا يوحى به إلى بشر . بينما كان إلى جوارهم في الجزيرة أهل الكتاب من اليهود ; ولم يكونوا ينكرون عليهم أنهم أهل كتاب , ولا أن الله أنزل التوراة على موسى - عليه السلام - إنما هم كانوا يقولون ذلك القول في زحمة العناد واللجاج , ليكذبوا برسالة محمد [ص] لذلك يواجههم القرآن الكريم بالتنديد بقولتهم: ما أنزل الله على بشر من شيء ; كما يواجههم بالكتاب الذي جاء به موسى من قبل:

(وما قدرّوا الله حق قدره إذ قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء) . .

وهذا القول الذي كان يقوله مشركو مكة في جاهليتهم , يقوله أمثالهم في كل زمان ; ومنهم الذين يقولونه الآن ; ممن يزعمون أن الأديان من صنع البشر ; وأنها تطورت وترقت بتطور البشر وترقيهم . لا يفرقون في هذا بين ديانات هي من تصورات البشر أنفسهم , كالوثنيات كلها قديما وحديثا , ترتقي وتنحط بارتقاء أصحابها وانحطاطهم , ولكنها تظل خارج دين الله كله . وبين ديانات جاء بها الرسل من عند الله , وهي ثابتة على أصولها الأولى ; جاء بها كل رسول ; فتقبلتها فئة وعتت عنها فئة ; ثم وقع الانحراف عنها والتحريف فيها , فعاد الناس إلى جاهليتهم في انتظار رسول جديد , بذات الدين الواحد الموصول .

وهذا القول يقوله - قديما أو حديثا - من لا يقدر الله حق قدره ; ومن لا يعرف كرم الله وفضله , ورحمته وعدله . . إنهم يقولون: إن الله لا يرسل من البشر رسولا ولو شاء لأنزل ملائكة ! كما كان العرب يقولون . أو يقولون: إن خالق هذا الكون الهائل لا يمكن

أن يعني بالإنسان "الضئيل" في هذه الذرة الفلكية التي اسمها الأرض ! بحيث يرسل له الرسل ; وينزل على الرسل الكتب لهداية هذا المخلوق الصغير في هذا الكوكب الصغير ! وذلك كما يقول بعض الفلاسفة في القديم والحديث ! أو يقولون: إنه ليس هناك من إله ولا من وحي ولا من رسل . . إنما هي أوهام الناس أو خداع بعضهم لبعض باسم الدين ! كما يقول الماديون الملحدون !

وكله جهل بقدر الله - سبحانه - فالله الكريم العظيم العادل الرحيم , العليم الحكيم . . . لا يدع هذا الكائن الإنساني وحده , وهو خلقه , وهو يعلم سره وجهره , وطاقاته وقواه , ونقصه وضعفه , وحاجته إلى الموازين القسط التي يرجع إليها بتصوراته وأفكاره , وأقواله وأعماله , وأوضاعه ونظامه , ليرى إن كانت صوابا وصلاحا , أو كانت خطأ وفسادا . . . ويعلم - سبحانه - أن العقل الذي أعطاه له , يتعرض لضغوط كثيرة

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشِيرًا مِّنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ تَمَّ ذَرْهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91)

من شهواته ونزواته ومطامعه ورغباته , فضلا على أنه موكل بطاقات الأرض التي له عليها سلطان بسبب تسخيرها له من الله , وليس موكلا بتصوير الوجود تصورا مطلقا , ولا بصياغة الأسس الثابتة للحياة . فهذا مجال العقيدة التي تأتي له من الله ; فتنشئ له تصورا سليما للوجود والحياة . . . ومن ثم لا يكله الله إلى هذا العقل وحده , ولا يكله كذلك إلى ما أودع فطرته من معرفة لدية بربها الحق , وشوق إليه , وليأذ به في الشدائد . . . فهذه الفطرة قد تفسد كذلك بسبب ما يقع عليها من ضغوط داخلية وخارجية , ويسبب الإغواء والاستهواء الذي يقوم به شياطين الجن والإنس , بكل ما يملكون من أجهزة التوجيه والتأثير . . . إنما يكل الله الناس إلى وحيه ورساله وهداه وكتبه , ليرد فطرتهم إلى استقامتها وصفائها , وليرد عقولهم إلى صحتها وسلامتها , وليجلو عنهم غاشية التضليل من داخل أنفسهم ومن خارجها . . . وهذا هو الذي يليق بكرم الله وفضله , ورحمته وعدله , وحكمته وعلمه . . . فما كان ليخلق البشر , ثم يتركهم سدى . . . ثم يحاسبهم يوم القيامة ولم يبعث فيهم رسولا: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) . . . فتقدير الله حق قدره يقتضي الاعتقاد بأنه أرسل إلى عباده رسلا يستنقذون فطرتهم من الركام , ويساعدون عقولهم على الخلاص من الضغوط , والانطلاق للنظر الخالص والتدبر العميق . وأنه أوحى إلى هؤلاء الرسل منهج الدعوة إلى الله , وأنزل على بعضهم كتبا تبقى بعدهم في قومهم إلى حين - ككتب موسى وداود وعيسى - أو تبقى إلى آخر الزمان كهذا القرآن .

ولما كانت رسالة موسى معروفة بين العرب في الجزيرة , وكان أهل الكتاب معروفين هناك , فقد أمر الله رسوله أن يواجه المشركين المنكرين لأصل الرسالة والوحي ; بتلك الحقيقة:

قل: من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس - تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا - وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) . . .

وقد عرضنا في تقديم السورة للقول بأن هذه الآية مدنية , وأن المخاطبين بها هم اليهود . ثم ذكرنا هناك ما اختاره ابن جرير الطبري من القراءة الأخرى (يجعلونه قراطيس

يبدونها ويخفون كثيرًا). . وأن المخاطبين بها هم المشركون , وهذا خبر عن اليهود بما كان واقعا منهم من جعل التوراة في صحائف يتلاعبون بها ,

فيبدون منها للناس ما يتفق مع خطتهم في التضليل والخداع , والتلاعب بالاحكام والفرائض ; ويخفون ما لا يتفق مع هذه الخطة من صحائف التوراة ! مما كان العرب يعلمون بعضه وما أخبرهم الله به في هذا القرآن من فعل اليهود . . فهذا خبر عن اليهود معترض في سياق الآية لا خطابا لهم . . والآية على هذا مكية لا مدنية . . ونحن نختار ما اختاره ابن جرير .

فقل لهم يا محمد: من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس , مما يجعله اليهود صحائف يخفون بعضها ويظهرون بعضها قضاء للباناتهم من وراء هذا التلاعب الكرية ! كذلك واجههم بأن الله علمهم بما يقص عليهم من الحقائق والأخبار ما لم يكونوا يعملون ; فكان حقا عليهم أن يشكروا فضل الله ; ولا ينكروا أصله بإنكار أن الله نزل هذا العلم على رسوله وأوحى به إليه .

ولم يترك لهم أن يجيبوا على ذلك السؤال . إنما أمر رسول الله [ص] أن يحسم القول معهم في هذا الشأن ; وألا يجعله مجالا لجدل لا يثيره إلا اللجاج:

وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (92)
[قل: الله . ثم ذرهم في خوضهم يلعبون]. .

قل: الله أنزله . . ثم لا تحفل جدالهم ولجاجهم ومراءءهم , ودعهم يخوضون لاهين لاعبين . وفي هذا من التهديد , قدر ما فيه من الاستهانة , قدر ما فيه من الحق والجد ; فحين يبلغ العبت أن يقول الناس مثل ذلك الكلام , يحسن احترام القول وحسم الجدل وتوفير الكلام !

وبمضي السياق يحكي شيئا عن الكتاب الجديد , الذي ينكر الجاحدون أن يكون الله نزله . فإذا هو حلقة مسبوقه جاءت قبلها حلقات , فليس بدعا من الكتب التي ينزلها الله على من يشاء من رسله الكرام:

(وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه , ولتنذر أم القرى ومن حولها . والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به , وهم على صلاتهم يحافظون). .

إنها سنة من سنن الله أن يرسل الرسل , وأن ينزل الله عليهم الكتب . وهذا الكتاب الجديد , الذي ينكرون تنزيله , هو كتاب مبارك . . وصدق الله . . فإنه والله لمبارك . .

مبارك بكل معاني البركة . . إنه مبارك في أصله . باركه الله وهو ينزله من عنده . ومبارك في محله الذي علم الله أنه له أهل . . قلب محمد الطاهر الكريم الكبير . . ومبارك في حجمه ومحتواه . فإن هو إلا صفحات قلائل بالنسبة لضخام الكتب التي يكتبها البشر ; ولكنه يحوي من المدلولات والإيحاءات والمؤثرات والتوجيهات في كل فقرة منه ما لا تحويه عشرات من هذه الكتب الضخام , في أضعاف أضعاف حيزه وحجمه ! وإن الذي مارس فن القول عند نفسه وعند غيره من بني البشر ; وعالج قضية

التعبير بالألفاظ عن المدلولات , ليدرك أكثر مما يدرك الذين لا يزاولون فن القول ولا يعالجون قضايا التعبير , أن هذا النسق القرآني مبارك من هذه الناحية . وأن هنالك استحالة في أن يعبر البشر في مثل هذا الحيز - ولا في أضعاف أضعافه - عن كل ما يحمله التعبير القرآني من مدلولات ومفاهيم وموجيات ومؤثرات ! وأن الآية الواحدة تؤدي من المعاني وتقرر من الحقائق ما يجعل الاستشهاد بها على فنون شتى من أوجه التقرير والتوجيه شيئاً متفرداً لا نظير له في كلام البشر . . وإنه لمبارك في أثره . وهو يخاطب الفطرة والكينونة البشرية بجملتها خطاباً مباشراً عجيباً لطيف المدخل ; وبواجهها من كل منفذ وكل درب وكل ركن ; فيفعل فيها ما لا يفعله قول قائل . ذلك أن به من الله سلطاناً . وليس في قول القائلين من سلطان !

ولا نملك أن نمضي أكثر من هذا في تصوير بركة هذا الكتاب . وما نحن بالبالغين لو مضينا شيئاً أكثر من شهادة الله له بأنه (مبارك) ففيها فصل الخطاب !
(مصدق الذي بين يديه) . .

فهو يصدق ما بين يديه من الكتب التي نزلت من عند الله - في صورتها التي لم تحرف لا فيما حرفته المجامع وقالت: إنه من عند الله - هو يصدقها لأنها جاءت بالحق الذي جاء به في أصول العقيدة . أما الشرائع فقد جعل لكل أمة شرعة ومنهاجا , في حدود العقيدة الكبرى في الله .

والذين يكتبون عن الإسلام فيقولون: إنه أول دين جاء بالعقيدة الكاملة في توحيد الله ; أو جاء بالعقيدة الكاملة في حقيقة الرسالة والرسول ; أو جاء بالعقيدة الكاملة في الآخرة والحساب والجزاء . . وهم يقصدون الثناء على الإسلام ! . . هؤلاء لا يقرأون القرآن ! ولو قرأوه لسمعوا الله تعالى يقرر أن جميع رسله - صلوات الله عليهم وسلامه - جاءوا بالتوحيد المطلق الخالص الذي لا ظل فيه للشرك في صورة من صورته . . وأنهم جميعاً أخبروا الناس بحقيقة الرسول , وبشريته وأنه لا يملك لهم ولا لنفسه ضراً ولا نفعاً , ولا يعلم غيباً , ولا يبسط أو يقبض رزقاً . . وأنهم جميعاً أُنذروا قومهم بالآخرة وما فيها من حساب وجزاء . . وأن سائر حقائق العقيدة الإسلامية الأساسية جاء بها كل رسول . . وصدق الكتاب الأخير ما جاءت به الكتب قبله . . إنما تلك الأقوال أثر من آثار الثقافة الأوربية . التي تزعم أن أصول العقيدة - بما فيها العقائد السماوية - قد تطورت وترقت , بتطور الأقوام وترقيتها ! وما يمكن أن يدافع عن الإسلام بهدم أصوله التي يقررها القرآن ! فليحذر الكتاب والقارئون هذا المزلق الخطير !!!

فأما حكمة إنزال هذا الكتاب , فلكي ينذر به الرسول [ص] أهل مكة - أم القرى - وما حولها:

(ولتنذر أم القرى ومن حولها) . .

وسميت مكة أم القرى , لأنها تضم بيت الله الذي هو أول بيت وضع للناس ليعبدوا الله فيه وحده بلا شريك ; وجعله مثابة أمن للناس وللأحياء جميعاً ; ومنه خرجت الدعوة العامة لأهل الأرض ; ولم تكن دعوة عامة من قبل ; وإليه يحج المؤمنون بهذه الدعوة , ليعودوا إلى البيت الذي خرجت منه الدعوة !

وليس المقصود , كما يتصيد أعداء الإسلام من المستشرقين , أن تقصر الدعوة على أهل مكة ومن حولها . فهم يقتطعون هذه الآية من القرآن كله , ليزعموا أن محمداً [ص

[ما كان يقصد في أول الأمر أن يوجه دعوته إلا إلى أهل مكة وبعض المدن حولها . وأنه إنما تحول من هذا المجال الضيق الذي ما كان خياله يطمح في أول الأمر إلى أوسع منه ; فتوسع في الجزيرة كلها , ثم هم أن يتخطاها . . لمصادفات لم يكن في أول الأمر على علم بها ! وذلك بعد هجرته إلى المدينة , وقيام دولته بها ! . . وكذبوا . . ففي القرآن المكي , وفي أوائل الدعوة , قال الله سبحانه لرسوله [ص] (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) . . . [الأنبياء:107] . . (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا) . . [سبأ: 28] ولعل الدعوة يومذاك كانت محصورة في شعاب مكة يحيط بها الكرب والابتلاء !
(والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به , وهم على صلاتهم يحافظون) . .

فالذين يؤمنون بأن هناك آخرة وحسابا وجزاء , يؤمنون بأن الله لا بد مرسل للناس رسولا يوحى إليه ; ولا يجدون في نفوسهم مشقة في التصديق به ; بل إنهم ليجدون داعيا يدعوهم إلى هذا التصديق . كما أنهم لإيمانهم بالآخرة وبهذا الكتاب يحافظون على صلاتهم , ليكونوا على صلة دائمة وثيقة بالله ; وليقوموا بطاعته ممثلة في الصلاة . . فهي طبيعة نفس . . متى صدقت بالآخرة واستيقنتها , صدقت بهذا الكتاب وتنزله , وحرصت على الصلة بالله وطاعته . . وملاحظة نماذج النفوس البشرية تصدق في الواقع هذا الكلام الصادق بذاته .

الدرس الخامس: 93 - 94 مشهد خزي الظالمين أثناء الإحتضار والبعث

ويختم هذه الجولة المتلاحقة الأشواط بمشهد حي شاخص متحرك مكروب رعب . . مشهد الظالمين . . [رأي المشركين] الذين يفترون على الله الكذب , أو يدعون أنهم أوحى إليهم ادعاء لا حقيقة له . أو يزعمون أنهم مستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن . . مشهد هؤلاء الظالمين - الذين لا يقاس إلى ظلمهم هذا ظلم - وهم في غمرات الموت , والملائكة باسطو أيديهم إليهم بالعذاب , ويطلبون أرواحهم . والتأنيب يجبه وجوههم , وقد تركوا كل شيء وراءهم وضل عنهم شركاؤهم .

(ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا , أو قال: أوحى إلي ولم يوح إليه شيء , ومن قال: سأنزل مثل

وَمِنْ أَظْلَمٍ مِّمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ يَسُنَزِلْ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْرُونَ عَذَابَ الهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93)

ما أنزل الله ? ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت , والملائكة باسطو أيديهم: أخرجوا أنفسكم . اليوم تجزون عذاب الهون , بما كنتم تقولون على الله غير الحق , وكنتم عن آياته تستكبرون . ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة , وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ! لقد تقطع بينكم , وضل عنكم ما كنتم تزعمون) . .

وقد ورد عن قتادة وابن عباس - رضي الله عنهم - أن الآية نزلت في مسيلمة الكذاب وسجاح بنت الحارث زوجته والأسود العنسي ; وهم الذين تنبأوا في حياة الرسول [ص] وادعوا أن الله أوحى إليهم . أما الذين قال سأنزل مثلما أنزل الله - أو قال أوحى إلي

كذلك - ففي رواية عن ابن عباس أنه عبد الله بن سعد بن أبي سرح , وكان أسلم وكتب الوحي لرسول الله [ص] وأنه لما نزلت الآية التي في "المؤمنون": (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) دعاه النبي [ص] فأملاها عليه فلما انتهى إلى قوله: (ثم أنشأناه خلقا آخر) عجب عبد الله في تفصيل خلق الإنسان فقال: (تبارك الله أحسن الخالقين). فقال: رسول الله [ص]: " هكذا أنزلت علي " . . فشك عبد الله حينئذ وقال: لئن كان محمد صادقا لقد أوحى إلي كما أوحى إليه , ولئن كان كاذبا لقد قلت كما قال ! فارتد عن الإسلام , ولحق بالمشركين . فذلك قوله: (ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله) . . [رواه الكلبي عن ابن عباس] . .

والمشهد الذي يرسمه السياق في جزاء هؤلاء الظالمين [أي المشركين] مشهد مفزع مرعب مكروب مرهوب . الظالمون في غمرات الموت وسكراته - ولفظ غمرات يلقي ظله المكروب - والملائكة يبسطون إليهم أيديهم بالعذاب , وهم يطلبون أرواحهم للخروج ! وهم يتابعونهم بالتأنيب:

ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم: أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق , وكنتم عن آياته تستكبرون . .

وجزاء الاستكبار العذاب المهين , وجزاء الكذب على الله هذا التأنيب الفاضح . . وكله مما يضيف على المشهد ظللا مكروبة , تأخذ بالخناق من الهول والكآبة والضيق !

ثم في النهاية , ذلك التوبيخ والتأنيب من الله تعالى , الذي كذبوا عليه , وها هم أولاء بين يديه , يواجههم في موقف الكربة والضيق:

(ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة)!

فما معكم إلا ذواتكم مجردة ; ومفردة كذلك . تلقون ربكم أفرادا لا جماعة . كما خلقكم أول مرة أفرادا , ينزل أحدكم من بطن أمة فردا عريان مجرد غلبان !

ولقد ند عنكم كل شيء , وتفرق عنكم كل أحد ; وما عدتم تقدرون على شيء مما ملككم الله إياه ; (وتركتكم ما حولناكم وراء ظهوركم). . .

تركتكم كل شيء من مال وزينة , وأولاد ومتاع , وجاه وسلطان . . كله هناك متروك وراءكم , ليس معكم شيء منه , ولا تقدرون منه على قليل أو كثير !

(وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء). . .

هؤلاء الذين كنتم تزعمون أنهم يشفعون لكم في الشدائد , وكنتم تشركونهم في حياتكم وأموالكم , وتقولون: إنهم سيكونون عند الله شفعاءكم [كالذين كانوا يقولون: (ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى !)] سواء

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (94)

كانوا ناسا من البشر كهانا أو ذوي سلطان ; أو كانوا تماثيل من الحجر , أو أوثانا , أو جنا أو ملائكة , أو كواكب أو غيرها مما يرمزون به إلى الآلهة الزائفة , ويجعلون له شركا في حياتهم وأموالهم وأولادهم كما سيحيى في السورة .

فأين ؟ أين ذهب الشركاء والشفعاء ؟

(لقد تقطع بينكم) . .

تقطع كل شيء . كل ما كان موصولا . كل سبب وكل حبل !

(وضل عنكم ما كنتم تزعمون) . .

وغاب عنكم كل ما كنتم تدعونه من شتى الدعاوى . ومنها أولئك الشركاء , وما لهم من شفاعاة عند الله أو تأثير في عالم الأسباب !

إنه المشهد الذي يهز القلب البشري هزا عنيفا . وهو يشخص ويتحرك ; ويلقي ظلاله على النفس , ويسكب إحياءاته في القلب , ظلاله الرعيية المكروبة , وإحياءاته العنيفة المرهوبة . .

إنه القرآن . . إنه القرآن . .

الوحدة الثانية عشرة: 95 - 111 الأدلة على الوجدانية من الكون والإنسان والتعريف على الله مقدمة الوحدة

نحن في حاجة إلى أن نستحضر هنا كل ما قلناه من وصف هذه السورة عند التعريف بها . . في حاجة لأن نستحضر ما قلناه عن تدافع الموجات المتلاحقة في المجرى المتدفق ; وعن الروعة الباهرة , التي يصل إليها التعبير والتصوير والإيقاع من سياقها:

"وهذه السورة تعالج موضوعها الأساسي بصورة فريدة . . إنها في كل لحظة منها , وفي كل موقف , وفي كل مشهد , تمثل "الروعة الباهرة" . . الروعة التي تبده النفس , وتشدده الحس , وتبهر النفس أيضا , وهو يلاحق مشاهدتها وإيقاعها وموحياتها مبهورا !

... وهي تشبه في سياقها المتدافع بهذه المشاهد والمواقف والموحيات والإيقاعات والصور والظلال , مجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة . لا تكاد الموجة تصل إلى قرارها , حتى تجد الموجة التالية ملاحقة لها , ومتشابكة معها , في المجرى المتصل المتدفق .

"وهي في كل موجة من هذه الموجات المتدافعة المتلاحقة المتشابكة , تبلغ حد الروعة الباهرة التي وصفنا . . مع تناسق منهج العرض في شتى المشاهد . . وتأخذ على النفس أقطارها بالروعة الباهرة , وبالحيوية الدافقة , وبالإيقاع التصويري والتعبيري والموسيقي , وبالتجمع والاحتشاد , ومواجهة النفس من كل درب ومن كل نافذة" . .

... الخ . . الخ . .

أن هذه السمات كلها تتجلى في هذا الدرس , على أتمها وأوفاهها . . إن القارىء يحس كأنما المشاهد تنبثق انبثاقا هي ومدلولاتها في التماع ولألاء . وهي تتدافع في انبثاقها

أمام الحس , كما تتدافع إيقاعات التعبير اللفظي عنها لتتناسق معها . والمشاهد والتعبير يتوافيان كذلك مع المدلولات التي يعبران عنها , ويهدفان إليها !

إن كل مشهد من هذه المشاهد كأنما هو انبثاقه لامعة رائعة تجيء من المجهول !
وتتجلى للحواس والقلب والعقل في بهاء أخاذ . .

والعبارة ذاتها كأنما هي انبثاقه كذلك ! وإيقاع العبارة يتناسق في بهاء مع المشهد ومع المدلول . يتناسق معه في قوة الانبثاق , وفي شدة اللآلاء .

وتتدفق المدلولات والمشاهد والعبارات في موجات متلاحقة , يتابعها الحس في بهر !
وما يكاد يصل مع الموجة إلى قرارها حتى يجد نفسه مندفعاً مرة أخرى مع موجة جديدة . . كالذي حاولنا أن نصف به السورة في مطالعها من قبل !

وصفحة الوجود بجملتها مفتوحة . والمشاهد تتوالى - وكدت أقول: تتواكب - من هنا ومن هناك في الصفحة الفسيحة الأرجاء . .

والجمال هو السمة البارزة هنا . . الجمال الذي يبلغ حد الروعة الباهرة . . المشاهد منتقاة وملتقطة من الزاوية الجمالية . والعبارات كذلك في بنائها اللفظي الإيقاعي , وفي دلالتها . والمدلولات أيضاً - على كل ما تزخر به الحقيقة الأصلية في هذه العقيدة - تتناول هذه الحقيقة من الزاوية الجمالية . . فتبدو الحقيقة ذاتها وكأنما تتلألأ في بهاء !

ومما يوحى بالسمت الجمالي السابغ ذلك التوجيه الرباني إلى تملي الجمال في ازدهار الحياة وازدهائها: (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه). . فهو التوجيه المباشر إلى الجمال الباهر . . للنظر والتلمي والاستمتاع الواعي .

ثم ينتهي هذا الجمال إلى ذروته التي تروع وتبهر في ختام الاستعراض الكوني الحي , حين يصل إلى ما وراء هذا الكون الجميل البهيج الرائع . . إلى بديع السماوات والأرض الذي أودع الوجود كل هذه البدائع . . فيتحدث عنه - سبحانه - حديثاً لا تنقل روعته إلا العبارة القرآنية بذاتها: (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار , وهو اللطيف الخبير). .

وبعد فنحن - في هذا الدرس - أمام كتاب الكون المفتوح , الذي يمر به الغافلون في كل لحظة . فلا يقفون أمام خوارقه وآياته , ويمر به المظموسون فلا تتفتح عيونهم على عجائبه وبدائعه . . وها هو ذا النسق القرآني العجيب يرتاد بنا هذا الوجود , كأنما نهبط إليه اللحظة , فيقفنا أمام معالمه العجيبة , ويفتح أعيننا على مشاهد الباهرة , ويشير تطلعنا إلى بدائعه التي يمر عليها الغافلون غافلين !

ها هو ذا يقفنا أمام الخارقة المعجزة التي تقع في كل لحظة من الليل والنهار . . خارقة انبثاق الحياة النابضة من هذا الموات الهامد . . لا ندري كيف انبثقت , ولا ندري من أين جاءت - إلا أنها جاءت من عند الله وانبثقت بقدر من الله . لا يقدر بشر على إدراك كنهها بله ابتداعها !

وها هو ذا يقف بنا أمام دورة الفلك العجيبة . . الدورة الهائلة الدائبة الدقيقة . . وهي خارقة لا يعدلها شيء مما يطلبه الناس من الخوارق . . وهي تتم في كل يوم وليلة . بل تتم في كل ثانية ولحظة . .

وها هو ذا يقف بنا أمام نشأة الحياة البشرية . . من نفس واحدة . . وأمام تكاثرها بتلك الطريقة .

وها هو ذا يقف بنا أمام نشأة الحياة في النبات . . وأمام مشاهد الأمطار الهاطلة , والزروع النامية , والثمار اليانعة . وهي حشد من الحيوانات والمشاهد , ومجال للتأمل والريادة . لو نشاهدها بالحس المتوفز والقلب المتفتح .

وها هو ذا الوجود كله , جديدا كأنما نراه أول مرة . حيا يعاطفنا ونعاطفه , متحركا تدب الحركة في أوصاله , عجيبا يشده الحواس والمشاعر . ناطقا بذاته عن خالقه . دالا بآياته على تفرد وقدرته . .

وعندئذ يبدو الشرك بالله - والسياق يواجه الشرك والمشركين بهذا الاستعراض - غريبا غريبا على فطرة هذا الوجود وطبيعته . وشائها شائها في ضمير من يشاهد هذا الوجود الحافل بدلائل الهدى ويتأمله . وتسقط حجة الشرك والمشركين , في مواجهة هذا الإيمان الغامر في مجالي الوجود العجيب . .

والمنهج القرآني - في خطاب الكينونة البشرية بحقيقة الألوهية ; وفي بيانه لموقف العبودية منها ; يجعل حقيقة الخلق والإنشاء للكون , وحقيقة الخلق والإنشاء للحياة , وحقيقة كفالة الحياة بالرزق الذي يبسر له الله في ملكه , وحقيقة السلطان الذي يخلق ويرزق ويتصرف في عالم الأسباب بلا شريك . . يجعل من هذه الحقائق مؤثرا موحيا . وبرهانا قويا على ضرورة ما يدعو إليه البشر: من العبودية لله وحده , وإخلاص الاعتقاد والعبادة والطاعة والخضوع له وحده . . وكذلك يجيء في السياق - بعد استعراض صفحة الوجود ; وانكشاف حقيقة الخلق والإنشاء والرزق والكفالة والسلطان - الدعوة إلى عبادة الله وحده , أي إلى إفراده سبحانه بالألوهية وخصائصها , في حياة العباد كلها ; وجعل الحاكمية والتحاكم إليه وحده في شؤون الحياة كافة , واستنكار ادعاء الألوهية أو إحدى خصائصها .

وكذلك نجد في هذا الدرس قوله تعالى: (ذلكم الله ربكم , لا إله إلا هو , خالق كل شيء فاعبدوه , وهو على كل شيء وكيل). . نموذجا للمنهج القرآني في ربط العبادة الخالصة , بإفراد الألوهية لله وحده , مع تقرير أنه - سبحانه - (خالق كل شيء). . (وهو على كل شيء وكيل). .

وفي نهاية الدرس - وبعد عرض هذه الآيات في صفحة الوجود كله - يكشف عن تفاهة طلب الخوارق , كما يكشف عن طبيعة المكذبين المعاندة , التي لا تتخلف عن الإيمان لنقص في الآيات والدلائل ; ولكن لطبع فيها مطموس ! وإلا فهذه الآيات تزحم الوجود .

الدرس الأول: 95 - 96 النبات والكون دال على الوحدانية

(إن الله فالق الحب والنوى , يخرج الحي من الميت , ومخرج الميت من الحي . ذلكم الله فأنى تؤفكون ?) . .

إنها المعجزة التي لا يدري سرها أحد ; فضلا على أن يملك صنعها أحد ! معجزة الحياة نشأة وحركة . . وفي كل لحظة تنفلق الحبة الساكنة عن نبتة نامية , وتنفلق النواة الهامدة عن شجرة صاعدة . والحياة الكامنة في الحبة والنواة , النامية في النبتة والشجرة , سر مكنون , لا يعلم حقيقته إلا الله ; ولا يعلم مصدره إلا الله . . وتقف

البشرية بعد كل ما رأت من ظواهر الحياة وأشكالها , وبعد كل ما درست من خصائصها وأطوارها . .

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَالِقُ ثُوْفُكُونَ (95) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكُمْ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96)

تقف أمام السر المغيّب كما وقف الإنسان الأول , تدرك الوظيفة والمظهر , وتجهل المصدر والجوهر , والحياة ماضية في طريقها . والمعجزة تقع في كل لحظة !!!

ومنذ البدء أخرج الله الحي من الميت . فقد كان هذا الكون - أو على الأقل كانت هذه الأرض - ولم يكن هناك حياة . . ثم كانت الحياة . . أخرجها الله من الموات . . كيف ? لا ندري ! وهي منذ ذلك الحين تخرج من الميت ; فتنحول الذرات الميتة في كل لحظة - عن طريق الأحياء - إلى مواد عضوية حية تدخل في كيان الأجسام الحية ; وتنحول - وأصلها ذرات ميتة - إلى خلايا حية . . والعكس كذلك . . ففي كل لحظة تنحول خلايا حية إلى ذرات ميتة ; إلى أن يتحول الكائن الحي كله ذات يوم إلى ذرات ميتة !

(يخرج الحي من الميت , ومخرج الميت من الحي) . .

ولا يقدر إلا الله أن يصنع ذلك . . لا يقدر إلا الله أن ينشئ الحياة منذ البدء من الموات . ولا يقدر إلا الله أن يجهز الكائن الحي بالقدرة على إحالة الذرات الميتة إلى خلايا حية . ولا يقدر إلا الله على تحويل الخلايا الحية مرة أخرى إلى ذرات ميتة . . في دورة لم يعلم أحد يقينا بعد متى بدأت , ولا كيف تتم . . وإن هي إلا فروض ونظريات واحتمالات !!!

لقد عجزت كل محاولة لتفسير ظاهرة الحياة , على غير أساس أنها من خلق الله . . ومنذ أن شرد الناس من الكنيسة في أوروبا . . (كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة !). وهم يحاولون تفسير نشأة الكون وتفسير نشأة الحياة , بدون التجاء إلى الاعتراف بوجود الله . . ولكن هذه المحاولات كلها فشلت جميعا . . ولم تبق منها في القرن العشرين إلا مباحكات تدل على العناد , ولا تدل على الإخلاص !

وأقوال بعض "علمائهم" الذين عجزوا عن تفسير وجود الحياة إلا بالاعتراف بالله , تصور حقيقة موقف "علمهم" نفسه من هذه القضية . ونحن نسوقها لمن لا يزالون عندنا يقتاتون على فتات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من موائد الأوربيين , عازفين عن هذا الدين , لأنه يثبت "الغيب" وهم "علميون" ! "لا غيبون" ! . .

ونختار لهم هؤلاء العلماء من "أمريكا" !!!

يقول "فرانك ألن" . [ماجستير ودكتوراه من جامعة كورنل وأستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتوبا بكندا] في مقال: نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد ? من كتاب: "الله يتجلى في عصر العلم" . . ترجمة الدكتور: الدمرداش عبد المجيد سرحان .

. . "فإذا لم تكن الحياة قد نشأت بحكمة وتصميم سابق , فلا بد أن تكون قد نشأت عن طريق المصادفة فما هي تلك المصادفة إذن حتى تتدبرها ونرى كيف تخلق الحياة ?

"إن نظريات المصادفة والاحتمال لها الآن من الأسس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع حيثما انعدم الحكم الصحيح المطلق . وتضع هذه النظريات أمامنا الحكم الأقرب إلى الصواب - مع تقدير احتمال الخطأ في هذا الحكم - ولقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدما كبيرا , حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر , التي نقول: إنها تحدث بالمصادفة , والتي لا نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى [مثل قذف الزهر في لعبة النرد] . وقد صرنا بفضل تقدم هذه الدراسات قادرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة , وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة , وأن نحسب احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في مدى معين من الزمان . . ولننظر الآن إلى الدور الذي تستطيع أن تلعبه المصادفة في نشأة الحياة:

"إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية . وهي تتكون من خمسة عناصر ; هي: الكربون , والأدروجين , والنيتروجين , والأكسجين , والكبريت . . ويبلغ عدد الذرات في الجزيء الواحد 40 000 ذرة . ولما كان عدد العناصر الكيموية في الطبيعة 92 عنصرا , موزعة كلها توزيعا عشوائيا , فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة , لكي تكون جزئيا من جزيئات البروتين , يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطا مستمرا لكي تؤلف هذا الجزيء ; ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد .

"وقد قام العالم الرياضي السويسري تشارلز يوجين جاي بحساب هذه العوامل جميعا , فوجد أن الفرصة لا تنهيا عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد , إلا بنسبة 1 إلى 160 10 , أي بنسبة 1 إلى رقم عشرة مضروبا في نفسه 160 مرة . وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات . . وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات . . ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها - عن طريق المصادفة - بلايين لا تحصى من السنوات , قدرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها 243 مرة من السنين [10 243 سنة] .

"إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية . فكيف تتألف ذرات هذه الجزيئات ? إنها إذا تألفت بطريقة أخرى , غير التي تتألف بها , تصير غير صالحة للحياة . بل تصير في بعض الأحيان سموما , وقد حسب العالم الانجليزي: ج . ب . سيثر . . الطرق التي يمكن أن تتألف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات , فوجد أن عددها يبلغ الملايين [10 48] وعلى ذلك فإنه من المحال عقلا أن تتألف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئا بروتينيا واحدا .

"ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيميوية عديمة الحياة , ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب , الذي لا ندري من كنهه شيئا , إنه العقل اللانهائي . وهو الله وحده , الذي استطاع أن يدرك ببالغ حكمته , أن مثل هذا الجزيء البروتيني يصلح لأن يكون مستقرا للحياة , فبناه وصوره , وأغدق عليه سر الحياة " . .

ويقول إيرفينج وليام [دكتوراه من جامعة إيوى وأخصائي في وراثة النباتات وأستاذ العلوم الطبيعية بجامعة ميتشجان] في مقال: "المادية وحدها لا تكفي " من الكتاب نفسه:

"إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية في صغرها والتي لا يحصيها عد , وهي التي تتكون منها جميع المواد . كما لا تستطيع العلوم أن تفسر لنا - بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكي تكون الحياة . ولا شك أن النظرية التي تدعي أن جميع صور الحياة الراقية قد وصلت إلى حالتها الراهنة من الرقي بسبب حدوث بعض الطفرات العشوائية والتجمعات والهجائن . . نقول: إن هذه النظرية لا يمكن الأخذ بها إلا عن طريق التسليم . فهي لا تقوم على أساس المنطق والإقناع ! " .

ويقول: "ألبرت ماكومب ونشتر" [متخصص في علم الأحياء دكتوراه من جامعة تكساس . أستاذ علم الأحياء بجامعة بايلور . . .] في مقال: "العلوم تدعم إيماني بالله" من الكتاب نفسه:

" . . . وقد اشتغلت بدراسة علم الأحياء . وهو من الميادين العلمية الفسيحة التي تهتم بدراسة الحياة . وليس بين مخلوقات الله أروع من الأحياء التي تسكن هذا الكون .

"انظر إلى نبات برسيم ضئيل . وقد نما على أحد جوانب الطريق . فهل تستطيع أن تجد له نظيرا في روعته بين جميع ما صنعه الإنسان من تلك العدد والآلات الرائعة ? إنه آله حية تقوم بصورة دائبة لا تنقطع آناء الليل وأطراف النهار , بآلاف من التفاعلات الكيموية والطبيعية ; ويتم كل ذلك تحت سيطرة البروتوبلازم - وهو المادة التي تدخل في تركيب جميع الكائنات الحية .

"فمن أين جاءت هذه الآلة الحية المعقدة ? إن الله لم يصنعها هكذا وحدها , ولكنه خلق الحياة , وجعلها قادرة على صيانة نفسها , وعلى الاستمرار من جيل إلى جيل . مع الاحتفاظ بكل الخواص والمميزات التي تعيننا على التمييز بين نبات وآخر . . إن دراسة التكاثر في الأحياء تعتبر أروع دراسات علم الأحياء , وأكثرها إظهارا لقدرة الله . . إن الخلية التناسلية التي ينتج عنها النبات الجديد , تبلغ من الصغر درجة كبرى بحيث يصعب مشاهدتها إلا باستخدام المجهر المكبر . ومن العجيب أن كل صفة من صفات النبات: كل عرق , وكل شعييرة , وكل فرع على ساق , وكل جذر أو ورقة , يتم تكوينها تحت إشراف مهندسين قد بلغوا من دقة الحجم مبلغا كبيرا , فاستطاعوا العيش داخل الخلية التي ينشأ منها النبات . . تلك الفئة من المهندسين هي فئة الكروموسومات [ناقلات الوراثة] .

وفي هذا القدر كفاية لنعود إلى الجمال المشرق في سياق القرآن: (ذلكم الله) . .

مبدع هذه المعجزة المتكررة المغيبة السر . . هو الله . . وهو ربكم الذي يستحق أن تدينوا له وحده . . بالعبودية والخضوع والاتباع .

(فأنى تؤفكون ?) . .

فكيف تصرفون عن هذا الحق الواضح للعقول والقلوب والعيون !

إن معجزة انبثاق الحياة من الموات يجيء ذكرها كثيرا في القرآن الكريم - كما يجيء ذكر خلق الكون ابتداء - في معرض التوجيه إلى حقيقة الألوهية , وأثارها الدالة على وحدة الخالق , لينتهي منها إلى ضرورة وحدة المعبود , الذي يدين له العباد ; بالاعتقاد

في ألوهيته وحده , والطاعة لربوبيته وحده , والتقدم إليه وحده بالشعائر التعبدية ,
والتلقي منه وحده في منهج الحياة كله , والدينونة لشريعته كذلك وحدها . .

وهذه الدلائل لا تذكر في القرآن الكريم في صورة قضايا لاهوتية أو نظريات فلسفية !
إن هذا الدين أكثر جدية من أن ينفق طاقة البشر في قضايا لاهوتية ونظريات فلسفية .
إنما يهدف إلى تقويم تصور البشر - بإعطائهم العقيدة الصحيحة - لينتهي إلى تقويم حياة
البشر الباطنة والظاهرة .

وذلك لا يكون أبدا إلا بردهم إلى عبادة الله وحده وإخراجهم من عبادة العباد . وإلا أن
تكون الدينونة في الحياة الدنيا , وفي شئون الحياة اليومية لله وحده , وإلا أن يخرج
الناس من سلطان المتسلطين , الذين يدعون حق الألوهية , فيزاولون الحاكمية في
حياة البشر , ويصبحون آلهة زائفة وأربابا كثيرة ; فتفسد الحياة , حين يستعبد الناس
فيها لغير الله !

ومن هنا نرى التعقيب على معجزة الحياة:

(ذلكم الله فأنى تؤفكون) . .

ذلكم الله الذي يستحق الربوبية فيكم . . والرب هو المربى والموجه والسيد والحاكم . .

ومن ثم يجب ألا يكون الرب إلا الله . .

(فالق الإصباح , وجعل الليل سكنا , والشمس والقمر حسبانا . ذلك تقدير العزيز
العليم) . .

إن فلق الحب والنوى هو فلق الإصباح أيضا , وهو الذي جعل الليل للسكون , وجعل
الشمس والقمر محسوبة حركاتهما مقدره دوراتهما . . مقدر ذلك كله بقدرته التي
تهيمن على كل شيء , ويعلمه الذي يحيط بكل شيء .

وانفلاق الإصباح من الظلام حركة تشبه في شكلها انفلاق الحبة والنواة . وانبثاق النور
في تلك الحركة , كانبثاق البرعم في هذه الحركة . . وبينهما من مشابه الحركة والحيوية
والبهاء والجمال سمات مشتركة , ملحوظة في التعبير عن الحقائق المشتركة في
طبيعتهما وحقيقتهما كذلك . .

وبين انفلاق الحب والنوى وانفلاق الإصباح وسكون الليل صلة أخرى . . إن الإصباح
والإمساء , والحركة والسكون , في هذا الكون - أو في هذه الأرض - ذات علاقة مباشرة
بالنبات والحياة .

إن كون الأرض تدور دورتها هذه حول نفسها أمام الشمس ; وكون القمر بهذا الحجم
وبهذا البعد من الأرض ; وكون الشمس كذلك بهذا الحجم وهذا البعد وهذه الدرجة من
الحرارة . . هي تقديرات من (العزيز) ذي السلطان القادر (العليم) ذي العلم الشامل . .
ولولا هذه التقديرات ما انبثقت الحياة في الأرض على هذا النحو , ولما انبثقت النبات
والشجر , من الحب والنوى . .

إنه كون مقدر بحساب دقيق . ومقدر فيه حساب الحياة , ودرجة هذه الحياة , ونوع هذه الحياة . . كون لا مجال للمصادفة العابرة فيه - وحتى ما يسمونه المصادفة خاضع لقانون ومقدر بحساب . .

والذين يقولون: إن هذه الحياة فلتة عابرة في الكون . وأن الكون لا يحفلها . بل يبدو أنه يعاديتها . وأن ضالة الكوكب الذي قام عليه هذا النوع من الحياة توحى بهذا كله . بل يقول بعضهم: إن هذه الضالة توحى

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِيَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (97) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98)

بأنه لو كان للكون إله ما عنى نفسه بهذه الحياة ! . . إلي آخر ذلك اللغو , الذي يسمونه أحيانا "علمًا ! " وبسمونه أحيانا "فلسفة " ! وهو لا يستأهل حتى مناقشته !

إن هؤلاء إنما يحكمون أهواء مستقرة في نفوسهم ; ولا يحكمون حتى نتائج علمهم التي تفرض نفسها عليهم ! ويقرأ لهم الإنسان فيجد كأنما هم هاربون من مواجهة حقيقة قرروا سلفا ألا يواجهوها ! . . إنهم هاربون من الله الذي تواجههم دلائل وجوده ووحدانيته وقدرته المطلقة في كل اتجاه ! وكلما سلكوا طريقا يهربون بها من مواجهة هذه الحقيقة وجدوا الله في نهايتها , فعادوا في زعر إلى سكة أخرى . ليواجهوا الله - سبحانه - في نهايتها كذلك !

إنهم مساكين ! بائسون ! لقد فروا ذات يوم من الكنيسة وإلهها الذي تستدل به الرقاب . . فروا(كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة). . ثم ما زالوا في فرارهم التقليدي حتى أوائل هذا القرآن . . دون أن يتلفتوا وراءهم ليروا إن كانت الكنيسة ما تزال تتابعهم . أم انقطعت منها - كما انقطعت منهم - الأنفاس .

إنهم مساكين بائسون لأن نتائج علومهم ذاتها تواجههم اليوم أيضا . . فإلى أين الفرار ? .

يقول "فرانك ألن" العالم الطبيعي الذي اقتطفنا فقرات من مقاله في الفقرة السابقة عن نشأة الحياة:

"إن ملاءمة الأرض للحياة تتخذ صوراً عديدة لا يمكن تفسيرها على أساس المصادفة أو العشوائية . فالأرض كرة معلقة في الفضاء تدور حول نفسها , فيكون في ذلك تتابع الليل والنهار , وهي تسبح حول الشمس مرة في كل عام , فيكون في ذلك تتابع الفصول , الذي يؤدي بدوره إلى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكنى من سطح كوكبنا , وبزبد من اختلاف الأنواع النباتية أكثر مما لو كانت ساكنة . ويحيط بالأرض غلاف غازي يشتمل على الغارات اللازمة للحياة , ويمتد حولها إلى ارتفاع كبير [يزيد على 500 ميل .]

"ويبلغ هذا الغلاف الغازي من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يوميا إلينا , منقضة بسرعة ثلاثين ميلا في الثانية . والغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة , ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى

مسافات بعيدة داخل القارات , حيث يمكن أن يتكاثف مطر يحيي الأرض بعد موتها .
والمطر مصدر الماء العذب , ولولاه لأصبحت الأرض صحراء جرداء خالية من كل أثر
للحياة . ومن هنا نرى أن الجو والمحيطات الموجودة على سطح الأرض تمثل عجلة
التوازن في الطبيعة " . .

إن الأدلة "العلمية" تتكاثر في وجوههم وتتجمع لتعلن عجز المصادفة عجزا كاملا عن
تعليل نشأة الحياة , بما يلزم لهذه النشأة - وللنمو والبقاء والتنوع بعدها - من موافقات
لا تحصى في تصميم الكون . . منها هذه الموافقات التي ذكرها العالم الطبيعي السابق ,
ووراءها من نوعها كثير . فلا يبقى إلا تقدير العزيز العليم . الذي أعطى كل شيء خلقه
ثم هدى . والذي خلق كل شيء فقدره تقديرا . .

الدرس الثاني: 97 الإستدلال بالفلك على الوحدانية

(وهو الذي جعل لكم النجوم لتهدتوا بها في ظلمات البر والبحر . قد فصلنا الآيات لقوم
يعلمون) . .

تتمة لمشهد الفلك الدائر بشمسه وقمره ونجومه . تتمة لعرض المشهد الكوني الهائل
الرائع مرتبطا بحياة البشر ومصالحهم واهتماماتهم:

(لتهدتوا بها في ظلمات البر والبحر) . .

مناهات البر والبحر ظلمات يهتدي فيها البشر بالنجوم . . كانوا كذلك وما يزالون . .
تختلف وسائل الاهتداء بالنجوم ويتسع مداها بالكشوف العلمية والتجارب المنوعة . .
وتبقى القاعدة ثابتة:قاعدة الاهتداء بهذه الأجرام في ظلمات البر والبحر . . سواء في
ذلك الظلمات الحسية أو ظلمات التصور والفكر . ويبقى النص القرآني الجامع يخاطب
البشرية في مدارجها الأولى بهذه الحقيقة , فتجد مصداقها في واقع حياتها الذي تزاوله .
ويخاطبها بها وقد فتح عليها ما أراد أن يفتح من الأسرار في الأنفس والآفاق . فتجدها
كذلك مصداق قوله في واقع حياتها الذي تزاوله . .

وتبقى مزية المنهج القرآني في مخاطبة الفطرة بالحقائق الكونية , لا في صورة "نظرية
" ولكن في صورة "واقعية" . . صورة تتجلى من ورائها يد المبدع , وتقديره , ورحمته ,
وتدبيره . صورة مؤثرة في العقل والقلب , موحية للبصيرة والوعي , دافعة إلى التدبر
والتذكر , وإلى استخدام العلم والمعرفة للوصول إلى الحقيقة الكبرى المتناسقة . .
لذلك يعقب على آية النجوم التي جعلها الله للناس ليهدتوا بها في ظلمات البر والبحر
هذا التعقيب الموحى:

(قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) . .

فالاhtداء بالنجوم في ظلمات البر والبحر يحتاج إلى علم بمسالكها ودوراتها ومواقعها
ومداراتها . . كما يحتاج إلى قوم يعلمون دلالة هذا كله على الصانع العزيز الحكيم . .
فالاhtداء - كما قلنا - هو الاهتداء في الظلمات الحسية الواقعية , وفي ظلمات العقل
والضمير . . والذين يستخدمون النجوم للاhtداء الحسي , ثم لا يصلون ما بين دلالتها
ومبدعها , هم قوم لم يهدتوا بها تلك الهداية الكبرى ; وهم الذين يقطعون بين الكون
وخالقه , وبين آيات هذا الكون ودلالاتها على المبدع العظيم . .

الدرس الثالث: 98 الإستدلال بالانفس على الوحدانية

(وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة , فمستقر ومستودع . قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) . .

إنها اللمسة المباشرة في هذه المرة . . اللمسة في ذات النفس البشرية . النفس البشرية الواحدة الموحدة الكنة والحقيقة في الذكر والأنثى . تبدأ الحياة فيها خطواتها الأولى للتكاثر بالخلية الملقحة . فنفس هي مستودع لهذه الخلية في صلب الرجل , ونفس هي مستقر لها في رحم الأنثى . . ثم تأخذ الحياة في النمو والانتشار . فإذا أجناس والوان ; وإذا شيات ولغات ; وإذا شعوب وقبائل ; وإذا النماذج التي لا تحصى , والأنماط التي ما تزال تتنوع ما دامت الحياة .

(قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) . .

فالفقة هنا ضروري لإدراك صنع الله في هذه النفس الواحدة , التي تنبثق منها النماذج والأنماط . ولإدراك الموافقات العجيبة الكامنة وراء اتخاذ التلاقح وسيلة للإكثار وتوفير الأعداد المناسبة دائما من الذكور والإناث - في عالم الإنسان - لتتم عملية التزاوج التي قدر الله أن تكون هي وسيلة الإخصاب والإكثار . ووسيلة تنشئة الأطفال في ظروف تحفظ "إنسانيتهم" وتجعلهم أكفاء للحياة "الإنسانية" !

ولا نملك هنا في الظلال أن نبعد في عرض هذه المسألة بكل تفصيلاتها لجلاء هذه الموافقات - فهي في حاجة إلى بحث متخصص - ولكننا نذكر فقط كيفية نشأة النطفة ذكرا أو أنثى وكيف يتم عن طريق التوزيع الغيبي الرباني إنتاج القدر الكافي من الذكور ومن الإناث دائما لكي تتوافر الأعداد المناسبة لبقاء الحياة وامتدادها . .

ولقد ذكرنا من قبل عند تفسير قوله تعالى: (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) . . أن الذي يقرر صيرورة البويضة الملقحة ذكرا أو أنثى , هو أن يجري قدر الله بأن يكون عدد كروموسومات الحيوان المنوي الذي يلتحم بالبويضة يرجح كروموسومات التذكير على كروموسومات التأنيث أو العكس , وأن جريان القدر بهذا أو ذاك غيب من غيب الله . لا سلطان لأحد عليه إلا الله . .

هذا القدر الذي يجريه الله في كل مرة , فيهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور , يحافظ على توازن دائم في الأرض كلها بين عدد من يجري بهم ليكونوا إناثا , وعدد من يجري بهم ليكونوا ذكورا . فلا يقع اختلال - على مستوى البشرية كلها - في هذا التوازن . الذي عن طريقة يتم الإخصاب والإكثار , وتتم به حياة زوجية مستقرة في الوقت ذاته . . ذلك أن الأخصاب والإكثار وحده قد يتم بأقل عدد من الذكور . . ولكن الله قدر في الحياة الإنسانية أن هذا ليس هو غاية الالتقاء بين الذكر والأنثى ; إنما الغاية - التي تميز الإنسان من الحيوان - هي استقرار الحياة الزوجية بين ذكر وأنثى . . لما وراء هذا الاستقرار من أهداف لا تتم إلا به . وأهمها استقرار الذرية في كنف أبوين في محيط أسرة , ليتم إعداد هذه الذرية لدورها "الإنساني" الخاص - فوق إعدادها لتحصيل القوت وحماية النفس كالحیوان - والدور "الإنساني" الخاص يحتاج إلى الاستقرار بين أبوين في أسرة فترة أطول جدا مما تحتاج إليه طفولة الحيوان !

وهذه الموازنة الدائمة تكفي وحدها لتكون آية على تدبير الخالق وحكمته وتقديره . . ولكن لقوم يفقهون: (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) . .

أما المطموسون المحجوبون . . وفي أولهم أصحاب "العلمية" الذين يسخرون من "الغيبية" . فإنهم يمرون على هذه الآيات كلها مطموسين محجوبين: "وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها" .

الدرس الرابع 99 الإستدلال بعالم النبات على الوحدانية

ثم يمضي السياق إلى مشاهد الحياة المتفتحة في جنات الأرض . تراها الأعين , وتستجليها الحواس , وتتدبرها القلوب . وترى فيها بدائع صنع الله . . والسياق يعرضها - كما هي في صفحة الكون - ويلفت إليها النظر في شتى أطوارها , وشتى أشكالها , وشتى أنواعها ; ويلمس الوجدان بما فيها من حياة نامية , ودلالة على القدرة التي تبذل الحياة ; كما يوجه القلب إلى استجلاء جمالها والاستمتاع بهذا الجمال :

(وهو الذي أنزل من السماء ماء , فأخرجنا به نبات كل شيء . فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا . ومن النخل من طلعها قنوان دانية . ووجنت من أعناب والزيتون والرمان , مشتبهها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) . .

والماء كثيرا ما يذكر في القرآن في صدد ذكر الحياة والإنبات .

(وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء) . .

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا يُخْرَجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99)

ودور الماء الظاهر في إنبات كل شيء دور واضح يعلمه البدائي والمتحضر , ويعرفه الجاهل والعالم . . ولكن دور الماء في الحقيقة أخطر وأبعد مدى من هذا الظاهر الذي يخاطب به القرآن الناس عامة . فقد شارك الماء ابتداء - بتقدير الله - في جعل تربة الأرض السطحية صالحة للإنبات [إذا صحت النظريات التي تفترض أن سطح الأرض كان في فترة ملتها , ثم صلبا لا توجد فيه التربة التي تنبت الزرع , ثم تم ذلك بتعاون الماء والعوامل الجوية على تحويلها إلى تربة لينة] ثم ظل الماء يشارك في إخصاب هذه التربة , وذلك بإسقاط [النتروجين - الأزوت] من الجو كلما أبرق فاستخلصت الحرارة الكهربائية , التي تقع في الجو , النتروجين الصالح للذوبان في الماء ويسقط مع المطر , ليعيد الخصوبة إلى الأرض . . وهو السماد الذي قلد الإنسان القوانين الكونية في صنعه , فأصبح يصنعه الآن بنفس الطريقة ! وهو المادة التي يخلو وجه الأرض من النبات لو نفذت من التربة !

(فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا . ومن النخل من طلعها قنوان دانية . ووجنت من أعناب . والزيتون والرمان مشتبهها وغير متشابه) . .

وكل نبت يبدأ أخضر . واللفظ (خضر) أرق ضلا , وأعمق ألفة من لفظ "أخضر" . . هذا النبت الخضر (يخرج منه حبا متراكبا) . كالسنابل وأمثالها . (ومن النخل من طلعها

قنوان دانية). . وقنوان جمع قنو وهو الفرع الصغير . وفي النخلة هو العذق الذي يحمل الثمر . ولفظة (قنوان) ووصفها (دانية) يشتركان في إلقاء ظل لطيف أليف . وظل المشهد كله ظل وديع حبيب . . (وجنات من أعناب). . (والزيتون والرمان). هذا النبات كله بفصائله وسلالاته - (مشتبها وغير متشابهة) - (انظروا إلى ثمرة إذا أثمر وينعه). . انظروا بالحس البصير , والقلب اليقظ . . انظروا إليه في ازدهاره , وازدهائه , عند كمال نضجه . انظروا إليه واستمتعوا بجماله . . لا يقول هنا , كلوا من ثمرة إذا أثمر , ولكن يقول: (انظروا إلى ثمرة إذا أثمر وينعه) لأن المجال هنا مجال جمال ومتاع , كما أنه مجال تدبر في آيات الله , وبدائع صنعته في مجالي الحياة .

(إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون). .

فالإيمان هو الذي يفتح القلب , وينير البصيرة , وينبه أجهزة الاستقبال والاستجابة في الفطرة , ويصل الكائن الإنساني بالوجود , ويدعو الوجدان إلى الإيمان بالله خالق الجميع . . وإلا فإن هناك قلوبا مغلقة , وبصائر مطموسة , وفطرا منتكسة , تمر بهذا الإبداع كله , وبهذه الآيات كلها , فلا تحس بها ولا تستجيب . . (إنما يستجيب الذين يسمعون), وإنما يدرك هذه الآيات الذين يؤمنون !

الدرس الخامس: 100 - 101 نقض دعوى الشرك بالله ونفي الشركاء عنه

وعندما يبلغ السياق إلى هذا المقطع ; وقد عرض على القلب البشري صفحة الوجود الحافلة بدلائل وجود الله , ووحدانيته , وقدرته , وقد غمر الوجدان بتلك الظلال الكونية الموحية , وقد وصل الضمير بقلب الوجود النابض في كل حي , الناطق ببديع صنع الخلاق . . عندما يبلغ إلى هذا المقطع يعرض شرك المشركين , فإذا هو غريب غريب في هذا الجو المؤمن الموصول بمبدع الوجود . ويعرض أوهام المشركين فإذا هي سخف تشمئز منه القلوب والعقول . وسرعات ما يعقب عليها بالاستنكار . والجو كله مهياً للاستنكار:

(وجعلوا لله شركاء الجن - وخلقهم - وخرقوا له بنين وبنات بغير علم . سبحانه وتعالى عما يصفون ! بديع السماوات والأرض , أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ? وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم). .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ (100)

وقد كان بعض مشركي العرب يعبدون الجن . . وهم لا يعرفون من هم الجن ! ولكنها أوهام الوثنية ! والنفوس متى انحرفت عن التوحيد المطلق قيد شبر انسأقت في انحرافها إلى أي مدى ; وانفرجت المسافة بينها وبين نقطة الانحراف التي بدأت صغيرة لا تكاد تلاحظ ! وهؤلاء المشركون كانوا على دين إسماعيل . . دين التوحيد الذي جاء به إبراهيم عليه السلام في هذه المنطقة . . ولكنهم انحرفوا عن هذا التوحيد . . ولا بد أن يكون الانحراف قد بدأ يسيرا . . ثم انتهى إلى مثل هذا الانحراف الشنيع . . الذي يبلغ أن يجعل الجن شركاء لله . . وهم من خلقه سبحانه:

(وجعلوا لله شركاء الجن - وخلقهم -)!

ولقد عرفت الوثنيات المتعددة في الجاهليات المتنوعة أن هناك كائنات شريرة - تشبه فكرة الشياطين - وخافوا هذه الكائنات - سواء كانت أرواحا شريرة أو ذوات شريرة - وقدموا لها القرابين انقاء لشرها ; ثم عبدوها !

والوثنية العربية واحدة من هذه الوثنيات التي وجدت فيها هذه التصورات الفاسدة , في صورة عبادة للجن , واتخاذهم شركاء لله . . سبحانه . .

والسياق القرآني يواجههم بسخف هذا الاعتقاد . . يواجههم بكلمة واحدة:
(وخلقهم) . .

وهي لفظة واحدة , ولكنها تكفي للسخرية من هذا التصور ! فإذا كان الله سبحانه هو الذي(خلقهم) فكيف يكونون شركاء له في الألوهية والربوبية ?!

ولم تكن تلك وحدها دعواهم . فأوهام الوثنية متى انطلقت لا تقف عند حد من الانحراف . بل كانوا يزعمون له سبحانه بنين وبنات:

(وخرقوا له بنين وبنات بغير علم).

"وخرقوا أي: اخلقوا . . وفي لفظها جرس خاص وظل خاص ; يرسم مشهد الطلوع بالفرية التي تخرق وتشق !

خرقوا له بنين: عند اليهود: عزيز . وعند النصارى: المسيح: وخرقوا له بنات . عند المشركين: الملائكة . وقد زعموا أنهم إناث . . ولا يدري أحد طبعاً لماذا هم إناث ! فالادعاءات كلها لا تقوم على أساس من علم . . فكلها (بغير علم) . .

(سبحانه وتعالى عما يصفون) . .

ثم يواجه فريتهم هذه وتصوراتهم بالحقيقة الإلهية , ويناقشهم في هذه التصورات بما يكشف عما فيها من هلهلة:

(بديع السماوات والأرض . أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة . وخلق كل شيء , وهو بكل شيء عليم) . .

إن الذين يبدع هذا الوجود إبداعاً من العدم ما تكون حاجته إلى الخلق ! ? والخلق إنما هو امتداد الفانين , وعون الضعفاء , ولذة من لا يبدعون !

بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ يَكْلُمُ
شَيْءٍ عَالِمٌ (101)

ثم هم يعرفون قاعدة التكاثر . . أن يكون للكائن صاحبة أنثى من جنسه . . فكيف يكون لله ولد - وليست له صاحبة - وهو - سبحانه - مفرد أحد , ليس كمثله شيء . فأنى يكون النسل بلا تزواج ?!

وهي حقيقة , ولكنها تواجه مستواهم التصوري ; وتخطبهم بالأمثلة القريبة من حياتهم ومشاهداتهم !

ويتكىء السياق - في مواجهتهم - على حقيقة "الخلق" لنفي كل ظل للشرك . فالمخلوق لا يكون أبدا شريكا للخالق . وحقيقة الخالق غير حقيقة المخلوق: كما يواجههم بعلم الله المطلق الذي لا تقابله منهم إلا أوهام وظنون:

(وخلق كل شيء).. .

(وهو بكل شيء عليم).. .

الدرس السادس:102 التعريف على الله الخالق الوكيل المعبود

وكما واجههم السياق القرآني بحقيقة أن الله (خلق كل شيء), ليرتب عليها تهافت تصوراتهم بأن لله - سبحانه - بنين وبنات , أو أن له شركاء الجن - وهو خلقهم - فإنه يتكىء على هذه الحقيقة مرة أخرى . لتقرير أن الذي يعبد ويخضع له ويطاع , ويعترف له بالدينونة وحده هو خالق كل شيء , فلا إله إذن غيره , ولا رب إذن سواه:

(ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو , خالق كل شيء ; فاعبدوه , وهو على كل شيء وكيل).. .

إن تفرد الله سبحانه بالخلق , يفرد سبحانه بالملك . والمتفرد بالخلق والملك يتفرد كذلك بالرزق . فهو خالق خلقه ومالكهم , فهو كذلك يرزقهم من ملكه الذي ليس لأحد شرك فيه . فكل ما يقاته الخلق وكل ما يستمتعون به فإنما هو من هذا الملك الخالص لله . . فإذا تقررت هذه الحقائق . . الخلق والملك والرزق . . تقرر معها - ضرورة وحتمًا - أن تكون الربوبية له سبحانه . فتكون له وحده خصائص الربوبية - وهي القوامة والتوجيه والسلطان الذي يخضع له ويطاع , والنظام الذي يتجمع عليه العباد - وتكون له وحده العبادة بكل مدلولاتها . ومنها الطاعة والخضوع والاستسلام .

ولم يكن العرب - في جاهليتهم - ينكرون أن الله هو خالق هذا الكون , وخالق الناس , ورزقهم كذلك من ملكه , الذي ليس وراءه ملك تقتات منه العباد ! . . وكذلك لم تكن الجاهليات الأخرى تنكر هذه الحقائق - على قلة من الفلاسفة الماديين من الإغريق ! - ولم تكن هنالك هذه المذاهب المادية التي تنتشر اليوم بشكل أوسع مما عرف أيام الإغريق . . لذلك لم يكن الإسلام يواجه في الجاهلية العربية إلا الانحراف في التوجه بالشعائر التعبدية لألهة - مع الله - على سبيل الزلفى والقربى من الله ! - وإلا الانحراف في تلقي الشرائع والتقاليد التي تحكم حياة الناس . . أي أنه لم يكن يواجه الإلحاد في وجود الله - سبحانه - كما يقول اليوم "ناس" ! أو كما يتبحون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير !

والحق أن هؤلاء الذين يجادلون في وجود الله اليوم قلة . وسيظلون قلة . إنما الانحراف الأساسي هو ذاته الذي كان في الجاهلية . وهو تلقي الشرائع في شؤون الحياة من غير الله . . وهذا هو الشرك التقليدي الأساسي الذي قامت عليه الجاهلية العربية , وكل الجاهليات أيضا !

والقلة الشاذة التي تجادل في وجود الله اليوم لا تعتمد على "العلم" وإن كانت هذه دعواها . فالعلم البشري ذاته لا يملك أن يقرر هذا الإلحاد ولا يجد عليه دليلا لا من هذا العلم ولا من طبيعة الكون . . إنما هي لوثة سببها الأول الشرود من الكنيسة وإلهها الذي

كانت تستدل به الرقاب من غير أصل من الدين . . ثم نقص في التكوين الفطري لهؤلاء
المجادلين , ينشأ عنه تعطل في الوظائف الأساسية للكينونة البشرية . . كما يقع
للأمساح من المخلوقات . . !

ومع أن حقيقة الخلق والتقدير فيه - كحقيقة انبثاق الحياة أيضا - لم تكن تساق في
القرآن لإثبات وجود الله - إذ كان الجدل في وجوده تعالى سخفا لا يستحق من جدية
القرآن العناية به - إنما كانت تساق لرد الناس إلى الرشاد , كي ينفذوا في حياتهم ما
تقتضيه تلك الحقيقة من ضرورة إفراد الله سبحانه بالألوهية والربوبية والقوامة
والحاكمية في حياتهم كلها ; وعبادته وحده بلا شريك . .

مع هذا فإن حقيقة الخلق والتقدير فيه - كحقيقة انبثاق الحياة أيضا - تقذف في وجوه
الذين يجادلون في الله - سبحانه - بالحجة الدامغة التي لا يملكون بإزائها إلا المراء . وإلا
التبحر الذي يصل إلى حد الاستهتار في كثير من الأحيان !

"جوليان هاكسلي" مؤلف كتاب: "الإنسان يقوم وحده" وكتاب "الإنسان في العالم
الحديث" من هؤلاء المتبحرين المستهترين ; وهو يقذف بالمقررات التي لا سند لها إل
هواه وهو يقول في كتاب "الإنسان في العالم الحديث" ; في فصل: "الدين كمسألة
موضوعية" ذلك الكلام !

"ولقد أوصلنا تقدم العلوم والمنطق وعلم النفس إلى طور أصبح فيه الإله فرضا عديم
الفائدة , وطردته العلوم الطبيعية من عقولنا , حتى اختفى كحاكم مدبر للكون , وأصبح
مجرد "أول سبب" أو أساسا عاما غامضا .

"ول ديورانت" مؤلف كتاب "مباهج الفلسفة" يقول: إن الفلسفة تبحث عن الله ,
ولكنه ليس "إله اللاهوتيين الذين يتصورونه خارج عالم الطبيعة . بل إله الفلاسفة ; وهو
قانون العالم وهيكله , وحياته ومشئته" . . وهو كلام لا تستطيع إمساكه ! ولكنه كلام
يقال !

ونحن لا نحاكم هؤلاء الخاطئين في الظلام إلى قرآنا , ولا نحاكمهم كذلك إلى عقولنا
المنضبطة بهدى هذا القرآن . إنما نكلهم إلى أندايمهم من "العلماء" وإلى العلم البشري
الذي يواجه هذه القضية بشيء من الجد والتعقل . .

يقول جون كليفلاند كوتران: [من علماء الكيمياء والرياضة . دكتوراه من جامعة كورنيل .
رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولث] . من مقال: "النتيجة الحتمية" من
كتاب: "الله يتجلى في عصر العلم":

"فهل يتصور عاقل , أو يفكر , أو يعتقد , أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد
أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة ? أو أنها هي التي أوجدت هذا النظام وتلك
القوانين , ثم فرضته على نفسها ? لا شك أن الجواب سوف يكون سلبيا . بل إن المادة
عندما تتحول إلى طاقة أو تتحول الطاقة إلى مادة , فإن كل ذلك يتم طبقا لقوانين
معينة . والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التي تخضع لها المادة التي وجدت قبلها .

"وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء ; ولكن بعضها يسير نحو
الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة . وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية

. ومعنى ذلك أيضا أنها ليست أزلية . إذ أن لها بداية .

وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية ، بل وجدت بصورة فجائية . وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد . وعلى ذلك فإن هذا العالم المادي لا بد أن يكون مخلوقا . وهو منذ أن خلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة ، ليس لعنصر المصادفة بينها مكان .

"فإذا كان هذا العالم المادي عاجزا عن أن يخلق نفسه ، أو يحدد القوانين التي يخضع لها ، فلا بد أن يكون الخلق قد تم بقدره كائن غير مادي . وتدلل الشواهد جميعا على أن هذا الخالق لا بد أن يكون متصفا بالعقل والحكمة . إلا أن العقل لا يستطيع أن يعمل في العالم المادي - كما في ممارسة الطب والعلاج السيكلوجي - دون أن يكون هنالك إرادة . ولا بد لمن يتصف بالإرادة أن يكون موجودا وجودا ذاتيا . . . وعلى ذلك فإن النتيجة المنطقية الحتمية التي يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على أن لهذا الكون خالقا فحسب ، بل لا بد أن يكون هذا الخالق حكيما عليمًا قادرا على كل شيء ، حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره ؛ ولا بد أن يكون هذا الخالق دائم الوجود ، تتجلى آياته في كل مكان . وعلى ذلك فإنه لا مفر من التسليم بوجود الله ، خالق هذا الكون وموجهه - كما أشرنا إلى ذلك في بداية المقال .

"إن التقدم الذي أحرزته العلوم منذ أيام لورد كيلفن يجعلنا نؤكد بصورة لم يسبق لها مثيل ، ما قاله من قبل ، من أننا إذا فكرنا تفكيرًا عميقًا ، فإن العلوم سوف تضطرنا إلى الإيمان بالله" . . .

ويقول فرانك ألن عالم الطبيعة البيولوجية في مقال "نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد" من الكتاب نفسه:

"كثيرا ما يقال: إن هذا الكون المادي لا يحتاج إلى خالق . ولكننا إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود ، فكيف نفسر وجوده ؟ . . . هنالك أربعة احتمالات للإجابة على هذا السؤال: فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال - وهو ما يتعارض مع القضية التي سلمنا بها حول وجوده - وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم . وإما أن يكون أزليا ليس لنشأته بداية . وإما أن يكون له خالق .

أما الاحتمال الأول فلا يقيم أمامنا مشكلة سوى مشكلة الشعور والإحساس ، فهو يعني أن إحساسنا بهذا الكون وإدراكنا لما يحدث فيه لا يعدو أن يكون وهما من الأوهام ، ليس له ظل من الحقيقة . ولقد عاد إلى هذا الرأي في العلوم الطبيعية أخيرا سير جيمس جينز ، الذي يرى أن هذا الكون ليس له وجود فعلي ، وأنه مجرد صورة في أذهاننا . وتبعنا لهذا الرأي نستطيع أن نقول: إننا نعيش في عالم من الأوهام ! فمثلا هذه القطارات التي نركبها ونلمسها ليست إلا خيالات ؛ وبها ركاب وهميون ، وتعبر أنهارا لا وجود لها ، وتسير فوق جسور غير مادية . . الخ . وهو رأي وهمي لا يحتاج إلى مناقشته أو جدال !

"أما الرأي الثاني القائل بأن هذا العالم ، بما فيه من مادة وطاقة ، قد نشأ هكذا وحده من العدم ، فهو لا يقل عن سابقه سخفا وحماقة ؛ ولا يستحق هو أيضا أن يكون موضعا للنظر أو المناقشة .

دَلِكُمْ اللّٰهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102)

"والرأي الثالث الذي يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية , إنما يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون - وذلك في عنصر واحد هو الأزلية - وإذن فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت , وإما أن ننسبها إلى إله حي يخلق , وليس هنالك صعوبة فكرية في الأخذ بأحد هذين الاحتمالين أكثر مما في الآخر . ولكن قوانين "الديناميكا الحرارية " تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا , وأنها سائرة حتما إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض , هي الصفر المطلق ; ويومئذ تنعدم الطاقة , وتستحيل الحياة . ولا مناص من حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقات عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق , بمضي الوقت . أما الشمس المستعرة , والنجوم المتوهجة , والأرض الغنية بأنواع الحياة , فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة , فهو إذن حدث من الأحداث . . ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي , ليس له بداية , عليم محيط بكل شيء , قوي ليس لقدرته حدود , ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه " .

الله - سبحانه - خالق كل شيء . لا إله إلا هو . .

هذه هي القاعدة التي يقيم عليها السياق القرآني هنا وجوب عبادة الله وحده . ووجوب ربوبيته وحده - بكل مدلولات الربوبية من الحكم والتربية والتوجيه والقوامة :

(ذلكم الله ربكم . لا إله إلا هو: خالق كل شيء . فاعبدوه . وهو على كل شيء وكيل) . .

فهي القوامة لا على البشر وحدهم , ولكن على كل شيء كذلك . بما أنه هو خالق كل شيء . . . وهذا هو المقصود من تقرير تلك القاعدة , التي لم يكن المشركون - في جاهليتهم - يجحدونها . ولكنهم ما كانوا يسلمون بمقتضاها . وهو: الخضوع والطاعة لحاكمية الله وحده والدينونة لسلطانه بلا شريك . .

الدرس السابع: 103 - 104 الله يدرك الأبصار وهي لا تدركه والقرآن بصائر

ثم تعبير عن صفة الله سبحانه , يغشى الجوانح والحنايا بظلال ما أحسب أن لغة البشر تملك لها وصفا , فلندعها تلقي ظلالها في شفافية ولين ; وترسم المشهد الذي يغلف فيه ما يهول ويروع من صفة الله , بما يطمئن ويروح , ويشف شفافية النور:

(لا تدركه الأبصار , وهو يدرك الأبصار , وهو اللطيف الخبير) . .

إن الذين كانوا يطلبون في سذاجة أن يروا الله , كالذين يطلبون في سماجة دليلا ماديا على الله ! هؤلاء هؤلاء لا يدركون ماذا يقولون !

إن أبصار البشر وحواسهم وإدراكهم الذهني كذلك . . كلها إنما خلقت لهم ليزاولوا بها التعامل مع هذا الكون , والقيام بالخلافة في الأرض . . وإدراك آثار الوجود الإلهي في صفحات هذا الوجود المخلوق . . فأما ذات الله - سبحانه - فهم لم يوهبوا القدرة على إدراكها . لأنه لا طاقة للحدث الفاني أن يرى الأزلي

لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103) قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ (104)

الأبدي . فضلا على أن هذه الرؤية لا تلزم لهم في خلافة الأرض . وهي الوظيفة التي هم معانون عليها وموهوبون ما يلزم لها . .

وقد يفهم الإنسان سذاجة الأولين . ولكنه لا يملك أن يفهم سماجة الآخرين ! إن هؤلاء يتحدثون عن "الذرة" وعن "الكهرب" وعن "البروتون" وعن "النيوترون" . . وواحد منهم لم ير ذرة ولا كهربا ولا بروتونا ولا نيوترونا في حياته قط . فلم يوجد بعد الجهاز المكبر الذي يضبط هذه الكائنات . . ولكنها مسلمة من هؤلاء كفرض , ومصدق هذا الفرض أن يقدروا آثارا معينة تقع لوجود هذه الكائنات . فإذا وقعت هذه الآثار [جزموا] بوجود الكائنات التي أحدثتها ! بينما قصارى ما تصل إليه هذه التجربة هو "احتمال" وجود هذه الكائنات على الصفة التي افترضوها ! . . ولكنهم حين يقال لهم عن وجود الله - سبحانه - عن طريق آثار هذا الوجود التي تفرض نفسها فرضا على العقول ! يجادلون في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير , ويطلبون دليلا ماديا تراه الأعين . .

كأن هذا الوجود بجملته , وكأن هذه الحياة بأعاجيبها لا تكفي لتكون هذا الدليل !

وكذلك يعقب السياق القرآني على ما عرضه من آيات في صفحة الوجود وفي مكنونات النفوس . وعلى تقريره عن ذات الله سبحانه بأنه: (لا تدركه الأبصار , وهو يدرك الأبصار , وهو اللطيف الخبير).

يعقب السياق على هذا الوصف الذي لا تملك لغة البشر أن تشرحه أو تصفه . . بقوله: (قد جاءكم بصائر من ربكم , فمن أبصر فلنفسه , ومن عمي فعليها , وما أنا عليكم بحفيظ).

فهذا الذي جاء من عند الله . . بصائر . . والبصائر تهتدي وتهدي . . وهذا بذاته . . بصائر . تهدي .

فمن أبصر فلنفسه وإنما يجد الهدى والنور . وليس وراء ذلك إلا العمى . فما يبقى على الضلال بعد هذه الآيات والبصائر إلا أعمى . . معطل الحواس . مغلق المشاعر . مطموس الضمير . .

وبوجه النبي [ص] أن يعلن براءته من أمرهم ومغيبته: (وما أنا عليكم بحفيظ).

ولا يفوتنا أن نلمح التناسق في الجو والظلال والعبارة بين قوله في الآية السابقة: في صفة الله سبحانه: (لا تدركه الأبصار , وهو يدرك الأبصار , وهو اللطيف الخبير). . وبين قوله في الآية اللاحقة: (قد جاءكم بصائر من ربكم , فمن أبصر فلنفسه , ومن عمي فعليها). . واستخدام الأبصار والبصائر , والبصر والعمى , في السياق المتناسق المتناغم . .

الدرس الثامن: 105 - 107 توجيهات للرسول حول الدعوة والأتباع

بعد ذلك يلتفت السياق إلى الرسول [ص] فيتحدث عن تصريف الآيات على هذا المستوى , الذي لا يتناسب مع أمية النبي [ص] وبيئته ; والذي يدل بذاته على مصدره الرباني - لمن تتفتح بصيرته - ولكن المشركين ما كانوا يريدون الاقتناع بالآيات . ومن ثم كانوا يقولون: إن محمدا درس هذه القضايا العقيدية والكونية مع أحد أهل الكتاب ! وما دروا أن أهل الكتاب ما كانوا يعلمون شيئا على هذا المستوى الذي يحدثهم محمد فيه ; وما كان أهل الأرض جميعا - وما يزالون - يبلغون شيئا من هذا المستوى السامق على

كل ما عرف البشر وما يعرفون . ومن ثم يوجه الرسول [ص] إلى اتباع ما أوحى إليه والإعراض عن المشركين:

وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106)

(وكذلك نصرف الآيات , وليقولوا: درست , ولنبينه لقوم يعلمون . اتبع ما أوحى إليك من ربك , لا إله إلا هو , وأعرض عن المشركين . ولو شاء الله ما أشركوا . وما جعلناك عليهم حفيظا , وما أنت عليهم بوكيل) . .

إن الله يصرف آياته على هذا المستوى الذي لا عهد للعرب به ; لأنه ليس نابعا من بيئتهم - كما أنه ليس نابعا من البيئة البشرية على العموم - فينتهي هذا التصريف إلى نتيجتين متقابلتين في البيئة:

فأما الذين لا يريدون الهدى , ولا يرغبون في العلم , ولا يجاهدون ليلبغوا الحقيقة . فهؤلاء سيحاولون أن يجدوا تعليلا لهذا المستوى الذي يخاطبهم به محمد - وهو منهم - وسيختلقون ما يعلمون أنه لم يقع . فما كان شيء من حياة محمد خافيا عليهم قبل الرسالة ولا بعدها . . ولكنهم يقولون: درست هذا يا محمد مع أهل الكتاب وتعلمته منهم ! وما كان أحد من أهل الكتاب يعلم شيئا على هذا المستوى . . وهذه كتب أهل الكتاب التي كانت بين أيديهم يومذاك ما تزال بين أيدينا . والمسافة شاسعة شاسعة بين هذا الذي في أيديهم وهذا القرآن الكريم . . إن ما بين أيديهم إن هو إلا روايات لا ضابط لها عن تاريخ الأنبياء والملوك مشوبة بأساطير وخرافات من صنع أشخاص مجهولين - هذا فيما يختص بالعهد القديم - فأما العهد الجديد - وهو الأناجيل - فما يزيد كذلك على أن يكون روايات رواها تلاميذ المسيح - عليه السلام - بعد عشرات السنين ; وتداولتها المجمع بالتحريف والتبديل والتعديل على ممر السنين . وحتى المواضع الخلقية والتوجيهات الروحية لم تسلم من التحريف والإضافة والنسيان . . وهذا هو الذي كان بين أيدي أهل الكتاب حينذاك , وما يزال . . فأين هذا كله من القرآن الكريم !? ولكن المشركين - في جاهليتهم - كانوا يقولون هذا ; وأعجب العجب أن جاهليين في هذا العصر من "المستشرقين" و"المتمسلمين" ! يقولون هذا القول فيسمى الآن "علمًا" و"بحثًا" و"تحقيقًا" لا يبلغه إلا المستشرقون !

فأما الذين (يعلمون) حقا , فإن تصريف الآيات على هذا النحو يؤدي إلى بيان الحق لهم فيعرفونه:

(ولنبينه لقوم يعلمون) . .

ثم تقع المفاصلة بين قوم مبصرين يعلمون , وقوم عمي لا يعلمون !

ويصدر الأمر العلوي للنبي الكريم , وقد صرف الله الآيات , فافترق الناس في مواجهتها فريقين . . يصدر الأمر العلوي للنبي [ص] أن يتبع ما أوحى إليه , وأن يعرض عن المشركين , فلا يحفلهم ولا يحفل ما يقولون من قول متهافت , ولا يشغل باله بتكذيبهم وعنادهم ولجاجهم . فإنما سبيله أن يتبع ما أوحى إليه من ربه ; فيصوغ حياته كلها على

أساسه ; ويصوغ نفوس أتباعه كذلك . ولا عليه من المشركين ; فإنما هو يتبع وحي الله , الذي لا إله إلا هو , فماذا عليه من العبيد !?

(اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو , وأعرض عن المشركين) . .

ولو شاء الله أن يلزمهم الهدى لألزمهم , ولو شاء أن يخلقهم ابتداء لا يعرفون إلا الهدى كالملائكة لخلقهم . ولكنه سبحانه خلق الإنسان بهذا الاستعداد للهدى وللضلال , وتركه يختار طريقه ويلقى جزاء الاختيار - في حدود المشيئة المطلقة التي لا يقع في الكون إلا ما تجري به , ولكنها لا ترغم إنسانا على الهدى أو الضلال - وخلقه على هذا النحو لحكمة يعلمها ; وليؤدي دوره في هذا الوجود كما قدره الله له . باستعداداته هذه وتصرفاته:

(ولو شاء الله ما أشركوا) . .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بَوَكِيلٍ (107) وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (108)

وليس الرسول [ص] مسؤولاً عن عملهم , وهو لم يوكل بقلوبهم فالوكيل عليها هو الله:

(وما جعلناك عليهم حفيظاً , وما أنت عليهم بوكيل) . .

وهذا التوجيه لرسول الله [ص] يحدد المجال الذي يتناوله اهتمام الرسول [ص] وعمله: كما يحدد هذا المجال لخلفائه وأصحاب الدعوة إلى دينه في كل أرض وفي كل جيل . .

إن صاحب الدعوة لا يجوز أن يعلق قلبه وأمله وعمله بالمعرضين عن الدعوة , المعاندين , الذين لا تتفتح قلوبهم لدلائل الهدى وموحيات الإيمان . . إنما يجب أن يفرغ قلبه , وأن يوجه أمله وعمله للذين سمعوا واستجابوا . فهؤلاء في حاجة إلى بناء كياناتهم كله على القاعدة التي دخلوا الدين عليها . . قاعدة العقيدة . . وفي حاجة لإنشاء تصور لهم كامل عميق عن الوجود والحياة على أساس هذه العقيدة . وفي حاجة إلى بناء أخلاقهم وسلوكهم ; وبناء مجتمعهم الصغير على هذا الأساس نفسه . وهذا كله يحتاج إلى الجهد . ويستحق الجهد . فأما الواقفون على الشق الآخر , فجزاؤهم الإهمال والإعراض بعد الدعوة والبلاغ . . وحين ينمو الحق في ذاته فإن الله يجري سنته , فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق . . إن على الحق أن يوجد ومتى وجد الحق في صورته الصادقة الكاملة , فإن شأن الباطل هين , وعمره كذلك قريب !

الدرس التاسع: 108 النهي عن سب آلهة المشركين وسد الذريعة

ومع أمر الرسول [ص] بالإعراض عن المشركين , فقد وجه المؤمنين إلى أن يكون هذا الإعراض في أدب , وفي وقار , وفي ترفع , يليق بالمؤمنين . . لقد أمروا ألا يسبوا آلهة المشركين مخافة أن يحمل هذا أولئك المشركين على سب الله سبحانه - وهم لا يعلمون جلال قدره وعظيم مقامه - فيكون سب المؤمنين لأهتهم المهينة الحقيرة ذريعة لسب الله الجليل العظيم:

(ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم . كذلك زينا لكل أمة عملهم . ثم إلى ربهم مرجعهم , فينبئهم بما كانوا يعملون).

إن الطبيعة التي خلق الله الناس بها , أن كل من عمل عملا , فإنه يستحسنه , ويدافع عنه ! فإن كان يعمل الصالحات استحسناها ودافع عنها . وإن كان يعمل السيئات استحسناها ودافع عنها . وإن كان على الهدى رآه حسنا , وإن كان على الضلال رآه حسنا كذلك ! فهذه طبيعة في الإنسان . . وهؤلاء يدعون من دون الله شركاء . . مع علمهم وتسليمهم بأن الله هو الخالق الرازق . . ولكن إذا سب المسلمون ألهتهم هؤلاء اندفعوا وعدوا عما يعتقدونه من ألوهية الله , دفاعا عما زين لهم من عبادتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وتقاليدهم ! . .

فليدعهم المؤمنون لما هم فيه:

(ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون) . .

وهو أدب يليق بالمؤمن , المطمئن لدينه , الواثق من الحق الذي هو عليه . الهادى القلب , الذي لا يدخل فيما لا طائل وراءه من الأمور . فإن سب ألهتهم لا يؤدي بهم إلى الهدى ولا يزيدهم إلا عنادا . فما للمؤمنين وهذا الذي لا جدوى وراءه . وإنما قد يجرحهم إلى سماع ما يكرهون . من سب المشركين لربهم الجليل العظيم !?

الدرس العاشر: 109 - 110 طلب المشركين لمعجزات مادية والرد عليهم

وأخيرا يختم هذا الدرس , الذي استعرض فيه صفحة الوجود الحافلة بالآيات والخوارق , في كل لحظة من ليل أو نهار . . يختمه بأن هؤلاء المشركين يقسمون بالله جهد أيمانهم أن لو جاءتهم آية - أي خارقة مادية كخوارق الرسل السابقة - ليؤمنن بها ! الأمر الذي جعل بعض المسلمين حين سمعوا أيمانهم يقترحون على رسول

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (109) وَنُقَلِّبُ أَفئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَتَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (110)

الله [ص] أن يسأل ربه هذه الآية التي يطلبون ! . . وبجيء الرد الحاسم على المؤمنين , ببيان طبيعة التكذيب في هؤلاء المكذبين:

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها . قل: إنما الآيات عند الله . وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ? ونقلب أفئدتهم وأبصارهم , كما لم يؤمنوا به أول مرة , ونذرهم في طغيانهم يعمهون . ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة , وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا - إلا أن يشاء الله - ولكن أكثرهم يجهلون).

إن القلب الذي لا يؤمن بآيات الله الماثورة في هذا الوجود - بعد توجيهه إليها على هذا النحو العجيب الذي تكفل به هذا الكتاب العجيب - ولا توحى آيات الله الماثورة في الأنفس والآفاق إليه أن يبادر إلى ربه , ويشوب إلى كنفه . . إن هذا القلب هو قلب مقلوب . . والذي عاق هؤلاء عن الإيمان في أول الأمر , ما الذي يدري المسلمين الذين

يقترحون إجابة طلبهم , أن يعوقهم عن الإيمان بعد ظهور الخارقة ? إن الله هو الذي يعلم حقيقة هذه القلوب . . وهو يذر المكذبين في طغيانهم يعمهون , لأنه يعلم منهم أنهم يستحقون جزاء التكذيب ; كما يعلم عنهم أنهم لا يستجيون . . لا يستجيون ولو نزل إليهم الملائكة كما يقترحون ! ولو بعث لهم الموتى يكلمونهم - كما اقترحوا كذلك ! - ولو حشر الله عليهم كل شيء في هذا الوجود يواجههم ويدعوهم إلى الإيمان ! . . إنهم لا يؤمنون - إلا أن يشاء الله - والله سبحانه لا يشاء , لأنهم هم لا يجاهدون في الله ليهديهم الله إليه . . وهذه هي الحقيقة التي يجهلها أكثر الناس عن طبائع القلوب . .

إنه ليس الذي ينقص الذين يلجون في الضلال أنه لا توجد أمامهم دلائل وبراهين . . إنما الذي ينقصهم أفة في القلب , وعطل في الفطرة , وانطماس في الضمير . .

وإن الهدى جزاء لا يستحقه إلا الذين يتجهون إليه , والذين يجاهدون فيه . .

انتهى الجزء السابع ويليه الجزء الثامن مبدوءاً بقوله تعالى:

(ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة)

بسم الله الرحمن الرحيم

بقية سورة الأنعام وأول سورة الأعراف

الجزء الثامن

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الجزء الثامن

هذا الجزء الثامن مؤلف من شطرين: الشطر الأول هو بقية سورة الأنعام - التي سبق شطرها الأول في الجزء السابع - والشطر الثاني هو من سورة الأعراف . .

ولقد سبق التعريف بسورة الأنعام في الجزء السابع ; وسنحاول هنا أن نصل قارئ هذا الجزء بالتعريف الذي تضمنه ذلك الجزء . أما الكلام عن سورة الأعراف فسيجيء في موضعه - إن شاء الله - عندما نواجه السورة .

تمضي بقية سورة الأنعام على منهج السورة الذي أوضحناه في التعريف بها في الجزء السابع . والذي يحسن أن نشير إليه ملخصاً في فقرات مجملة:

جاء في التعريف بالسورة هذه الفقرات:

"إنها - في جملتها - تعرض "حقيقة الألوهية" . تعرضها في مجالي الكون والحياة . كما تعرضها في مجالي النفس والضمير . . وتعرضها في مجاهيل هذا الكون المشهود , كما تعرضها في مجاهيل ذلك الغيب المكنون . .

وتعرضها في النشأة الكونية , والنشأة الحيوية , والنشأة الإنسانية ; كما تعرضها في مصارع الغابرين , واستخلاف المستخلفين . . وتعرضها في مشاهد الفطرة وهي تواجه الكون , وتواجه الأحداث , وتواجه النعماء والضراء ; كما تعرضها في مظاهر القدرة

الإلهية والهيمنة في حياة البشر الظاهرة والمستكنة , وفي أحوالهم الواقعة والمتوقعة . . وأخيراً تعرضها في مشاهد القيامة , ومواقف الخلائق , وهي موقوفة على ربها الخالق . . .

"هكذا تطوّف السورة بالقلب البشري في هذه الآماد والآفاق , وفي هذه الأغوار والأعماق . . ولكنها تمضي في هذا كله على منهج القرآن المكي - الذي أسلفنا الحديث عنه في الصفحات السابقة - وعلى منهج القرآن كله . . إنها لا تهدف إلى تصوير "نظرية" في العقيدة , ولا إلى جدل لاهوتي يشغل الأذهان والأفكار . . إنما تهدف إلى تعريف الناس بربهم الحق , لتصل من هذا التعريف إلى تعبيد الناس لربهم الحق . . تعبيد ضمائرهم وأرواحهم , وتعبيد سعيهم وحركتهم , وتعبيد تقاليدهم وشعائرهم , وتعبيد واقعهم كله لهذا السلطان المتفرد . .

سلطان الله الذي لا سلطان غيره في الأرض ولا في السماء .

"وبكاد اتجاه السورة كله يمضي إلى هذا الهدف المحدد . . من أولها إلى آخرها . . فالله هو الخالق . والله هو الرازق , والله هو المالك . والله هو صاحب القدرة والقهر والسلطان . والله هو العليم بالغيوب والأسرار . والله هو الذي يقلب القلوب والأبصار كما يقلب الليل والنهار . . وكذلك يجب أن يكون الله هو الحاكم في حياة العباد ; وألا يكون لغيره أمر ولا نهي , ولا شرع ولا حكم , ولا تحليل ولا تحريم . . فهذا كله من خصائص الألوهية , ولا يجوز أن يزاوله في حياة الناس أحد من دون الله , لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت , ولا يضر ولا ينفع , ولا يمنح ولا يمنع , ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً في الدنيا ولا في الآخرة . . وسياق السورة يسوق على هذه القضية أدلته في تلك المشاهد والمواقف والإيقاعات البالغة حد الروعة الباهرة , والتي تواجه القلب بالحشود الحاشدة من المؤثرات الموحية , من كل درب ومن كل باب !

"والقضية الكبرى التي تعالجها السورة هي قضية "الألوهية والعبودية" في السماوات والأرض في محيطها الواسع , وفي مجالها الشامل . . ولكن المناسبة الحاضرة في حياة الجماعة المسلمة حينذاك . . المناسبة التطبيقية لهذه القاعدة الكبيرة الشاملة . . هي ما تزاوله الجاهلية من حق التحريم والتحليل في الذبائح والمطاعم ; ومن حق تقرير الشعائر في النذور من الذبائح والثمار . . والاولاد . . وهي المناسبة التي تتحدث عنها هذه الآيات في أواخر السورة:

فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه , وقد فصل لكم ما حرم عليكم - إلا ما اضطررتم إليه 0 وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم . إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه . إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون . ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه , وإنه لفسق , وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم , وإن أطعتموهم إنكم لمشركون . . . [118 - 121]

(وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً , فقالوا: هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله , وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . ساء ما يحكمون ! وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم , ليردوهم , وليلبسوا عليهم دينهم . ولو شاء الله ما فعلوه , فذرهم وما يفترون . وقالوا: هذه أنعام وحرث حجر , لا يطعمها إلا من نشاء - بزعمهم - وأنعام حرمت ظهورها , وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها - افتراء عليه - سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا: ما في بطون

هذه الأنعام خالصة لذكورنا , ومحرم على أزواجنا , وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء .
سيجزئهم وصفهم . إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم ,
وحرّموا ما رزقهم الله - افتراء على الله - قد ضلوا وما كانوا مهتدين . . . [136 - 140] .

"هذه هي المناسبة الحاضرة في حياة الأمة المسلمة - والجاهلية من حولها - التي تتمثل فيها تلك القضية الكبيرة . . قضية التشريع والحاكمة . . ومن ورائها القضية الكبرى . . قضية الألوهية والعبودية التي تواجهها السورة كلها , وبالعجاها القرآن المكي كله , كما يعالجها القرآن المدني أيضاً , كلما جاء ذكر النظام فيه وذكر التشريع .

"والحشد الذي يتدفق به سياق السورة من التقريرات والمؤثرات , وهو يواجه الجاهلية وأهلها في أمر هذه الأنعام والذبايح والنذور وهي المناسبة التي تتمثل فيها قضية حق الحاكمية والتشريع - وربطها بقضية العقيدة كلها . . قضية الألوهية والعبودية . . وجعلها مسألة إيمان أو كفر , ومسألة إسلام أو جاهلية . . هذا الحشد - على هذا النحو الذي سنحاول أن نستعرض نماذج منه في هذا التعريف المختصر بالسورة , والذي سيتجلى على حقيقته في المواجهة التفصيلية للنصوص في السياق بعد ذلك - يوقع في النفس تلك الحقيقة الأصيلة في طبيعة هذا الدين . وهي أن كل جزئية صغيرة في الحياة الإنسانية يجب أن تخضع خضوعاً مطلقاً لحاكمية الله المباشرة الممثلة في شريعته . وإلا فهو الخروج من هذا الدين جملة , من أجل الخروج على حاكمية الله المطلقة في تلك الجزئية الصغيرة . كذلك يدل ذلك الحشد على مدى الأهمية التي ينوطها هذا الدين بتخليص مظهر الحياة كله من ظلال حاكمية البشر في أي شأن من شؤون البشر - جل أم حقر , كبر أم صغر - وربط أي شأن من هذه الشؤون بالأصل الكبير الذي يتمثل فيه هذا الدين . . وهو حاكمية الله المطلقة التي تتمثل فيها ألوهيته في الأرض , كما تتمثل ألوهيته في الكون كله بتصريف أمر هذا الكون كله بلا شريك . .

هذه المناسبة التي كانت حاضرة في حياة الأمة المسلمة - والجاهلية من حولها - والتي عالجها سياق السورة على هذا النحو الذي سبقت الإشارة إليه في هذه المقتطفات . . هي هي موضوع بقية السورة التي سنعالجها في هذا الجزء . بعدما مضى الشطر الأول من السورة في عرض قضية الألوهية والعبودية في محيطها الشامل ; وانتهى السياق إلى مواجهة هذه المناسبة الواقعية , فربط بينها وبين القضية الكبرى , ذلك الربط القوي المباشر .

إن السياق القرآني يحشد - لمواجهة تلك التقاليد الجاهلية في تحريم بعض المطاعم وتحليل بعضها ; وفي النذور من الثمار والأنعام والأولاد - حشداً ضخماً من المؤثرات والتقريرات ; ويربطها بجملة من الحقائق والقواعد , هي حقائق هذا الدين وقواعده الأساسية ; ويقدم لها ويعقب عليها تقدمات ضخمة وتعقيبات هائلة ; مما يدل على الأهمية البالغة التي ينوطها هذا الدين , بتخليص الحياة كلها من قبضة الجاهلية ; وردّها بجملتها إلى الإسلام . . أي إلى سلطان الله وحده . .

وهكذا يبدأ السياق بتقديمه لهذه القضية عن إحاطة مشيئة الله بالعباد جميعاً: جنهم وإنسهم . وجريان الأحداث في هذه العوالم بمشيئته وقدره ; واستدراجه لأعداء الرسل من شياطين الإنس والجن ; وإمهاله لهم , ليقتربوا ما هم مقتربون ; ولو شاء الله لقهروهم على الهدى ولكفهم عن الضلال قهراً أو لهداهم إلى الحق وشرح صدورهم له . أو لكفهم عن أذى الرسل والمؤمنين فلم يصلوا إليهم . فهم لا يعادون الرسل , ولا يقتربون ما يقتربون , خروجاً على سلطان الله ومشيئته ; فهم أعجز من أن يخرجوا

على سلطان الله ومشيبته . إنما هي مشيئة الله اقتضت أن يترك لهم الخيار والقدرة على الهدى وعلى الضلال ; وهم في قبضته على كل حال: وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن , يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً , ولو شاء ربك ما فعلوه , فذرهم وما يفترون . ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة , وليرضوه , وليقتروا ما هم مقترفون . .

فإذا تقرر أن عداة شياطين الإنس والجن للرسول سنة يجري بها قدر الله . وأن هؤلاء الشياطين , على كل ما يرتكبونه , هم في قبضة الله . استنكر رسول الله [ص] أن يتبغى (حكماً) غير الله . . هكذا على الإطلاق , في أي شأن وفي أي أمر . . ذلك أن تحكيم غير الله في شأن هذه المطاعم هو كالتحكيم لغير الله في كل شأن . وهو إقامة ربوبية غير ربوبية الله ينكرها رسول الله . . وأعقب ذلك تقرير أن كلمة ربه قد تمت بهذا الكتاب وبهذه الشريعة فلم يعد هناك قول لقائل , ولا حكم لبشر . وحذر رسول الله [ص] أن يطيع البشر في دين الله ; فإن أكثرهم لا يتبعون إلا الظن ; ولا علم عندهم يستيقن ; ومن يطعمهم يضلوه . والله وحده هو الذي يعلم الصالحين والمهتدين من عباده . وكان ذلك كله تمهيداً للأمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه ان كان المسلمون مؤمنين , والنهي عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه . وتحذيرهم أن يطيعوا أولياء الشياطين في شيء من التحليل والتحریم . وإلا فهم مثلهم مشركون: وأنهى الفقرة ببيان عن طبيعة الكفر وطبيعة الإيمان , والدوافع التي تدفع بالكافرين الى هذا الذي يقترفون: (أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً , والذين آتيناكم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق , فلا تكونن من الممترين . وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته , وهو السميع العليم . وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله , إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون . إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين . . فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه , وقد فصل لكم ما حرم عليكم - إلا ما اضطررتم إليه - وإن كثيراً ليضلون باهوائهم بغير علم , إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه , إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون . . ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه - وإنه لفسق - وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم , وإن أطعتموهم إنكم لمشركون . . أو من كان ميتاً فأحييناه , وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ? كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون . وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها , وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون . وإذا جاءتهم آية قالوا: لن نؤمن حتى نؤتى مثلما أوتى رسل الله . الله أعلم حيث يجعل رسالته . سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون). .

ثم يعود السياق فيقرر أن هدى المهتدين وضلال الضالين . . كلاهما إنما يتم بقدر من الله . وأن هؤلاء كهؤلاء في قبضة الله وسلطانه , وفي إطار مشيئته وقدره: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون).

وبنهي هذه الفقرة بتقرير أن ما مر من الأمر والنهي , ومن الاعتقاد والتصور , هو صراط الله المستقيم . فيربط بين ذلك الأمر والنهي وبين أصول الاعتقاد في مشيئة الله وقدره , ويجعلها حزمة واحدة . كما يجعلها صراط الله المستقيم الذي يأمر الله العباد أن يسلكوه إليه , لينتهوا إلى دار السلام والأمن عند ربهم , وهو وليهم وناصرهم: (وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون . لهم دار السلام عند ربهم , وهو وليهم بما كانوا يعملون).

ولا تنتهي التعقيبات على مسألة الأمر والنهي في تناول الذبائح , حتى يعرض السياق مصير شياطين الإنس والجن الذين يجادلون المؤمنين في هذه القضية ; وهم في قبضة الله - صاحب السلطان وصاحب الحكم في المصائر - وحتى يعرض سلطان الله كذلك في استخلاف من يستخلف في هذه الأرض , والذهاب بمن يريد له أن يذهب . وتهديد من يركب رأسه منهم في الدنيا - بسبب ما منحه الله من حرية في اختيار طريقه , ابتلاء من الله واختباراً - بانتهاء المهلة ; والأخذ بما كسب في فترة الابتلاء والاختبار: ويوم يحشرهم جميعاً: يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ! وقال أولياؤهم من الإنس: ربنا استمتع بعضنا ببعض , وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا . قال: النار مثواكم خالدين فيها - إلا ما شاء الله - إن ربك حكيم عليم . وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون . يا معشر الجن والإنس , ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي , وينذرونكم لقاء يومكم هذا ? قالوا: شهدنا على أنفسنا , وعرثهم الحياة الدنيا , وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين . ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون . ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون . وربك الغني ذو الرحمة , إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين . إن ما توعدون لآت , وما أنتم بمعجزين . قل: يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل , فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار , إنه لا يفلح الظالمون . .

بهذا الحشد العجيب من حقائق العقيدة الأساسية , ومن المشاهد والمواقف والمؤثرات الموحية ; ومن تسليط الأضواء على حقائق المشيئة وحقائق الوجود الكوني وحقائق النفس البشرية ; والدوافع الظاهرة والخفية في حياة البشر . ومن التقريرات الشاملة عن سلطان الله في السماوات والأرض ; وفي الدنيا والآخرة ; وفي حياة البشر المستترة والظاهرة . . . بهذا الحشد كله يواجه المنهج القرآني ظاهرة واحدة من ظواهر الجاهلية في الأكل أو عدم الأكل من ذبيحة . . فماذا ? . . إنها القضية الأساسية في هذا الدين . . قضية الحاكمية ولمن تكون وبالتعبير المرادف . . قضية الألوهية والربوبية ولمن تكون . . ومن ثم تنال هذه الملابس الجزئية كل هذا الاحتشاد والتجمع والاحتفال . .

وبمثل هذا الاحتشاد وهذا الاحتفال وهذا التجمع يواجه كذلك مسألة النذور في الجاهلية من الثمار والأنعام . . والأولاد . .

إن جاهلية العرب لم تكن تجحد الله البتة . ولم تكن تجعل معه إلهاً آخر يساويه ! ولكنها إنما كانت تجعل معه آلهة - من دونه - أقل منه منزلة ورتبة ! وكانوا يقولون: إنهم إنما يتخذون من هذه الآلهة شفعاء يقربونهم إلى الله . . وفي هذا كان شركهم . و بهذا كانوا مشركين !

وكان من شركهم كذلك أن يبتدعوا هم من عند أنفسهم - يقوم بذلك كهانهم ومشايخهم - شرائع وتقاليد في حياتهم ; ثم يزعمون أن الله شرعها لهم , وأمرهم بها ! . . إنهم لم يكونوا من التبجح في الشرك بحيث ينسبون هذه الشرائع إلى أنفسهم ; ويدعون أن لهم هم سلطة الحاكمية العليا التي يصدرون بها الشرائع مستقلين عن سلطان الله ! لم يكونوا قد عرفوا بعد هذا التبجح الذي عرفه مشركو هذا الزمان ; ممن يدعون - من دون الله - السلطان . . وفي هذا كذلك كان شركهم ; وبهذا كانوا مشركين !

من هذه الشرائع والتقاليد التي ابتدعوها وزعموا أنها شريعة الله ما كانوا يندرونه من الثمار والأنعام لله سبحانه ولآلهتهم المدعاة ! ثم يتصرفون بعد ذلك على هواهم او على

هوى السدنة والكهنة (فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله , وما كان لله , فهو يصل إلى شركائهم)!

ومنها ما كانوا يندرونه من أولادهم للآلهة المزعومة ; وما كانوا يقتلونهم من البنات اتباعاً لعرف القبيلة ! ومنها ما كانوا يحجرونه من الأنعام ومن الزروع ; لا يطعمه إلا من شاء الله - وهم الذين يزعمون تحريمها , وهم كذلك الذين يعينون من هم الذين شاء الله أن يطعموها !

ومنها ما كانوا يحرمون ركوبه من الأنعام . كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي !

ومنها ما كانوا يمنعون أن يذكر اسم الله عليه من الذبائح . زاعمين أن هذا من أمر الله !

ومنها ما كانوا يخصصونه - من الحمل الذي في بطون الأنعام - للذكور منهم دون الإناث . إلا إذا نزل ميتاً فيشارك فيه الإناث . . وكانوا يجعلون هذا حراماً وذلك حلالاً !

ومنه الميتة التي كانوا يحلونهم ويقولون: ذبحها الله . فهي حلال بذبح الله !

والقرآن يواجه هذا كله بحملة كاشفة ; يحشد فيها من المقررات الأساسية في العقيدة ; والمشاهد والحقائق المؤثرة ; ما يحشده في مواجهة قضية الشرك والإيمان في سياق السورة كله . . لأنها هي هي بعينها قضية الشرك والإيمان , في صورة تطبيقية واقعة . .

ومن خلال هذه الحملة يتبين أن القضية هي قضية هذا الدين كما هي قضية هذه العقيدة . فهذه التشريعات والتقاليد , إنما زينها للمشركين شركاؤهم الذين يشرعونها لهم ليديموا حياتهم ويلبسوا عليهم دينهم . وتلبس الدين وتدمير الحياة كلاهما مرتبطان . فإما شرع الله فهو الدين الواضح والحياة السليمة ; وإما شرع غير الله فهو الدين الغامض والحياة المهتدة بالردى: (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم ويلبسوا عليهم دينهم) . .

ويتبين أن الشياطين وراء هذا العدول عن شرع الله ودينه , إلى شرع الشركاء ودينهم . وأن الشيطان وهو العدو المبين يقود خطى المشركين إلى الخسران والتدمير: (كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) . .

ويتبين أن التحريم والتحليل - بغير شرع الله - هو والشرك سواء . فهو شرك مثله , وأن إحالة شيء من هذا كله إلى مشيئة الله القاهرة هو دعوى يدعيها المشركون في جميع العصور . فقد شاءت إرادة الله أن تعطي الناس قدراً من الاختيار تبتليهم به ; ومن ثم فلا قهر على الشرك في كل صورته ; إنما هو الابتلاء , وهم غير مفلتين من قبضة الله على كل حال . (سيقول الذين أشركوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمانا من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل: هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ? إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون . قل: قللة الحجة البالغة , فلو شاء لهداكم أجمعين) .

ثم نجد موقفاً للإشهاد على أن الله حرم هذا الذي يحرمونه ; يذكرنا بموقف الإشهاد على قضية الألوهية في أول السورة . . ذلك أنها قضية واحدة في الحقيقة . فمزاولة التشريع مزاولة لخصائص الألوهية . . وهي هي بذاتها القضية: (قل: هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم . ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا , والذين لا يؤمنون بالآخرة , وهم بربهم يعدلون) . . ويذكرنا التعبير (يعدلون) هنا بأنه هو

بذاته اللفظ الذي استخدم في قضية الألوهية في أول السورة . كما ذكرنا في التعريف بالسورة .

ثم تختم هذه الحملة ببيان أن هذا الذي قرره الله في قضية التشريع والتقاليد في الثمار والأنعام والأولاد هو صراط الله المستقيم . . ذات التعبير الذي استخدم من قبل في قضية تحريم الذبائح وتحليلها . . كما استخدم بذاته في قضية الألوهية في أول السورة كما ذكرنا في التعريف بالسورة:(وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون).

ولا ينتهي السياق بهذا الحشد الذي اقتطفنا منه هذه الإشارات . . بل يمضي في طريقه يتحدث عن كتاب موسى الذي جاء لقوم موسى: (تفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون) وعن هذا الكتاب المبارك الذي نزله الله ليتبعه المسلمون ويتقوا لعلهم يرحمون . ولتنقطع حجتهم بأن الكتاب قد نزل على اليهود والنصارى من قبل . وأنهم هم لم يجئهم كتاب يفصل لهم كل شيء فيعرفوا ما شرعه الله حقاً ; وما يقال لهم إنه من شرع الله افتراء !

يتبع هذا تهديد الذين لا يتبعون ما جاء به رسول الله [ص] وبيقون على ما هم عليه من شرائع جاهلية ينسبونها إلى الله افتراء عليه , ويتعللون بطلب الخوارق التي تحملهم على التصديق والاتباع . . تهديدهم بأن هذه الخوارق التي يطلبونها ستكون يوم تجيء هي فصل الخطاب ; حيث يتبعها الدمار والهلاك:(هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ? يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً . قل:انتظروا إنا منتظرون).

ثم مفاصلة بين رسول الله [ص] والدين الذي جاء به والأمة المسلمة ; وبين أولئك الذين يحلون ويحرمون بغير شرع الله ; ويشترعون لأنفسهم ثم يزعمون أنها شريعة الله:(إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء . إنما أمرهم إلى الله , ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون). . هكذا واضحة صريحة: (لست منهم في شيء).

وفي ختام السياق كله - السياق الذي واجه قضية الشرع والحكم هذه المواجهة بمناسبة تبدو في ظاهرها جزئية - يجيء الإيقاع الشامل لقضية العقيدة بجملتها ; ولقضية الدين برمتها . . العقيدة المستكنة في القلب والضمير . والدين الذي يترجم هذه العقيدة إلى نظام ومنهج للحياة: قل:إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قل:إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين - لا شريك له - وبذلك أمرت , وأنا أول المسلمين . قل:أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء ? ولا تكسب كل نفس إلا عليها , ولا تزرر وازرة وزر أخرى , ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وهو الذي جعلكم خلائف الأرض , ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم في ما أتاكم . إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم .

إنها جملة قضايا العقيدة والدين:في الدنيا والآخرة . في المحيا والممات . في العمل والجزاء . في العبادة والسلوك . . كلها يجمعها المنهج الرباني ليعقب بها في ذلك الإيقاع الجليل الرهيب الحبيب , على قضية الحاكمية والتشريع , ممثلة في أبسط مظاهرها في الحياة اليومية ومطاعمها ومشاربها ! ذلك أنها هي قضية الألوهية والربوبية في أضخم مجالاتها وأخطر مواقفها . .

00 وهذا هو الإسلام . كما يعرضه مصدره الرباني الكريم . الوحدة الثالثة عشرة: 111-
113 عداوة اصحاب الباطل لاصحاب الحق

مقدمة الوحدة

الآية الأولى تكملة لفقرة سابقة في السياق - في نهاية الجزء السابع - ومتعلقة بما كان يقترحه مشركوا العرب على رسول الله [ص] من الخوارق التي يريدون أن يأتي لهم بها فيصدقوه وما كان من حلفهم بالله حلفا مكررا مؤكدا أن لو جاءتهم هذه الآيات التي يطلبون إنهم ليؤمنون ! مما جعل بعض المسلمين انفسهم

وَلَوْ أَنَّبَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (111)
يشتهون أن لو يجيبهم الله إلى ما يطلبون ! ويقترحون على رسول الله [ص] أن يسأل ربه هذه الآيات التي يقترحها المقترحون !

والفقرة كلها جاءت هكذا:

وأقسموا بالله جهد أيمانهم: لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها . قل: إنما الآيات عند الله . وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ? ونقلب أفئدتهم وأبصارهم - كما لم يؤمنوا به أول مرة - ونذرهم في طغيانهم يعمهون . . ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة , وكلمهم الموتى , وحشرنا عليهم كل شيء قبلا , ما كانوا ليؤمنوا - إلا أن يشاء الله - ولكن أكثرهم يجهلون . .

ولقد سبق الحديث عن هذه الآيات في نهاية الجزء السابع . فالآن نتحدث عن الحقائق العامة التي تناولها هذه النصوص ; والتي لم نتعرض لها هناك في تفسيرها:

والحقيقة الأولى: هي أن الإيمان أو الكفر . والهدى أو الضلال . . لا تتعلق بالبراهين والأدلة على الحق . فالحق هو برهان ذاته . وله من السلطان على القلب البشري ما يجعله يقبله ويطمئن إليه ويرضخ له . . ولكنها المعوقات الأخرى هي التي تحول بين القلب والحق , وهذه المعوقات يقول الله - سبحانه - للمؤمنين بشأنها: وما يشعركم أنها إذا جاءت [أي الآيات والخوارق] لا يؤمنون ? ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة , ونذرهم في طغيانهم يعمهون . .

فما وقع لهم في أول مرة ومنعهم من الهدى , يمكن أن يتكرر وقوعه كذلك - بعد نزول الآية - فيمنعهم من الهدى كرة أخرى . .

إن موحيات الإيمان كامنة في القلب ذاته ; وفي الحق كذلك بذاته ; وليست متعلقة بعوامل خارجية . . فيجب أن تتجه المحاولة إذن إلى ذلك القلب لعلاج من آفاته ومن معوقاته . .

والحقيقة الثانية: هي أن مشيئة الله هي المرجع الأخير في أمر الهدى والضلال . فقد اقتضت هذه المشيئة أن تبثلي البشر بقدر من حرية الاختيار والتوجه في الابتداء ; وجعل هذا القدر موضع ابتلاء للبشر وامتحان . فمن استخدمه في الاتجاه القلبي إلى الهدى والتطلع إليه والرغبة فيه - وإن كان لا يعلم حينئذ أين هو - فقد اقتضت مشيئة الله أن

يأخذ بيده وبعينه ويهديه إلى سبيله . ومن استخدمه في الرغبة عن الهدى والصدود عن دلائله وموحياته , فقد اقتضت مشيئة الله أن يضلّه وأن يبعده عن الطريق وأن يدعه يتخبط في الظلمات . . وإرادة الله وقدره محيطان بالبشر في كل حالة , ومرد الأمر كله إليه في النهاية .

وهذه الحقيقة يشير إليها السياق في قوله تعالى:(ونقلب أفئدتهم وأبصارهم - كما لم يؤمنوا به أول مرة - ونذرهم في طغيانهم يعمهون).

وفي قوله:(ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى , وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً , ما كانوا ليؤمنوا - إلا أن يشاء الله - ولكن أكثرهم يجهلون).

كما يشير إليها في آية سابقة على هذه الفقرة في سياق السورة قوله تعالى:(اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين . ولو شاء الله ما أشركوا . وما جعلناك عليهم حفيظاً , وما أنت عليهم بوكيل).

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ (112) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَوْهُ وَليَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ (113)

كما تتكرر الإشارة إليها في الآية التالية لهذه الفقرة .

(وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً - ولو شاء ربك ما فعلوه - فذرهم وما يفترون . . .).

فالأمر كله مرهون بمشيئة الله , هو الذي شاء ألا يهديهم لأنهم لم يأخذوا بأسلوب الهدى ; وهو الذي شاء أن يدع لهم هذا القدر من الاختيار على سبيل الابتلاء ; وهو الذي يهديهم إذا جاهدوا للهدى ; وهو الذي يضلهم إذا اختاروا الضلال . . بلا تعارض - في التصور الإسلامي - بين طلاقة المشيئة الإلهية وهذا المجال الذي ترك للبشر لابتلائهم فيه بهذا القدر من الاختيار .

والحقيقة الثالثة:هي أن الطائعين والعصاة في قبضة الله سواء , وتحت قهره وسلطانه سواء . فهم لا يملكون جميعاً أن يحدثوا شيئاً إلا بقدر الله وفق مشيئته التي جرت بتلك السنن في تصريف أمر العباد . . ولكن المؤمنين يطابقون - في القدر المتروك لهم للاختيار - بين الخضوع القهري المفروض عليهم لسلطان الله في ذوات أنفسهم وفي حركة خلاياهم وفي طبائع تكوينهم العضوي النفسي ; وبين الخضوع الاختياري الذي يلتزمونه بأنفسهم بناء على المعرفة والهدى والاختيار . وبذلك يعيشون في سلام مع أنفسهم ذاتها , لأن الجانب القهري فيها والجانب الاختياري يتبعان ناموساً واحداً وسلطاناً واحداً وحكومة واحدة ! فأما الآخرون فهم مقهورون على اتباع ناموس الله الفطري الذي يقهرهم ولا يملكون أن يخرجوا منه في تكوينهم الجسمي وحاجاتهم الفطرية , بينما في الجانب الذي ترك لهم الاختيار فيه هم ناشرون على سلطان الله الممثل في منهجه وشرعه . أشقياء بهذا الفصام في شخصيتهم ! وهم بعد هذا كله في قبضة الله لا يعجزونه في شيء , ولا يحدثون شيئاً إلا بقدره !

وهذه الحقيقة الثالثة ذات أهمية خاصة في القضايا التي يعرضها الشطر الباقي من السورة . فهي تتكرر في مواضع متعددة في صور متنوعة , ذلك أن هذا الشطر كله - كما بنا من قبل - يواجه قضية الألوهية وسلطانها في حياة البشر وشريعتهم التي يعيشون بها . . ومن ثم يتكئ السياق على تقرير أن السلطان كله لله . حتى في كيان العصاة الناشزين عن منهج الله وشرعه , وأنهم لا يؤذون أولياء الله إلا بما شاء الله . فهم أعجز من أن يكون لهم في ذواتهم سلطان , فكيف يكون لهم على المؤمنين سلطان ! إنما هي مشيئة الله يكون بها ما يشاء في الطائعين والعصاة سواء .

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى:

(ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة , وكلمهم الموتى , وحشرنا عليهم كل شيء قبلا , ما كانوا ليؤمنوا - إلا أن يشاء الله - ولكن أكثرهم يجهلون) . .

[يقول - تعالى ذكره - لنبه محمد [ص] يا محمد آيس من فلاح هؤلاء العادلين برهم الأوثان والأصنام , القائلين لك: لئن جئتنا بأية لنؤمنن لك فإننا لو نزلنا إليهم الملائكة حتى يروها عيانا وكلمهم الموتى بإحيائنا إياهم حجة لك , ودلالة على نبوتك , وأخبروهم أنك محق فيما تقول , وأن ما جئتهم به حق من عند الله ; وحشرنا عليهم كل شيء فجعلناهم لك قبلا . ما آمنوا ولا صدقوك ولا اتبعوك - إلا أن يشاء الله ذلك لمن شاء منهم - (ولكن أكثرهم يجهلون) . . يقول: ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون أن ذلك كذلك . يحسبون أن الإيمان إليهم , والكفر بأيديهم , متى شاءوا آمنوا , ومتى شاءوا كفروا . وليس ذلك كذلك , ذلك بيدي . لا يؤمن منهم إلا من هديته له فوقته , ولا يكفر إلا من خذلته عن الرشده فأصلته] .

وهذا الأصل الذي يقرره ابن جرير هنا هو الصحيح . ولكنه يحتاج إلى زيادة الإيضاح - التي أسلفناها - باستلهاهم مجموعة النصوص القرآنية عن الهدى والضلالة ومشيئة الله وجهد الإنسان . . إن الإيمان حدث والضلال حدث . وما يقع في هذا الوجود حدث إلا بقدر من الله ينشئه:

(إننا كل شيء خلقناه بقدر) . فأما السنة التي يجري على أساسها ذلك القدر بوقوع إيمان فلان وضلال فلان , فهي التي تبينها مجموعة النصوص . وهي أن الإنسان مبتلي بقدر من الاختيار في الاتجاه . فإذا اتجه إلى الهدى وجاهد فيه هداه الله ووقع هداه وتحقيق بقدر من الله . وإذا اتجه إلى الضلال وكره الهدى أضله الله . ووقع ضلاله وتحقق بقدر من الله . . وهو على الحالين في قبضة الله وسلطانه . وحياته تجري بقدر الله وفق مشيئته الطليقة , وسنته التي وضعها مشيئته الطليقة .

بعد ذلك تجيء آيتان في سياق السورة ; هما من ناحية تكملة للمعاني والحقائق التي تستهدفها الفقرة السابقة التي انتهينا من الحديث عنها . ومن ناحية هما تمهيد للقضايا العقيدية المتعلقة بالسلطان والشرعية والحاكمية . وهي القضايا التي تستغرق ما تبقى من السورة . .

الآيتان:

وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً - ولو شاء ربك ما فعلوه - فذرهم وما يفترون . ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة , وليرضوه , وليقتروا ما هم مقترفون .

.. كذلك . . كالذي قدرناه من أن أولئك المشركين الذين يعلقون إيمانهم بمجيء الخوارق , ويعرضون عن دلائل الهدى وموحياته في الكون والنفيس , لا يقع منهم الإيمان ولو جاءتهم كل آية . . كذلك الذي قدرناه في شأن هؤلاء , قدرنا أن يكون لكل نبي عدوهم شياطين الإنس والجن . وقدرنا أن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول ليخدعوه به ويغروهم بحرب الرسل وحرب الهدى . وقدرنا أن تصغي إلى هذا الزخرف أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة , ويرضوه , ويقترفوا ما يقترفونه من العداوة للرسل وللحق ; ومن الضلال والفساد في الأرض . .

كل ذلك إنما جرى بقدر الله ; وفق مشيئته . ولو شاء ربك ما فعلوه . ولمضت مشيئته بغير هذا كله ; ولجرى قدره بغير هذا الذي كان . فليس شيء من هذا كله بالمصادفة . وليس شيء من هذا كله بسلطان من البشر كذلك أو قدرة !

فإذا تقرر أن هذا الذي يجري في الأرض من المعركة الناشئة التي لا تهدأ بين الرسل والحق الذي معهم , وبين شياطين الإنس والجن وباطلهم وزخرفهم وغرورهم . . إذا تقرر أن هذا الذي يجري في الأرض إنما يجري بمشيئة الله ويتحقق بقدر الله , فإن المسلم ينبغي أن يتجه إذن إلى تدبر حكمة الله من وراء ما يجري في الأرض ; بعد أن يدرك طبيعة هذا الذي يجري والقدرة التي وراءه . .

(وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا , شياطين الإنس والجن , يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً) . .

بإرادتنا وتقديرنا , جعلنا لكل نبي عدوا . . هذا العدو هو شياطين الإنس والجن . . والشيطنة وهي التمرد والغواية والتمحض للشر صفة تلحق الإنس كما تلحق الجن . وكما أن الذي يتمرد من الجن ويتمحض للشر والغواية يسمى شيطاناً ; فكذلك الذي يتمرد من الإنس ويتمحض للشر والغواية . . وقد يوصف بهذه الصفة الحيوان أيضاً إذا شرس وتمرد واستشرى أذاه ! وقد ورد: "الكلب الأسود شيطان" .

هؤلاء الشياطين - من الإنس والجن - الذين قدر الله أن يكونوا عدوا لكل نبي , يخدع بعضهم بعضاً بالقول المزخرف , الذي يوحيه بعضهم إلى بعض - ومن معاني الوحي التأثير الداخلي الذي ينتقل به الأثر من كائن إلى كائن آخر - ويغتر بعضهم بعضاً , ويحرص بعضهم بعضاً على التمرد والغواية والشر والمعصية . .

وشياطين الإنس أمرهم معروف ومشهود لنا في هذه الأرض , ونماذجهم ونماذج عدائهم لكل نبي , وللحق الذي معه , وللمؤمنين به , معروفة يملك أن يراها الناس في كل زمان .

فأما شياطين الجن - والجن كله - فهم غيب من غيب الله , لا نعرف عنه إلا ما يخبرنا به من عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو . . ومن ناحية مبدأ وجود خلائق أخرى في هذا الكون غير الإنسان وغير الأنواع والأجناس المعروفة في الأرض من الأحياء . . نقول من ناحية المبدأ ونحن نؤمن بقول الله عنها , ونصدق بخبره في الحدود التي قررها . فأما أولئك الذين يتترسون "بالعلم" لينكروا ما يقرره الله في هذا الشأن , فلا ندري علام يرتكبون ? إن علمهم البشري لا يزعم أنه أحاط بكل أجناس الأحياء , في هذا الكوكب الأرضي ! كما أن علمهم هذا لا "يعلم" ماذا في الأجرام الأخرى ! وكل ما يمكن أن "يفترضه" أن نوع الحياة الموجودة في الأرض يمكن أن يوجد في بعض الكواكب والنجوم . . وهذا لا يمكن أن ينفي - حتى لو تأكدت الفروض - أن أنواعاً أخرى

من الحياة وأجناسياً أخرى من الأحياء يمكن أن تعمر جوانب أخرى في الكون لا يعلم هذا "العلم" عنها شيئاً ! فمن التحكم والتبجح أن ينفي أحد باسم "العلم" وجود هذه العوالم الحية الأخرى .

وأما من ناحية طبيعة هذا الخلق المسمى بالجن ; والذي يتشيطان بعضه ويتمحض للشر والغواية - كإبليس وذريته - كما يتشيطان بعض الإنس . . من ناحية طبيعة هذا الخلق المسمى بالجن , نحن لا نعلم عنه إلا ما جاءنا الخبر الصادق به عن الله - سبحانه - وعن رسول الله [ص] .

ونحن نعرف أن هذا الخلق مخلوق من مارج من نار . وأنه مزود بالقدرة على الحياة في الأرض وفي باطن الأرض وفي خارج الأرض أيضاً . وأنه يملك الحركة في هذه المجالات بأسرع مما يملك البشر . وأن منه الصالحين المؤمنين , ومنه الشياطين المتمردين . وأنه يرى بني آدم وبنو آدم لا يرونه - في هيئته الأصلية - وكم من خلائق ترى الإنسان ولا يراها الإنسان ! وأن الشياطين منه مسلطون على بني الإنسان يغوونهم ويضلونهم , وهم قادرون على الوسوسة لهم والإيحاء بطريقة لا نعلمها . وأن هؤلاء الشياطين لا سلطان لهم على المؤمنين الذاكرين . وأن الشيطان مع المؤمن إذا ذكر الله خنس وتوارى , وإذا غفل برز فوسوس له ! وأن المؤمن أقوى بالذكر من كيد الشيطان الضعيف . وأن عالم الجن يحشر مع عالم الإنس ; ويحاسب ; ويجازي بالجنة وبالنار كالجنس الإنساني . وأن الجن حين يقاسون إلى الملائكة يبدون خلقاً ضعيفاً لا حول له ولا قوة !

وفي هذه الآية نعرف أن الله سبحانه قد جعل لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن . .

ولقد كان الله - سبحانه - قادراً - لو شاء - ألا يفعلوا شيئاً من هذا . . ألا يتمردوا ; وألا يتمحضوا للشر ; وألا يعادوا الأنبياء ; وألا يؤذوا المؤمنين ; وألا يضلوا الناس عن سبيل الله . . كان الله سبحانه قادراً أن يقهرهم مقهراً على الهدى ; أو أن يهديهم لو توجهوا للهدى ; أو أن يعجزهم عن التصدي للأنبياء والحق والمؤمنين به . . ولكنه سبحانه ترك لهم هذا القدر من الاختيار . وأذن لهم أن تمتد أيديهم بالأذى لأولياء الله - بالقدر الذي تقضي به مشيئته ويجري به قدره - وقدر أن يبنتلي أوليائه بأذى أعدائه ; كما يبنتلي أعداءه بهذا القدر من الاختيار والقدرة الذي أعطاهم إياه . فما يملك هؤلاء أن يوقعوا بأولياء الله من الأذى إلا ما قدره الله :

(ولو شاء الله ما فعلوه) . .

فما الذي يخلص لنا من هذه التقريرات ?

يخلص لنا ابتداء: أن الذين يقفون بالعداوة لكل نبي ; ويقفون بالأذى لأتباع الأنبياء . . هم "شياطين" ! . شياطين من الإنس ومن الجن . . وأنهم يؤدون جميعاً - شياطين الإنس والجن - وظيفة واحدة ! وأن بعضهم يخدع بعضاً ويضله كذلك مع قيامهم جميعاً بوظيفة التمرد والغواية وعداء أولياء الله . .

ويخلص لنا ثانياً: أن هؤلاء الشياطين لا يفعلون شيئاً من هذا كله , ولا يقدرّون على شيء من عداة الأنبياء وإيذاء أتباعهم بقدرة ذاتية فيهم . إنما هم في قبضة الله . وهو يبنتلي بهم أوليائه لأمر يريده من تمحيص هؤلاء الأولياء , وتطهير قلوبهم , وامتحان صبرهم على الحق الذي هم عليه أمناء . فإذا اجتازوا الامتحان بقوة كف الله عنهم الابتلاء . وكف

عنهم هؤلاء الأعداء . وعجز هؤلاء الأعداء أن يمدوا إليهم أيديهم بالأذى وراء ما قدر الله .
وآب أعداء الله بالضعف والخذلان ; وبأوزارهم كاملة يحملونها على ظهورهم:
(ولو شاء الله ما فعلوه) . .

ويخلص لنا ثالثاً: أن حكمة الله الخالصة هي التي اقتضت أن يترك لشياطين الإنس
والجن أن يتشيطنوا - فهو إنما يتليهم في القدر الذي تركه لهم من الاختيار والقدرة -
وأن يدعهم يؤذون أوليائه فترة من الزمان - فهو إنما يتلي أوليائه كذلك
لينظروا: أيصرون ? أثبتون علي ما معهم من الحق بينما الباطل ينتفش عليهم
ويستطيل ? أخلصون من حظ أنفسهم في أنفسهم وبيعونها بيعة واحدة لله , على
السراء وعلى الضراء سواء . وفي المنشط والمكره سواء ? وإلا فقد كان الله قادراً
على ألا يكون شيء من هذا الذي كان !

ويخلص لنا رابعاً: هو أن الشياطين من الإنس والجن , وهو أن كيدهم وأذاهم . فما
يستطيلون بقوة ذاتية لهم ; وما يملكون أن يتجاوزوا ما أذن الله به على أيديهم . .
والمؤمن الذي يعلم أن ربه هو الذي يقدر , وهو الذي يأذن , خليق أن يستهين بأعدائه
من الشياطين ; مهما تبلغ قوتهم الظاهرة وسلطانهم المدعى . ومن هنا هذا التوجيه
العلوي لرسول الله الكريم:
(فذرهم وما يفترون) . .

دعهم وافتراءهم . فأننا من ورائهم قادر على أخذهم , مدخر لهم جزاءهم . .

وهناك حكمة أخرى غير ابتلاء الشياطين , وابتلاء المؤمنين . . لقد قدر الله أن يكون هذا
العداء , وأن يكون هذا الإيحاء , وأن يكون هذا الغرور بالقول والخداع . . لحكمة أخرى:

(ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة , وليرضوه , وليقتروا ما هم مقترفون) أي
لتستمع إلى ذلك الخداع والإيحاء قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة . . فهؤلاء يحصرون
همهم كله في الدنيا . وهم يرون الشياطين في هذه الدنيا يقفون بالمرصاد لكل نبي
وينالون بالأذى أتباع كل نبي ويزين بعضهم لبعض القول والفعل فيخضعون للشياطين ,
معجبين بزخرفهم الباطل , معجبين بسلطانهم الخادع . ثم يكسبون ما يكسبون من
الإثم والشر والمعصية والفساد . في ظل ذلك الإيحاء , وبسبب هذا الإصغاء . .

وهذا أمر أراد الله كذلك وجرى به قدره . لما وراءه من التمحيص والتجربة . ولما فيه
من إعطاء كل أحد فرصته ليعمل لما هو ميسر له ; ويستحق جزاءه بالعدل والقسطاس .

ثم لتصلح الحياة بالدفع ; ويتميز الحق بالمفاصلة ; ويتمحض الخير بالصبر ; ويحمل
الشياطين أوزارهم كاملة يوم القيامة . . وليجري الأمر كله وفق مشيئة الله . . أمر
أعدائه وأمر أوليائه على السواء . . إنها مشيئة الله , والله يفعل ما يشاء . .

والمشهد الذي يرسمه القرآن الكريم للمعركة بين شياطين الإنس والجن من ناحية ,
وكل نبي وأتباعه من ناحية أخرى ; ومشية الله المهيمنة وقدره النافذ من ناحية ثالثة . .
هذا المشهد بكل جوانبه جدير بان نقف أمامه وقفة قصيرة:

إنها معركة تتجمع فيها قوى الشر في هذا الكون . . شياطين الإنس والجن . . تتجمع في تعاون وتناسق لإمضاء خطة مقررة . . هي عداء الحق الممثل في رسالات الأنبياء وحره . . خطة مقررة فيها وسائلها . . (يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً) . . يمد بعضهم بعضاً بوسائل الخداع والغواية ; وفي الوقت ذاته يغوي بعضهم بعضاً ! وهي ظاهرة ملحوظة في كل تجمع للبشر في حرب الحق وأهله . . إن الشياطين يتعاونون فيما بينهم ; ويعين بعضهم بعضاً على الضلال أيضاً ! إنهم لا يهدون بعضهم البعض إلى الحق أبداً . ولكن يزين بعضهم لبعض عداء الحق وحره والمضي في المعركة معه طويلاً !

ولكن هذا الكيد كله ليس طليقاً . . إنه محاط به بمشيئة الله وقدره . . لا يقدر الشياطين على شيء منه إلا بالقدر الذي يشاؤه الله وينفذه بقدره . ومن هنا يبدو هذا الكيد - على ضخامته وتجمع قوى الشر العالمية كلها عليه - مقيداً مغلولاً ! إنه لا ينطلق كما يشاء بلا قيد ولا ضابط . ولا يصيب من يشاء بلا معقب ولا مراجع - كما يحب الطغاة أن يلقوا في روع من يعبدونهم من البشر , ليعلقوا قلوبهم بمشيئتهم وإرادتهم . . كلا ! إن إرادتهم مقيدة بمشيئة الله . وقدرتهم محدودة بقدر الله . وما يضرون أولياء الله بشيء إلا بما أَرَادَهُ اللهُ - في حدود الابتلاء - ومرد الأمر كله إلى الله .

ومشهد التجمع على خطة مقررة من الشياطين جدير بأن يسترعي وعي أصحاب الحق ليعرفوا طبيعة الخطة ووسائلها . . ومشهد إحاطة مشيئة الله وقدره بخطة الشياطين وتديبرهم جدير كذلك بأن يملأ قلوب أصحاب الحق بالثقة والطمأنينة واليقين , وأن يعلق قلوبهم وأبصارهم بالقدرة القاهرة والقدر النافذ , وبالسلطان الحق الأصيل في هذا الوجود , وأن يطلق وجدانهم من التعلق بما يريد أو لا يريد الشياطين ! وأن يمشوا في طريقهم بينون الحق في واقع الخلق , بعد بنائه في قلوبهم هم وفي حياتهم . أما عداوة الشياطين , وكيد الشياطين , فليدعوها للمشيئة المحيطة والقدر النافذ .
(ولو شاء ربك ما فعلوه . فذرهم وما يفترون) . .

الوحدة الرابعة عشرة: 114-27 الموضوع: تقرير مبدأ الحاكمية لله والآنكار على حكم الجاهلية الآن نجيء إلى القضية التي تعالجها بقية السورة ; والتي كان التمهيد لها مطرداً في سياق السورة كله ; وآخر هذا التمهيد ما ساقه من قضايا العقيدة الكبيرة ; ومن واقع المعركة العقيدية الطويلة في الآيتين السابقتين . ومن تقرير سلطان الله المطلق فيما يقع من المعركة بين شياطين الإنس والجن وكل نبي . ومن قواعد الهدى والضلال وسنة الله التي يجري وفقها الضلال والهدى . . إلى آخر ما استعرضناه في الصفحات السابقة .

الآن نجيء إلى القضية التي جعلت هذه المقدمات كلها قاعدة لها . . قضية الحل والحرمة فيما ذكر اسم الله عليه وما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح . . وهي تأخذ أهميتها من ناحية تقرير المبدأ الإسلامي الأول: مبدأ حق الحاكمية المطلقة لله وحده ; وتجريد البشر من ادعاء هذا الحق أو مزاولته في أية صورة من الصور . . وحين تكون القضية هي قضية هذا المبدأ فإن الصغيرة تكون كالكبيرة في تحقيق هذا المبدأ أو نقضه . . ولا يهم أن يكون الأمر أمر ذبيحة يؤكل منها أولاً يؤكل ; أو أن يكون أمر دولة تقام أو نظام مجتمع يوضع . فهذه كتلك من ناحية المبدأ . وهذه كتلك تعني الاعتراف بألوهية الله وحده ; أو تعني رفض هذه الألوهية .

والمنهج القرآني يتكئ كثيراً جداً على هذا المبدأ لتقريره في كل مناسبة . ولا يمل تكراره حيثما جاءت مناسبة أمام كل تشريع للصغير ولل كبير من الأمور . . ذلك أن هذا المبدأ هو العقيدة , وهو الدين , وهو الإسلام ; وليس وراءه من هذا الدين كله إلا التطبيقات والتفريعات .

وسنجد في هذا المقطع من السورة - كما سنجد في بقيتها إلى ختامها - أن تقرير هذا المبدأ يكرر في صور شتى ; بمناسبة عرض شرائع الجاهلية وتقاليدها ; ويتضح ارتباط هذه الشرائع والتقاليد بالشرك والاستكبار عن الإسلام ; وانبثاقها من نقطة إقامة الوهية أخرى غير الوهية الله , ومن ثم يسلب عليها القرآن هذه الحملات العنيفة , المنوعة الأساليب , ويربطها هذا الربط باصل الاعتقاد وأصل الإيمان والإسلام .

الدرس الأول: تقرير جهة الحاكمية في التحليل والتحريم

إن السياق يبدأ بتقرير جهة الحاكمية في أمر العباد كله - تمهيدا لتقرير جهة الحاكمية في التحليل والتحريم في الذبائح , الأمر الذي يزاوُل فيه المشركون حق الحاكمية افتراء على الله واعتداء على سلطانه - ويمهد لهذا الأمر تمهيداً طويلاً كما نلاحظ من سياق الآيات في هذا الموضوع:

أفغير الله أبتغي حكماً , وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً , والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق , فلا تكونن من الممترين . وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته , وهو السميع العليم . وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله , إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون . إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله , وهو أعلم بالمهتدين .

هذا التمهيد كله يجيء قيل أن يدخل في الموضوع الواقع الحاضر الذي يمهد له هذا التمهيد , ثم يربطه ربطاً مباشراً بقضية الإيمان أو الكفر:

(فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . . إن كنتم بآياته مؤمنين . . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه , وقد فصل لكم ما حرم عليكم - إلا ما اضطررتم إليه).

وقبل أن ينتهي من عرض قضية التحليل والتحريم - بعد ذلك التمهيد كله - يفصل بين فقرتين بتوجيهات وتعقيبات أخرى , تحوي مؤثرات قوية من الأمر والنهي والبيان والوعيد:

(وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم . إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه . إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون).

ثم يستأنف الحديث في قضية التحليل والتحريم ; فيربطها مباشرة بقضية الإسلام والشرك:

(ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه - وإنه لفسق - وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . . وإن أطعموهم إنكم لمشركون).

ثم يمضي بعد ذلك شوطاً آخر في الحديث عن طبيعة الكفر وطبيعة الإيمان . . شوطاً كأنه تعقيب على أمر التحليل والتحريم .

أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَبْتِغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114)

ومن هذا التتابع , وهذا الربط , وهذا التوكيد , تتمثل طبيعة نظرة الإسلام لقضية التشريع والحاكمة , في شؤون الحياة اليومية . .

(أفغير الله أبتغي حكماً , وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً , والذين آتيناكم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق , فلا تكونن من الممترين). .

إنه سؤال على لسان رسول الله [ص] للاستنكار . استنكار أن يبتغي حكماً غير الله في شأن من الشؤون على الإطلاق . وتقرير لجهة الحاكمة في الأمر كله , وإفرادها بهذا الحق الذي لا جدال فيه . ونفي أن يكون هناك أحد غير الله يجوز أن يتجه إليه طالباً حكمه في أمر الحياة كله:

أفغير الله أبتغي حكماً ؟ . .

ثم . . تفصيل لهذا الإنكار , وللملابسات التي تجعل تحكيم غير الله شيئاً مستنكراً غريباً . . إن الله لم يترك شيئاً غامضاً ; ولم يجعل العباد محتاجين إلى مصدر آخر , يحكمونه في ما يعرض لهم من مشكلات الحياة:

(وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً). .

لقد نزل هذا الكتاب ليحكم بالعدل بين الناس فيما اختلفوا فيه , ولتتمثل فيه حاكمة الله وألوهيته . ثم لقد نزل هذا الكتاب مفصلاً , محتوباً على المبادئ الأساسية التي يقوم عليها نظام الحياة جملة . كما أنه تضمن أحكاماً تفصيلية في المسائل التي يريد الله تثبيتها في المجتمع الإنساني مهما اختلفت مستوياته الاقتصادية والعلمية والواقعية جملة . . وبهذا وذلك كان في هذا الكتاب غناء عن تحكيم غير الله في شأن من شؤون الحياة . هذا ما يقرره الله - سبحانه - عن كتابه . فمن شاء أن يقول: إن البشرية في طور من أطوارها لا تجد في هذا الكتاب حاجتها فليقل . . ولكن ليقبل معه . . إنه - والعياذ بالله - كافر بهذا الدين , مكذب بقول رب العالمين !

ثم إن هناك من حولهم ملابس أخرى تجعل ابتغاء غير الله حكماً في شأن من الشؤون أمراً مستنكراً غريباً . . إن الذين أوتوا الكتاب من قبل يعلمون أن هذا الكتاب منزل من عند الله , وهم اعرف بالكتاب لأنهم من أهل الكتاب:

(والذين آتيناكم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق). .

ولقد كانت هذه ملابس حاضرة في مكة وفي الجزيرة , يخاطب الله بها المشركين . . سواء أقر أهل الكتاب بها وجهرها - كما وقع من بعضهم ممن شرح الله صدره للإسلام - أو كتموها وجمدوها - كما وقع من بعضهم فالأمر في الحالين واحد ; وهو إخبار الله سبحانه - وخبره هو الصدق - أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل من ربه بالحق . . فالحق محتواه ; كما أن الحق متلبس بتنزيله من الله . .

وما يزال أهل الكتاب يعلمون أن هذا الكتاب منزل من الله بالحق . وما يزالون يعلمون أن قوة هذا الدين إنما تنبثق من هذا الحق الذي يتلبس به , ومن هذا الحق الذي يحتويه . وما يزالون - من أجل علمهم بهذا كله - يحاربون هذا الدين , ويحاربون هذا الكتاب , حرباً لا تهدأ . . . وأشد هذه الحرب وأنكاهها , هو تحويل الحاكمية عن شريعة هذا الكتاب ; إلى شرائع كتب أخرى من صنع البشر . وجعل غير الله حكماً , حتى لا تقوم لكتاب الله قائمة , ولا يصبح لدين الله وجود . وإقامة ألوهيات أخرى في البلاد التي كانت الألوهية فيها لله وحده ; يوم كانت تحكمها شريعة الله التي في كتابه ; ولا تشاركها شريعة أخرى , ولا يوجد إلى جوار كتاب الله كتب أخرى , تستمد منها أوضاع المجتمع , وأصول التشريعات , ويرجع إليها ويستشهد بفقراتها

وَوَيْمَتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115) وَإِنْ تُطَعُ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (116)

كما يستشهد المسلم بكتاب الله وآياته ! وأهل الكتاب - من صليبيين وصهيونيين - من وراء هذا كله ; ومن وراء كل وضع وكل حكم يقام لمثل هذه الأهداف الخبيثة !

وحين يقرر السياق أن هذا الكتاب أنزله الله مفصلاً ; وأن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل من الله بالحق , يلتفت إلى رسول الله [ص] ومن وراءه من المؤمنين به ; يهون عليه وعليهم شأن التكذيب والجدل الذي يجدونه من المشركين ; وشأن الكتمان والجحود الذي يجدونه من بعض أهل الكتاب:

(فلا تكونن من الممترين). .

وما شك رسول الله [ص] ولا امتري . ولقد ورد أنه [ص] عندما أنزل الله عليه:(فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحق من ربك , فلا تكونن من الممترين). . قال:" لا أشك , ولا أسأل " .

ولكن هذا التوجيه وأمثاله ; وهذا التثبيت على الحق ونظائره ; تدل على ضخامة ما كان يلقاه [ص] والجماعة المسلمة معه من الكيد والعنت والتكذيب والجحود ; ورحمة الله - سبحانه - به وبهم بهذا التوجيه والتثبيت . .

وبمضي السياق في هذا الاتجاه ; يقرر أن كلمة الله الفاصلة قد تمت ; وأنه لا مبدل لها بفعل الخلق , بالغاً ما بلغ كيدهم:

(وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً , لا مبدل لكلماته , وهو السميع العليم). .

لقد تمت كلمة الله - سبحانه - صدقاً - فيما قال وقرر - وعدلاً - فيما شرع وحكم - فلم يبق بعد ذلك قول لقائل في عقيدة أو تصور أو أصل أو مبدأ أو قيمة أو ميزان . ولم يبق بعد ذلك قول لقائل في شريعة أو حكم , أو عادة أو تقليد . . ولا معقب لحكمه ولا مجير عليه . .

(وهو السميع العليم). .

الذي يسمع ما يقوله عباده , ويعلم ما وراءه , كما يعلم ما يصلح لهم , وما يصلحهم .

وإلى جانب تقرير أن "الحق" هو ما تضمنه الكتاب الذي أنزله الله , يقرر أن ما يقرره البشر وما يرونه إن هو إلا اتباع الظن الذي لا يقين فيه ; واتباعه لا ينتهي إلا الى الضلال . وأن البشر لا يقولون الحق ولا يشيرون به إلا إذا أخذوه من ذلك المصدر الوحيد المستيقن ; ويحذر الرسول [ص] أن يطيع الناس في شيء يشيرون به عليه من عند أنفسهم ; مهما بلغت كثرتهم ; فالجاهلية هي الجاهلية مهما كثرت أتباعها الضالون :

(وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله . إن يتبعون إلا الظن , وإن هم إلا يخرصون) . .

ولقد كان أكثر من في الأرض - كما هو الحال اليوم بالضبط - من أهل الجاهلية . . لم يكونوا يجعلون الله هو الحكم في أمرهم كله , ولم يكونوا يجعلون شريعة الله التي في كتابه هي قانونهم كله . ولم يكونوا يستمدون تصوراتهم وأفكارهم , ومناهج تفكيرهم ومناهج حياتهم من هدى الله وتوجيهه . . ومن ثم كانوا - كما هو الحال اليوم - في ضلالة الجاهلية ; لا يملكون أن يشيروا برأي ولا بقول ولا بحكم يستند على الحق ويستمد منه ; ولا يقودون من يطيعهم ويتبعهم إلا الى الضلال . . كانوا - كما هم اليوم - يتركون العلم المستيقن ويتبعون الظن والحدس . . والظن والحدس لا ينتهيان إلا الى الضلال . . وكذلك حذر الله رسوله من طاعتهم واتباعهم كي لا يضلوا عن سبيل الله . . هكذا على وجه الإجمال . وإن كانت المناسبة الحاضرة حينذاك كانت هي مناسبة

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (117) فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (118)
تحريم بعض الذبائح وتحليل بعضها كما سيجيء في السياق . .

ثم قرر أن الذي يحكم على العباد بأن هذا مهتد وهذا ضال هو الله وحده . لأن الله وحده هو الذي يعلم حقيقة العباد , وهو الذي يقرر ما هو الهدى وما هو الضلال :

(إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) . .

فلا بد من قاعدة للحكم على عقائد الناس وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم ونشاطهم وأعمالهم . لا بد من قاعدة لتقرير ما هو الحق وما هو الباطل في هذا كله - كي لا يكون الأمر في هذه المقومات هو أمر هوى الناس المتقلب واصطلاحهم الذي لا يقوم على علم مستيقن . . ثم لا بد من جهة تضع الموازين لهذه المقومات , ويتلقى منها الناس حكمها على العباد والقيم سواء .

والله - سبحانه - يقرر هنا أنه هو - وحده - صاحب الحق في وضع هذا الميزان . وصاحب الحق في وزن الناس به , وتقرير من هو المهتدي , ومن هو الضال .

إنه ليس "المجتمع" هو الذي يصدر هذه الأحكام وفق اصطلاحاته المتقلبة . . ليس المجتمع الذي تتغير أشكاله ومقوماته المادية , فتتغير قيمه وأحكامه . . حيث تكون قيم وأخلاق للمجتمع الزراعي , وقيم وأخلاق أخرى للمجتمع الصناعي . وحيث تكون هناك قيم وأخلاق للمجتمع الرأسمالي البرجوازي , وقيم وأخلاق أخرى للمجتمع الاشتراكي أو الشيوعي . . ثم تختلف موازين الناس وموازين الأعمال وفق مصطلح هذه المجتمعات !

الإسلام لا يعرف هذا الأصل ولا يقره . . الإسلام يعين قيماً ذاتية له يقرها الله - سبحانه - وهذه القيم تثبت مع تغير "أشكال" المجتمعات . . والمجتمع الذي يخرج عليها له اسمه في الاصطلاح الإسلامي . . إنه مجتمع غير إسلامي . . مجتمع جاهلي . . مجتمع مشرك بالله , لأنه يدع لغير الله - من البشر - أن يصطلح على غير ما قرره الله من القيم والموازن والتصورات والأخلاق , والأنظمة والأوضاع . . وهذا هو التقسيم الوحيد الذي يعرفه الإسلام للمجتمعات وللقيم وللأخلاق . . إسلامي وغير إسلامي . . إسلامي وجاهلي . . بغض النظر عن الصور والأشكال !!

الدرس الثاني: 118 - 121 الذبائح بين التشريع الرباني والتشريع الجاهلي

بعد هذا التمهيد التقريري الطويل تجيء قضية الذبائح , مبنية على القاعدة الأساسية التي أقامها ذلك التمهيد التقريري الطويل:

فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . . إن كنتم بآياته مؤمنين . . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه , وقد فصل لكم ما حرم عليكم - إلا ما اضطررتم إليه - وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم , إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه , إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون . ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه - وإنه لفسق - وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم , وإن أطعموهم إنكم لمشركون . .

وقبل أن ندخل في تفصيل هذه الأحكام من الناحية الفقهية , يهمننا أن نبرز المبادئ الأساسية الاعتقادية التي تقرها .

إنه يأمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه . والذكر يقرر الوجهة ويحدد الاتجاه . ويعلق إيمان الناس بطاعة هذا الأمر الصادر إليهم من الله:

(فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . . إن كنتم بآياته مؤمنين) . .

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بَغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (119) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْرُونَ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (120)

ثم يسألهم: وما لهم في الامتناع من الأكل مما ذكر اسم الله عليه , وقد جعله الله لهم حلالاً ? وقد بين لهم الحرام الذي لا يأكلونه إلا اضطراراً ? فانتهى بهذا البيان كل قول في حله وحرمة ; وفي الأكل منه أو تركه ?

(وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه ?) . .

ولما كانت هذه النصوص تواجه قضية حاضرة إذ ذاك في البيئة , حيث كان المشركون يمتنعون من ذبائح أهلها الله ; ويحلون ذبائح حرمها الله - ويزعمون أن هذا هو شرع الله ! - فإن السياق يفصل في أمر هؤلاء المشترعين المفترين على الله , فيقرر أنهم إنما يشرعون بأهوائهم بغير علم ولا اتباع , ويضلون الناس بما يشرعونه لهم من عند أنفسهم , ويعتدون على ألوهية الله وحاكميته بمزاولتهم لخصائص الألوهية وهم عبيد:

(وإن كثيراً يضلون بأهوائهم بغير علم . . إن ربك هو أعلم بالمعتدين) . .

وبأمرهم بأن يتركوا الإثم كله - ظاهره وخافيه - ومنه هذا الذي يزاولونه من إضلال الناس بالهوى وبغير علم ; وحملهم على شرائع ليست من عند الله , واقتراء أنها شريعة الله ! ويحذرهم مغبة هذا الإثم الذي يقترفونه:

(وذروا ظاهر الإثم وباطنه . إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون) . .

ثم ينهى عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح التي كانوا يذكرون عليها أسماء آلهتهم ; أو ينحرونها للميسر ويستقسمونها بالأزلام ; أو من الميتة التي كانوا يجادلون المسلمين في تحريمها , يزعمون أن الله ذبحها ! فكيف يأكل المسلمون مما ذبحوا بأيديهم , ولا يأكلون مما ذبح الله !? وهو تصور من تصورات الجاهلية التي لا حد لسخفها وتهافتها في جميع الجاهليات ! وهذا ما كانت الشياطين - من الإنس والجن - توسوس به لأوليائها ليجادلوا المسلمين فيه من أمر هذه الذبائح مما تشير إليه الآيات:

(ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه - وإنه لفسق - وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . . وإن أطعتموهم إنكم لمشركون . .)

وأمام هذا التقرير الأخير نقف , لتدبر هذا الحسم وهذه الصراحة في شأن الحاكمية والطاعة والاتباع في هذا الدين . .

إن النص القرآني لقاطع في أن طاعة المسلم لأحد من البشر في جزئية من جزئيات التشريع التي لا تستمد من شريعة الله , ولا تعتمد على الاعتراف له وحده بالحاكمية . . أن طاعة المسلم في هذه الجزئية تخرجه من الإسلام لله , إلى الشرك بالله .

وفي هذا يقول ابن كثير:

"وقوله تعالى: (وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) . . أي حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه , إلى قول غيره , فقد منتم عليه غيره . . فهذا هو الشرك . . كقوله تعالى: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) . . الآية . وقد روى الترمذي في تفسيرها عن عدي بن حاتم أنه قال: يا رسول الله ما عبدوهم . فقال: " بلى ! إنهم أحلوا لهم الحرام , وحرموا عليهم الحلال . فاتبعوهم , فذلك عبادتهم إياهم " .

كذلك روى ابن كثير عن السدي في قوله تعالى: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله . .)

الآية قوله: [استنصحو الرجال , ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم . ولهذا قال تعالى: (وما أمروا إلا ليعبدوا

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (121) أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (122)

إلهاً واحداً) أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام , وما حله فهو الحلال , وما شرعه اتبع , وما حكم به نفذ] . .

فهذا قول السدي وذاك قول ابن كثير . . وكلاهما يقرر في حسم وصرامة ووضوح - مستمدة من حسم النص القرآني وصرامته ووضوحه , ومن حسم التفسير النبوي للقرآن وصرامته ووضوحه كذلك - أن من اطاع بشراً في شريعة من عند نفسه , ولو في جزئية صغيرة , فإنما هو مشرك . وإن كان في الأصل مسلماً ثم فعلها فإنما خرج بها من الإسلام الى الشرك أيضاً . . مهما بقي بعد ذلك يقول: أشهد أن لا إله إلا الله بلسانه . بينما هو يتلقى من غير الله , ويطيع غير الله .

وحين ننظر إلى وجه الأرض اليوم - في ضوء هذه التقارير الحاسمة - فإننا نرى الجاهلية والشرك - ولا شيء غير الجاهلية والشرك - إلا من عصم الله , فأنكر على الأرباب الأرضية ما تدعيه من خصائص الألوهية ; ولم يقبل منها شرعاً ولا حكماً . . . إلا في حدود الإكراه . .

فأما الحكم الفقهي المستفاد من قوله تعالى: (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق . .) فيما يتعلق بحل الذبائح وحرمتها عند التسمية وعدم التسمية فقد لخصها ابن كثير في التفسير في هذه الفقرات قال:

"استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها , وإن كان الذابح مسلماً" . .

"وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة على ثلاثة اقوال:

"فمنهم من قال: لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة . وسواء متروك التسمية عمداً أو سهواً . وهو مروى عن ابن عمر , ونافع مولاة , وعامر الشعبي , ومحمد بن سيرين . وهو رواية عن الإمام مالك , ورواية عن أحمد بن حنبل , نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين . وهو اختيار أبي ثور , وداود الظاهري . واختار ذلك ابو الفتوح محمد بن محمد بن علي الطائي من متأخري الشافعية في كتابه الأربعين , واحتجوا لمذهبهم بهذه الآية , وبقوله في آية الصيد: (فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه) . . ثم قد أكد ذلك بقوله: (وإنه لفسق) والضمير قيل: عائد على الأكل , وقيل: عائد على الذبح لغير الله . وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد , كحديثي عدي بن حاتم وأبي ثعلبة: إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك . وهما في الصحيحين . وحديث رافع بن خديج: ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه . وهو في الصحيحين أيضاً . . .

"والمذهب الثاني في المسألة: أنه لا يشترط التسمية , بل هي مستحبة , فإن تركها عمداً أو نسياناً لا يضر . وهذا مذهب الإمام الشافعي , رحمه الله , وجميع أصحابه . ورواية عن الإمام أحمد نقلها عنه حنبل . وهو رواية عن الإمام مالك , ونص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه . وحكي عن ابن عباس , وأبي هريرة , وعطاء بن أبي رباح . والله أعلم . وحمل الشافعي الآية الكريمة: (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) على ما ذبح لغير الله كقوله تعالى: (أو فسقا أهل لغير الله به) . وقال ابن جريج عن عطاء: (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) . قال: ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش للأوثان , وينهى عن ذبائح المجوس . . وهذا المسلك الذي طرقه الإمام الشافعي قوي . . .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن المغيرة ، أنبأنا جرير ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في الآية: (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) قال: هي الميتة . وقد استدلل لهذا المذهب بما رواه أبو داود في المراسيل من حديث ثور بن يزيد عن الصلت السدوسي مولى سويد بن ميمون أحد التابعين الذين ذكرهم أبو حاتم بن حبان في كتاب الثقات . قال: قال رسول الله [ص]: " ذبيحة المسلم حلال ، ذكر اسم الله أو لم يذكر . إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله " . وهذا مرسل يعضد بما رواه الدارقطني عن ابن عباس أنه قال: " إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله فليأكل . فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله " .

"المذهب الثالث: إن ترك البسملة على الذبيحة نسياناً لم يضر ، وإن تركها عمداً لم تحل . . هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل ، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه . وإسحاق بن راهويه . وهو محكي عن علي ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، وعطاء ، وطاووس ، والحسن البصري ، وأبي مالك ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى ، وجعفر بن محمد ، وربيعه بن أبي عبد الرحمن . . . "

"قال ابن جرير: وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية: هل نسخ من حكمها شيء أم لا ؟ فقال بعضهم: لم ينسخ منها شيء ، وهي محكمة فيما عينت به . وعلى هذا قول مجاهد وعامة أهل العلم . وروي عن الحسن البصري وعكرمة ما حدثنا به ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح ، عن الحسين بن واقد ، عن عكرمة والحسن البصري ، قالوا: قال الله: (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين) وقال: (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) فنسخ ، واستثنى من ذلك فقال: (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم) وقال ابن أبي حاتم: قرأ علي العباس بن الوليد بن يزيد ، حدثنا محمد بن شعيب ، أخبرني النعمان - يعني ابن المنذر - عن مكحول قال: أنزل الله في القرآن: (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) . ثم نسخها الرب ورحم المسلمين فقال: (اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) فنسخها بذلك ، وأحل طعام أهل الكتاب . ثم قال ابن جرير: والصواب: أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه . . وهذا الذي قاله صحيح . ومن أطلق من السلف النسخ هنا ، فإنما أراد التخصيص ، والله سبحانه وتعالى أعلم " . . . انتهى .

الدرس الثالث: 122 - 125 طبيعة الإسلام وطبيعة الكفر

بعد ذلك يجيء شوط كامل عن طبيعة الكفر وطبيعة الإيمان . وعن قدر الله في أن يجعل في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها . وعن الكبر الذي يحيك في نفوس هؤلاء المجرمين الأكابر . ويمنعهم من الإسلام . ويختم الشوط بالتصوير الرائع الصادق لحالة الإيمان التي يشرح الله لها الصدر ، وحالة الكفر التي يجعل الصدر فيها ضيقاً حرجاً مكروب الأنفاس ! . . فيتصل هذا الشوط كله بموضوع التحريم والتحليل في الذبائح اتصال الأصل القاعدي بالفرع التطبيقي ؛ ويدل على عمق هذا الفرع وشدة علاقته بالأصل الكبير:

أو من كان ميتاً فأحييناه ، وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؟ كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون . وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، وما يَمْكُرُونَ إلا بأنفسهم وما يشعرون . وإذا جاءتهم آية قالوا: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله . الله أعلم حيث يجعل رسالته . سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يَمْكُرُونَ . فمن يرد الله أن

يهديه يشرح صدره للإسلام , ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء , كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون .

إن هذه الآيات في تصوير طبيعة الهدى وطبيعة الإيمان إنما تعبر تعبيراً حقيقياً واقعياً عن حقيقة واقعية كذلك . إن ما يبدو فيها من تشبيه ومجاز إنما هو لتجسيم هذه الحقيقة في الصورة الموحية المؤثرة ; ولكن العبارة في ذاتها حقيقية .

إن نوع الحقيقة التي تعبر هذه الآيات عنها هو الذي يقتضي هذه الايقاعات التصويرية . فهي حقيقة , نعم . ولكنها حقيقة روحية وفكرية . حقيقة تذاق بالتجربة . ولا تملك العبارة إلا أن تستحضر مذاق التجربة ولكن لمن ذاقها فعلاً !

إن هذه العقيدة تنشئ في القلب حياة بعد الموت ; وتطلق فيه نوراً بعد الظلمات . حياة يعيد بها تذوق كل شيء , وتصور كل شيء , وتقدير كل شيء بحس آخر لم يكن يعرفه قبل هذه الحياة . ونوراً يبدو كل شيء تحت أشعته وفي مجاله جديداً كما لم يبد من قبل قط لذلك القلب الذي نوره الإيمان .

هذه التجربة لا تنقلها الألفاظ . يعرفها فقط من ذاقها . . والعبارة القرآنية هي أقوى عبارة تحمل حقيقة هذه التجربة . لأنها تصورها بألوان من جنسها ومن طبيعتها .

إن الكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية الأزلية الأبدية , التي لا تفنى ولا تغيض ولا تغيب . فهو موت . . وانعزال عن القوة الفاعلة المؤثرة في الوجود كله . . فهو موت . . وانطماس في أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية . . فهو موت . .

والإيمان اتصال , واستمداد , واستجابة . . فهو حياة . .

إن الكفر حجاب للروح عن الاستشراق الاستشراق والاطلاع . . فهو ظلمة . . وختم على الجوارح والمشاعر . . فهو ظلمة . . وتيه في التيه وضلال . . فهو ظلمة . .

وإن الإيمان تفتح ورؤية , وإدراك واستقامة . . فهو نور بكل مقومات النور . .

إن الكفر انكماش وتحجر . . فهو ضيق . . وشروء عن الطريق الفطري الميسر . . فهو عسر . . وحرمان من الاطمئنان إلى الكنف الآمن . . فهو قلق . .

وإن الإيمان انشراح ويسر وطمأنينة وظل ممدود . .

وما الكافر ? إن هو إلا نبتة ضالة لا وشائج لها في تربة هذا الوجود ولا جذور . . إن هو إلا فرد منقطع الصلة بخالق الوجود , فهو منقطع الصلة بالوجود . لا تربطه به إلا روابط هزيلة من وجوده الفردي المحدود . في أضيق الحدود . في الحدود التي تعيش فيها البهيمة . حدود الحس وما يدركه الحس من ظاهر هذا الوجود !

إن الصلة بالله , والصلة في الله , لتصل الفرد الفاني بالأزل القديم والأبد الخالد . ثم تصله بالكون الحادث والحياة الظاهرة . . ثم تصله بموكب الإيمان والأمة الواحدة الضاربة في جذور الزمان . الموصولة على مدار الزمان . . فهو في ثراء من الوشائج , وفي ثراء من الروابط . وفي ثراء من "الوجود" الزاخر الممتد اللاحب , الذي لا يقف عند عمره الفردي المحدود .

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور , فتتكشف له حقائق هذا الدين , ومنهجه في العمل والحركة , تكشفها عجيبا . . إنه مشهد رائع باهر هذا الذي يجده الإنسان في قلبه حين يجد هذا النور . . مشهد التناسق الشامل العجيب في طبيعة هذا الدين وحقائقه .
ومشهد التكامل الجميل الدقيق في منهجه للعمل وطريقته . إن هذا الدين لا يعود مجموعة معتقدات وعبادات وشرائع وتوجيهات . . إنما يبدو "تصميما" واحدا متداخلا متراكبا متناسقا . . متعاشقا يبدو حيا يتجاوب مع الفطرة وتتجاوب معه في ألفة عميقة وفي صداقة وثيقة , وفي حب ودود !

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور ; فتتكشف له حقائق الوجود , وحقائق الحياة , وحقائق الناس , وحقائق الأحداث التي تجري في هذا الكون وتجري في عالم الناس . . تتكشف له في مشهد كذلك رائع باهر . . مشهد السنة الدقيقة التي تتوالى مقدماتها ونتائجها في نظام محكم ولكنه فطري ميسر . . ومشهد المشيئة القادرة من وراء السنة الجارية تدفع بالسنة لتعمل وهي من ورائها محيطية طليقة . . ومشهد الناس والأحداث وهم في نطاق النواميس وهي في هذا النطاق أيضا .

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور فيجد الوضوح في كل شأن وفي كل أمر وفي كل حدث . . يجد الوضوح في نفسه وفي نواياه وخواطره وخطته وحركته . ووجد الوضوح فيما يجري حوله سواء من سنة الله النافذة , أو من أعمال الناس ونواياهم وخططهم المستترة والظاهرة ! ووجد تفسير الأحداث والتاريخ في نفسه وعقله وفي الواقع من حوله , كأنه يقرأ من كتاب !

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور , فيجد الوضوء في خواطره ومشاعره وملامحه ! ووجد الراحة في باله وحاله وماله ! ووجد الرفق واليسر في إيراد الأمور وإصدارها , وفي استقبال الأحداث واستدبارها ! ووجد الطمأنينة والثقة واليقين في كل حالة وفي كل حين !

وهكذا يصور التعبير القرآني الفريد تلك الحقيقة بإيقاعاته الموحية:

(أو من كان ميتا فأحييناه , وجعلنا له نورا يمشي به في الناس , كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ?).

كذلك كان المسلمون قبل هذا الدين . قبل أن ينفخ الإيمان في أرواحهم فيحييها , ويطلق فيها هذه الطاقة الضخمة من الحيوية والحركة والتطلع والاستشراق . . كانت قلوبهم مواتا . وكانت أرواحهم ظلاما . . ثم إذا قلوبهم ينضح عليها الإيمان فتتهتز , وإذا أرواحهم يشرق فيها النور فتضيء , ويفيض منها النور فتمشي به في الناس تهدي الضال , وتلتقط الشارد , وتطمئن الخائف , وتحرر المستعبد , وتكشف معالم الطريق للبشر وتعلن في الأرض ميلاد الإنسان الجديد . الإنسان المتحرر المستنير ; الذي خرج لعبوديته لله وحده من عبودية العبيد !

أفمن نفخ الله في روحه الحياة , وأفاض على قلبه النور . . كمن حاله أنه في الظلمات , لا مخرج له منها ? إنهما عالمان مختلفان شتان بينهما شتان ! فما الذي يمسك بمن في الظلمات والنور حوله يفيض ?

(كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) . .

هذا هو السر . . إن هناك تزيينا للكفر والظلمة والموت ! والذي ينشئ هذا التزيين ابتداء هو مشيئة الله التي أودعت فطرة هذا الكائن الإنساني الاستعداد المزدوج لحب النور وحب الظلمة , تبتليه بالاختيار للظلمة أو النور . فإذا اختار الظلمة زينت له ; ولج في الضلال حتى لا يخرج من الظلمة ولا يعود , ثم إن هناك شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً , ويزينون للكافرين ما يعملون . . والقلب الذي ينقطع عن الحياة والإيمان والنور , يسمع في الظلمة للوسوسة ; ولا يرى ولا يحس ولا يميز الهدى من الضلال في ذلك الظلام العميق ! . . وكذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون . .

وبنفس الطريقة , ولنفس الأسباب , وعلى هذه القاعدة جعل الله في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها . . ليتم الابتلاء ; وينفذ القدر ; وتتحقق الحكمة ; وبمضي كل فيما هو ميسر له , وينال كل جزاءه في نهاية المطاف :

(وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها , وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون).

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (123)

إنها سنة جارية أن ينتدب في كل قرية - وهي المدينة الكبيرة والعاصمة - نفر من أكابر المجرمين فيها , يقفون موقف العداء من دين الله . ذلك أن دين الله يبدأ من نقطة تجريد هؤلاء الأكابر من السلطان الذي يستطيلون به على الناس , ومن الربوبية التي يتعبدون بها الناس , ومن الحاكمية التي يستذلون بها الرقاب , ويرد هذا كله إلى الله وحده . . رب الناس . . ملك الناس . . إله الناس . .

إنها سنة من أصل الفطرة . . أن يرسل الله رسله بالحق . . بهذا الحق الذي يجرد مدعي الألوهية من الألوهية والربوبية والحاكمية . فيجهر هؤلاء بالعداوة لدين الله ويرسل الله . ثم يمكرون مكرهم في القرى , ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً . ويتعاونون مع شياطين الجن في المعركة مع الحق والهدى , وفي نشر الباطل والضلال , واستخفاف الناس بهذا الكيد الظاهر والخافي . .

إنها سنة جارية . ومعركة محتومة . لأنها تقوم على أساس التناقض الكامل بين القاعدة الأولى في دين الله - وهي رد الحاكمية كلها لله - وبين أطماع المجرمين في القرى . بل بين وجودهم أصلاً . .

معركة لا مفر للنبي أن يخوضها , فهو لا يملك أن يتقيها , ولا مفر للمؤمنين بالنبي أن يخوضوها وأن يمضوا إلى النهاية فيها . . والله سبحانه يطمئن أوليائه . . إن كيد أكابر المجرمين - مهما ضخم واستطال - لا يحيق إلا بهم في نهاية المطاف . إن المؤمنين لا يخوضون المعركة وحدهم فالله وليهم فيها , وهو حسبهم , وهو يرد على الكائدين كيدهم :

(وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون).

فليطمئن المؤمنون !

ثم يكشف السياق القرآني عن طبيعة الكبر في نفوس أعداء رسل الله ودينه . . الكبر الذي يمنعهم من الإسلام ; خيفة أن يرجعوا عباداً لله كسائر العباد , فهم يطلبون امتيازاً ذاتياً يحفظ لهم خصوصيتهم بين الأتباع . ويكبر عليهم أن يؤمنوا للنبي فيسلموا له , وقد تعودوا أن يكونوا في مقام الربوبية للأتباع , وأن يشرعوا لهم فيقبلوا منهم التشريع , وأن يأمروهم فيجدوا منهم الطاعة والخضوع . . من أجل ذلك يقولون قولتهم المنكرة الغيبة كذلك: لن نؤمن حتى نؤتي مثلما أوتي رسل الله:

وإذا جاءتهم آية قالوا: لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله .

وقد قال الوليد بن المغيرة: لو كانت النبوة حقا لكنت أولى بها منك , لأنني أكبر منك سناً , وأكثر منك مالا ! وقال أبو جهل: والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً , إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه !

وواضح أن الكبر النفسي , وما اعتاده الأكاير من الخصوصية بين الأتباع , ومظهر هذه الخصوصية الأول هو الأمر منهم والطاعة والاتباع من الأتباع ! . . واضح أن هذا من أسباب تزيين الكفر في نفوسهم , ووقوفهم من الرسل والدين موقف العداء .

ويرد الله على قولتهم المنكرة الغيبة . . أولاً بتقرير أن أمر اختيار الرسل للرسالة موكول إلى علمه المحيط بمن يليق بهذا الأمر الكوني الخطير . . ويرد عليهم ثانياً بالتهديد والتحقير وسوء المصير:

(الله أعلم حيث يجعل رسالته . سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) . .

إن الرسالة أمر هائل خطير . أمر كوني تتصل فيه الإرادة الأزلية الأبدية بحركة عبد من العبيد . ويتصل فيه الملاً الأعلى بعالم الإنسان المحدود . وتتصل فيه السماء بالأرض , والدنيا بالآخرة , ويتمثل فيه الحق الكلي ,

وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِنْ لَدُنْ رَبِّنَا رَسُولٌ يَأْتِنَا بِالْحَقِّ مِمَّنْ بَيْنَ يَدَيْهِ السَّاعِةُ . . وَتَجَرَّدَ فِيهَا كَيْنُونَةٌ بَشَرِيَّةٌ مِنْ حِفْظِ ذَاتِهَا لِتَخْلُصَ لِلَّهِ كَامِلَةً , لَا خُلُوصَ لِلنِّيَّةِ وَالْعَمَلِ وَحْدَهُ , وَلَكِنْ كَذَلِكَ خُلُوصَ الْمَحَلِّ الَّذِي يَمْلُؤُهُ هَذَا الْأَمْرُ الْخَطِيرُ . فذات الرسول [ص] تصبح موصولة بهذا الحق ومصدره صلة مباشرة كاملة . وهي لا تتصل هذه الصلة إلا أن تكون من ناحية عنصرها الذاتي سالحة للتلقي المباشر الكامل بلا عوائق ولا سدود . .

والله وحده - سبحانه - هو الذي يعلم أين يضع رسالته , ويختار لها الذات التي تنتدب من بين ألوف الملايين , ويقال لصاحبها: أنت منتدب لهذا الأمر الهائل الخطير .

والذين يتطلعون إلى مقام الرسالة ; أو يطلبون أن يؤتوا مثل ما أوتي الرسول . . هم أولاً من طبيعة لا تصلح أساساً لهذا الأمر . فهم يتخذون من ذواتهم محوراً للوجود الكوني ! والرسل من طبيعة أخرى , طبيعة من يتلقى الرسالة مستسلماً , ويهب لها

نفسه , وينسى فيها ذاته , ويؤتاها من غير تطلع ولا ارتقاب: (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب , إلا رحمة من ربك). . ثم هم بعد ذلك جهال لا يدركون خطورة هذا الأمر الهائل , ولا يعلمون أن الله وحده هو الذي يقدر بعلمه على اختيار الرجل الصالح . .

لذلك يجيبهم الرد الحاسم:

(الله أعلم حيث يجعل رسالته).. .

وقد جعلها سبحانه حيث علم , واختار لها أكرم خلقه وأخلصهم , وجعل الرسل هم ذلك الرهط الكريم , حتى انتهت إلى محمد خير خلق الله وخاتم النبيين .

ثم التهديد بالصغار والهوان على الله , وبالعذاب الشديد المهين:

(سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون).. .

والصغار عند الله يقابل الاستعلاء عند الأتباع , والاستكبار عن الحق , والتطاول إلى مقام رسل الله ! . .

والعذاب الشديد يقابل المكر الشديد , والعداء للرسل , والأذى للمؤمنين .

ثم تختم الجولة بتصوير حالة الهدى وحالة الايمان في داخل القلوب والنفوس:

(فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء . . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون).. .

من يقدر الله له الهداية - وفق سنته الجارية من هداية من يرغب في الهدى ويتجه إليه بالقدر المعطى له من الاختيار بقصد الابتلاء - (يشرح صدره للإسلام); فيتسع له ; ويستقبله في يسر ورغبة , ويتفاعل معه , ويطمئن إليه ; ويستروح به ويستريح له .

ومن يقدر له الضلال - وفق سنته الجارية من إضلال من يرغب عن الهدى ويغلق فطرته عنه - (يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء).. . فهو مغلق مطموس يجد العسر والمشقة في قبوله , (كأنما يصعد في السماء).. . وهي حالة نفسية تجسم في حالة حسية , من ضيق النفس , وكربة الصدر , والرهق المصني في التصعد إلى السماء ! وبناء اللفظ ذاته(يصعد)- كما هو في قراءة حفص - فيه هذا العسر والقبض والجهد . وجرسه يخيل هذا كله , فيتناسق المشهد الشاخص , مع الحالة الواقعة , مع التعبير اللفظي في إيقاع واحد .

وينتهي المشهد بهذا التعقيب المناسب:

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (125)

(كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون).. .

. . . كذلك . . . بمثل هذا الذي يجري به قدر الله من شرح صدر الذي يريد الله به الهدى ,
ومن العسر والجهد والمشقة لمن يريد به الضلال . . . كذلك يجعل الله الرجس على
الذين لا يؤمنون .

ومن معاني الرجس:العذاب . ومن معانيه كذلك:الارتكاس - وكلاهما يلون هذا العذاب
بمشهد الذي يرتكس في العذاب ويعود إليه ولا يفارقه ! وهو الظل المقصود !

على أنه تبقى في النفس بقية من الحديث عن قوله تعالى:(فمن يرد الله أن يهديه
يشرح صدره للإسلام . ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في
السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون). .

إن تصور الحقيقة التي يقررها هذا النص وأمثاله في القرآن الكريم من النصوص التي
تتعلق بالتعامل والارتباط بين مشيئة الله - سبحانه - واتجاهات البشر ; وما يصيبهم من
الهدى والضلال , وما ينالهم بعد ذلك من جزاء وثواب وعقاب . . إن هذا كله يحتاج إلى
استخدام منطقة أخرى من مناطق الإدراك البشري وراء منطقة المنطق الذهني ! وكل
ما ثار من الجدل بشأن هذه القضية سواء في تاريخ الفكر الإسلامي , وبخاصة بين
المعتزلة وأهل السنة والمرجئة - أو في تاريخ اللاهوت والفلسفة - وكل القضايا
والتعبيرات عنها , موسومة بطابع المنطق الذهني .

إن تصور هذه الحقيقة يحتاج إلى استخدام منطقة أخرى من مناطق الإدراك البشري
وراء منطقة المنطق الذهني . وكذلك يقتضي التعامل مع "الواقع الفعلي" لا مع
"القضايا الذهنية" . فالقرآن يصور الحقيقة الفعلية في الكينونة البشرية وفي الوجود
الواقع ; وهذه الحقيقة يتراءى فيها التشابك بين مشيئة الله وقدره وبين إرادة الإنسان
وعمله . في محيط لا يدركه المنطق الذهني كله .

فإذا قيل:إن إرادة الله تدفع الإنسان دفعا إلى الهدى أو الضلال . . لم تكن هذه هي
الحقيقة الفعلية . وإذا قيل:إن إرادة الإنسان هي التي تقرر مصيره كله . . لم تكن هذه
هي الحقيقة الفعلية كذلك ! إن الحقيقة الفعلية تتألف من نسب دقيقة - وغيبية كذلك -
بين طلاقة المشيئة الإلهية وسلطانها الفاعل , وبين اختيار العبد واتجاهه الإرادي . بلا
تعارض بين هذه وتلك ولا تصادم . .

ولكن تصور الحقيقة "الفعلية" كما هي في واقعها هذا لا يمكن أن يتم في حدود المنطق
الذهني . وفي شكل القضايا الذهنية والعبارة البشرية عنها . . إن نوع الحقيقة هو الذي
يحدد منهج تناولها وأسلوب التعبير عنها . . وهذه الحقيقة لا يصلح لها منهج المنطق
الذهني ولا القضايا الجدلية .

كذلك يحتاج تصور هذه الحقيقة كما هي في واقعها الفعلي إلى تذوق كامل في تجربة
روحية وعقلية . . إن الذي تتجه فطرته إلى الإسلام يجد في صدره انشراحاً له . . هو
من صنع الله قطعاً . . فالانشراح حدث لا يقع إلا بقدر من الله يخلقه ويبرزه . والذي
تتجه فطرته إلى الضلال يجد في صدره ضيقاً وتقبضاً وعسراً . . هو من صنع الله قطعاً .
لأنه حدث لا يتم وقوعه الفعلي إلا بقدر من الله يخلقه ويجري به كذلك . . وكلاهما من
إرادة الله بالعبد . . ولكنها ليست إرادة القهر . إنما هي الإرادة التي انشأت السنة
الجارية النافذة من أن يتبلى هذا الخلق المسمى بالإنسان بهذا القدر من الإرادة . وأن
يجري قدر الله بإنشاء ما يترتب على استخدامه لهذا القدر من الإرادة في الاتجاه للهدى
أو للضلال .

وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (126) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (127)

وحين توضع قضية ذهنية في مواجهة قضية ذهنية . وحين يتم التعامل مع هذه القضايا , بدون استصحاب الملامسة الباطنية للحقيقة , والتجربة الواقعية في التعامل معها , فإنه لا يمكن أبداً أن يتم تصور كامل وصحيح لهذه الحقيقة . . وهذا ما وقع في الجدل الإسلامي . . وفي غيره كذلك !

إنه لا بد من منهج آخر ومن تذوق مباشر للتعامل مع هذه الحقيقة الكبيرة . .

الدرس الرابع: 126-127 صراط الله المستقيم الموصل إلى دار السلام

ثم نعود إلى السياق القرآني:

إن هذه الموجة بجملتها تجيء كالتعقيب على قضية الذبائح التي سبق بيانها ; فترتبط هذه بتلك , حزمة واحدة في السياق , وحزمة واحدة في الشعور , وحزمة واحدة في بناء هذا الدين . فقضية الذبائح هي قضية التشريع . وقضية التشريع هي قضية الحاكمية . وقضية الحاكمية هي قضية الإيمان . . ومن هنا يكون الحديث عن الإيمان على هذا النحو في موضعه المطلوب .

ثم يجيء التعقيب الأخير في هذا المقطع يربط هذه وتلك الرباط الأخير . . فهذه وتلك صراط الله المستقيم . والخروج في واحدة منهما هو الخروج عن هذا الصراط المستقيم . والاستقامة عليهما معا . . العقيدة والشريعة . . هي الاستقامة على الصراط المؤدي إلى دار السلام , وولاية الله لعباده الذاكرين:

(وهذا صراط ربك مستقيماً . قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون . لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون) . .

هذا هو الصراط . . صراط ربك . . بهذه الإضافة المطمئنة الموحية بالثقة ; المباشرة بالنهاية . . هذه هي سنته في الهدى والضلال ; وتلك هي شريعته في الحل والحرمة . كلاهما سواء في ميزان الله , وكلاهما لحمة في سياق قرآنه .

وقد فصل الله آياته وبينها . ولكن الذين يتذكرون ولا ينسون ولا يغفلون هم الذين ينتفعون بهذا البيان وهذا التفصيل . فالقلب المؤمن قلب ذاك لا يغفل . وقلب منشح مبسوط مفتوح . وقلب حي يستقبل ويستجيب .

والذين يتذكرون , لهم دار السلام عند ربهم . . دار الطمأنينة والأمان . . مضمونة عند ربهم لا تضيع . . وهو وليهم وناصرهم وراعيهم وكافلهم . . ذلك بما كانوا يعملون . . فهو الجزاء على النجاح في الابتلاء .

ومرة أخرى نجدنا أمام حقيقة ضخمة من حقائق هذه العقيدة . حيث يتمثل صراط الله المستقيم في الحاكمية والشريعة . ومن ورائهما يتمثل الإيمان والعقيدة . . إنها طبيعة هذا الدين كما يقررها رب العالمين . .

الوحدة الخامسة: 128 - 135 الموضوع: مصير شياطين الإنس والجن وتهديدهم بعذاب الله

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْتَرْتُمْ مِّنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِّنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (128)

هذا المقطع بجملته ليس منفصلاً عن الدرس السابق . إنما هو امتداد له . من جنس الموجات المتعاقبة التي يتضمنها . فهو من ناحية استطراد في بيان مصائر شياطين الإنس والجن - بعد ما بين مصير الذين يستقيمون على صراط الله - وهو من ناحية استطراد في قضية الإيمان والكفر التي تذكر في هذا الموضع من السورة بمناسبة قضية الحاكمية والتشريع . وربط لهذه القضية الأخيرة بالحقائق الأساسية في العقيدة الإسلامية ; ومنها حقيقة الجزاء في الآخرة على الكسب في الدنيا - بعد النذارة والبشارة - وحقيقة سلطان الله القادر على الذهاب بالشياطين وأوليائهم وبالناس جميعاً واستبدال غيرهم بهم , وحقيقة ضعف البشر جملة أمام بأس الله . وكلها حقائق عقيدية تذكر في معرض الحديث عن التحليل والتحرير في الذبائح - قبلها - ثم يحيى بعدها الحديث في الحلقة التالية عن النذور من الثمار والأنعام والأولاد ; وعن تقاليد الجاهلية وتصوراتها في هذه الشؤون ; فيلتحم الحديث عن هذه القضايا جميعاً ; وتبدو في وضعها الطبيعي الذي يضعها فيه هذا الدين . وهي كلها مسائل اعتقادية على السواء . لا فرق بينها في ميزان الله , كما يقيمه في كتابه الكريم .

الدرس الأول: 128 - 130 خزي شياطين الإنس والجن يوم القيامة

لقد مضى في الحلقة السابقة حديث عن الذين يشرح الله صدورهم للإسلام ; فتبقى قلوبهم ذاكراً لاتغفل ; وأنهم ماضون إلى دار السلام , منتهون إلى ولاية ربهم وكفالتهم . . فالآن يعرض الصفحة المقابلة في المشهد - على طريقة القرآن الغالبة في عرض "مشاهد القيامة" - يعرض شياطين الإنس والجن , الذين قضوا الحياة يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً وخداعاً وإضلالاً ; ويقف بعضهم بمساندة بعض عدوا لكل نبي ; ويوحى بعضهم إلى بعض ليجادلوا المؤمنين في ما شرعه الله لهم من الحلال والحرام . . يعرضهم في مشهد شاخص حي , حافل بالحوار والاعتراف والتأنيب والحكم والتعقيب , فائض بالحياة التي تزخر بها مشاهد القيامة في القرآن .

(ويوم يحشرهم جميعاً: يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ! وقال أولياؤهم من الإنس: ربنا استمتع بعضنا ببعض , وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ! قال: النار مثواكم خالدين فيها - إلا ما شاء الله - إن ربك حكيمعليم . . وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون . . يا معشر الجن والإنس , ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي , وينذرونكم لقاء يومكم هذا ? قالوا: شهدنا على أنفسنا ! وغرتهم الحياة الدنيا , وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين). .

إن المشهد يبدأ معروضاً في المستقبل , يوم يحشرهم جميعاً . . ولكنه يستحيل واقعا للسامع يتراءى له مواجهة . وذلك بحذف لفظة واحدة في العبارة . فتقدير الكلام , (ويوم يحشرهم جميعاً) - فيقول - (يا معشر الجن والإنس . . .) ولكن حذف كلمة - يقول

- ينتقل بالتعبير المصور نقلة بعيدة ; ويحيل السياق من مستقبل ينتظر , إلى واقع ينظر ! وذلك من خصائص التصوير القرآني العجيب . . .

فلنتابع المشهد الشاخص المعروض:

(يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس !). . .

استكثرتم من التابعين لكم من الإنس , المستمعين لإيحاءكم , المطيعين لوسوستكم , المتبعين لخطواتكم . . وهو إخبار لا يقصد به الإخبار فالجن يعلمون أنهم قد استكثروا من الإنس ! إنما يقصد به تسجيل الجريمة - جريمة إغواء هذا الحشد الكبير الذي نكاد نلمحه في المشهد المعروض ! - ويقصد به التأييد على هذه الجريمة التي تتجمع قرائنها الحية في هذا الحشد المحشود ! لذلك لا يجيب الجن على هذا القول بشيء . . . ولكن الأغرار الأعمار من الإنس المستخفين بوسوسة الشياطين يجيبون:

(وقال أولياؤهم من الإنس:ربنا استمتع بعضنا ببعض , وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا !). . .

وهو جواب يكشف عن طبيعة الغفلة والخفة في هؤلاء الأتباع ; كما يكشف عن مدخل الشيطان إلى نفوسهم في دار الخداع . . لقد كانوا يستمتعون بإغواء الجن لهم وتزيينه ما كان يزين لهم من التصورات والأفكار , ومن المكابرة والاستهتار , ومن الإثم ظاهره وباطنه ! فمن منفذ الاستمتاع دخل إليهم الشيطان ! وكانت الشياطين تستمتع بهؤلاء الأغرار الأغفال . . كانت تستهويهم وتعبث بهم ; وتسخرهم لتحقيق هدف إبليس في عالم الإنس ! وهؤلاء الأغرار المستخفون يحسبون أنه كان استمتاعا متبادلا , وأنهم كانوا يتمتعون فيه ويتمتعون ! ومن ثم يقولون:

(ربنا استمتع بعضنا ببعض !). . .

ودام هذا المتاع طوال فترة الحياة , حتى حان الأجل , الذي يعلمون اليوم فقط أن الله هو الذي أمهلهم إليه ; وأنهم كانوا في قبضته في أثناء ذلك المتاع:

(وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا)!

عند ذلك يجيء الحكم الفاصل , بالجزاء العادل:

(قال:النار مثواكم خالدين فيها - إلا ما شاء الله -)

فالنار مثابة ومأوى . والمثوى للإقامة . وهي إقامة الدوام . . (إلا ما شاء الله)لتبقى صورة المشيئة الطليقة هي المسيطرة على التصور الاعتقادي . فطلاقة المشيئة الإلهية قاعدة من قواعد هذا التصور . والمشيئة لا تنحبس ولا تتقيد . ولا في مقرراتها هي .

(إن ربك حكيم عليم).

وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (129)

يمضي قدره بالناس عن حكمة وعن علم ; ينفرد بهما الحكيم العليم . .

وقبل استئناف الحوار لإتمام المشهد , يتحول السياق للتعقيب على شطر المشهد المنتهي:

(وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون). .

بمثل هذا الذي قام بين الجن والإنس من ولاء ; وبمثل ما انتهى إليه هذا الولاء من مصير . . بمثل ذلك , وعلى قاعدته , نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون . نجعل بعضهم أولياء بعض ; بحكم ما بينهم من تشابه في الطبع والحقيقة ; وبحكم ما بينهم من اتفاق في الوجهة والهدف , وبحكم ما ينتظرهم من وحدة في المصير . .

وهو تقرير عام أبعد مدى من حدود المناسبة التي كانت حاضرة , إنه يتناول طبيعة الولاء بين الشياطين من الإنس والجن عامة . فإن الظالمين - وهم الذين يشركون بالله في صورة من الصور - يتجمع بعضهم إلى بعض في مواجهة الحق والهدى ; ويعين بعضهم بعضا في عدااء كل نبي والمؤمنين به . إنهم فضلا على أنهم من طينة واحدة - مهما اختلفت الأشكال - هم كذلك أصحاب مصلحة واحدة , تقوم على اغتصاب حق الربوبية على الناس , كما تقوم على الانطلاق مع الهوى بلا قيد من حاكمية الله . .

ونحن نراهم في كل زمان كتلة واحدة يساند بعضهم بعضا - على ما بينهم من خلافات وصراع على المصالح - إذا كانت المعركة مع دين الله ومع أولياء الله . . فبحكم ما بينهم من اتفاق في الطينة , واتفاق في الهدف يقوم ذلك الولاء . . وبحكم ما يكسبون من الشر والإثم تتفق مصائرهم في الآخرة على نحو ما رأينا في المشهد المعروض !

وإننا لنشهد في هذه الفترة - ومنذ قرون كثيرة - تجمعا ضخما لشياطين الإنس من الصليبيين والصهيونيين والوثنيين والشيعيين - على اختلاف هذه المعسكرات فيما بينها - ولكنه تجمع موجه إلى الإسلام , وإلى سحق طلائع حركات البعث الإسلامي في الأرض كلها .

وهو تجمع رهيب فعلا , تجتمع له خبرة عشرات القرون في حرب الإسلام , مع القوى المادية والثقافية , مع الأجهزة المسخرة في المنطقة ذاتها للعمل وفق أهداف ذلك التجمع وخططه الشيطانية الماكرة . . وهو تجمع يتجلى فيه قول الله سبحانه:(وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون). . كما ينطبق عليه تطمين الله لنيبه - [ص]: (ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون). . ولكن هذا التطمين يقتضي أن تكون هناك العصبة المؤمنة التي تسير على قدم رسول الله [ص] وتعلم أنها تقوم مقامه في هذه المعركة المشبوبة على هذا الدين , وعلى المؤمنين . .

ثم نعود مع السياق إلى شطر المشهد الأخير:

(يا معشر الجن والإنس , ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي , وينذرونكم لقاء يومكم هذا ? قالوا شهدنا على أنفسنا , وغرتهم الحياة الدنيا , وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين). .

وهو سؤال للتقرير والتسجيل . فالله - سبحانه - يعلم ما كان من أمرهم في الحياة الدنيا . والجواب عليه إقرار منهم باستحقاقهم هذا الجزاء في الآخرة . .

والخطاب موجه إلى الجن كما هو موجه إلى الإنس . . فهل أرسل الله إلى الجن رسلا منهم كما أرسل إلى الإنس ؟ الله وحده يعلم شأن هذا الخلق المغيب عن البشر . ولكن النص يمكن تأويله بأن الجن كانوا يسمعون

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَعَرَّيْنَاهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَشْهَدُوا عَلَيْنَا أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (130) ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَىٰ يَظْلَمُ وَأَهْلُهَا عَافِلُونَ (31)

ما أنزل على الرسل , وينطلقون إلى قومهم منذرين به . كالذي رواه القرآن الكريم من أمر الجن في سورة الأحقاف: وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن . فلما حضروه قالوا:أنصتوا . فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا:يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه , يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجبوا داعي الله وأمنوا به , يغفر لكم من ذنوبكم , ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض , وليس له من دونه أولياء . أولئك في ضلال مبين . . فجائز أن يكون السؤال والجواب للجن مع الإنس قائمين على هذه القاعدة . . والأمر كله مما اختص الله سبحانه بعلمه والبحث فيما وراء هذا القدر لا طائل وراءه !

وعلى أية حال فقد أدرك المسؤولون من الجن والإنس , أن السؤال ليس على وجهه . إنما هو سؤال للتقرير والتسجيل ; كما أنه للتأييد والتوبيخ ; فأخذوا في الاعتراف الكامل ; وسجلوا على أنفسهم استحقاقهم لما هم فيه:

(قالوا:شهدنا على أنفسنا):

وهنا يتدخل المعقب على المشهد ليقول:

(وغرثهم الحياة الدنيا ; وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين);

وهو تعقيب لتقرير حقيقة حالهم في الدنيا . فقد غرثهم هذه الحياة ; وقادهم الغرور إلى الكفر . ثم ها هم أولاء يشهدون على أنفسهم به ; حيث لا تجدي المكابرة والإنكار . . فأي مصير أبأس من أن يجد الإنسان نفسه في هذا المأزق , الذي لا يملك أن يدفع عن نفسه فيه , ولا بكلمة الإنكار ! ولا بكلمة الدفاع !

ونقف لحظة أمام الأسلوب القرآني العجيب في رسم المشاهد حاضرة ; ورد المستقبل المنظور واقعا مشهودا ; وجعل الحاضر القائم ماضيا بعيدا !

إن هذا القرآن يتلى على الناس في هذه الدنيا الحاضرة ; وفي هذه الأرض المعهودة . ولكنه يعرض مشهد الآخرة كأنه حاضر قريب ; ومشهد الدنيا كأنها ماض بعيد ! فننسى أن ذلك مشهد سيكون يوم القيامة ; ونستشعر أنه أمامنا للحظة مائل ! وأنه يتحدث عن الدنيا التي كانت كما يتحدث عن التاريخ البعيد !

(وغرثهم الحياة الدنيا , وشهدوا على أنفسهم أنهم - كانوا - كافرين). . .

وذلك من عجائب التخيل !

الدرس الثاني: 131 - 132 سنة الله في الثواب والعقاب

وعلى ختام المشهد يلتفت السياق بالخطاب إلى رسول الله [ص] ومن وراءه من المؤمنين ; وإلى الناس أجمعين ; ليعقب على هذا الحكم الصادر بجزاء الشياطين من الإنس والجن ; وبإحالة هذا الحشد الحاشد إلى النار ; وعلى إقرارهم بأن الرسل قد جاءت إليهم , تقص عليهم آيات الله , وتنذرهم لقاء يومهم هذا . . ليعقب على هذا المشهد وما كان فيه , بأن عذاب الله لا ينال أحدا إلا بعد الإنذار ; وأن الله لا يأخذ العباد بظلمهم [أي بشركهم] إلا بعد أن ينهوا من غفلتهم ; وتقص عليهم الآيات , وينذرهم المنذرون:

(ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى - بظلم - وأهلها غافلون). .

لقد اقتضت رحمة الله بالناس ألا يؤاخذهم على الشرك والكفر حتى يرسل إليهم الرسل , على الرغم مما أودعه فطرتهم من الاتجاه إلى ربها - فقد تضل هذه الفطر - وعلى الرغم مما أعطاهم من قوة العقل والإدراك -

وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (132) وَرَبُّكَ الْعَنِيِّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنَّ يَتْسَاءُ يُدْهِبُكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ مِنْ بَعْدِكُمْ مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ (133) إِنَّ مَا تُوَعَّدُونَ لَأَتَّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (134)
فالعقل قد يضل تحت ضغط الشهوات - وعلى الرغم مما في كتاب الكون المفتوح من آيات - فقد تتعطل أجهزة الاستقبال كلها في الكيان البشري .

لقد ناط بالرسول والرسالات مهمة استنقاذ الفطرة من الركام لا واستنقاذ العقل من الانحراف , واستنقاذ البصائر والحواس من الانطماس . وجعل العذاب مرهونا بالتكذيب والكفر بعد البلاغ والإنذار .

وهذه الحقيقة كما أنها تصور رحمة الله بهذا الإنسان وفضله , كذلك تصور قيمة المدارك البشرية من فطرة وعقل ; وتقرر أنها - وحدها - لا تعصم من الضلال , ولا تهدي إلى يقين , ولا تصبر على ضغط الشهوات . .

ما لم تساندها العقيدة وما لم يضبطها الدين . .

ثم يقرر السياق حقيقة أخرى في شأن الجزاء . . للمؤمنين وللشياطين سواء:

(ولكل درجات مما عملوا . وما ربك بغافل عما يعملون). .

فللمؤمنين درجات: درجة فوق درجة . وللشياطين درجات: درجة تحت درجة ! وفق الأعمال . والأعمال مرصودة لا يغيب منها شيء: (وما ربك بغافل عما يعملون).

الدرس الثالث: 133 - 135 غنى الله عن المخلوقين وقدرته النافذة فيهم

على أن الله - سبحانه - إنما يرسل رسله رحمة بالعباد ; فهو غني عنهم ; وعن إيمانهم به وعبادتهم له . وإذا أحسنوا فإنما يحسنون لأنفسهم في الدنيا والآخرة . كذلك تتجلى

رحمته في الإبقاء على الجيل العاصي الظالم المشرك , وهو القادر على أن يهلكه ,
وينشئ جيلاً آخر يستخلفه:

(وربك الغني ذو الرحمة . إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء . كما أنشأكم
من ذرية قوم آخرين).

فلا ينس الناس أنهم باقون برحمة الله ; وأن بقاءهم معلق بمشيئة الله ; وأن ما في
أيديهم من سلطان إنما خولهم الله إياه . فليس هو سلطاناً أصيلاً , ولا وجوداً مختاراً .
فما لأحد في نشأته ووجوده من يد ; وما لأحد فيما أعطيه من السلطان من قدرة .
وذهابهم واستخلاف غيرهم هين على الله . كما أنه أنشأهم من ذرية جيل غير .
واستخلفوا هم من بعده بقدر من الله .

إنها طرقات قوية وإيقاعات عنيفة على قلوب الظالمين من شياطين الإنس والجن
الذين يمكرون ويتطاولون , ويحرمون ويحللون , ويجادلون في شرع الله بما يشرعون .
وهم هكذا في قبضة الله يبقوهم كيف شاء , ويذهب بهم أنى شاء , ويستخلف من
بعدهم ما يشاء . . كما أنها إيقاعات من التثبيت والطمأنينة والثقة في قلوب العصابة
المسلمة , التي تلقى العنت من كيد الشياطين ومكرهم ; ومن أذى المجرمين وعدائهم
.. فهؤلاء هم في قبضة الله ضعافاً حتى وهم يتجبرون في الأرض ويمكرون !

ثم إيقاع تهديدي آخر:

(إن ما توعدون لآت , وما أنتم بمعجزين)

إنكم في يد الله وقبضته , ورهن مشيئته وقدره . فليستم بمفلتين أو مستعصين . . ويوم
الحشر الذي شاهدتم

قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ
لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (135)

منه مشهداً منذ لحظة ينتظركم ; وإنه لآت لارهب فيه , ولن تفلتوا يومها , ولن تعجزوا
الله القوي المتين . وتنتهي التعقيبات بتهديد آخر ملفوف , عميق الإيحاء والتأثير في
القلوب:

(قل: يا قوم اعملوا على مكاتكم إنني عامل , فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ,
إنه لا يفلح الظالمون). إنه تهديد الواثق من الحق الذي معه , والحق الذي وراءه ; ومن
القوة التي في الحق , والقوة التي وراء الحق . . التهديد من الرسول [ص] بأنه نافض
يديه من أمرهم , واثق مما هو عليه من الحق , واثق من منهجه وطريقه , واثق كذلك
مما هم عليه من الضلال , وواثق من مصيرهم الذي هم إليه منتهون:

(إنه لا يفلح الظالمون) . .

فهذه هي القاعدة التي لا تتخلف . . إنه لا يفلح المشركون , الذين يتخذون من دون الله
أولياء . وليس من دون الله ولي ولا نصير . والذين لا يتبعون هدى الله . وليس وراءه إلا
الضلال البعيد وإلا الخسران المبين . .

وقبل أن نمضي مع سياق السورة حلقة جديدة , نقف وقفة سريعة مع هذه الحلقة الوسيطة بين حديث عن تشريع الذبائح - ما ذكر اسم الله عليه وما لم يذكر اسم الله عليه - وحديث عن النذور من الثمار والأنعام والأولاد . . هذه الحلقة التي تضمنت تلك الحقائق الأساسية من حقائق العقيدة البحتة ; كما تضمنت مشاهد وصوراً وتقارير عن طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر ; وعن المعركة بين الشياطين من الإنس والجن وبين أنبياء الله والمؤمنين بهم , كما تضمنت ذلك الحشد من المؤثرات الموحية التي سبقت نظائرها في سياق السورة وهو يواجه ويعرض حقائق العقيدة الكبرى في محيطها الشامل . .

نقف هذه الوقفة السريعة مع هذه الحلقة الوسيطة ; لنرى كم يحفل المنهج القرآني بهذه الواقعات العملية , وهذه الجزئيات التطبيقية في الحياة البشرية ; وكم يحفل بانطباقها على شريعة الله ; وعلى تقرير الأصل الذي يجب أن تستند إليه ; وهو حاكمية الله . . أو بتعبير آخر ربوبية الله . .

فلماذا يحفل المنهج القرآني هكذا بهذه القضية ?

يحفل بها لأنها من ناحية المبدأ تلخص قضية "العقيدة في الإسلام ; كما تلخص قضية "الدين" . فالعقيدة في الإسلام تقوم على أساس شهادة: أن لا إله إلا الله . وبهذه الشهادة يخلع المسلم من قلبه ألوهية كل أحد من العباد ويجعل الألوهية لله . ومن ثم يخلع الحاكمية عن كل أحد ويجعل الحاكمية كلها لله . . والتشريع للصغيرة هو مزاولة لحق الحاكمية كالتشريع للكبيرة . فهو من ثم مزاولة لحق الألوهية , ياباه المسلم إلا الله . . والدين في الإسلام هو دينونة العباد في واقعهم العملي - كما هو الأمر في العقيدة القلبية - لألوهية واحدة هي ألوهية الله , ونفص كل دينونة في هذا الواقع لغير الله من العباد المتألهين ! والتشريع هو مزاولة للألوهية , والخضوع للتشريع هو الدينونة لهذه الألوهية . . ومن ثم يجعل المسلم دينونته في هذا لله وحده ; ويخلع ويرفض الدينونة لغير الله من العباد المتألهين !

من هنا ذلك الاحتفال كله في القرآن كله بتقرير هذه الأصول الاعتقادية , والالتكاء عليها على هذا النحو الذي نرى صورة منه في سياق هذه السورة المكية . . والقرآن المكي - كما أسلفنا في التقديم لهذه السورة في الجزء السابع - لم يكن يواجه قضية النظام والشرائع في حياة الجماعة المسلمة ; ولكنه كان يواجه قضية العقيدة والتصور . ومع هذا فإن السورة تحفل هذا الاحتفال بتقرير هذا الأصل الاعتقادي في موضوع الحاكمية . . ولهذا دلالة العميقة الكبيرة . .

الوحدة السادسة عشرة: 136 - 153 الموضوع: ربط الحاكمية بالعقيدة وإنكار حاكمية الجاهلية مقدمة الوحدة هذا الشوط الطويل كله - بالإضافة إلى الشوط الذي سبقه والتعقيبات عليه - في سياق سورة مكية , من القرآن المكي الذي كان موضوعه هو العقيدة ; والذي لم يتعرض لشيء من الشريعة - إلا ما يختص بتأصيل أصلها الاعتقادي - حيث لم تكن للإسلام دولة تنفذ شريعته ; فصان الله هذه الشريعة أن تصبح حديث السن , وموضوعات دراسة ; قبل أن يهيب لها المجتمع الذي يدخل في السلم كافة , ويسلم نفسه لله جملة , ويعبد الله بالطاعة لشريعته في وقبل أن يهيب لها الدولة ذات السلطان , التي تحكم بهذه الشريعة بين الناس فعلا ; وتجعل معرفة الحكم مقرونة بتنفيذه , كما هي طبيعة هذا الدين , وكما هو منهجه , الذي يكفل له الجدية والحرارة والوقار . .

نقول: هذا الشوط الطويل كله في سورة مكية ; يتناول قضية التشريع والحاكمية . فيدل على طبيعة هذه

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا
فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ (136)

القضية - إنها قضية عقيدية . . ويدل على جدية هذه القضية في هذا الدين . . إنها قضيته الرئيسية . .

وقبل أن نمضي في مواجهة النصوص تفصيلا , نحب أن نعيش في ظلال السياق القرآني بجملته . . لنرى محتوياته على وجه الإجمال . ولنرى دلالاته وإيحاءاته كذلك . .

إنه يبدأ بعرض مجموعة التصورات والمزاعم الجاهلية حول ما كانوا يزاولونه في شأن الثمار والأنعام والأولاد - أي في شأن المال والاجتماع - في جاهليتهم . فنجد هذه التصورات والمزاعم تتمثل في:

1 - تقسيمهم ما رزقهم الله من رزق , وأنشأ لهم من زروع وأنعام , إلى قسمين: قسم يجعلونه لله - زاعمين أن هذا مما شرعه الله - وقسم يجعلونه لشركائهم - وهي الآلهة المدعاة التي يشركونها في أنفسهم وأموالهم وأولادهم من دون الله: (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا . فقالوا: هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا)!

2 - أنهم بعد ذلك , يجورون على النصيب الذي قسموه لله . فيأخذون جانبا منه ويضمونه إلى ما قسموه لشركائنا , ولا يفعلون مثل ذلك فيما قسموه للشركاء !: (فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله , وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم)!

3 - أنهم يقتلون أولادهم بتزيين من الشركاء - وهم في هذه الحالة إنما هم الكهان والمشرعون فيهم - ممن يصنعون التقاليد التي يخضع لها الأفراد في المجتمع , بحكم الضغط الاجتماعي من ناحية , وحكم التأثير بالأساطير الدينية من ناحية - وكان هذا القتل يتناول البنات مخافة الفقر والعار . كما قد يتناول الذكور في النذور , كالذي نذره عبد المطلب أن لو رزقه الله عشرة أبناء يحمونه ليذبحن أحدهم للآلهة ! (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم , ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم)!

4 - أنهم كانوا يحجزون بعض الأنعام وبعض الزروع ; فيزعمون أنها لا تطعم إلا بإذن خاص من الله - هكذا يزعمون ! - كما كانوا يمتنعون ظهور بعض الأنعام من الركوب , ويمنعون أن يذكر اسم الله على بعضها عند الذبح أو الركوب أولا يركبونها في الحج لأن فيه ذكر الله . مع الزعم بأن هذا كله قد أمر الله به .: (وقالوا: هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء - بزعمهم - وأنعام حرمت ظهورها , وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها - افتراء عليه - !).

5 - وأنهم كانوا يسمون ما في بطون بعض الأنعام من الحمل لذكورهم , ويجعلونه محرما على إناثهم . إلا أن ينزل الحمل ميتا فعندئذ يشترك فيه الذكور والإناث ! مع نسبة هذه الشريعة المضحكة إلى الله: (وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا

ومحرم على أزواجنا , وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم إنه حكيم
عليم).

هذه هي مجموعة التصورات والمزاعم والتقاليد التي كانت تصبغ وجه المجتمع العربي
في الجاهلية , والتي يتصدى هذا السياق القرآني الطويل - في سورة مكية - للقضاء
عليها , وتطهير النفوس والقلوب منها , وإبطالها كذلك في الواقع الاجتماعي .

ولقد سلك السياق القرآني هذا المنهج في خطواته البطيئة الطويلة الدقيقة:

لقد قرر ابتداء خسران الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله -
افتراء على الله - وأعلن ضلالهم المطلق في هذه التصورات والمزاعم التي ينسبونها
إلى الله بغير علم .

ثم لفت أنظارهم إلى أن الله هو الذي أنشأ لهم هذه الأموال التي يتصرفون فيها هذه
التصرفات . . هو الذي أنشأ لهم جنات معروشات وغير معروشات . وهو الذي خلق لهم
هذه الأنعام . . والذي يرزق هو وحده الذي يملك , وهو وحده الذي يشرع للناس فيما
رزقهم من هذه الأموال . . وفي هذه اللفتة استخدم حشدا من المؤثرات الموحية من
مشاهد الزروع والثمار والجنات المعروشات وغير المعروشات , ومن نعمة الله عليهم
في الأنعام التي جعل بعضها حمولة لهم يركب ويحمل وبعضها فرشاً , يؤكل لحمه
ويفرش جلده وصوفه وشعره . . كما استخدم ذكرى العداة المتأصل بين بني آدم
والشيطان . فكيف يتبعون خطوات الشيطان , وكيف يستمعون لوسوسته وهو العدو
المبين !?

بعد ذلك استعرض في تفصيل شديد سخافة تصوراتهم فيما يختص بالأنعام , وخلوها من
كل منطق , وألقى الأضواء على ظلمات التصورات حتى تبدو تافهة مهلهلة متهافئة . .
وفي نهاية هذا الاستعراض يسأل: علام ترتكون في هذه التشريعات الخالية من كل حجة
ومنطق: (أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا?) فكان ذلك سرا تعلمونه أنتم ووصية
خاصة بكم ! ويشنع بجريمة الافتراء على الله , وإضلال الناس بغير علم . ويجعل هذا
التشنيع أحد المؤثرات المتنوعة التي يستخدمها . .

وهنا يقرر السلطة صاحبة الحق في التشريع . ويبين ما حرّمته هذه السلطة فعلا من
المطاعم . سواء ما حرم على المسلمين وما حرم على اليهود خاصة وأحلّه الله
للمسلمين .

ثم يناقش إحالتهم هذه الجاهلية - الممثلة في الشرك بالله وتحريم ما أحل الله وكلاهما
في مستوى الآخر من ناحية دلالاته ووصفه الشرعي عند الله - على إرادة الله وقولهم:
(لو شاء الله ما أشركنا ولا أبأؤنا ولا حرّمنا من شيء). . فيقرر أن هذه المقالة هي مقالة
كل كافر مكذب من قبل , وقد قالها المكذبون حتى جاءهم بأس الله: (كذلك كذب الذين
من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا) فالشرك كالتحريم بدون شرع الله , كلاهما سمة المكذبين
بآيات الله . ويسألهم في استنكار علام تحيلون هذه المقررات التي تقررونها: (قل: هل
عندكم من علم فتخرجوه لنا . إن تتبعون إلا الظن , وإن أنتم إلا تخرصون)!

ثم ينهي مناقشتهم في هذا الشأن بدعوتهم إلى موقف الإشهاد والمفاصلة - تماماً كما
دعاهم إلى هذا الموقف في أول السورة في شأن أصل الاعتقاد - مع استخدام نفس
العبارات والأوصاف , بل نفس الألفاظ , للدلالة على أن القضية واحدة: قضية الشرك

بالله , وقضية التشريع بغير إذن من الله:(قل:هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا , فإن شهدوا فلا تشهد معهم . ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة , وهم بربهم يعدلون). . ونرى من الآية الى جانب وحدة المشهد والعبارة واللفظ , أن الذين يزاولون هذه التشريعات هم الذين يتبعون أهواءهم . وهم الذين كذبوا بآيات الله . وهم الذين لا يؤمنون بالآخرة . فلو أنهم صدقوا بآيات الله وآمنوا بالآخرة واتبعوا هدى الله ما شرعوا لأنفسهم وللناس من دون الله . وما حرموا وحللوا بغير إذن من الله .

وفي نهاية الشوط يدعوهم لبيان لهم ما حرمه الله حقاً . . وهنا نرى جملة من المبادئ الأساسية للحياة الاجتماعية , في مقدمتها توحيد الله . وبعضها أوامر وتكاليف ولكن التحريمات أغلب , فجعلها عنواناً لكل:لقد نهى الله عن الشرك . وأمر بالإحسان للوالدين . ونهى عن قتل الأولاد من الفقر مع طمأننتهم على الرزق .ونهى عن القرب من الفواحش ما ظهر منها وما بطن . ونهى عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق . ونهى عن مس مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده . وأمر بإيفاء الكيل والميزان بالقسط . وأمر بالعدل في القول - في الشهادة والحكم - ولو كان ذا قرى . وأمر بالوفاء بعهد الله كله . وجعل هذا جميعه وصية من الله كررها عقب كل جملة من الأوامر والنواهي .

هذا الحشد كله الذي يتضمن قاعدة العقيدة ومبادئ الشريعة ; اللتين تتجمعان هذا التجمع في السياق , وتمتزجان هذا الامتزاج ; وتعرضان جملة واحدة , وكتلة واحدة , بصورة لا تخفى دلالتها على من يطالع هذا القرآن على النهج الذي بيناه . . هذا الحشد كله يقال عنه في نهاية الشوط الطويل:

(وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه , ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون). .

وذلك لإبراز تلك الدلالة المستفادة من السياق كله ; وصوغها في تقرير واحد واضح حاسم:

إن هذا الدين شريعته كعقيدته في تقرير صفة الشرك أو صفة الإسلام . بل إن شريعته من عقيدته في هذه الدلالة . . . بل إن شريعته هي عقيدته . . إذ هي الترجمة الواقعية لها . . . كما تتجلى هذه الحقيقة الأساسية من خلال النصوص القرآنية , وعرضها في المنهج القرآني . .

وهذه هي الحقيقة التي زحزح مفهوم "الدين" في نفوس أهل هذا الدين عنها زحزحة مطردة خلال قرون طويلة , بثنتى الأساليب الجهنمية الخبيثة . . حتى انتهى الأمر بأكثر المتحمسين لهذا الدين - ودعك من أعدائه والمستهزئين والمستهترين الذين لا يحفلونه - أن تصح قضية الحاكمية في نفوسهم قضية منفصلة عن قضية العقيدة ! لا تجيش لها نفوسهم كما تجيش للعقيدة ! ولا يعدون المروق منها مروقاً من الدين , كالذي يمرق من عقيدة أو عبادة ! وهذا الدين لا يعرف الفصل بين العقيدة والعبادة والشريعة . إنما هي الزحزحة التي زاولتها أجهزة مدرية , قروناً طويلة , حتى انتهت مسألة الحاكمية الى هذه الصورة الباهتة , حتى في حس أشد المتحمسين لهذا الدين ! وهي هي القضية التي تحتشد لها سورة مكية - موضوعها ليس هو النظام وليس هو الشريعة , إنما موضوعها هو العقيدة - وتحشد لها كل هذه المؤثرات , وكل هذه التقارير ; بينما هي تتصدى

لجزئية تطبيقية من تقاليد الحياة الاجتماعية . ذلك أنها تتعلق بالأصل الكبير . أصل الحاكمية . . وذلك أن هذا الأصل الكبير يتعلق بقاعدة هذا الدين وبوجوده الحقيقي . .

إن الذين يحكمون على عابد الوثن بالشرك , ولا يحكمون على المتحاكم إلى الطاغوت بالشرك . ويتخرجون من هذه ولا يتخرجون من تلك . . إن هؤلاء لا يقرأون القرآن . ولا يعرفون طبيعة هذا الدين . . فليقرأوا القرآن كما أنزله الله , وليأخذوا قول الله بجد: (وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) . .

وإن بعض هؤلاء المتحمسين لهذا الدين ليشغلون بهم وبال الناس بيان إن كان هذا القانون , أو هذا الإجراء , أو هذا القول , منطبقاً على شريعة الله أو غير منطبق . . وتأخذهم الغيرة على بعض المخالفات هنا وهناك . . كأن الإسلام كله قائم , فلا ينقص وجوده وقيامه وكماله إلا أن تمتنع هذه المخالفات !

هؤلاء المتحمسون الغيرون على هذا الدين , يؤذون هذا الدين من حيث لا يشعرون . بل يطعنونه الطعنة النجلاء بمثل هذه الاهتمامات الجانبية الهزيلة . . إنهم يفرغون الطاقة العقيدية الباقية في نفوس الناس في هذه الاهتمامات الجانبية الهزيلة . . إنهم يؤدون شهادة ضمنية لهذه الأوضاع الجاهلية . شهادة بأن هذا الدين قائم فيها , لا ينقصه ليكمل إلا أن تصح هذه المخالفات . بينما الدين كله متوقف عن "الوجود" أصلاً , ما داملا يتمثل في نظام وأوضاع , الحاكمية فيها لله وحده من دون العباد .

إن وجود هذا الدين هو وجود حاكمية الله . فإذا انتفى هذا الأصل انتفى وجود هذا الدين . وإن مشكلة هذا الدين في الأرض اليوم , لهي قيام الطواغيت التي تعتدي على ألوهية الله , وتغتصب سلطانه , وتجعل لأنفسها حق التشريع بالإباحة والمنع في الأنفس والأموال والأولاد . . وهي هي المشكلة التي كان يواجهها القرآن الكريم بهذا الحشد من المؤثرات والمقررات والبيانات , ويربطها بقضية الألوهية والعبودية , ويجعلها مناط الإيمان أو الكفر , وميزان الجاهلية أو الإسلام .

إن المعركة الحقيقية التي خاضها الإسلام ليقرر "وجوده" لم تكن هي المعركة مع الإلحاد , حتى يكون مجرد "التدين" هو ما يسعى إليه المتحمسون لهذا الدين ! ولم تكن هي المعركة مع الفساد الاجتماعي أو الفساد الأخلاقي - فهذه معارك تالية لمعركة "وجود" هذا الدين ! . . لقد كانت المعركة الأولى التي خاضها الإسلام ليقرر "وجوده" هي معركة "الحاكمية" وتقرير لمن تكون . . لذلك خاضها وهو في مكة . خاضها وهو ينشئ العقيدة , ولا يتعرض للنظام والشريعة . خاضها ليثبت في الضمير أن الحاكمية لله وحده , لا يدعيها لنفسه مسلم , ولا يقر مدعيها على دعواه مسلم . . فلما أن رسخت هذه العقيدة في نفوس العصابة المسلمة في مكة , يسر الله لهم مزاولتها الواقعية في المدينة . . فلينظر المتحمسون لهذا الدين ما هم فيه وما يجب أن يكون . بعد أن يدركوا المفهوم الحقيقي لهذا الدين !

وحسبنا هذا القدر لنواجه النصوص بالتفصيل .

الدرس الأول 136 - 140 نماذج مستنكرة من التشريع الجاهلي الخاسر

(وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً . فقالوا: هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله , وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . . ساء ما يحكمون !) . .

يقرر السياق - وهو يصف تصورات الجاهلية وتقاليدها في الحرث والأنعام - أن الله هو الذي أنشأ لهم هذه الزروع والأنعام ; فما من أحد غير الله يرزق الناس من الأرض والسماء . . ثم يذكر بعد هذا التقرير ما يفعلونه بما رزقهم . إذ يجعلون له منه سبحانه جزءا , ويجعلون لأوثانهم وأصنامهم جزءا [وطبيعي أن سدنة الأوثان هم الذين ينتهي إليهم هذا الجزء الأخير !] . ثم هم بعد ذلك يجورون على الجزء الذي جعلوه لله . على النحو الذي تقررته الآية !

عن ابن عباس قال: كانوا إذا أدخلوا الطعام فجعلوه حزما , جعلوا منه لله سهما وسهما لألتهم . وكانت إذا هبت الريح من نحو الذي جعلوه لألتهم إلى الذي جعلوه لله رده إلى الذي جعلوه لألتهم . وإذا هبت الريح من نحو الذي جعلوها لله إلى الذي جعلوه لألتهم , أقروه ولم يردوه . فذلك قوله: (ساء ما يحكمون).

وعن مجاهد قال: يسمون لله جزءا من الحرث , ولشركائهم وأوثانهم جزءا . فما ذهبت به الريح مما سموا لله إلى جزء أوثانهم تركوه . وما ذهب من جزء أوثانهم إلى جزء الله رده . وقالوا: "الله عن هذا غني" ! والأنعام: السائبة والبحيرة التي سموا .

وعن قتادة قال: عمد ناس من أهل الضلالة فجزأوا من حروثهم ومواشيهم جزءاً لله وجزءاً لشركائهم وكانوا إذا خالط شيء مما جزأوا لله فيما جزأوا لشركائهم خلوه . فإذا خالط شيء مما جزأوا لشركائهم فيما جزأوا لله رده على شركائهم . وكانوا إذا أصابتهم السنة [يعني الجذب] استعانوا بما جزأوا لله , وأقروا ما جزأوا لشركائهم . قال الله , (ساء ما يحكمون).

وعن السدي قال: كانوا يقسمون من أموالهم قسما فيجعلونه لله , ويزرعون زرعاً فيجعلونه لله . ويجعلون لألتهم مثل ذلك . . فما خرج للآلهة أنفقوه عليها , وما خرج لله تصدقوا به . فإذا هلك الذي يصنعون لشركائهم , وكثر الذي لله , قالوا: "ليس بد لألتهنا من نفقة" ! وأخذوا الذي لله فأنفقوه على ألتهم . وإذا أجدب الذي لله , وكثر الذي لألتهم , قالوا: "لو شاء أزكى الذي له" ! فلا يردون عليه شيئاً مما للآلهة . قال الله . . لو كانوا صادقين فيما قسموا لبئس إذن ما حكموا: أن يأخذوا مني ولا يعطوني ! فذلك حين يقول: (ساء ما يحكمون).

وعن ابن جرير: وأما قوله: (ساء ما يحكمون) فإنه خبر من الله جل ثناؤه عن فعل هؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم . يقول جل ثناؤه: وقد أساءوا في حكمهم , إذ أخذوا من نصيبي لشركائهم , ولم يعطوني من نصيب شركائهم , وإنما عنى بذلك - تعالى ذكره - الخبر عن جهلهم وضلالتهم , وذهابهم عن سبيل الحق , بأنهم لم يرضوا أن عدلوا بمن خلقهم وغذاهم , وأنعم عليهم بالنعم التي لا تحصى , ما لا يضرهم ولا ينفعهم , حتى فضلوه في أقسامهم عن أنفسهم بالقسم عليه !

هذا هو ما كان شياطين الإنس والجن يوحون به إلى أوليائهم ليجادلوا به المؤمنين في الأنعام والزروع . وظاهر في هذه التصورات والتصرفات أثر المصلحة للشياطين في هذا الذي يزينونه لأوليائهم . فأما مصلحة شياطين الإنس - من الكهنة والسدنة والرؤساء - فهي متمثلة أولاً في الاستيلاء على قلوب الأتباع والأولياء , وتحريكهم على هواهم وفق ما يزينونه لهم من تصورات باطلة وعقائد فاسدة ! وتمثلة ثانياً في المصالح المادية التي تتحقق لهم من وراء هذا التزيين والاستهواء لجماهير الناس ; وهو ما يعود عليهم مما يقسمه هؤلاء الأغرار المغفلون للآلهة ! . . وأما مصلحة شياطين الجن فتمثل في نجاح الإغواء والوسوسة لئبي آدم حتى يفسدوا عليهم حياتهم , ويفسدوا عليهم دينهم ,

ويقودوهم ذلاً إلى الدمار في الدنيا والنار في الآخرة ! وهذه الصورة التي كانت تقع في جاهلية العرب , وكانت تقع نظائرها في الجاهليات الأخرى: للإغريق والفرس والرومان , والتي ما تزال تقع في الهند وإفريقية وآسيا . . . هذه الصور كلها ليست إلا صوراً من التصرف في المال لا تقتصر عليها الجاهلية ! فالجاهلية الحاضرة تتصرف كذلك في الأموال بما لم يأذن به الله . وعندئذ تلتقي في الشرك مع تلك الجاهليات القديمة . تلتقي في الأصل والقاعدة . فالجاهلية هي كل وضع يتصرف في شؤون الناس بغير شريعة من الله . ولا عبرة بعد ذلك باختلاف الأشكال التي يتمثل فيها هذا التصرف . . . فإن هي إلا أشكال . . . (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم , وليلبسوا عليهم دينهم . ولو شاء الله ما فعلوه . فذرهم وما يفترون).

يقول: وكما زين الشركاء والشياطين لهم ذلك التصرف في أموالهم كذلك زينوا لهم قتل أولادهم . . . وذلك ما كانوا يفعلونه من وأد البنات خشية الإملاق - أو خشية السبي والعار - ومن قتل بعض الأبناء في النذر للألهة كالذي روي عن عبد المطلب من نذره ذبح أحد ولده , إن رزقه الله بعشرة منهم يحمونه ويمنعونه !

وظاهر أن هذا وذاك كان يوحى به عرف الجاهلية . العرف الذي وضعه الناس للناس . والشركاء المذكورون هنا هم شياطين الإنس والجن . . . من الكهنة والسدنة والرؤساء من الإنس , ومن القرناء الموسوسين من الجن , بالتعاون والموالة فيما بينهم !

والنص يصرح بالهدف الكامن وراء الترتيب:

(ليردوهم , وليلبسوا عليهم دينهم).

وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ (137)

ليهلكوهم وليجعلوا دينهم عليهم ملتبساً غامضاً لا يقفون منه على تصور واضح . . . فأما الهلاك فيتمثل ابتداءً في قتلهم لأولادهم ; ويتمثل أخيراً في فساد الحياة الاجتماعية بجملتها , وصيرورة الناس ماشية ضالة يوجهها رعاتها المفسدون حيثما شاءوا , وفق أهوائهم ومصالحهم ! حتى ليتحكمون في أنفسهم وأولادهم وأموالهم بالقتل والهلاك , فلا تجد هذه الغنم الضالة لها مفراً من الخضوع . لأن التصورات المتلبسة بالدين والعقيدة - وما هي منها - بكل ثقلها وعمقها , تتعاون مع العرف الاجتماعي المنبثق منها , وتنشئ ثقلاً ساحقاً لا تقف له جماهير الناس . ما لم تعتصم منه بدين واضح ; وما لم ترجع في أمرها كله إلى ميزان ثابت .

وهذه التصورات المبهمة الغامضة ; وهذا العرف الاجتماعي الذي ينبثق منها , ويضغط على جمهرة الناس بثقله الساحق . . . لا ينحصر في تلك الصور التي عرفتها الجاهليات القديمة . فنحن نشهده اليوم بصورة أوضح في الجاهليات الحديثة . . . هذه العادات والتقاليد التي تكلف الناس العنت الشديد في حياتهم , ثم لا يجدون لأنفسهم منها مفراً . هذه الأزياء والمراسم التي تفرض نفسها على الناس فرضاً , وتكلفهم أحياناً ما لا يطيقون من النفقة , وتآكل حياتهم واهتماماتهم , ثم تفسد أخلاقهم وحياتهم . ومع ذلك لا يملكون إلا الخضوع لها . . . أزياء الصباح , وأزياء بعد الظهر , وأزياء المساء . . . الأزياء القصيرة , والأزياء الضيقة , والأزياء المضحكة ! وأنواع الزينة والتجميل والتصفيف . . . إلى آخر هذا الاسترقاق المذل . . . من الذي يصنعه ومن الذي يقف وراءه ? تقف وراءه

بيوت الأزياء . وتقف وراءه شركات الإنتاج ! ويقف وراءه المرابون في بيوت المال والبنوك من الذين يعطون أموالهم للصناعات ليأخذوا هم حصيلة كدها ! ويقف وراءه اليهود الذين يعملون لتدمير البشرية كلها ليحكموها ! . . ولكنهم لا يقفون بالسلاح الظاهر والجند المكشوف , إنما يقفون بالتصورات والقيم التي ينشئونها , ويؤصلونها بنظريات وثقافات ; ويطلقونها تضغط على الناس في صورة [عرف اجتماعي] . فهم يعلمون أن النظريات وحدها لا تكفي ما لم تتمثل في أنظمة حكم , وأوضاع مجتمع , وفي عرف اجتماعي غامض لا يناقشه الناس , لأنه ملتبس عليهم متشابكة جذوره وفروعه !

إنه فعل الشياطين . . شياطين الإنس والجن . . وإنها الجاهلية تختلف أشكالها وصورها , وتتحد جذورها ومنابعها , وتتماثل قوائمها وقواعدها . .

وإننا لنبخس القرآن قدره , إذا نحن قرأناه وفهمناه على أنه حديث عن جاهليات كانت ! إنما هو حديث عن شتى الجاهليات في كل أعصار الحياة . ومواجهة للواقع المنحرف دائماً ورده إلى صراط الله المستقيم . .

ومع ضخامة الكيد , وثقل الواقع , فإن السياق القرآني يهون أمر الجاهلية , ويكشف عن الحقيقة الكبرى التي قد يخدع عنها هذا الجانب الظاهر . . إن هؤلاء الشياطين وأولياءهم لفي قبضة الله وسلطانه . وهم لا يفعلون ما يفعلونه بقدره ذاتية فيهم . ولكن بترك الحبل ممدوداً لهم قليلاً ; بمشيئة الله وقدره , تحقيقاً لحكمة الله في ابتلاء عباده . ولو شاء ألا يفعلوه ما فعلوه . ولكنه شاء للابتلاء . فلا على النبي [ص] ولا على المؤمنين . فليمضوا في طريقهم وليدعوا له الشياطين وما يفترون على الله وما يكيدون :

(ولو شاء الله ما فعلوه . فذرهم وما يفترون) . .

ولا بد أن نذكر أنهم ما كانوا يجرؤون على أن يقولوا: إن هذه التصورات والتصرفات من عند أنفسهم . إنما يفترون على الله , فيزعمون أنه هو شرعها لهم . . ينسبونها بذلك إلى شريعة إبراهيم وإسماعيل - بزعمهم ! كذلك يفعل الشياطين اليوم في الجاهليات الحديثة . . إن معظمهم لا يستطيع أن يتبجح بتبجح الشيوعيين الملحدين ;

وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَزْتُ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِغْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ طُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (138) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَيَّ ارِّوَاغِنَا وَإِنْ يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ كَيْمٌ عَلِيمٌ (139)

فينفي وجود الله جملة ويتنكر للدين علانية . إنما يلجأ إلى نفس الأسلوب الذي كان يلجأ إليه الشياطين في جاهلية العرب ! يقولون: إنهم يحترمون الدين ! ويزعمون أن ما يشرعونه للناس له أصل من هذا الدين ! . . إنه أسلوب الأم وأخبث من أسلوب الشيوعيين الملحدين ! إنه يخدر العاطفة الدينية الغامضة التي لا تزال تعيش في قرارات النفوس - وإن لم تكن هي الإسلام , فالإسلام منهج واضح عملي واقع وليس هذه العاطفة المبهمة الغامضة - ويفرغ الطاقة الفطرية الدينية في قوالب جاهلية لا إسلامية . وهذا أخبث الكيد وألم الأساليب !

ثم يحيى "المتحمسون" لهذا الدين ; فيفرغون جهدهم في استنكار جزئيات هزيمة على هامش الحقيقة الإسلامية , لا تروق لهم في هذه الأوضاع الجاهلية المشركة , المغتصبة لألوهية الله وسلطانه بالجملة . وبهذه الغيرة الغبية يسبغون على هذه الأوضاع الجاهلية المشركة طابع الإسلام . ويشهدون لها شهادة ضمنية خطيرة بأنها تقوم على أصل من الدين حقاً , ولكنها تخالف عنه في هذه الجزئيات الهزيلة !

ويؤدي هؤلاء المتحمسون دورهم لتثبيت هذه الأوضاع وتطهيرها . وهو نفس الدور الذي تؤديه الأجهزة الدينية المحترفة , التي تلبس مسوح الدين ! وإن كان الإسلام بالذات لا يعرف المسوح ولا ينطق باسمه كاهن ولا سادن !

(وقالوا: هذه أنعام وحرث حجر , لا يطعمها إلا من نشاء - بزعمهم - وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها - افتراء عليه - سيجزيهم بما كانوا يفترون) .

قال أبو جعفر بن جرير الطبري: " وهذا خبر من الله - تعالى ذكره - عن هؤلاء الجهلة من المشركين . إنهم كانوا يحرمون ويحللون من قبل أنفسهم , من غير أن يكون الله أذن لهم بشيء من ذلك " .

والحجر: الحرام . . فهؤلاء المعتدون على سلطان الله , الذين يدعون - مع ذلك - أن ما يشرعونه هو شريعة الله , قد عمدوا إلى بعض الزروع وبعض الأنعام , فعزلوها لآلهتهم - كما تقدم - وقالوا: هذه الأنعام وهذه الثمار محرمة عليهم لا يطعمونها . لا يطعمها إلا من شاء الله ! - بزعمهم ! - والذي يقرر ما يقرر في هذا الشأن هم بطبيعة الحال الكهنة والسدنة والرؤساء ! وعمدوا إلى أنعام قيل: إنها هي الأنواع المسماة في آية المائدة: ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام فجعلوا ظهورها حراماً على الركوب . كما عمدوا إلى أنعام فقالوا: هذه لا يذكر اسم الله عليها عند ركوبها ولا عند حلبها , ولا عند ذبحها . . إنما تذكر أسماء الآلهة وتخلص لها ! كل ذلك (افتراء على الله)!

قال أبو جعفر بن جرير: " وأما قوله (افتراء على الله) فإنه يقول: فعل هؤلاء المشركون ما فعلوا من تحريمهم ما حرموا , وقالوا ما قالوا من ذلك , كذباً على الله , وتخرصاً بالباطل عليه , لأنهم أضافوا ما كانوا يحرمون من ذلك , على ما وصفه عنهم جل ثناؤه في كتابه , إلى أن الله هو الذي حرمه , فنفى الله ذلك عن نفسه , وأكذبهم . وأخبر نبيه والمؤمنين أنهم كذبة فيما يدعون " .

وهنا كذلك تبدو لنا أساليب الجاهلية , التي تتكرر في معظم الجاهليات , وذلك قبل أن يبلغ التبجح بناس من البشر أن يقولوا بمادية الوجود ! وقيل أن يبلغ التبجح ببعض من لا ينكرون الله البتة , أن يجهروا بأن "الدين" مجرد "عقيدة" وليس نظاماً اجتماعياً أو اقتصادياً أو سياسياً , يهيمن على الحياة !

وإن كان ينبغي أن ندرك دائماً أن أسلوب الجاهلية التي تقيم نظاماً أرضياً , الحاكمة فيه للبشر لا لله , فتمتدح أنها تحترم الدين وتستمد منه أوضاعها الجاهلية . . أن ندرك أن هذا الأسلوب هو أخبث الأساليب وأمهرها على الإطلاق ! ولقد عمدت الصليبية العالمية والصهيونية العالمية إلى هذا الأسلوب في المنطقة التي كانت يوماً دار إسلام تحكم بشريعة الله . بعدما تبين لها فشل التجربة التركية التي قام بها البطل الذي صنعوه هناك ! . . لقد أدت لهم هذه التجربة دوراً هاماً في تحطيم الخلافة كآخر مظهر للتجمع الإسلامي في الأرض , ولكنها بعلمانياتها السافرة قد عجزت عن أن تكون نموذجاً يؤثر في بقية المنطقة . لقد انخلعت من الدين , فأصبحت أجنبية عن الجميع , الذين ما

يزال الدين عاطفة غامضة في قرارات نفوسهم . . ومن ثم عمدت الصليبية العالمية والصهيونية في التجارب التالية , التي تستهدف نفس الهدف , أن تتدارك غلطة التجربة الكمالية التركية . فتضع على هذه التجارب ستارا من الدين وتقيم له أجهزة دينية تصفي عليه هذه الصفة , سواء بالدعاية المباشرة ; أو باستنكار جزئيات هزيلة يوهم استنكارها أن ما عداها سليم ! وكان هذا من أخبث الكيد الذي تكيده شياطين الإنس والجن لهذا الدين . .

على أن الأجهزة الصليبية والصهيونية التي تعمل بكل ثقلها في هذه الفترة , وبكل تضامنها وتجمعها , وبكل تجاربها وخبرتها , تحاول أن تسترد الغلطة في التجربة التركية ذاتها , بأن تزعم أن هذه التجربة ذاتها كانت حركة من حركات البعث الإسلامي ! وأنها يجب ألا نصدقها فيما أعلنته عن نفسها من أنها [علمانية] تنبذ الدين وتعزله عن الحياة عزلاً !

ويجهد المستشرقون [وهم الأداة الفكرية للاستعمار الصليبي الصهيوني] في تطهير التجربة الكمالية من تهمة الإلحاد جهداً كبيراً . . ذلك أن انكشاف إلحادها جعلها تؤدي دوراً محدوداً . . وهو سحق آخر مظهر للتجمع الإسلامي في الأرض . . ولكنها عجزت بعد ذلك أن تؤدي الدور الآخر - الذي تحاول أن تؤديه التجارب التالية في المنطقة - من تفرغ المفهومات الدينية والحماسة الدينية في أوضاع وأشكال جاهلية ! ومن تبديل الدين باسم الدين ! ومن إفساد الخلق والمقومات الفطرية الأصيلة باسم الدين أيضاً . ومن إلباس الجاهلية ثوب الإسلام لتؤدي به دورها في كل البقاع التي ما يزال فيها عاطفة دينية غامضة ; وقيادتها بهذا الخطام المزور الخادع إلى محاضن الصليبية والصهيونية . . الأمر الذي عجزت عنه الحملات الصليبية والصهيونية طوال ألف وثلاث مائة عام , من الكيد للإسلام !

. . (سيجزئهم بما كانوا يفترون) . .

(وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا , وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . . سيجزئهم وصفهم , إنه حكيم عليم) . .

لقد استطردوا في أوهام التصورات والتصرفات , النابعة من انحرافات الشرك والوثنية , ومن ترك أمر التحليل والتحرير للرجال ; مع الادعاء بأن ما يشرعه الرجال هو الذي شرعه الله . استطردوا في هذه الأوهام فقالوا عن الأجنة التي في بطون بعض الأنعام - ولعلها تلك المسماة البحيرة والسائبة والوصيلة - إنها خالصة للذكور منهم حين تنتج , محرمة على الإناث , إلا أن تكون ميتة فيشارك فيها الإناث الذكور . . هكذا بلا سبب ولا دليل ولا تعليق , إلا أهواء الرجال التي يصوغون منها ديناً غامضاً ملتبساً في الأفهام .

وبعقب السياق القرآني تعقيب التهديد ; لمن صاغوا هذه الشرائع وكذبوا على الله فوصفوها بأنها من شرع الله:

. . (سيجزئهم وصفهم) . .

. . (إنه حكيم عليم) . .

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ
صَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (140)

يعلم حقائق الأحوال , ويتصرف فيها بحكمة , لا كما يتصرف هؤلاء المشركون الجهال .

وإن الإنسان ليعجب , وهو يستعرض مع السياق القرآني هذه الضلالات , وما تحمله أصحابها من أعباء وخسائر وتضحيات . . يعجب لتكاليف الانحراف عن شرع الله ونهجه , تلك التي يتحملها المنحرفون عن صراط الله المستقيم . ولأثقال الخرافة والغموض والوهم التي يتبعها الضالون . ولأغلال العقيدة الفاسدة في المجتمع والضمير . . نعم يعجب للعقيدة المنحرفة تكلف الناس حتى فلذات أكبادهم , فوق ما تكلفهم من تعقيد الحياة واضطرابها , والسير فيها بلا ضابط , سوى الوهم والهوى والتقليد . وأمامهم التوحيد البسيط الواضح ; يطلق الضمير البشري من أوهام الوهم والخرافة ; ويطلق العقل البشري من عقال التقليد الأعمى ; ويطلق المجتمع البشري من الجاهلية وتكالييفها ; ويطلق "الإنسان" من العبودية للعبيد - سواء فيما يشترعونه من قوانين , وما يصنعونه من قيم وموازن - ويحل محل هذا كله عقيدة واضحة مفهومة مضبوطة , وتصورا واضحا ميسرا مربحا , ورؤية لحقائق الوجود والحياة كاملة عميقة , وانطلاقا من العبودية للعبيد , وارتفاعا إلى مقام العبودية لله وحده . . المقام الذي لا يرتقي إلى أعلى درجاته إلا الأنبياء !

ألا إنها الخسارة الفادحة - هنا في الدنيا قبل الآخرة - حين تنحرف البشرية عن صراط الله المستقيم ; وتتردى في حماة الجاهلية ; وترجع إلى العبودية الذليلة لأرباب من العبيد:

(قد خسر الذين قتلوا أولادهم - سفها بغير علم - وحرموا ما رزقهم الله - افتراء على الله - قد ضلوا وما كانوا مهتدين) . .

خسروا الخسارة المطلقة . خسروا في الدنيا والآخرة . خسروا أنفسهم وخسروا أولادهم . خسروا عقولهم وخسروا أرواحهم . خسروا الكرامة التي جعلها الله لهم بإطلاقهم من العبودية لغيره ; وأسلموا أنفسهم لربوبية العبيد ; حين أسلموها لحاكمية العبيد ! وقبل ذلك كله خسروا الهدى بخسارة العقيدة , خسروا الخسارة المؤكدة , وضلوا الضلال الذي لا هداية فيه:

(قد ضلوا وما كانوا مهتدين).

الدرس الثاني: 141 - 142 نعمة الله في الحيوانات والمزروعات

بعد ذلك يردهم السياق إلى الحقيقة الأولية التي ضلوا عنها , والتي أشار إليها إشارة في أول هذا الحديث بقوله: (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا) . . يردهم إلى مصدر الحرث والأنعام التي يتصرفون في شأنها هذه التصرفات ; ويتلقون في شأنها من شياطين الإنس والجن الذين لم يخلقوها لهم ولم ينشئوها . . إن الله هو الذي ذرأ الحرث والأنعام , متاعا للناس ونعمة ; ذرأها لهم ليشكروا له ; ويعبدوه - وما به سبحانه من حاجة إلى شكرهم وعبادتهم , فهو الغني ذو الرحمة ; إنما هو صلاح حالهم في دينهم وديانهم - فما بالهم يحكمون من لم يخلق شيئا , فيما ذرأ الله من الحرث والأنعام ? وما بالهم يجعلون لله نصيبا , ولأولئك نصيبا , ثم لا يقفون عند هذا الحد فيتلاعبون - تحت استهواء أصحاب المصلحة من الشياطين - في النصيب الذي جعلوه لله !?

إن الخالق الرازق هو الرب المالك . الذي لا يجوز أن يُتصرف في هذا المال إلا بإذنه ممثلاً في شرعه . وشرعه ممثل فيما جاء به رسوله من عنده , لا فيما يدعي الأرباب المغتصبون لسلطان الله أنه شريعة الله !

(وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات , والنخل والزرع مختلفاً أكله , والزيتون والرمان , متشابهها وغير متشابهه . كلوا من ثمره إذا أثمر , وآتوا حقه يوم حصاده , ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . ومن

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (141) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (142)

الأنعام حمولة وفرشا . كلوا مما رزقكم الله , ولا تتبعوا خطوات الشيطان , إنه لكم عدو مبين).

إن الله - سبحانه - هو الذي خلق هذه الجنات ابتداء - فهو الذي أخرج الحياة من الموات - وهذه الجنات منها الإنسيات المعروشات التي يتعدها الإنسان بالعرائش والحوائط ; ومنها البريات التي تنبت بذاتها - بقدر الله - وتنمو بلا مساعدة من الإنسان ولا تنظيم . وإن الله هو الذي أنشأ النخل والزرع مختلف الألوان والطعوم والأشكال . وإن الله هو الذي خلق الزيتون والرمان , منوع الصنوف متشابهها وغير متشابهه , وإنه - سبحانه - هو الذي خلق هذه الأنعام وجعل منها (حمولة) عالية القوائم بعيدة في الأرض حمالة للأثقال . وجعل منها (فرشا) صغيرة الأجسام قريبة من الأرض يتخذ من أصوافها وأشعارها الفرش

إنه هو - سبحانه - الذي بث الحياة في هذه الأرض ; ونوعها هذا التنوع ; وجعلها مناسبة للوظائف التي تتطلبها حياة الناس في الأرض . فكيف يذهب الناس - في مواجهة هذه الآيات وهذه الحقائق - إلى تحكيم غير الله في شأن الزروع والأنعام والأموال ?

إن المنهج القرآني يكثر من عرض حقيقة الرزق الذي يختص الله بمنحه للناس , ليتخذ منها برهاناً على ضرورة إفراد الله سبحانه بالحاكمة في حياة الناس . فإن الخالق الرازق الكافل وحده ; هو الحقيق بأن تكون له الربوبية والحاكمة والسلطان وحده . . بلا جدال:

وهنا يحشد السياق مشاهد الزرع والإثمار , ومشاهد الأنعام وما فيها من نعم الله . . يحشد هذه المؤثرات في صدد قضية الحاكمية , كما حشدها من قبل في صدد قضية الألوهية . . فيدل على أن هذه وتلك قضية واحدة في العقيدة الإسلامية .

وعندما يذكر الزروع والثمار يقول:

(كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا , إنه لا يحب المسرفين).

والأمر بإيتاء حقه يوم حصاده هو الذي جعل بعض الروايات تقول عن هذه الآية إنها مدنية . وقد قلنا في التقديم للسورة: إن الآية مكية , لأن السياق في الجزء المكي من السورة

لا يتصور تتابعه بدون هذه الآية . فإن ما بعدها ينقطع عما قبلها لو كانت قد تأخرت حتى نزلت في المدينة . وهذا الأمر بإيتاء حق الزرع يوم حصاده , لا يتحتم أن يكون المقصود به الزكاة . وهناك روايات في الآية أن المقصود هو الصدقة غير المحددة . . أما الزكاة بأنصبتها المحددة فقد حددتها السنة بعد ذلك في السنة الثانية من الهجرة . .

وقوله تعالى:

(ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) . .

ينصرف إلى العطاء , كما ينصرف إلى الأكل . فقد روي أنهم تباروا في العطاء حتى أسرفوا , فقال الله سبحانه: (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) . .

وعندما يذكر الأنعام يقول:

كلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا , ولا تتبعوا خطوات الشيطان , إنه لكم عدو مبين . .

ذلك ليذكرهم أن هذا رزق الله وخلقه , والشيطان لم يخلق شيئا . فما بالهم يتبعونه في رزق الله ? ثم ليذكرهم أن الشيطان لهم عدو مبين . فما بالهم يتبعون خطواته وهو العدو المبين !?

ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّانِّ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمَ الْإُنثَيْنِ أَمْ الْبَقَرِ عَلَيْهِ أَرْحَامٌ الْإِنثَيْنِ نَبِّؤُنِي يَعْلَمُ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (143) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْإُنثَيْنِ أَمْ الْبَقَرِ عَلَيْهِ أَرْحَامٌ الْإِنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (144)

الدرس الثالث: 143 - 144 تكذيب الجاهلين في تشريعاتهم وتحريمهم

ثم يأخذ السياق في مواجهة دقيقة يتتبع بها مكامن الأوهام الجاهلية , ليلقي عليها الضوء , ويستعرضها واحدا واحدا , وجزئية جزئية ; فيكشف فيها عن السخف الذي لا يمكن تعليقه ولا الدفاع عنه ; والذي قد يخجل منه صاحبه نفسه , حين يكشف له في النور ; وحين يرى أن لا سند له فيه من علم ولا هدى ولا كتاب منير:

ثمانية أزواج: من الضأن اثنين ومن المعز اثنين . قل: الذكرين حرم أم الأنثيين ? أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ? نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ! ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين . قل: الذكرين حرم أم الأنثيين ? أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ? أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ? فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ? إن الله لا يهدي القوم الظالمين . .

فهذه الأنعام التي يدور حولها الجدل ; والتي ذكر في الآية السابقة أن الله خلقها لهم , هي ثمانية أزواج - وكل من الذكر والأنثى يطلق عليه لفظ زوج عندما يكون مع رفيقه - زوج من الضأن وزوج من المعز . فأى منها حرمه الله على أي من الناس ? أم إنه حرم أجنحتها في البطون ?

(نبئوني بعلم إن كنتم صادقين) . .

فهذه الشئون لا يفتى فيها بالظن , ولا يقضى فيها بالحدس , ولا يشرع فيها بغير سلطان معلوم .

وبقية الأزواج ذكر وأنثى من الإبل ; وذكر وأنثى من البقر . فأيتها كذلك حرم ؟ أم أجنبتها هي التي حرمها الله على الناس ؟ ومن أين هذا التحريم :

(أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟) . .

فحضرتم وشهدتم وصية الله لكم خاصة بهذا التحريم . فما ينبغي أن يكون هناك تحريم بغير أمر من الله مستيقن , لا يرجع فيه إلى الرجم والظنون .

وبهذا يرد أمر التشريع كله إلى مصدر واحد . . وقد كانوا يزعمون أن الله هو الذي شرع هذا الذي يشرعونه . لذلك يعاجلهم بالتحذير والتهديد :

(فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم . إن الله لا يهدي القوم الظالمين) . .

إنه لا أحد أظلم ممن يفترى على الله شريعة لم يأذن بها , ثم يقول : شريعة الله ! وهو يقصد أن يضل الناس بغير علم , إنما هو يحيلهم إلى هدى أو ظن . . أولئك لن يهديهم الله ; فقد قطعوا ما بينهم وبين أسباب الهدى . وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً . . والله لا يهدي القوم الظالمين . .

الدرس الرابع: 145 - 147 نماذج من التشريع الإلهي في المحرمات

والآن وقد كشف لهم عما في معتقداتهم وتصوراتهم وتصرفاتهم من وهن وسخف وهزال . وقد بين لهم أنها لا تقوم على علم ولا بينة ولا أساس . وقد ردهم إلى نشأة الحرث والأنعام التي يتصرفون فيها من عند أنفسهم , أو بوحى شياطينهم وشركائهم , بينما هؤلاء لم يخلقوها لهم , إنما الذي خلقها لهم هو الله , الذي يجب أن تكون له وحده الحاكمية فيما خلق وفيما رزق , وفيما أعطى من الأموال للعباد . .

الآن يقرر لهم ما حرمه الله عليهم من هذا كله . ما حرمه الله حقاً عن بينة ووحى , لا عن ظن ووهم . والله هو صاحب الحاكمية الشرعية , الذي إذا حرم الشيء فهو حرام , وإذا أحله فهو حلال ; بلا تدخل من البشر ولا مشاركة ولا تعقيب في سلطان الحاكمية والتشريع . . وبالمناسبة يذكر ما حرمه الله على اليهود خاصة , وأحله للمسلمين , فقد كان عقوبة خاصة لليهود على ظلمهم وبعدهم عن شرع الله !

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِعَیْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (145)

(قل: لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه , إلا أن يكون ميتة , أو دمًا مسفوحاً أو لحم خنزير - فإنه رجس - أو فسقاً أهل لغير الله به . فمن اضطر - غير باغ ولا عاد - فإن ربك غفور رحيم . وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر . ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما - إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم -

ذلك جزيناهم ببيغهم وإنا لصادقون . فإن كذبوك فقل: ربكم ذو رحمة واسعة , ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين) . .

قال أبو جعفر بن جرير الطبري:

" يقول - جل ثناؤه - لنبيه محمد [ص] قل , يا محمد , لهؤلاء الذين جعلوا الله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً , ولشركائهم من الآلهة والأنداد مثله . والقائلين: هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء - بزعمهم - والمحرمين من أنعام آخر ظهورها , والتاركين ذكر اسم الله على آخر منها . والمحرمين بعض ما في بطون بعض أنعامهم على إناثهم وأزواجهم , ومُحليه لذكورهم . المحرمين ما رزقهم الله افتراء على الله ; وإضافة ما يحرمون من ذلك إلى أن الله هو الذي حرمه عليهم: أجاكم من الله رسول بتحريمه ذلك عليكم , فأنبئونا به , أم وصاكم الله بتحريمه مشاهدة منكم له , فسمعتم منه تحريمه ذلك عليكم فحرمتموه ? فإنكم كذبة إن ادعيتم ذلك , ولا يمكنكم دعواه , لأنكم إذا ادعيتموه علم الناس كذبكم . فإنني لا أجد فيما أوحى إلي من كتابه وأي تنزيهه شيئاً محرماً على آكل يأكله , مما تذكرون أنه حرمه من هذه الأنعام التي تصفون تحريم ما حرم عليكم منها - بزعمكم - إلا أن يكون (ميتة) , قد ماتت بغير تذكية , أو (دماً مسفوحاً) , وهو المنصب , أو إلا أن يكون لحم خنزير (فإنه رجس) . . (أو فسقا)" يقول: أو إلا أن يكون فسقاً , يعني بذلك: أو إلا أن يكون مذبوحاً ذبحه ذابح من المشركين من عبدة الأوثان لصنمه وآلهته فذكر اسم وثنه . فإن ذلك الذبح فسق , نهى الله عنه وحرمه , ونهى من آمن به عن أكل ما ذبح كذلك لأنه ميتة .

"وهذا إعلام من الله - جل ثناؤه - للمشركين الذين جادلوا نبي الله وأصحابه في تحريم الميتة بما جادلوهم به , أن الذي جادلوهم فيه من ذلك هو الحرام الذي حرمه الله , وأن الذي زعموا أن الله حرمه حلال أحله الله ; وأنهم كذبة في إضافتهم تحريمه إلى الله" . .

وقال في تأويل قوله تعالى: (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم):

... "أن معناه: فمن اضطر إلى أكل ما حرم الله من أكل الميتة والدم المسفوح أو لحم الخنزير , أو ما أهل لغير الله به , غير باغ في أكله إياه تلذذاً , لا لضرورة حالة من الجوع ; ولا عاد في أكله بتجاوزه ما حده الله وأباحه له من أكله , وذلك أن يأكل منه ما يدفع عنه الخوف على نفسه بترك أكله من الهلاك . . لم يتجاوز ذلك إلى أكثر منه . . فلا حرج عليه في أكله ما أكل من ذلك . (فإن الله غفور) فيما فعل من ذلك , فسأتر عليه , بتركه عقوبته عليه . ولو شاء عاقبه عليه . (رحيم) بإباحته إياه أكل ذلك عند حاجته إليه . ولو شاء حرمه عليه ومنعه منه" .

أما حد الاضطرار الذي يباح فيه الأكل من هذه المحرمات ; والمقدار المباح منها فحولهما خلافات فقهية . . فرأي أنه يباح ما يحفظ الحياة فقد عند خوف الهلاك لو امتنع . . ورأي أنه يباح ما يحقق الكفاية والشبع . . ورأي أنه يباح فوق ذلك ما يدخر لأكلات أخرى إذا خيف انقطاع الطعام . . ولا ندخل في تفصيلات الفروع . . فهذا القدر منها يكفي في هذا الموضوع .

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْعِزْمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا
حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (146)
فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147)

فأما اليهود فقد حرم الله عليهم كل ذي ظفر من الحيوان - أي كل حيوان قدمه غير مشقوقة ; وذلك كالإبل والنعام والأوز والبط . وحرم كذلك شحم البقر والغنم - إلا شحم الظهر , أو الدهن الملتف بالأعضاء , أو ما اختلط منه بالعظم . . وكان ذلك عقوبة لهم على بغْيهم بتجاوز أوامر الله وشرائعه:

(وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر . ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما - إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم - ذلك جزيناهم ببغْيهم , وإنا لصادقون).

والنص يبين سبب هذا التحريم , وهو سبب خاص باليهود , ويؤكد أن هذا هو الصدق , لا ما يقولونه هم من أن إسرائيل , وهو يعقوب جدهم , هو الذي حرم هذا على نفسه فهم يتبعونه فيما حرم على نفسه . . لقد كان هذا مباحا حلالا ليعقوب . ولكنه حرم عليهم بعد ما بغوا , فجازاهم الله بهذا الحرمان من الطيبات .

(فإن كذبوك فقل: ربكم ذو رحمة واسعة , ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين). . .

فقل ربكم ذو رحمة واسعة بنا , وبمن كان مؤمنا من عباده , وبغيرهم من خلقه . فرحمته - سبحانه - تسع المحسن والمسيء ; وهو لا يعجل على من استحق العقاب ; حلما منه ورحمة . فإن بعضهم قد يثوب إلى الله . . ولكن بأسه شديد لا يرد عنه المجرمين إلا حلمه , وما قدره من إمهالهم إلى أجل مرسوم .

وهذا القول فيه من الإطماع في الرحمة بقدر ما فيه من الإرهاب بالأس . والله الذي خلق قلوب البشر ; يخاطبها بهذا وذاك ; لعلها تهتز وتلتقى وتستجيب .

الدرس الخامس: 148 - 149 تكذيب المشركين في إفتراءهم على الله

وعندما يصل السياق إلى هذا الحد من تضيق الخناق عليهم , وسد الذرائع في وجوههم , يواجه مهربهم الأخير الذين يحيلون عليه شركهم وضلال تصوراتهم وتصرفاتهم . . إنهم يقولون: إنهم مجبرون لا مخيرون فيما اعتسفوا من شرك وضلال . فلو كان الله لا يريد منهم الشرك والضلال لمنعهم منه بقدرته التي لا يعجزها شيء:

(سيقول الذين أشركوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا , ولا حرمنا من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل: هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ? إن تتبعون إلا الظن , وإن أنتم إلا تخرصون . قل: فله الحجة البالغة , فلو شاء لهداكم أجمعين):

وقضية الجبر والاختيار كثر فيها الجدل في تاريخ الفكر الإسلامي بين أهل السنة والمعتزلة والمجبرة والمرجئة . . . وتدخلت الفلسفة الإغريقية والمنطق الإغريقي واللاهوت المسيحي في هذا الجدل , فتعقد تعقيدا لا تعرفه العقلية الإسلامية الواضحة الواقعية . . ولو أخذ الأمر بمنهج القرآن المباشر الميسر الجاد , ما اشتد هذا الجدل , وما سار في ذلك الطريق الذي سار فيه .

ونحن نواجه قول المشركين هذا والرد القرآني عليه , فنجد قضية واضحة بسيطة محددة:

(سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء). . فهم يحيلون شركهم هم وآباؤهم , وتحريمهم ما حرموه مما لم يحرمه الله , وادعاءهم أن هذا من شرع الله بغير علم ولا دليل . . يحيلون هذا كله على مشيئة الله بهم . فلو شاء الله ما أشركوا ولا حرموا . .

فكيف واجه القرآن الكريم هذه المقولة ؟

لقد واجهها بأنهم كذبوا كما كذب الذين من قبلهم , وقد ذاق المكذبون من قبلهم بأس الله . وبأس الله ينتظر المكذبين الجدد:

يَبَيِّنُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148) قُلْ قَلِيلٌ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (149)
(كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا). .

وهذه هي الهزة التي قد تحرك المشاعر , وتوقظ من الغفلة , وتوجه إلى العبرة . .

واللمسة الثانية كانت بتصحيح منهج الفكر والنظر . . إن الله أمرهم بأوامر ونهاهم عن محظورات . . وهذا ما يملكون أن يعلموه علماً مستيقناً . . فأما مشيئة الله فهي غيب لا وسيلة لهم إليه , فكيف يعلمونه ؟ وإذا لم يعلموه يقيناً فكيف يحيلون عليه:

(قل: هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون). .

إن لله أوامر ونواهي معلومة علماً قطعياً , فلماذا يتركون هذه المعلومات القطعية , ليمضوا وراء الحدس والخرص في واد لا يعلمونه ؟

هذا هو فصل القول في هذه القضية . . إن الله لا يكلف الناس أن يعلموا غيب مشيئته وقدره حتى يكتفوا أنفسهم على حسبه . إنما يكلفهم أن يعلموا أوامره ونواهيه , ليكتفوا أنفسهم على حسبها . . وهم حين يحاولون هذا يقرر الله سبحانه أنه يهديهم إليه , ويشرح صدورهم للإسلام . . وهذا حسبهم في القضية التي تبدو عندئذ - في واقعها العملي - يسيرة واضحة , بريئة من غموض ذلك الجدل وتحكماته !

إن الله قادر لو شاء على أن يخلق بني آدم ابتداء بطبيعة لا تعرف إلا الهدى , أو يقهرهم على الهدى . أو يقذف بالهدى في قلوبهم فيهدتوا بلا قهر . . ولكنه - سبحانه - شاء غير هذا ! شاء أن يبث في بني آدم بالقدرة على الاتجاه إلى الهدى أو الضلال , ليعين من يتجه منهم إلى الهدى على الهدى , وليمد من يتجه منهم إلى الضلال في غيه وفي حمايته . . وجرت سنته بما شاء . .

(قل: قللة الحجة البالغة , فلو شاء لهداكم أجمعين).

قضية واضحة , مصوغة في أيسر صورة يدركها الإدراك البشري . فأما المعاطلة فيها والمجادلة فهي غريبة على الحس الإسلامي وعلى المنهج الإسلامي . . ولم ينته الجدل فيها في أية فلسفة أو أي لاهوت إلى نتيجة مريحة . لأنه جدل يتناول القضية بأسلوب لا يناسب طبيعتها . .

إن طبيعة أي حقيقة هي التي تحدد منهج تناولها , وأسلوب التعبير عنها كذلك . الحقيقة المادية يمكن تناولها بتجارب المعمل , والحقيقة الرياضية يمكن تناولها بفروض الذهن . والحقيقة التي وراء هذا المدى , لا بد أن تتناول بمنهج آخر . . هو كما قلنا من قبل: منهج التذوق الفعلي لهذه الحقيقة في مجالها الفعلي . ومحاولة التعبير عنها بغير أسلوب القضايا الذهنية التي عولجت بها في كل ما جرى حولها من الجدل قديماً وحديثاً .

وبعد فلقد جاء هذا الدين ليحقق واقعاً عملياً ; تحدده أوامر ونواه واضحة . فالإحالة على المشيئة الغيبية دخول في متاهة , يرتادها العقل بغير دليل , ومضیعة للجهد الذي ينبغي أن ينفق في العمل الإيجابي الواقعي المشهود .

الدرس السادس: 150 مطالبة الكفار لشهادة الله على أحكامهم

وأخيراً يوجه الله - سبحانه - رسوله [ص] إلى مواجهة المشركين في موقف الإشهاد على قضية التشريع , كما واجههم من قبل في موقف الإشهاد على قضية الألوهية في أوائل السورة:

في أوائل السورة قال له:

(قل: أي شيء أكبر شهادة ? قل الله . شهيد بيني وبينكم , وأوحى إليّ هذا القرآن لأذركم به ومن

قُلْ هَلْ مَسَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَغْدِلُونَ (150)
بلغ . أنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ? قل: لا أشهد . قل: إنما هو إله واحد , وإنني بريء مما تشركون). .

وهنا قال له:

(قل: هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم . ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة , وهم برهم يعدلون). .

إنها مواجهة هائلة , ومواجهة كذلك فاصلة . ودلالاتها على طبيعة هذا الدين غير خافية . . إن هذا الدين يسوي بين الشرك العلني الواضح باتخاذ آلهة أخرى مع الله ; وبين الشرك الآخر الذي يتمثل في مزاولة حق الحاكمية والتشريع للناس بما لم يأذن به الله - دون اعتبار لما يدعونه هم من أن ما يشرعونه هو شريعة الله ! - كما أنه يصم الذين يرتكبون هذه الفعلية بأنهم يكذبون بآيات الله , ولا يؤمنون بالآخرة , وهم برهم يعدلون . . أي يجعلون له أندادا تعدله . . وهو ذات التعبير الذي جاء في أول آية في السورة وصفا للذين كفروا:

(الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض , وجعل الظلمات والنور , ثم الذين كفروا بربهم يعدلون).

هذا حكم الله على الذين يغتصبون حق الحاكمية ويزاولونه بالتشريع للناس - دون اعتبار لدعواهم أن ما يشرعونه هو من شريعة الله ! - وليس بعد حكم الله رأي لأحد في هذه القضية الخطيرة .

فإذا أردنا أن نفهم لماذا يقضي الله - سبحانه - بهذا الحكم ? ولماذا يعدهم مكذبين بآياته ; غير مؤمنين بالآخرة , مشركين يعدلون بربهم غيره . . فإن لنا أن نحاول الفهم . فتدبر حكمة الله في شرعه وحكمه أمر مطلوب من المسلم . .

إن الله قد حكم على المشرعين للناس من عند أنفسهم - مهما قالوا أنه من شرع الله - بأنهم يكذبون بآياته . لأن آياته - إن كان المراد بها آياته الكونية - كلها تشهد بأنه الخالق الرازق الواحد . . والخالق الرازق هو المالك . فيجب أن يكون وحده المتصرف الحاكم . فمن لم يفرد - سبحانه - بالحاكمية فقد كذب بآياته هذه . . وإن كان المقصود آياته القرآنية , فالنصوص فيها حاسمة وصریحة وواضحة في وجوب إفراده - سبحانه - بالحاكمية في حياة البشر الواقعية , واتخاذ شريعته وحدها قانونا , وتعبيد الناس له وحده بالشرع النافذ والحكم القاهر . .

كذلك حكم عليهم - سبحانه - بأنهم لا يؤمنون بالآخرة . . فالذي يؤمن بالآخرة , ويوقن أنه ملاق ربه يوم القيامة , لا يمكن أن يعتدي على ألوهية الله , ويدعي لنفسه حقه الذي يتفرد به . وهو حق الحاكمية المطلقة في حياة البشر . ممثلة هذه الحاكمية في قضائه وقدره , وفي شريعته وحكمه . .

ثم حكم عليهم في النهاية بأنهم بربهم يعدلون . . أي أنه حكم عليهم بالشرك الذي وصف به الكافرين . . ذلك أنهم لو كانوا موحدین ما شاركوا الله - سبحانه - في حق الحاكمية الذي تفرد به . أو ما قبلوا من عبد أن يدعيه ويزاوله وهم راضون !

هذه - فيما يبدو لنا - هي علة حكم الله على من يزاولون حق الحاكمية ويشرعون للناس ما لم يأذن به , بالتكذيب بآياته , وعدم الإيمان بالآخرة والشرك الذي يتحقق به الكفر . . أما الحكم ذاته فلا يملك "مسلم" أن يجادل فيه . فقد صدرت فيه كلمة الفصل التي لا معقب عليها . فلينظر كل "مسلم" كيف يتأدب أمام كلمة العزيز الحكيم . .

قُلْ تَعَالَوْا أَهْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَنْزُرُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151)

الدرس السابع: 151 - 153 أوصايا العشر وصرات الله المستقيم وبعد موقف الإشهاد ورفض ما يقررونه من المحرمات , يلقي إليهم بالمقررات الإلهية التي تتضمن ما حرمه الله حقاً . . وسنجد إلى جانب ما حرمه بعض التكاليف الإيجابية التي لها مقابل محرم . وهذه المحرمات تبدأ بالمحرم الأول . . وهو الشرك بالله . . لأن هذه هي القاعدة الأولى التي يجب أن تتقرر , لتقوم عليها المحرمات والنواهي , لمن استسلم لها وأسلم:

قل: تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم: ألا تشركوا به شيئاً . وبالوالدين إحسانا , ولا تقتلوا أولادكم من إملاق , نحن نرزقكم وإياهم . ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن . ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . . . ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . . . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن , حتى يبلغ أشده , وأوفوا الكيل والميزان بالقسط - لا تكلف نفسا إلا وسعها - وإذا قلتم فاعدلوا - ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا . . . ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه , ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . . . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون . . .

وننظر في هذه الوصايا - التي ترد في السياق بمناسبة الحديث عن تشريعات الأنعام والثمار وأوهام الجاهلية وتصوراتها وتصرفاتها - فإذا هي قوام هذا الدين كله . . . إنها قوام حياة الضمير بالتوحيد , وقوام حياة الأسرة بأجيالها المتتابعة , وقوام حياة المجتمع بالتكافل والطهارة فيما يجري فيه من معاملات , وقوام حياة الإنسانية وما يحوط الحقوق فيها من ضمانات , مرتبطة بعهد الله , كما أنها بدئت بتوحيد الله . . .

وننظر في ختام هذه الوصايا , فإذا الله - سبحانه وتعالى - يقرر أن هذا صراطه المستقيم ; وكل ما عداه سبل تتفرق بالناس عن سبيله الواصل . . . الوحيد . . .

إنه أمر هائل هذا الذي تتضمنه الآيات الثلاث . . . أمر هائل يجيء في أعقاب قضية تبدو كأنها لمحة جانبية من الجاهلية ; ولكنها في الحقيقة هي قضية هذا الدين الأساسية ; بدلالة ربطها بهذه الوصايا الهائلة الكلية . . .

(قل: تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم). . .

قل: تعالوا أقص عليكم ما حرمه عليكم ربكم - لا ما تدعون أنتم أنه حرمه بزعمكم - ! لقد حرمه عليكم (ربكم) الذي له وحده حق الربوبية - وهي القوامة والتربية والتوجيه والحاكمة - وإذن فهو اختصاصه , وموضع سلطانه . فالذي يحرم هو "الرب" والله هو وحده الذي يجب أن يكون ربا . . .

(ألا تشركوا به شيئاً). . .

القاعدة التي يقوم عليها بناء العقيدة ; وترجع إليها التكاليف والفرائض , وتستمد منها الحقوق والواجبات . . . القاعدة التي يجب أن تقوم أولاً قبل الدخول في الأوامر والنواهي ; وقبل الدخول في التكاليف والفرائض , وقبل الدخول في النظام والأوضاع ; وقبل الدخول في الشرائع والأحكام . . . يجب ابتداءً أن يعترف الناس بربوبية الله وحده لهم في حياتهم كما يعترفون بألوهيته وحده في عقيدتهم ; لا يشركون معه أحداً في ألوهيته , ولا يشركون معه أحداً في ربوبيته كذلك . يعترفون له وحده بأنه المتصرف في شؤون هذا الكون في عالم الأسباب والأقدار ; ويعترفون له وحده بأنه المتصرف في حسابهم وجزائهم يوم الدين ; ويعترفون له وحده بأنه هو المتصرف في شؤون العباد في عالم الحكم والشريعة كلها سواء . . .

إنها تنقية الضمير من أوشاب الشرك , وتنقية العقل من أوشاب الخرافة , وتنقية المجتمع من تقاليد الجاهلية , وتنقية الحياة من عبودية العباد للعباد . . .

إن الشرك - في كل صورته - هو المحرم الأول لأنه يجر إلى كل محرم . وهو المنكر الأول الذي يجب حشداً للإنكار كله له ; حتى يعترف الناس أن لا إله لهم إلا الله , ولا رب

لهم إلا الله , ولا حاكم لهم إلا الله , ولا مشرع لهم إلا الله . كما أنهم لا يتوجهون بالشعائر لغير الله . .

وإن التوحيد - على إطلاقه - لهو القاعدة الأولى التي لا يغني عنها شيء آخر , من عبادة أو خلق أو عمل . .

من أجل ذلك تبدأ الوصايا كلها بهذه القاعدة:

ألا تشركوا به شيئاً . .

وينبغي أن نلتفت إلى ما قبل هذه الوصايا , لنعلم ماذا يراد بالشرك الذي ينهى عنه في مقدمة الوصايا - لقد كان السياق كله بصدد قضية معينة - قضية التشريع ومزاولة حق الحاكمية في إصداره - وقبل آية واحدة كان موقف الإشهاد الذي يحسن أن نعيد نصه:

(قل: هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم . ولا تتبع أهواء الذين كذبوا باياتنا , والذين لا يؤمنون بالآخرة , وهم بربهم يعدلون) . .

يجب أن نذكر هذه الآية , وما قلناه عنها في الصفحات السابقة لنذكر ماذا يعني السياق القرآني هنا بالشرك الذي ينهى عنه ابتداءً . . إنه الشرك في الاعتقاد , كما أنه الشرك في الحاكمية . فالسياق حاضر , والمناسبة فيه حاضرة . .

ونحن نحتاج إلى هذا التذكير المستمر , لأن جهود الشياطين في زحزحة هذا الدين عن مفهوماته الأساسية , قد آتت ثمارها - مع الأسف - فجعلت مسألة الحاكمية تترجح عن مكان العقيدة , وتفصل في الحس عن أصلها الاعتقادي ! ومن ثم نجد حتى الغيورين على الإسلام , يتحدثون لتصحيح شعيرة تعبدية ; أو لاستنكار انحلال أخلاقي ; أو لمخالفة من المخالفات القانونية . ولكنهم لا يتحدثون عن أصل الحاكمية , وموقعها من العقيدة الإسلامية ! يستنكرون المنكرات الجانبية الفرعية , ولا يستنكرون المنكر الأكبر ; وهو قيام الحياة في غير التوحيد ; أي على غير أفراد الله - سبحانه - بالحاكمية . .

إن الله قبل أن يوصي الناس أي وصية , أوصاهم ألا يشركوا به شيئاً . في موضع من السياق القرآني يحدد المعنى بالشرك الذي تبدأ بالنهي عنه جميع الوصايا !

إنها القاعدة التي يرتبط على أساسها الفرد بالله على بصيرة , وترتبط بها الجماعة بالمعيار الثابت الذي ترجع إليه في كافة الروابط ; وبالقيم الأساسية التي تحكم الحياة البشرية . . فلا تظل نهبا لريح الشهوات والنزوات , واصطلاحات البشر التي تتراوح مع الشهوات والنزوات . .

(وبالوالدين إحسانا . ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) . .

إنها رابطة الأسرة بأجيالها المتلاحقة - تقوم بعد الرابطة في الله ووحدة الاتجاه - ولقد علم الله - سبحانه - أنه أرحم بالناس من الآباء والأبناء . فأوصى الأبناء بالآباء , وأوصى الآباء بالأبناء ; وربط الوصية بمعرفة ألوهيته الواحدة , والارتباط بربوبيته المتفردة . وقال لهم: إنه هو الذي يكفل لهم الرزق , فلا يضيعوا بالتبعات تجاه الوالدين في كبرتهما ; ولا تجاه الأولاد في ضعفهم , ولا يخافوا الفقر والحاجة فالله يرزقهم جميعاً . .

(ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) . .

ولما وصاهم الله بالأسرة , وصاهم بالقاعدة التي تقوم عليها - كما يقوم عليها المجتمع كله - وهي قاعدة النظافة والطهارة والعفة . فنهاهم عن الفواحش ظاهرها وخافيتها . . فهو نهى مرتبط تماماً بالوصية السابقة عليها . . وبالوصية الأولى التي تقوم عليها كافة الوصايا .

إنه لا يمكن قيام أسرة , ولا استقامة مجتمع , في وحل الفواحش ما ظهر منها وما بطن . . إنه لا بد من طهارة ونظافة وعفة لتقوم الأسرة وليقوم المجتمع . والذين يحبون أن تشيع الفاحشة هم الذين يحبون أن تنزع قوائم الأسرة وأن ينهار المجتمع .

والفواحش: كل ما أفحش - أي تجاوز الحد - وإن كانت أحياناً تخص بنوع منها هو فاحشة الزنا . ويغلب على الظن أن يكون هذا هو المعنى المراد في هذا الموضوع . لأن المجال مجال تعديد محرمات بذاتها , فتكون هذه واحدة منها بعينها . وإلا فقتل النفس فاحشة , وأكل مال اليتيم فاحشة , والشرك بالله فاحشة الفواحش . فتخصيص (الفواحش) هنا بفواحش الزنا أولى بطبيعة السياق . وصيغة الجمع , لأن هذه الجريمة ذات مقدمات وملابسات كلها فاحشة مثلها . فالتبرج , والتتهك , والاختلاط المثير , والكلمات والإشارات والحركات والضحكات الفاجرة , والإغراء والتزيين والاستثارة . . . كلها فواحش تحيط بالفاحشة الأخيرة . وكلها فواحش منها الظاهر ومنها الباطن . منها المستسر في الضمير ومنها البادي في الجوارح . منها المخبوء المستور ومنها المعلن المكشوف ! وكلها مما يحطم قوام الأسرة , وينخر في جسم الجماعة , فوق ما يُلطخ ضمائر الأفراد , ويحقر من اهتماماتهم , ومن ثم جاءت بعد الحديث عن الوالدين والأولاد .

ولأن هذه الفواحش ذات إغراء وجاذبية , كان التعبير: ولا تقربوا . . للنهي عن مجرد الاقتراب , سداً للذرائع , واتقاءً للجاذبية التي تضعف معها الإرادة . . لذلك حرمت النظرة الثانية - بعد الأولى غير المتعمدة - ولذلك كان الاختلاط ضرورة تتاح بقدر الضرورة . ولذلك كان التبرج - حتى بالتعطر في الطريق - حراماً , وكانت الحركات المثيرة , والضحكات المثيرة , والإشارات المثيرة , ممنوعة في الحياة الإسلامية النظيفة . . فهذا الدين لا يريد أن يعرض الناس للفتنة ثم يكلف أعصابهم عنقا في المقاومة ! فهو دين وقاية قبل أن يقيم الحدود , ويوقع العقوبات . وهو دين حماية للضمائر والمشاعر والحواس والجوارح . وربك أعلم بمن خلق , وهو اللطيف الخبير . .

وكذلك نعلم ما الذي يريده بهذا الدين , وبحياة المجتمع كله وبحياة الأسرة , من يزينون للناس الشهوات , ومن يطلقون الغرائر من عقالها بالكلمة والصورة والقصة والفيلم وبالمعسكر المختلط وبسائر أدوات التوجيه والإعلام !

(ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) . .

ويكثر في السياق القرآني مجيء النهي عن هذه المنكرات الثلاثة متتابعة: الشرك , والزنا , وقتل النفس . . ذلك أنها جرائم قتل في الحقيقة ! الجريمة الأولى جريمة قتل للفطرة ; والثانية جريمة قتل للجماعة , والثالثة جريمة قتل للنفس المفردة . . إن الفطرة التي لا تعيش علي التوحيد فطرة ميتة . والجماعة التي تشيع فيها الفاحشة جماعة ميتة , منتهية حتماً إلى الدمار . والحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية والحضارة الفارسية . شواهد من التاريخ . ومقدمات الدمار والانهار في الحضارة الغربية تنبىء بالمصير المرتقب للأمم ينخر فيها كل هذا الفساد . والمجتمع الذي تشيع

فيه المقاتل والثارات , مجتمع مهدد بالدمار . ومن ثم يجعل الإسلام عقوبة هذه الجرائم هي أقسى العقوبات , لأنه يريد حماية مجتمعه من عوامل الدمار .

ولقد سبق النهي عن قتل الأولاد من إملاق . فالآن ينهى عن قتل (النفس) عامة . فيوحي بأن كل قتل فردي إنما يقع علي جنس (النفس) في عمومه . تؤيد هذا الفهم آية: (. . .) أنه من قتل نفساً , بغير نفس أو فساد في الأرض , فكأنما قتل الناس جميعاً , ومن أحيائها فكأنما أحيانا الناس جميعاً) . فالاعتداء إنما يقع على حق الحياة ذاتها , وعلى النفس البشرية في عمومها . وعلى هذه القاعدة كفل الله حرمة النفس ابتداء . وهناك طمأنينة الجماعة المسلمة في دار الإسلام وأمنها , وانطلاق كل فرد فيها ليعمل وينتج أمناً على حياته , لا يُؤذى فيها إلا بالحق . والحق الذي تؤخذ به النفس بينه الله في شريعته , ولم يتركه للتقدير والتأويل . ولكنه لم يبينه ليصبح شريعة إلا بعد أن قامت الدولة المسلمة , وأصبح لها من السلطان ما يكفل لها تنفيذ الشريعة !

وهذه اللفتة لها قيمتها في تعريفنا بطبيعة منهج هذا الدين في النشأة والحركة . فحتى هذه القواعد الأساسية في حياة المجتمع , لم يفصلها القرآن إلا في مناسبتها العملية .

وقبل أن يمضي السياق في بيان المحرمات والتكاليف , يفصل بين هذا القسم والذي يليه بإبراز وصية الله وأمره وتوجيهه:

(ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون).

وهذا التعقيب يجيء وفق المنهج القرآني في ربط كل أمر وكل نهي بالله . تقريراً لوحدة السلطة التي تأمر وتنهى في الناس , وربطاً للأوامر والنواهي بهذه السلطة التي تجعل للأمر والنهي وزنه في ضمائر الناس !

كذلك تجيء فيه الإشارة إلى التعقل . فالعقل يقتضي أن تكون هذه السلطة وحدها هي التي تعبد الناس لشرعها . وقد سبق أنها سلطة الخالق الرازق المتصرف في حياة الناس !

وهذا وذلك فوق ما في الطائفة الأولى من التجانس . وما بين الطائفة الثانية كذلك من التجانس . فجعل هذه في آية , وتلك في آية , وبينهما هذا الإيقاع .

(ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده) . .

واليتيم ضعيف في الجماعة , بفقده الوالد الحامي والمربي . ومن ثم يقع ضعفه على الجماعة المسلمة - على أساس التكافل الاجتماعي الذي يجعله الإسلام قاعدة نظامه الاجتماعي - وكان اليتيم ضائعاً في المجتمع العربي في الجاهلية . وكثرة التوجيهات الواردة في القرآن وتنوعها وعنفتها أحياناً تشي بما كان فاشياً في ذلك المجتمع من ضيعة اليتيم فيه ; حتى انتدب الله يتيماً كريماً فيه ; فعهد إليه بأشرف مهمة في الوجود . حين عهد إليه بالرسالة إلى الناس كافة , وجعل من آداب هذا الدين الذي بعثه به رعاية اليتيم وكفالاته على النحو الذي نرى منه هذا التوجيه:

(ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده).

فعلى من يتولى اليتيم ألا يقرب ماله إلا بالطريقة التي هي أحسن لليتيم . فيصونه وينميه , حتى يسلمه له كاملاً نامياً عند بلوغه أشده . أي اشتداد قوته الجسمية والعقلية . ليحمي ماله , ويحسن القيام عليه . وبذلك .

وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152)

تكون الجماعة قد أضافت إليها عضواً نافعاً ; وسلمته حقه كاملاً .

وهناك خلاف فقهي حول سن الرشد أو بلوغ الأشد . . عند عبد الرحمن بن زيد وعند مالك , بلوغ الحلم . وعند أبي حنيفة خمسة وعشرون عاماً . وعند السدي ثلاثون , وعند أهل المدينة بلوغ الحلم وظهور الرشد معاً بدون تحديد .

(وأوفوا الكيل والميزان بالقسط - لا تكلف نفساً إلا وسعها -).

وهذه في المبادلات التجارية بين الناس في حدود طاقة التحري والإنصاف . والسياق يربطها بالعقيدة ; لأن المعاملات في هذا الدين وثيقة الارتباط بالعقيدة . والذي يوصي بها وبأمر هو الله . ومن هنا ترتبط بقضية الألوهية والعبودية , وتذكر في هذا المعرض الذي يبرز فيه شأن العقيدة , وعلاقتها بكل جوانب الحياة . .

ولقد كانت الجاهليات - كما هي اليوم - تفصل بين العقيدة والعبادات , وبين الشرائع والمعاملات . . من ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن قوم شعيب: (قالوا: يا شعيب أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء)؟! .

ومن ثم يربط السياق القرآني بين قواعد التعامل في المال والتجارة والبيع والشراء , وبين هذا المعرض الخاص بالعقيدة , للدلالة على طبيعة هذا الدين , وتسويته بين العقيدة والشريعة , وبين العبادة والمعاملة , في أنها كلها من مقومات هذا الدين , المرتبطة كلها في كيانه الأصيل .

(وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قرى). . .

وهنا يرتفع الإسلام بالضمير البشري - وقد ربطه بالله ابتداء - إلى مستوى سامق رفيع , على هدى من العقيدة في الله ومراقبته . . فهنا مزلة من مزلات الضعف البشري . الضعف الذي يجعل شعور الفرد بالقرابة هو شعور التناصر والتكامل والامتداد ; بما أنه ضعيف ناقص محدود الأجل ; وفي قوة القرابة سند لضعفه ; وفي سعة رقعتها كمال لوجوده , وفي امتدادها جيلاً بعد جيل ضمان لامتداده ! ومن ثم يجعله ضعيفاً تجاه قرابته حين يقف موقف الشهادة لهم أو عليهم , أو القضاء بينهم وبين الناس . . وهنا في هذه المزلة يأخذ الإسلام بيد الضمير البشري ليقول كلمة الحق والعدل , على هدى من الاعتصام بالله وحده , ومراقبة الله وحده , اكتفاء به من مناصرة ذوي القرى , وتقوى له من الوفاء بحق القرابة دون حقه ; وهو - سبحانه - أقرب إلى المرء من حبل الوريد . . .

لذلك يعقب على هذا الأمر - وعلى الوصايا التي قبله - مذكراً بعهد الله:

(وبعهد الله أوفوا) . .

ومن عهد الله قولة الحق والعدل ولو كان ذا قرى . ومن عهد الله توفية الكيل والميزان بالقسط . ومن عهد الله ألا يقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن . ومن عهد الله حرمة النفس إلا بالحق . . وقبل ذلك كله . . من عهد الله ألا يشركوا به شيئاً . فهذا هو العهد الأكبر , المأخوذ على فطرة البشر , بحكم خلقتها متصلة بمبدعها , شاعرة بوجوده في النواميس التي تحكمها من داخلها كما تحكم الكون من حولها .

ثم يجيء التعقيب القرآني في موضعه بعد التكاليف:

(ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) . .

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)

والذكر ضد الغفلة . والقلب الذاكر غير الغافل , وهو يذكر عهد الله كله , ويذكر وصاياه المرتبطة بهذا العهد ولا ينساها .

. . . هذه القواعد الأساسية الواضحة التي تكاد تلخص العقيدة الإسلامية وشريعتها الاجتماعية مبدوءة بتوحيد الله ومختومة بعهد الله , وما سبقها من حديث الحاكمية والتشريع . . . هذه هي صراط الله المستقيم . . صراطه الذي ليس وراءه إلا السبل المتفرقة عن السبيل:

(وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه , ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) . .

وهكذا يختم القطاع الطويل من السورة الذي بدأ بقوله تعالى:

(أفغير الله أتبغي حكماً , وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً) . .

وانتهى هذه النهاية , بهذا الإيقاع العريض العميق . .

وضم بين المطلع والختام قضية الحاكمية والتشريع , كما تبدو في مسألة الزروع والأنعام , والذبائح والندور , إلى كل القضايا العقيدية الأساسية , ليدل على أنها من هذه القضايا . التي أفرد لها السياق القرآني كل هذه المساحة ; وربطها بكل محتويات السورة السابقة التي تتحدث عن العقيدة في محيطها الشامل ; وتتناول قضية الألوهية والعبودية ذلك التناول الفريد .

إنه صراط واحد - صراط الله - وسبيل واحدة تؤدي إلى الله . . أن يفرد الناس الله - سبحانه - بالربوبية , ويدنوا له وحده بالعبودية ; وأن يعلموا أن الحاكمية لله وحده ; وأن يدنوا لهذه الحاكمية في حياتهم الواقعية . .

هذا هو صراط الله ; وهذا هو سبيله . . وليس وراءه إلا السبل التي تتفرق بمن يسلكونها عن سبيله .

(ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) . .

فالتقوى هي مناط الاعتقاد والعمل . والتقوى هي التي تفيء بالقلوب إلى السبيل . .

الوحدة السابعة عشرة: 154 - 165 الموضوع: تقرير حقائق إعتقادية حول الربوبية والحاكمية والرسالة والبعث

مقدمة الوحدة

لم ينقطع تدفق السياق في الموضوع الأساسي الذي يعالجه شطر السورة الأخير - وهو موضوع الحاكمية والتشريع وعلاقتها بالدين والعقيدة - وهذا الشوط الجديد هو امتداد في العرض , وامتداد في الحشد , لتقرير هذه الحقيقة .

وهو يتحدث عن المبادئ الأساسية في العقيدة - بصدد التشريع والحاكمية - كما كان الشطر الأول من السورة يتحدث عن هذه المبادئ في صدق قضية الدين والعقيدة . ذلك ليقرر أن قضية التشريع والحاكمية هي كذلك قضية الدين والعقيدة . وعلى ذات المستوى الذي يعرض به المنهج القرآني هذه الحقيقة . ومما يلاحظ أن السياق يستخدم في شطر السورة الثاني ذات المؤثرات والموحيات والمشاهد والتعبيرات التي حشدها في الشطر الأول منها:

يتحدث عن الكتب والرسول والوحي والآيات التي يطلبونها .

ويتحدث عن الدمار والهلاك الذي يعقب وقوع الآيات والتكذيب بها .

ويتحدث عن الآخرة وقواعد الدينونة والجزاء فيها .

ويتحدث عن المفاصلة بين الرسول [ص] وقومه الذين يعدلون بربهم ويتخذون من دونه أربابا يشرعون لهم . ويوجه الرسول [ص] إلى إعلان حقيقة دينه جلية واضحة حاسمة .

ويتحدث عن الربوبية الواحدة للعالمين جميعاً , والتي لا يجوز أن يتخذ المؤمن من دونها ربوبية أخرى .

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّاهُمْ يَلْقَاءَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ (154) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (155)

ويتحدث عن ملكية رب العالمين لكل شيء , وتصريفها لكل شيء , وعن استخلاف الله للناس كيف شاء , وقدرته على الذهاب بمن يشاء منهم عندما يشاء .

وهذه هي ذاتها القضايا والحقائق , والمؤثرات والموحيات التي حشدها في أول السورة عند عرض حقيقة العقيدة في محيطها الشامل . محيط الألوهية والعبودية وما بينهما من علائق . . ولا ريب أن لهذا دلالاته التي لا تخفى على من يتعامل مع القرآن الكريم ومع المنهج القرآني .

يبدأ هذا المقطع الأخير في هذا الشطر من السورة بالحديث عن كتاب موسى . . وذلك تكملة للحديث السابق عن صراط الله المستقيم: (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) للإيحاء بأن هذا الصراط ممتد من قبل في رسالات الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وشرائعهم . وأقرب شريعة كانت هي شريعة موسى عليه السلام ; وقد أعطاه الله كتاباً فصل فيه كل شيء , وجعله هدى ورحمة لعل قومه يؤمنون بلقاء الله في الآخرة:(ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن , وتفصيلاً لكل شيء , وهدى ورحمة , لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون).

ويستمر فيذكر الكتاب الجديد المبارك , الملتحم بالكتاب الذي أنزل على موسى , المتضمن للعقيدة وللشريعة المطلوب اتباعها والتقوى فيها , رجاء أن ينال الناس - حين يتبعونها - رحمة الله في الدنيا والآخرة:(وهذا كتاب أنزلناه مبارك , فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) . .

ولقد نزل هذا الكتاب قطعاً لحجة العرب , كي لا يقولوا: إنه لم ينزل علينا كتاب كالذي تنزل على اليهود والنصارى ; ولو قد أوتينا الكتاب مثلما أوتوا لكننا أهدى منهم , فما هو ذا كتاب ينزل عليهم , ويقطع هذه الحجة عليهم , فيستحق الذين يكذبون العذاب الأليم: (أن تقولوا: إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا . وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا: لو أنا أنزل علينا الكتاب لكننا أهدى منهم . . فقد جاءكم بينة من ربكم , وهدى ورحمة , فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدق عنها ? سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون) . .

لقد انقطعت المحجة بنزول هذا الكتاب ; ولكنهم ما يزالون يشركون بالله ; ويشرعون من عند أنفسهم ويزعمونه شريعة الله , بينما كتاب الله قائم وليس فيه هذا الذي يفترونه . وما يزالون يطلبون الآيات والخوارق ليصدقوا بهذا الكتاب ويتبعوه . ولو جاءتهم الآيات التي يطلبون أو بعضها لكان فيها القضاء الأخير:(هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ? يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل , أو كسبت في إيمانها خيراً . قل: انتظروا إنا منتظرون).

وعند هذا الحد يفصل الله - سبحانه - بين بينه [ص] وسائر الملل المتفرقة التي لا تقوم على توحيد الله عقيدة وشريعة . ويقرر أن أمرهم إليه - سبحانه وتعالى - وأنه هو محاسبهم ومجازيهم وفق عدله ورحمته:(إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله , ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون . من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها , ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون).

وهنا يجيء الإيقاع الأخير في هذا القطاع - وهو الإيقاع الأخير في السورة - في تسيحة ندية رحية , حازمة كذلك حاسمة , تلخص أعماق الحقائق العقيدية في هذا الدين:التوحيد المطلق , والعبودية الخالصة ,وجدية الآخرة , وفردية التبعة والابتلاء في دار الدنيا . وسلطان الله المتمثل في ربوبيته لكل شيء ; وفي استخلافه للعباد في ملكه كيف شاء بلا شريك ولا معقب . . كما ترسم تلك التسيحة المدينة صورة باهرة لحقيقة الألوهية , وهي تتجلى في أخلص قلب , وأصفى قلب , وأطهر قلب . . قلب رسول الله [ص] . . وذلك في مستوى من التجلي لا يصوره إلى التعبير القرآني ذاته: قل:إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم . ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً , وما كان من المشركين . قل:إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل:أغیر الله أبغى رباً وهو رب كل شيء , ولا تكسب كل نفس إلا عليها , ولا تزر وازرة وزر أخرى ; ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم

فيه تختلفون . وهو الذي جعلكم خلائف الأرض , ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم في ما آتاكم , إن ربك سريع العقاب , وإنه لغفور رحيم . .

ونكتفي هنا بهذا القدر من الحديث المجمل , لنأخذ في مواجهة النصوص بالتفصيل:

الدرس الأول: 154 - 158 وحدة الرسائل وحكمتها ومجيء القيامة

(ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن , وتفصيلاً لكل شيء , وهدى ورحمة لعلمهم بلقاء ربهم يؤمنون). .

هذا الكلام معطوف بثم على ما قبله . . وتأويله: (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً . .) (وأن هذا صراطي مستقيماً). . معطوفة على جملة: ألا تشركوا . . (ثم آتينا موسى الكتاب . .) معطوف عليهما كذلك باعتباره من القول الذي دعاهم ليقوله لهم [ص] فالسياق مطرد كما أسلفنا .

وقوله (تماماً على الذي أحسن). . تأويله - كما اختار ابن جرير -: 3 آتينا موسى التوراة تماماً لنعمنا عنده , وأيادينا قبله , تتم به كرامتنا عليه , على إحسانه وطاعته ربه , وقيامه بما كلفه من شرائع دينه , وتبييننا لكل ما بقومه وأتباعه إليه الحاجة من أمر دينهم . .

وقوله: وتفصيلاً لكل شيء . . كما قال قتادة: فيه حلاله وحرامه .

وهدى ورحمة لعل قومه يهتدون ويؤمنون بلقاء ربهم فيرحمهم من عذابه . .

. . هذا الغرض الذي من أجله آتينا موسى الكتاب , جاء من أجله كتابكم , لعلكم تتالون به الهدى والرحمة:

(وهذا كتاب أنزلناه مبارك , فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون). .

وإنه لكتاب مبارك حقاً - كما فسرنا ذلك من قبل عند ورود هذا النص في السورة أول مرة: 6 ذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه , ولتنذر أم القرى ومن حولها , والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به , وهم على صلاتهم يحافظون . . [الآية: 92] . . وكان ذكر هذا الكتاب هناك بمناسبة الحديث عن العقيدة في مجالها الشامل ; وهو هنا يذكر بمناسبة الحديث عن الشريعة بنص مقارب ! ويؤمنون باتباعه ; وتناط رحمتهم من الله بهذا الاتباع . والكلام هنا بجملته في معرض الشريعة , بعد ما تناولته أوائل السورة في معرض العقيدة .

أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (156)
أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى
وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ آيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا
سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (157)

وقد بطلت حجتكم , وسقطت معذرتكم , بتنزيل هذا الكتاب المبارك إليكم , تفصيلاً لكل شيء . بحيث لا تحتاجون إلى مرجع آخر وراءه ; وبحيث لا يبقى جانب من جوانب الحياة لم يتناوله فتحتاجون أن تشرعوا له من عند أنفسكم :

أن تقولوا: إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا . وإن كنا عن 3 دراستهم لغافلين . أو تقولوا: لو أنا أنزل علينا الكتاب لكننا أهدى منهم . فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة . فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ? سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون . .

لقد شاء الله سبحانه أن يرسل كل رسول إلى قومه بلسانهم . . حتى إذا كانت الرسالة الأخيرة أرسل الله محمداً خاتم النبيين للناس كافة . فهو آخر رسول من الله للبشر , فناسب أن يكون رسولاً إليهم أجمعين .

والله - سبحانه - يقطع الحجة على العرب أن يقولوا: إن كلا من موسى وعيسى إنما أرسلنا إلى قومهما . ونحن كنا غافلين عن دراستهم لكتابهم , لا علم لنا به ولا اهتمام . ولو جاء إلينا كتاب بلغتنا , يخاطبنا وينذرنا لكننا أهدى من أهل الكتاب . . فقد جاءهم هذا الكتاب وجاءهم رسول منهم - وإن كان رسولاً للناس أجمعين - وجاءهم بكتاب هو بينة في ذاته على صدقه . وهو يحمل إليهم حقائق بينة كذلك لا لبس فيها ولا غموض . وهو هدى لما هم فيه من ضلالة , ورحمة لهم في الدنيا والآخرة . .

فإذا كان ذلك كذلك , فمن أشد ظلماً ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها وهي تدعوه إلى الهدى والصلاح والفلاح ? من أشد ظلماً لنفسه وللناس بصدده لنفسه وللناس عن هذا الخير العظيم , وبإفساده في الأرض بتصورات الجاهلية وتشريعاتها . . إن الذين يعرضون عن هذا الحق في طبعهم أفة تميلهم عنه ; كالأفة التي تكون في خف البعير فتجعله يصدف - أي يميل - بجسمه ولا يستقيم ! إنهم (يصدفون) عن الحق والاستقامة , كما يصدف البعير المريض عن الاعتدال والاستقامة ! وهم مستحقون سوء العذاب بصدوفهم هذا وميلهم :

(سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون) . .

إن التعبير القرآني يستخدم مثل هذا اللفظ , المنقول في اللغة من حالة حسية إلى حالة معنوية ليستصحب في الحس أصل المعنى . . فيستخدم هنا لفظ " يصدف " وقد عرفنا أنه من صدف البعير إذا مال بخفه ولم يعتدل لمرض فيه ! كذلك يستخدم لفظ (يصعر خده) وهو مأخوذ من داء الصَّعْر الذي يصيب الإبل - كما يصيب الناس - فتعرض صفحة خدها , اضطراراً , ولا تملك أن تحرك عنقها يبسر , ومثله استخدام لفظ (حبطت أعمالهم) . . من حبطت الناقة إذا رعت نباتاً مسموماً فانتفخ بطنها ثم ماتت ! ومثلها كثير . .

ويمضي في هذا التهديد خطوة أخرى , للرد على ما كانوا يطلبونه من الآيات والخوارق حتى يصدقوا بهذا الكتاب . . وقد مضى مثل ذلك التهديد في أوائل السورة عند ما كانت المناسبة هناك مناسبة التكذيب بحقيقة الاعتقاد . وهو يتكرر هنا , والمناسبة الحاضرة هي مناسبة الإعراض عن الاتباع والتقيد بشريعة الله: فقد جاء في أول السورة: (وقالوا: لو أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا يُنظرون) . . وجاء هنا في آخرها:

(هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك ، أو يأتي بعض آيات ربك ؟ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً:قل:انتظروا إنا منتظرون). .

إنه التهديد الواضح الحاسم . فقد مضت سنة الله بأن يكون عذاب الاستئصال حتماً إذا جاءت الخارقة

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (158)

ثم لم يؤمن بها المكذبون . . والله سبحانه يقول لهم: إن ما طلبوه من الخوارق لو جاءهم بعضه لقضي عليهم بعده . . وإنه يوم تأتي بعض آيات الله تكون الخاتمة التي لا ينفع بعدها إيمان ولا عمل . . لنفس لم تؤمن من قبل ، ولم تكسب عملاً صالحاً في إيمانها . فالعمل الصالح هو دائماً قرين الإيمان وترجمته في ميزان الإسلام .

ولقد ورد في روايات متعددة أن المقصود بقوله تعالى: (يوم يأتي بعض آيات ربك) هو أشرط الساعة وعلاماتها ، التي لا ينفع بعدها إيمان ولا عمل . وعدوا من ذلك أشرطاً بعينها . . ولكن تأويل الآية على وفق السنة الجارية في هذه الحياة أولى . فقد سبق مثله في أول السورة ، وهو قوله تعالى: (وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون). . والملاحظ أن السياق يكرر وهو بصدد الكلام عن الشريعة والحاكمية ، ما جاء مثله من قبل وهو بصدد الكلام عن الإيمان والعقيدة ، وأن هذا ملحوظ ومقصود ، لتقرير حقيقة بعينها . فأولى أن نحمل هذا الذي في آخر السورة على ما جاء من مثله في أولها من تقرير سنة الله الجارية . وهو كاف في التأويل ، بدون الالتجاء إلى الإحالة على ذلك الغيب المجهول . .

الدرس الثاني: 159 - 160 ذم أهل الفرق لتفرقهم وقاعدة الحساب

بعد ذلك يلتفت السياق إلى رسول الله [ص] ليفرده وحده بدينه وشريعته ومنهجه وطريقه عن كل الملل والنحل والشيع القائمة في الأرض - بما فيها ملة المشركين العرب :-

(إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء . إنما أمرهم إلى الله ، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون). .

إنه مفرق الطريق بين الرسول [ص] ودينه وشريعته ومنهجه كله وبين سائر الملل والنحل . . سواء من المشركين الذين كانت تمزقهم أهام الجاهلية وتقاليدها وعاداتها وثاراتها ، شيعاً وفرقاً وقبائل وعشائر وبطوناً . أو من اليهود والنصارى ممن قسمتهم الخلافات المذهبية مللاً ونحلاً ومعسكرات ودولاً . أو من غيرهم مما كان وما سيكون من مذاهب ونظريات وتصورات ومعتقدات وأوضاع وأنظمة إلى يوم الدين .

إن رسول الله [ص] ليس من هؤلاء كلهم في شيء . . إن دينه هو الإسلام وشريعته هي التي في كتاب الله ؛ ومنهجه هو منهجه المستقل المتفرد المتميز . . وما يمكن أن يختلط هذا الدين بغيره من المعتقدات والتصورات ؛ ولا أن تختلط شريعته ونظامه بغيره

من المذاهب والأوضاع والنظريات . . وما يمكن أن يكون هناك وصفان اثنان لأي شريعة أو أي وضع أو أي نظام . . إسلامي . . وشيء آخر . . !!! إن الإسلام إسلام فحسب . والشريعة الإسلامية شريعة إسلامية فحسب . والنظام الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي الإسلامي إسلامي فحسب . . ورسول الله [ص] ليس في شيء على الإطلاق من هذا كله إلى آخر الزمان !

إن الوقفة الأولى للمسلم أمام أية عقيدة ليست هي الإسلام هي وقفة المفارقة والرفض منذ اللحظة الأولى . وكذلك وقفته أمام أي شرع أو نظام أو وضع ليست الحاكمية فيه لله وحده - وبالتعبير الآخر: ليست الألوهية والربوبية فيه لله وحده - إنها وقفة الرفض والتبرؤ منذ اللحظة الأولى . . قبل الدخول في أية محاولة للبحث عن مشابهاة أو مخالفات بين شيء من هذا كله وبين ما في الإسلام !

إن الدين عند الله الإسلام . . ورسول الله [ص] ليس في شيء ممن فرقوا الدين فلم يلتقوا فيه على الإسلام .

إِنَّ الَّذِينَ قَرَّضُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعَاً لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (159) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِنْهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (160) قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162)

وإن الدين عند الله هو المنهج والشرع . . ورسول الله [ص] ليس في شيء ممن يتخذون غير منهج الله منهجا , وغير شريعة الله شرعا . .

الأمر هكذا جملة . وللنظرة الأولى . بدون دخول في التفاصيل !

وأمر هؤلاء الذين فرقوا دينهم شيعا , وبرئ منهم رسول الله [ص] بحكم من الله تعالى . . أمرهم بعد ذلك إلى الله ; وهو محاسبهم على ما كانوا يفعلون:

(إنما أمرهم إلى الله , ثم ينبتهم بما كانوا يفعلون).

وبمناسبة الحساب والجزاء قرر الله سبحانه ما كتبه على نفسه من الرحمة في حساب عباده . فجعل لمن جاء بالحسنة وهو مؤمن - فليس مع الكفر من حسنة ! - فله عشر أمثالها . ومن جاء بالسئنة فلا يجزى إلا مثلها ; لا يظلم ريبك أحدا ولا يبخره حقه:

(من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها . ومن جاء بالسئنة فلا يجزى إلا مثلها . وهم لا يظلمون).

الدرس الثالث: 161 - 165 خاتمة السورة والإستسلام لله

وفي ختام السورة - وختام الحديث الطويل عن قضية التشريع والحاكمية - تجيء التسيحة الندية الرخية , في إيقاع حبيب إلى النفس قريب ; وفي تقرير كذلك حاسم فاصل . . ويتكرر الإيقاع الموحى في كل آية: (قل). (قل). (قل). (قل). . . ويلمس في كل آية أعماق القلب البشري لمساة دقيقة عميقة في مكان التوحيد . . توحيد الصراط والملة

. توحيد المتجه والحركة . توحيد الإله والرب . توحيد العبودية والعبادة . . مع نظرة شاملة إلى الوجود كله وسنته ومقوماته .

قل: إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له , وبذلك أمرت , وأنا أول المسلمين . قل: أغير الله أبغي ربا , وهو رب كل شيء , ولا تكسب كل نفس إلا عليها , ولا تزرر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم , فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وهو الذي جعلكم خلائف الأرض , ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم فيما أتاكم . إن ربك سريع العقاب , وإنه لغفور رحيم . .

هذا التعقيب كله , الذي يؤلف مع مطلع السورة لحناً رائعاً باهراً متناسقاً , هو تعقيب ينتهي به الحديث عن قضية الذبائح والندور والثمار , وما تزعمه الجاهلية بشأنها من شرايع , تزعم أنها من شرع الله افتراء على الله . . فآية دلالة يعطيها هذا التعقيب ? إنها دلالة لا تحتاج بعد ما سبق من البيان إلى مزيد . .

قل: إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم . ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) . .

إنه الإعلان الذي يوحى بالشكر , وبشيء بالثقة , وبفيض باليقين . . اليقين في بناء العبادة اللفظي ودلالاتها المعنوية , والثقة بالصلة الهادية . . صلة الربوبية الموجهة المهيمنة الراقية . . والشكر على الهداية إلى الصراط المستقيم , الذي لا التواء فيه ولا عوج: (دينا قيماً) . . وهو دين الله القديم منذ إبراهيم . أبي هذه الأمة المسلمة المبارك المخلص المنيب: (ملة إبراهيم حنيفاً , وما كان من المشركين).

قل: إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له . وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) . .

إنه التجرد الكامل لله , بكل خالجة في القلب وبكل حركة في الحياة . بالصلاة والاعتكاف . وبالمحيا والممات . وبالشعائر التعبدية , وبالحياة الواقعية , وبالممات وما وراءه .

لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (164) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (165)

إنها تسيحة "التوحيد" المطلق , والعبودية الكاملة , تجمع الصلاة والاعتكاف والمحيا والممات , وتخلصها لله وحده . لله (رب العالمين) . . القوام المهيمن المتصرف المربي الموجه الحاكم للعالمين . . في "إسلام" كامل لا يستبقي في النفس ولا في الحياة بقية لا يعبدها لله , ولا يحتجز دونه شيئاً في الضمير ولا في الواقع . . (وبذلك أمرت) . . فسمعت وأطعت: (وأنا أول المسلمين).

قل: أغير الله أبغي ربا , وهو رب كل شيء , ولا تكسب كل نفس إلا عليها , ولا تزرر وازرة وزر أخرى , ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون (?). .

كلمة تتقصى السماوات والأرض وما فيهن ومن فيهن ; وتشتمل كل مخلوق مما يعلم الإنسان ومما يجهل ; وتجمع كل حادث وكل كائن في السر والعلانية . ثم تظللها كلها برؤية الله الشاملة لكل كائن في هذا الكون الهائل ; وتعبدتها كلها لحاكمية الله المطلقة عقيدة وعبادة وشريعة .

ثم تعجب في استنكار:

(أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء؟)

أغير الله أبغي ربا يحكمني ويصرف أمري ويهيمن علي ويقومني ويوجهني ? وأنا مأخوذ بنيتي وعملي , محاسب على ما أكسبه من طاعة ومعصية ?

أغير الله أبغي ربا . وهذا الكون كله في قبضته ; وأنا وأنتم في ربوبيته ?

أغير الله أبغي ربا وكل فرد مجزي بذنبه لا يحمله عنه غيره ? (ولا تكسب كل نفس إلا عليها , ولا تزر وازرة وزر أخرى ?) .

أغير الله أبغي ربا وإليه مرجعكم جميعاً فيحاسبكم على ما كنتم تختلفون فيه ?

أغير الله أبغي ربا , وهو الذي استخلف الناس في الأرض , ورفع بعضهم فوق بعض درجات في العقل والجسم والرزق ; ليبثهم أيشكرون أم يكفرون ?

أغير الله أبغي ربا , وهو سريع العقاب , غفور رحيم لمن تاب ?

أغير الله أبغي ربا , فأجعل شرعه شرعاً , وأمره أمراً , وحكمه حكماً . وهذه الدلائل والموجيات كلها حاضرة ; وكلها شاهدة ; وكلها هادية إلى أن الله وحده هو الرب الواحد المتفرد ? ? ?

إنها تسيحة التوحيد الرخية الندية ; يتجلى من خلالها ذلك المشهد الباهر الرائع . مشهد الحقيقة الإيمانية , كما هي في قلب رسول الله [ص] وهو مشهد لا يعبر عن روعته وبهائه إلا التعبير القرآني الفريد . .

إنه الإيقاع الأخير في السياق الذي استهدف قضية الحاكمية والشريعة ; يجيء متناسقاً مع الإيقاعات الأولى في السورة , تلك التي استهدفت قضية العقيدة والإيمان ; من ذلك قوله تعالى: (قل: أغير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض , وهو يطعم ولا يطعم ? قل: إنني أمرت أن أكون أول من أسلم , ولا تكونن من المشركين . قل: إنني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه , وذلك الفوز المبين) . . وغيرها في السورة كثير . .

خاتمة تفسير سورة الأنعام

ولا نحتاج أن نكرر ما قلناه مراراً من دلالة هذه المثاني التي تردد في المطالع والختام . فهي صور متنوعة للحقيقة الواحدة . . الحقيقة التي تبدو مرة في صورة عقيدة في الضمير . وتبدو مرة في صورة منهج للحياة . . وكلتا صورتين تعنيان حقيقة واحدة في مفهوم هذا الدين . .

ولكننا نتلفت الآن - وقد انتهى سياق السورة - على المدى المتطاوّل , والمساحة الشاسعة , والأغوار البعيدة . . تلك التي تتراءى فيها أبعاد السورة - ما سبق منها في الجزء السابع وما نواجهه منها في هذا الجزء - فإذا هو شيء هائل هائل . . وننظر إلى حجم السورة , فإذا هي كذا صفحة , وكذا آية , وكذا عبارة . . ولو كان هذا في كلام البشر ما اتسعت هذه الرقعة لعشر معشار هذا الحشد من الحقائق والمشاهد والمؤثرات والموجيات ; في مثل هذه المساحة المحدودة ! . . وذلك فضلاً على المستوى المعجز الذي تبلغه هذه الحقائق بذاتها , والذي يبلغه التعبير عنها كذلك . .

ألا إنها رحلة شاسعة الآماد , عميقة الأغوار , هائلة الأبعاد هذه التي قطعناها مع السورة . . رحلة مع حقائق الوجود الكبيرة . . رحلة تكفي وحدها لتحصيل "مقومات التصور الإسلامي" !

حقيقة الألوهية بروعتها وبهائها وجلالها وجمالها . .

وحقيقة الكون والحياة وما وراء الكون والحياة من غيب مكنون , ومن قدر مجهول , ومن مشيئة تمحو وتثبت , وتنشئ وتعدم , وتحيي وتميت , وتحرك الكون والأحياء والناس كما تشاء .

وحقيقة النفس الإنسانية , بأغوارها وأعماقها , ودروبها ومنحنياتها , وظاهرها وخافيتها , وأهوائها وشهواتها , وهداها وضلالها , وما يوسوس لها من شياطين الإنس والجن . وما يقود خطواتها من هدى أو ضلال . .

ومشاهد قيامة , ومواقف حشر , ولحظات كربة وضيق , ولحظات أمل واستبشار . ولقطات من تاريخ الإنسان في الأرض ; ولقطات من تاريخ الكون والحياة .

وحشود وحشود من هذه المجالي التي لا نملك تلخيصها في هذه العجالة . والتي لا تعبر عنها إلا السورة نفسها , في سياقها الفريد , وفي أدائها العجيب .

إنه الكتاب "المبارك" . . وهذه - بلا شك - واحدة من بركاته الكثيرة . . والحمد لله رب العالمين . .